شــرح

أصول الإيمان

الطبعة الأولى لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٩٢٨ / ٢٠١٠م



٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال: ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

WWW. DarAlemamAhmad.Com

سِلسِلَة شَرح الرَّسَائِل

شرح
أصول الإيمان

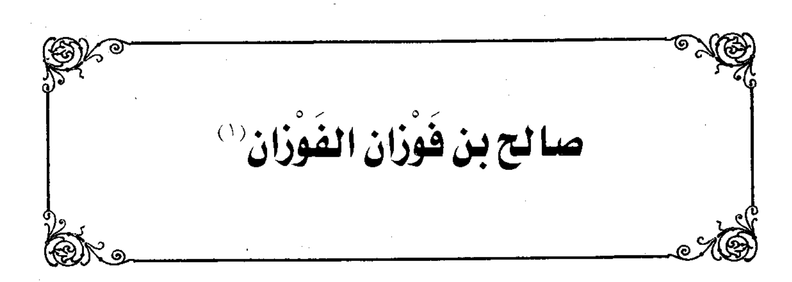
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شَرح
معالي الشَّيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها
عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم



صالح بن فَوْزان الفَوْزان(١)

* نسبه:

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبد الله، من آل فوزان، من أهل الشماسية الوداعين، من قبيلة الدواسر.

* نشأته ودراسته:

وُلد عام ١٣٥٤هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربَّىٰ في أسرته، وتعلَّم القرآن الكريم، وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة علىٰ يد إمام مسجد البلد -وكان قارئًا متقنًا- وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولىٰ القضاء أخيرًا في بلدة ضرية في منطقة القصيم.

ثم التحق بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية عام ١٣٦٩هـ، وأكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ، وتعيَّن مدرِّسًا في الابتدائي، ثم التحق بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحه عام ١٣٧٣هـ، وتخرَّج منه عام ١٣٧٧هـ، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرَّج منها عام ١٣٨١هـ، ثم نال درجة الماجستير في الفقه، ثم درجة الدكتوراه من هذه الكلية في تخصص الفقه أيضًا.

---

(١) كتب الترجمة: عبد العزيز بن عبد الكريم العيسي.

* أعماله الوظيفية:

بعد تخرجه من كلية الشريعة عُيِّن مدرسًا في المعهد العلمي في الرياض، ثم نُقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نُقل للتدريس في الدراسات العليا بكلية أصول الدين، ثم في المعهد العالي للقضاء، ثم عُيِّن مديرًا للمعهد العالي للقضاء، ثم عاد للتدريس فيه بعد انتهاء مدة الإدارة، ثم نُقل عضوًا في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال علىٰ رأس العمل.

* أعماله الأخرىٰ:

فضيلة الشيخ عضو في هيئة كبار العلماء، وعضو في المجمع الفقهي بمكة المكرمة التابع للرابطة، وعضو في لجنة الإشراف علىٰ الدعاة في الحج، إلىٰ جانب عمله عضوًا في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وإمامًا وخطيبًا ومدرسًا في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود في الملز، ويشارك في الإجابة في برنامج (نور علىٰ الدرب) في الإذاعة، كما أن لفضيلته مشاركاتٍ منتظمة في المجلات العلمية علىٰ هيئة بحوث ودراسات ورسائل وفتاوىٰ، جُمع وطُبع بعضها، كما أن فضيلته يشرف علىٰ الكثير من الرسائل العلمية في درجتي الماجستير والدكتوراه، وتتلمذ علىٰ يديه العديد من طلبة العلم الذين يرتادون مجالسه ودروسه العلمية المستمرة.

* مشايخه:

تتلمذ فضيلة الشيخ علىٰ أيدي عدد من العلماء والفقهاء البارزين، ومن أشهرهم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وسماحة الشيخ عبد الله بن حميد،

حيث كان يحضر دروسه في جامع بريدة، وفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وفضيلة الشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي، وفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، وفضيلة الشيخ محمد بن سبيل، وفضيلة الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد العبد المحسن، وفضيلة الشيخ حمود بن عقلا، والشيخ صالح العلي الناصر، وتتلمذ علىٰ غيرهم من شيوخ الأزهر المنتدبين في الحديث والتفسير واللغة العربية.

* مؤلفاته:

لفضيلة الشيخ مؤلفات كثيرة، من أبرزها:

١- «التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية» في المواريث، وهو رسالته في الماجستير، مجلد.

٢- «أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية»، وهو رسالته في الدكتوراه، مجلد.

٣- «الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد»، مجلد صغير.

٤- «شرح العقيدة الواسطية»، مجلد صغير.

٥- «البيان فيما أخطأ فيه بعض الكُتَّاب»، مجلد كبير.

٦- «مجموع محاضرات في العقيدة والدعوة»، مجلدان.

٧- «الخطب المنبرية في المناسبات العصرية»، في أربعة مجلدات.

٨- «من أعلام المجددين في الإسلام».

٩- رسائل في مواضيع مختلفة.

١٠- «مجموع فتاوىٰ في العقيدة والفقه»، مفرَّغة من برنامج (نور علىٰ الدرب)، وقد أُنجز منه أربعة أجزاء.

١١- «نقد كتاب الحلال والحرام في الإسلام».

١٢- «شرح (كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن عبد الوهاب»، شرح مدرسي.

١٣- «التعقيب علىٰ ما ذكره الخطيب في حق الشيخ محمد بن عبد الوهاب».

١٤- «الملخص الفقهي»، مجلدان.

١٥- «إتحاف أهل الإيمان بدروس شهر رمضان».

١٦- «الضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع».

١٧- «بيان ما يفعله الحاج والمعتمر».

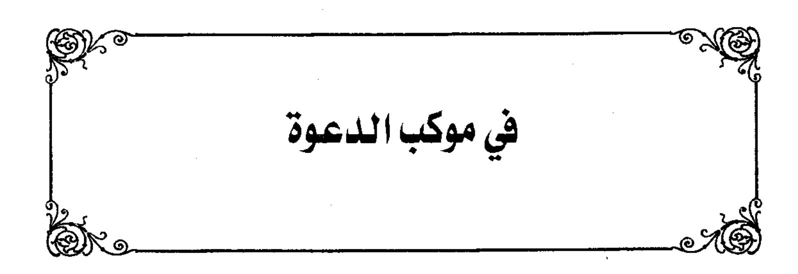
١٨- «كتاب التوحيد» جزءان مقرران في المرحلة الثانوية بوزارة المعارف.

١٩- «فتاوىٰ ومقالات نشرت في (مجلة الدعوة)»، وهو هذا الذي نشر ضمن (كتاب الدعوة).

علاوة علىٰ العديد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو في طريقه للطبع.

نسأل الله تعالىٰ أن ينفع به، وأن يجعله في موازين حسنات شيخنا الجليل؛ إنه سميع مُجيب.

❊ ❊ ❊



في موكب الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين.

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله مع هذا اللقاء الجديد في برنامجكم (في موكب الدعوة).

ضيفنا في هذا اليوم هو صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان، عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء.

في مطلع هذا اللقاء لا أملِك إلا أن أرحب -باسمكم جميعًا- بصاحب الفضيلة الشيخ صالح، شاكرًا له تكرمه وتفضله بإجابة دعوة البرنامج، فحياكم الله يا شيخ صالح.

شيخ صالح -حفظكم الله-، مما اعتدنا عليه في هذا البرنامج أن نستمع في بداية كل لقاء من ضيفنا الكريم، بودنا أن نستمع منكم إذا تفضلتم لبيان موجز مقتضب عن مولدكم ونشأتكم أين كانت؟

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فالمولد هو في عام ١٣٥٤ للهجرة، في بلدتنا المسماة بالشماسية شرقي القصيم، والنشأة بين الأهل، ومزاولة مهنة الزراعة، التي كانت هي عمل أهل البلد الغالبة للبلد في ذلك الوقت.

وأما النشأة التعليمية فقد تعلَّمت القراءة والكتابة علىٰ أئمة المساجد في بلدتنا كما هي العادة المتبعة قبل إيجاد التعليم النظامي، ثم في سنة ١٣٦٨ للهجرة فُتحت المدرسة الابتدائية في بلدتنا الشماسية فالتحقت بها، ثم أكملت الدراسة الابتدائية في عام ١٣٧١ للهجرة حيث نِلْتُ الشهادة الابتدائية، ثم تعينت مدرسًا في الابتدائي لمدة سنة، ثم فُتح المعهد العلمي في مدينة بريدة، فكنت من أول الملتحقين به في عام ١٣٧٣، وأكملت الدراسة المتوسطة والثانوية، ثم التحقت بكلية الشريعة في الرياض وأكملت الدراسة العالية فيها.

وبعد تخرجي من الكلية تعينت مدرسًا في المعهد العلمي بالرياض لمدة سنتين، ثم نُقلت للتدريس في كلية الشريعة، ثم بعدها بفترة -وأنا في التدريس في هذه الكلية- نُقلت للتدريس بكلية أصول الدين لمَّا فُتحت الجامعة وتعددت فيها الكليات، نُقلت للتدريس في كلية أصول الدين، وبالدراسات العليا فيها بالذات، ثم نُقلت مديرًا للمعهد العالي في القضاء لمدة ست سنوات، ثم لما تمت المدة النظامية للإدارة بقيت فيه مدرسًا للفقه، ثم نُقلت إلىٰ عضوية اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ولا أزال والحمد لله.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، في الحقيقة خلال هذا المشوار المبارك من البدايات في التعليم، والتحاقكم بالكلية، وتعليمكم فيها يا شيخ صالح، لابُدَّ أن هناك العديد من الشخصيات التي تأثرتم بها والتي كان لها

أثر علىٰ حياتكم، وعلىٰ توجهكم نحو طلب العلم الشرعي، أو علىٰ الأصح أن نقول: هناك العديد من المشايخ الذين أخذتم عنهم وتلقيتم عنهم، هل ممكن أن نستمع من فضيلتكم إلىٰ بعض أو أبرز هذه الأسماء؟

- الحمد لله، أنا تعلمت علىٰ مدرسين كثيرين في مراحل التعليم، وانتفعت بهم -والحمد لله، وجزاهم الله عني وعن زملائي خير الجزاء-؛ ولكن من أبرز من استفدت منهم من أهل العلم في المرحلة الابتدائية، اثنان، هما: شيخي الشيخ إبراهيم بن ضيف الله اليوسف في مدرسة الشماسية، ثم فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبد المحسن بن عبيد في بريدة عندما كنت في السنة السادسة الابتدائية؛ لأني أكملت الابتدائية في المدرسة الفيصلية في مدينة بريدة، وكان مدرسًا فيها استفدت منه في علم الفقه والتوحيد، وقرأت عليه بعض القراءة في المسجد.

وأما في المرحلة المتوسطة والثانوية فاستفدت من مشايخ كثيرين، من السعوديين ومن غيرهم من المنتدبين للتدريس هنا، من أبرزهم: الشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، استفدت منه في علم الفقه والتوحيد، والشيخ محمد ابن عبد الله السُبَيِّل -حفظه الله-، استفدت منه في علم الفرائض، والشيخ صالح ابن إبراهيم البليهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ استفدت منه في علم الفقه، هؤلاء من أبرز من انتفعت بهم في الفقه والتوحيد.

وأما المرحلة العالية في كلية الشريعة، فقد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد درَّسني في الكلية علم الفرائض والمواريث، ومن مشايخي في الكلية: العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مادة الأصول، وكذلك استفدت من فضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مادة الأصول وعلم العقيدة، وكذلك استفدت في الفقه -وإن كانت المدة معه

قصيرة- من فضيلة العلامة الفقيه الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هؤلاء من أبرز من انتفعت بعلومهم.

واستفدت من مشايخنا المصريين في علم اللغة العربية، وعلم الصرف وعلم البلاغة والبيان، استفدت من شخصيات علمية فذة منهم -غفر الله لأمواتهم وحفظ أحياءهم- هؤلاء من أبرز من تأثرت بهم.

وكنت أحضر في مدة دراستي في بريدة دروس العلامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت دروسه في الفقه والتوحيد والنحو والفرائض تواكب دروسي في المعهد، ولذلك كنت أحضر دروسه وألازمها؛ لأنها شرح لدروسي التي أتلقاها في المعهد العلمي.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، الشيخ صالح -حفظكم الله- هذه الأسماء المباركة والعطرة التي تفضلتم بذكرها وسردها، والتي كانت لها تأثير في حياتكم العلمية، لاشك أن من هذه الأسماء أحسب أن لكم علاقةً كانت خاصة مع سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت بينكم علاقة أحسب أنها علاقة التلميذ مع شيخه. شيخ صالح، أجد أنه فرصة لأستمع من فضيلتكم ومع من يستمع إلىٰ هذا البرنامج من الإخوة المستمعين إلىٰ شيء من حياة ذلك العَلَم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، خصوصًا وأنتم كنتم من القريبين منه، سواءً كان في العلم أو قبل ذلك في تلقيكم عنه في كلية الشريعة وغيرها؟

- الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ علم من أعلام العلم والعمل والتوجيه في عصرنا الحاضر لا يخفىٰ ذلك علىٰ أحد، وكنت ممن انتفع بعلمه وتوجيهه، وهو أبرز من تأثرت بهم، وتلقيت العلم علىٰ أيديهم، فمن ذلك أنني تلقيت عنه علم الفرائض والمواريث في كلية الشريعة، وكنت أحضر دروسه ومحاضراته

ومجالسه، وأستمع إلىٰ برامجه في الإذاعة، وأحرص علىٰ ذلك، استفدت منه العلم الغزير -والحمد لله-، يعني: سمعت منها العلم الغزير، وأما أنني حفظت منها شيئًا فحفظي قليل وذاكرتي ضعيفة، ولكن كنت أحرص علىٰ سماعها وحضورها والاستفادة منها.

وأما مجال العمل فمنذ انتقالي إلىٰ دار الإفتاء والعمل تحت رياسته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد استفدت منه الفوائد العظيمة في مجال العلم والإجابة عن الأسئلة، والتثبت في الإجابة وتحري الصواب والدقة، كذلك استفدت منه الصبر والتحمل علىٰ مشاق العمل، واستفدت منه فوائد عظيمة في هذا المجال.

استفدت منه أيضًا الحرص علىٰ بناء الفتوىٰ أو الجواب علىٰ الدليل من الكتاب والسنة وتحري الصواب، وأن المفتيَ حينما يُفتي في مسألة فإنما يضع في ذمته حملًا ثقيلًا؛ لأن هذا الجواب سَيُنْسَبُ إليه، وسيُسأل عنه أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكنت أستفيد منه التحري والدقة ومراعاة المسئولية، والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند اختيار الجواب، بألَّا يكون فيه تساهل أو إخلال أو تفريط في ربطه بالدليل.

سؤال: أثابكم الله يا شيخ صالح، في الحقيقة بودنا أن ننتقل إلىٰ الجانب الآخر، وهو أنكم -ولله الحمد- لكم نشاط مبارك ومشهود في العديد من المؤلفات والكتب والرسائل التي دونتموها وكتبتموها، وهي كثيرة منها منشور ومبثوث -ولله الحمد- .. أجد أنها فرصة يا شيخ صالح لنستمع منكم إلىٰ أبرز هذه المؤلفات التي كتبتموها ابتداءً بأولها تأليفًا؟

- أنا ليس لي مؤلفات في الحقيقة، وإنما لي بعض الكتابات التي كتبتها لا بنية التأليف؛ ولكن كتبتها لمناسبة حصلت أو مشاركة في مؤتمر أو ندوة، أو مشاركة في مجلة أو مشاركة في برامج إذاعية، كتبت هذه الأشياء، ثم رأيت أنه من المفيد

الاحتفاظ بها، وإخراجها في صورة كتاب لا في صورة مؤلف، وإنما في صورة كتاب جمعت فيه ما صدر مني أو كتبته في هذه المناسبات.

ومن ذلك: ما كتبته لنيل درجة علمية، ابتداءً من درجة الماجستير، فقد كتبت في درجة الماجستير في موضوع الفرائض والمواريث رسالة اسمها: «التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية» وهي مطبوعة، ولله الحمد.

ومن ذلك: ما كتبته في رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه وهي رسالة «الأطعمة ما يحل منها، وما يحرم بالأدلة»، وهي أيضًا مطبوعة ومتداولة.

ومن أقدم ما كتبت: رسالة في الرد علىٰ الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه «الحلال والحرام في الإسلام»، فقد كتبت كتابةً سميتها: «الإعلام لنقد كتاب الحلال والحرام» وعرضتها -من أولها إلىٰ آخرها- علىٰ سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قرأتها عليه من أولها إلىٰ آخرها، فأشار عليَّ بإخراجها وطباعتها، وهي مطبوعة ومتداولة، والحمد لله.

ومن ذلك: أيضًا كتاب «الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد»، وهو عبارة عن حلقات في العقيدة كنت أُلقيها في الإذاعة، فجمعتها في صورة كتاب، وأسميته بهذا الاسم، وهو مطبوع ومتداول.

ومن ذلك: «كتاب التوحيد» وهو عبارة عن كتابة كُلفت بها من قِبَلِ وزارة المعارف لإعداد كتاب للثانوي في عقيدة التوحيد، فكتبته بموجب هذا التكليف وصار يتداول ويطبع الآن والحمد لله.

ومن ذلك: حلقات كنت ألقيها في إذاعة الرياض بعنوان «من الفقه الإسلامي»، وهي حلقات امتدت من أول كتاب الطهارة إلىٰ آخر كتاب الإقرار، علىٰ ترتيب المتأخرين من فقهاء الحنابلة، فجُمعت هذه الحلقات تحت مسمىٰ «الملخص

الفقهي»، وهو مطبوع الآن في مجلدين، والحمد لله.

ومن ذلك: أنِّي لما توليت الخَطابة بجامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود -حفظه الله- في الملز، كنت ألقي الخطب وأدوِّنها قبل إلقائها في مسودات، فلما تجمَّع لدي عدد كثير من هذه المسودات رأيت بعدما أشار عليَّ بعض الإخوة، تمحيصها وإخراجها في كتاب مطبوع ليمتد النفع به، ولأساعد إخواني الخطباء، فقمت بإخراج هذه الخطب، وسميتها: «الخطبَ المِنبرية في المناسبات العصرية»، وهذا المجموع يتكون من خمسة مجلدات، وهي مطبوعة ومتداولة -والحمد لله-.

هذه هي أبرز ما ينسب إليَّ من كتابات، وهناك كتابات متفرقة ومتنوعة تحت مسميات كثيرة لا داعي لذكرها الآن.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، بودي الحقيقة أيضًا أن نتناول جانبًا قريبًا من هذا، وهو النشاط العلمي الذي تقدمونه في الدروس في المسجد، هل من الممكن أن نستمع إلىٰ أبرز هذه الدروس التي تلقونها في المساجد يا شيخ صالح؟

- مسألة الدروس التي في المساجد إنما اتجهت إليها أخيرًا لما كثر الإلحاح من الشباب ومن طلاب العلم، فرأيت أنه لا يسعني أن أعتذر عن طلبهم وإلحاحهم، ففتحت لهم المجال في إلقاء ما أستطيعه من الدروس والتوجيه، وذلك في المسجد الذي أتولىٰ الإمامة والخطابة فيه، والذي سبق ذكره آنفًا، وفي الطائف في الصيفية أيضًا تنتقل دروسي التي ألقيها بالرياض إلىٰ الطائف هناك، وفي الأخير رُتِّبَ لي درس في المسجد الحرام في الأسبوع مرة تحت مسمىٰ «دروس من القرآن الكريم»، وسنواصل فيه -إن شاء الله- في المستقبل.

سؤال: العلوم والدروس التي تدرِّسونها يا شيخ صالح؟

- أنا أحرص علىٰ دروس العقيدة؛ لأن المسلمين بحاجة إلىٰ معرفة العقيدة وتأصيلها؛ لأنها هي الأساس الذي يُبني عليه جميع أمور الدين، ثم أيضًا دروس الفقه؛ لأن الفقه في الدين من أهم المهمات، وكذلك درس في الحديث «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» ما زلت أواصل التدريس فيه، ونيتي إكماله -إن شاء الله- في الرياض وفي الطائف أيضًا.

سؤال: الشيخ صالح -رعاكم الله-، يلحظ اهتمام من فضيلتكم بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن لكم برنامج متميز في إذاعة القرآن الكريم، وهو «قراءة في فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية»، بودي أن تبدي لنا أهمية هذه الفتاوىٰ التي كان لكم رحلة طويلة معها، وهل من الممكن إيجاد تعليقات مفيدة علىٰ بعض ما يوجد في هذه الفتاوىٰ من المسائل المهمة التي ترون الحاجة إلىٰ نشرها مع التعليق عليها؟

- لا يخفىٰ ما لمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذه ابن القيم، من أهمية عظيمة في تجديد هذا الدين وإحيائه، وإحياء السُّنة المحمدية، بعدما حصل علىٰ المجتمع الإسلامي من دخول أشياء أثرت علىٰ العقيدة وعلىٰ سلوك المسلمين، فجاء الله بهذا الإمام المجدِّد، فقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتنبيه الأمة ودعوتها إلىٰ الرجوع إلىٰ الأصل الذي جاء به رسول الله ﷺ ونبذ البدع والخرافات والمحدَثات التي تجمعت في أفكار كثير من المسلمين، فأثرت عليهم حقبة من الزمن، فكان لدعوته ولمؤلفاته ولتلاميذه في إيقاظ المسلمين ما لا يجحده إلا مكابرٌ أو ضالٌّ.

ومن ذلك فتاواه، الفتاوىٰ العظيمة المنبثقة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

ومنهج السلف الصالح؛ في الاعتقاد وفي العمل وفي التعامل وفي الأخلاق، فهي فتاوىٰ حافلة وسجل عظيم من سجلات هذا الدين الإسلامي العظيم.

وفتاواه كثيرة؛ لكن الذي جُمع منها الآن هو هذا الكم الهائل الذي يبلغ خمسة وثلاثين مجلدًا ضخمًا، وهناك مؤلفات مستقلة مثل: «منهاج السنة النبوية»، ومثل: «اقتضاء الصراط المستقيم»، ومثل كتابه «نقض التأسيس في الرد علىٰ الرازي»، ومثل كتابه «الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح»، وهي كتب عظيمة.

وكذلك رسالته العظيمة، مثل: رسالة «الحموية»، ورسالة «الواسطية»، ورسالة «التدمرية»، وفي ردوده علىٰ القبوريين والخرافيين: كالرد علىٰ الأخنائي، والرد علىٰ البكري، والرد علىٰ ابن سبعين، والرد علىٰ أهل وحدة الوجود، وعلىٰ المتصوفة شيء كثير لا يمكن حصره، فنفع الله -جل وعلا- بهذا الجهد العظيم نفع به المسلمين في مختلف العصور.

ويكفي من فضائل هذا المنهج العظيم هذه الدعوة المباركة التي قام بها شيخ الإسلام، المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنها قامت علىٰ هذا التراث العظيم والمجد الأثيل الذي أصَّله شيخ الإسلام ابن تيمية، فالشيخ محمد بن عبد الوهاب قرأ هذه الكتب وهذه الفتاوىٰ، فانتفع بها وتأثر بها، وقام بالدعوة علىٰ ضوئها، وكان لها الثمرات العظيمة التي لا تخفىٰ علىٰ كلِّ ذي بصيرة.

وقد طُلب مني من قِبَلِ الإذاعة -إذاعة القرآن الكريم- أن ألقي الضوء علىٰ شيء من هذه الفتاوىٰ وإعطاء المستمعين فكرة ولو مختصرة عن هذه الفتاوىٰ بالذات، وهذه الفتاوىٰ إنما تمثل قسطًا يسيرًا من جهود هذا العالم وهذا الإمام؛ ففرحت بهذا الطلب وقمت بقراءة هذه الفتاوىٰ وكتابة ما تيسر من أجل تقريب ما

فيها من علم وفقه في دين الله ﷻ ابتداءً من الجزء الأول، واستمر هذا البرنامج عدة سنوات، فكان برنامجًا أسبوعيًّا، فوصلت فيه إلىٰ الجزء العاشر من مجموع الفتاوىٰ، قدمت فيه حلقات خلال هذه السنوات، ثم إنه توقف هذا البرنامج لفترة، ولعله يعود النشاط فيه إن شاء الله.

وأما مسألة التعليق فإنني إذا سنحت فرصة، ورأيت المناسبة وربط الواقع بالماضي، فإنني أعلق بعض التعليق لربط واقع الناس اليوم بما جاء في هذه الفتاوىٰ؛ لأجل أن ينتفع بذلك من أراد الله ﷻ من المستمعين.

سؤال: أثابكم الله، الحقيقة يا شيخ صالح إن من الملاحظ جدًّا لمن ينظر إلىٰ واقع المسلمين، الجهل الذي يغشىٰ مجتمعات المسلمين، خصوصًا فيما يتعلق بأمور عباداتهم ومعاملاتهم، ويظهر هناك حاجة ماسة نحو تعلم الفقه الإسلامي خصوصًا بعد العلم بتوحيد الله ﷻ، وتحقيقه، وهناك محاولات من العديد من العلماء نحو إيجاد ما يسمىٰ صياغةً فقهية معاصرة تتناول النوازل والحوادث المستجدة، إلا أنها قد تكون في بداياتها.

يا شيخ صالح، وأنتم قد كتبتم في العديد من المجالات الفقهية، وكان لكم إسهام مشكور ومذكور في ذلك؛ بل إنكم الآن تقررون وتدرِّسون في دروسكم العديد من الكتب الفقهية، ولكم برنامج في إذاعة القرآن الكريم يشرح كتاب «زاد المستقنع» يا شيخ صالح، ألا ترون أن هناك حاجة ماسة لإيجاد موسوعة فقهية معاصرة بلسان معاصر كما يقولون، مع الاستفادة من الكتب التي تركها علماؤنا وسلفنا الكرام؟

- لا شك أن ربط الناس بالفقه أمر مهم؛ لأن الفقه في الدين هو أساس العمل، فلا يمكن لغير الفقيه أن يعمل عملًا صالحًا ومستقيمًا إلا إذا كان علىٰ فقه

في دين الله ﷻ، ولذلك أمر الله بالتفقه في دينه وأثنىٰ علىٰ المتفقهين، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يعني: للجهاد أو طلب العلم؛ لأن ذلك يعطل الأعمال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ليتفقهوا في الدين، يعني: ليتفهموا أمور دينهم.

فالفقه لغةً: هو الفهم، والفقه في الدين هو فهم أحكام الدين وشرائع الدين، وانظر كيف قدم ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ علىٰ قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾؛ لأن الإنذار والدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون بعد الفقه والعلم، فلا يصلح الإنذار والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ جهل؛ بل لابدَّ أن يكون ذلك عن فقه.

ولذلك اتجهت همة السلف من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلىٰ وقت المسلمين الحاضر، اتجهت همتهم إلىٰ العناية بالفقه وتفقيه الناس وتعليمهم أمورَ دينهم، وكان من ذلك هذه الحصيلة والثروة الفقهية العظيمة التي خلفها سلفنا الصالح، مقتبسة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهذا الفقه الذي خلفه سلفنا الصالح إنما هو وسيلة تُعينُ علىٰ فهم الكتاب والسنة والعمل بهما.

والفقه في نظري ليس بحاجة إلىٰ تجديد عبارة أو صياغة جديدة؛ لأنه مصوغ بعبارة عربية فصيحة، والقدامىٰ أفصح منا وأقدر منا علىٰ البيان، وأقدر منا علىٰ جمع المعلومات؛ لأن الله أعطاهم من المقدرة ما لم يكن لمن جاء بعدهم إلا من شاء الله ﷻ.

ففي نظري أن الفقه ليس بحاجة إلىٰ تجديد عبارة أو صياغة؛ بل هو بحاجة إلىٰ تعلم وعناية وإقبال عليه، وتعليم الناس إياه وتنشئتهم علىٰ فقه السلف

الصالح، هذا هو المهم.

أما مسألة الصياغة والتعبير الجديد هذا لو حصل ما كفىٰ؛ لأن الناس في إعراض عن الفقه، فالآفة لم تأتِ من الصياغة أو العبارة، وإنما جاءت من انصراف الناس وجهلهم لهذا الأمر، فإذا وجِّهوا وعملوا حصل المقصود بدون أن نكلف أنفسنا وضع عبارة جديدة أو صياغة جديدة؛ لأننا لن نأتي بأفضلَ مما جاء به من سبقنا من أهل العلم والخبرة والمعرفة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله، يا شيخ صالح -حفظكم الله- الفتوىٰ في هذا العصر، بل في كل عصر، أحوج ما يكون الناس إليها، والوقت الحاضر شهد الكثير من الذين يتصدرون لمثل هذا الأمر وليسوا أهلًا لذلك، وأصبحت الفتوىٰ في بحر يموج كلٌّ يدلي بدلوه بعلم أو بغير علم، هل هناك ضوابط يجب أن تضبط بها الفتوىٰ لكي يسير كل واحد من المسلمين علىٰ نهج صحيح؟ ثم هذا التعدد في الفتوىٰ ألا يمكن أن يوجد بلبلة لدىٰ كثير من عامة المسلمين؟

- لا شك أن أمر الفتوىٰ أمرٌ مهم، والحاجة إلىٰ الفتوىٰ حاجة ضرورية؛ لأن الناس بحاجة إلىٰ من يجيبهم عن تساؤلاتهم، وبحاجة إلىٰ من يحل مشكلاتهم، وبحاجة إلىٰ من يتناول قضاياهم، هم بحاجة إلىٰ ذلك، ولكن لن يقوم بهذه المهمات إلا أهل العلم المختصون الفقهاءُ في دين الله ﷻ، فإذا قام بهذا الواجب وهذا العبء أهله من أهل العلم المختصين: حصل المقصود وحصل المطلوب وانحلت المشكلات، ورجع الناس إلىٰ أهل العلم وإلىٰ أهل البصيرة، وإذا قام أهل العلم وأهل البصيرة بالنظر في مشاكل الناس وتقديم الحلول لها، علىٰ ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حصل المطلوب وانحلت المشاكل، كما كان ذلك في عصر سلف هذه الأمة لما كان الناس يرجعون إلىٰ العلماء الراسخين

كانت مشكلاتهم تنحل، وكانت قضاياهم تُحل ببساطة على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والله أمر بذلك فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فأمر الجهال بسؤال أهل العلم؛ لأن أهل العلم هم الذين يقدرون على إجابة الأسئلة الفقهية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. فأمر الناس عندما يحصل إشكال أو يحصل أخذٌ وردٌّ في أمر من الأمور المهمة أن يرجعوا إلى الرسول ﷺ، وأن يرجعوا إلى أولي الأمر منهم أهلِ الشأن والمنزلة، وهم أهل الرأي وأهل الفقه، وأهل الخبرة والتجربة، فحينئذٍ يخرجون إلى نتيجة مرضية: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ لكن حينما تكون الأمور فوضى، ويتولى الإجابة كل من هبَّ ودبَّ ممن ينتسب إلى أهل العلم، وهو جاهل، أو مَنْ عنده علم؛ ولكن ليس عنده عمل، وإنما يتبع هواه ورغبته ورغبة الآخرين وإرضاء الآخرين حينئذ يحصل الفساد، كما حصل لبني إسرائيل لما ضل أحبارهم ورهبانهم، فحرَّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وأطاعهم عامة الناس، فهلك الجميع ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فإذا صارت الأمور في أمور الفتوى، وأمور العلم فوضى يجيب عنها الجهال الذين لا علم عندهم، أو يجيب عنها فساق العلماء الذين لا يتبعون ما أنزل الله على رسوله، وإنما يتبعون رغباتهم أو رغبات غيرهم، ويلتمسون للناس ما يرضيهم ولو بسخط الله ﷻ، فحينئذ يحصل الفساد في الأرض، وما هلكت

بنو إسرائيل إلا بمثل هذا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فلا يجوز الرجوع إلىٰ أهل الأهواء وأهل البدع، ولا الرجوع إلىٰ الجهال، وإنما يجب الرجوع إلىٰ أهل العلم والعمل، أهل العلم النافع والعمل الصالح، وهذا هو الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فإن الله تعالىٰ بعث رسوله بالهدىٰ ودين الحق، فالهدىٰ هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فلابد من اجتماع الأمرين: العلم النافع والعمل الصالح.

أما إذا انفرد أحدهما عن الآخر، فكان عمل بدون علم فهذا طريق أهل الضلال، أو كان علم بدون عمل فهذا طريق المغضوب عليهم، والله أمرنا أن نستعيذ به من الطريقتين؛ طريق المغضوب عليهم، وهم الذين عندهم علم، وليس عندهم عمل، وطريق الضالين، وهم الذين عندهم عمل، وليس عندهم علم، وأمرنا باتباع طريق المنعم عليهم، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

فلا تنضبط الفتوىٰ إلا بهذا، يعني: بأن يتولاها أهل العلم الراسخ والعمل الصالح، فإذا اختل شرط من هذين الشرطين حصل الفساد في الأرض، ولن يقتصر فساد هؤلاء علىٰ أنفسهم، وإنما يتناول هذا عامة الناس، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذا الأمر خطير والواجب التنبه له، والواجب علىٰ كل أحد حينما يُسأل أن يتقي الله تعالىٰ فلا يتسرع إلىٰ الجواب، فإن كان هناك من هو أعلم منه فليُحلِ السؤال إليه.

ولقد كان السلف يتدافعون الفتوىٰ، وهم علىٰ علم؛ لكن يريدون أن

يتولاها من هو أكبر منهم وأوثق منهم، وهذا من ورعهم ومعرفتهم بصعوبة الموقف، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ويقول لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وإن كان ليس هناك من يتولىٰ الفتوىٰ، فمن هو أعلم منه عليه أن يتقي الله، وأن يتحرىٰ في إجابته ما ينجيه عند الله هو أولًا ثم ينجي السائل أيضًا، فيعتبر نفسه أول من يتضرر بالفتوىٰ الخاطئة.

سؤال: يا شيخ صالح، -حفظكم الله- ننتقل الآن إلىٰ جانب مهم، أو سؤال آخر، أعتقد وأحسب أنه من المتعين أن نطرحه علىٰ فضيلتكم، يا شيخ صالح، لا شك أن للإعلام دورًا مهمًّا في توجيه الناس والتأثير عليهم سلبًا وإيجابًا، كيف ترون أهمية المشاركة من قِبَلِ طلبة العلم والعلماء في وسائل الإعلام، لاسيما في هذا الوقت الذي يسمىٰ عصر الإعلام فحسب؟

- لا شك أن توجيه الأمة في العصر الحاضر أهم ما يتولاه الجهتان:

الجهة الأولىٰ: جهة التعليم.

والجهة الثانية: جهة الإعلام، فالواجب علىٰ هاتين الجهتين أن تعرف كل منهما مسئوليتها وتأثيرها علىٰ مجتمع المسلمين.

فعلىٰ جهة التعليم أن تتقي الله ﷻ، وأن توجه شباب المسلمين، وأبناء المسلمين إلىٰ ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم وأن يعتنوا بتوجيههم الوجهة السليمة في عقيدتهم وفي عباداتهم وفي معاملاتهم وفي أخلاقهم، وذلك بالمحافظة علىٰ المناهج المستقيمة التي وضعها أهل العلم واستمرت سنين طويلة، وهي يستفاد منها في مجال التعليم.

علىٰ المسئولين عن التعليم أن يحافظوا علىٰ هذه المناهج السليمة التي وضعها أهل العلم وأهل الخبرة؛ ليستمر العطاء النافع والعطاء الخيِّر.

والناحية الثانية جهة الإعلام، والإعلام أيضًا أهم، من ناحية أنه شامل للشباب وغيرهم، للحاضرة والبادية؛ ولأنه يدخل البيوت ويدخل في الدكاكين ويدخل في المراكب: البرية والبحرية والجوية، هو يصاحب الإنسان في كل حالاته، حتىٰ علىٰ فراشه، فالإعلام جهة مهمة تنفذ إلىٰ البيوت وإلىٰ أي مكان، وتصاحب الناس، الذكور والإناث، والكبار والصغار، والحاضرة والبادية.

فعلىٰ المتولين لناحية الإعلام أن يتقوا الله ﷻ، وأن يمحِّصوا برامج الإعلام ويوظِّفوها فيما هو نافع ومفيد للناس في دينهم ودنياهم، وأن يُجنبوا برامج الإعلام ما هو سيئ وما هو منحرف وما هو مضيعة للوقت، فإن الإعلام إذا صلَح وجَّه الأمة خير وجهة، وإذا حصل فيه خلل حصل الخلل علىٰ جميع الناس، ويتولىٰ كبر الإثم في ذلك من يقومون علىٰ وسائل الإعلام، وإنهم هم مسئولون أمام الله ﷻ، والنبي ﷺ يقول: **«كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته»**.

فلا شك أن القائمين علىٰ الإسلام رعاة علىٰ ما استرعاهم الله عليه، وأنهم سيُسألون يوم القيامة، فالإعلام إذا وجِّه وجهةً سليمة صار أداة نافعة ومفيدة، وإذا وجِّه توجيهًا سيئًا امتد ضرره علىٰ جميع الناس.

وأما العلماء والدعاة إلىٰ الله ﷻ فيجب عليهم الدخول في هذا المجال، يجب عليهم الدخول في البرامج الإعلامية، وأن يشاركوا فيها؛ لأنها وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلىٰ الله ﷻ، فعليهم أن ينتهزوا هذه الفرصة وألَّا يتركوها لغيرهم؛ بل ينتهزون الفرصة ويدخلون في هذا المجال ويشاركون فيه بأكبر إسهام ممكن؛ ليحصل بذلك النفع للمسلمين في تعليمهم والإجابة عن مشكلاتهم، وفي توجيههم لما فيه صلاحهم وصلاح دينهم، وفي تحذيرهم من الشرور ومن الفتن الزاحفة، والدعايات المضللة، فإن هذا مجال أهل العلم، ومجال أهل الدعوة.

سؤال: أحسنتم وأثابكم الله يا شيخ صالح، يا شيخ صالح -حفظكم الله- الحقيقة يسود العالم الإسلامي في الوقت الحاضر العديد من مظاهر العودة والرجوع إلىٰ الله ﷻ، وهي مظاهر مبشرة ولله الحمد.

البعض ينظر إلىٰ هذه التوجهات بحذر، وأنها ليست مرتكزة علىٰ علم شرعي أصيل، ولذلك من الممكن أن تزول وتتلاشىٰ بين وقت وآخر، والبعض ينظر إلىٰ هذه الرجعة، أو ما يعرف في مصطلح البعض (بالصحوة الإسلامية) نظرة تفاؤل كبير، يا شيخ صالح، ما هو تعليقكم علىٰ مثل هذا الأمر؟

-لا شك أن هذا الدين سيظهر مهما تكالب الأعداء، ومهما وقف ضده أهل الشر، فإنه سيظهر ويتغلب -بإذن الله-، قال الله -جل وعلا-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فلابد أن يظهر هذا الدين بسلطته ونفوذه، أو بسلطانه ودليله ووضوحه علىٰ ما خالفه من الأديان، وعلىٰ من عارضه من المعارضين، فلابد أن تتضح الحقيقة أمام العقلاء مهما زيف الأعداء ومهما روَّجوا ضد هذا الدين، فإن شمس الحقيقة ستكشف هذا الضباب الذي روجه أعداء الدين حول هذا الإسلام، وحول هذا الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ كما قال الله -جل وعلا-: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨] لابدَّ من هذا.

وأما ما تفضَّلت به من صحوة الشباب، ورغبتهم في الخير، وكثرة التائبين والراجعين إلىٰ الله، فهذا من هذا الباب الذي ذكرنا، هذا من ظهور الدين وظهور الحقيقة، وأن الناس ملُّوا الآن من المناهج والمباهج الأخرىٰ والمغريات، وملوا من الكذب والدجل، اتجهوا إلىٰ الحقيقة، وليس أمامهم حقيقة إلا هذا الدين، وغيره كله زخرف وكله بهرج وكله كذب، فرجوع الناس إلىٰ هذا الدين أمر

حتمي، وهذا شيء أخبر الله ﷻ عنه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

هذا حقيقةً شيء ثابت، وتوجه الشباب وتوجه الناس نحو الدين هذا مما أخبر الله ﷻ عنه، ولكن الشأن في استغلال هذا التوجه، فإن استُغِلَّ هذا التوجه في الشباب وغيرهم نحو الدين استغلالًا حسنًا، وفقِّهوا في دين الله ﷻ، ورجع هؤلاء الشباب وهؤلاء التائبون إلىٰ أهل العلم واسترشدوا بآرائهم، صار هذا الرجوع حقيقيًّا واستمر وأفاد، أما إذا استغلَّ هذا الرجوع أهل الشر وأهل النفاق، فوجهوا هؤلاء الراجعين إلىٰ الدين توجيهًا سيئًا، وزيفوا عليهم الحقائق باسم الدين، فإن العاقبة ستكون سيئة.

فالخوارج من قبل كان عندهم دين وعندهم حماس وعندهم محبة للجهاد في سبيل الله وغيرة علىٰ الدين، وعندهم عبادة عظيمة من صيام وصلاة وقراءة القرآن، ولما لم يكونوا علىٰ وجه صحيح، ولم يرتكز توجههم علىٰ دين صحيح وفقهٍ في دين الله، صار وبالًا عليهم، وحصل عليهم من النكبات ما حصل، كل هذا بسبب عدم التوجه الصحيح، وعدم الرجوع إلىٰ أهل العلم، وعدم الرجوع إلىٰ أهل الفقه في دين الله ﷻ لما استقلوا برأيهم واستثارهم الأشرار باسم الدين والغيرة، فحصل عليهم وعلىٰ غيرهم من النكبة ما حصل.

فالواجب علىٰ أهل الصحوة، وعلىٰ الراغبين في دين الله ﷻ -نسأل الله أن يزيدهم من الخير وأن يزيدهم من الثبات-؛ لكن نريد منهم وننصحهم أن يتوجهوا إلىٰ العلم الصحيح، وإلىٰ أهل العلم وإلىٰ تلقي العلم عن أهله، وإلىٰ

استغلال فرصة وجود العلماء لينهلوا من علمهم وتوجيههم، وأن يستشيروا أهل الرأي وأهل العقول السليمة من كبار السن ومن أهل الخبرة، وألَّا يستقلُّوا برأيهم، أو يستغلهم أعداؤهم من الأشرار باسم الدين، الذين يمكن أن يفسروا الدين بمحاربة الدين.

هذا شيء واقع يمكن أن يوظف اسم الدين لمحاربة الدين والقضاء عليه، كما فعل المنافقون من قبل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[آل عمران: ٧٢].

المكر قديم، واستغلال هذا الدين باسم الدين قديم، فعلينا أن ننتبه لهذا الأمر، فهذا الرجوع وهذه الصحوة إن وجِّهت توجيهًا صحيحًا أصبحت خيرًا علىٰ أهلها، وعلىٰ غيرهم، وإن استغلَّت استغلالًا سيئًا من قِبَلِ أهل الشر وأهل النفاق ودعاة الضلال، أو أن أهل الصحوة هؤلاء اعتمدوا علىٰ أنفسهم وعلىٰ علمهم وزهدوا بما عند غيرهم من علم، حصل الشر وحصل الفساد باسم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سؤال: أثابكم الله، أحسنتم يا شيخ صالح، يا شيخ صالح -حفظكم الله- المرأة المسلمة في هذا الوقت تواجه العديد من السهام المسمومة التي تحاول المساس بكرامتها وعفتها، وإبعادَها عن الطريق السوي والصحيح، المرأة المسلمة أعتقد أنها من أحوج الناس إلىٰ أن تستمع إلىٰ كلمة من فضيلة الشيخ صالح الفوزان في هذه المناسبة.

- المرأة المسلمة لا شك أن لها مكانةً عظيمة في الإسلام، وفي التربية والتوجيه، وفي القيام بعبء من أعباء الحياة، فالمرأة عون للرجل، فالرجل لا يستطيع الاستقلال بنفسه وبمهمته إلا وبجانبه المرأة تقوم بدورها وبمهمتها، فمنذ أن

خلق الله آدم عليه السلام خلق منه زوجه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. أي: يحصل بينهما السكن، قال -جل وعلا-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ومن أعظم فوائد المرأة بجانب الرجل حصول السكن بين الزوجين، السكن يعني: السكينة والطمأنينة، وأن يطمئن كل منهما للآخر، فهما شريكان يؤسسان شركة عظيمة وهي البيت المسلم الذي ينشأ عنه الجيل والأجيال المسلمة، فالرجل يكتسب ويكد ويكدح ويسافر ويتعرض للأخطار في طلب العيش، والمرأة في البيت تربي وتصلح أعمال البيت وتحفظ البيت حتىٰ يأتي صاحبه، تربي الأولاد وترعاهم، وإذا جاء الزوج متعبًا ومثقلًا بالأعمال وجد أمامه الزوجة التي يسكن إليها، والتي هيأت له الراحة وهيأت له ما يحتاج إليه، وبذا حصل التعاون بين الرجل والمرأة.

وأيضًا الأولاد الذين يحصلون بين الرجل والمرأة، مَنْ الذي يتولاهم؟ الرجل يسافر لطلب الرزق ويغيب المدة الطويلة، مَن الذي يتولىٰ هؤلاء الأطفال إلا المرأة، إلا أمهم التي تربيهم، وتقوم عليهم وتسد غَيْبَةَ والدهم.

ولهذا قال ﷺ: **«والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها»** مسئولة عن بيت الزوج، وما فيه ومن فيه من الذرية، هي المسئولة عن ذلك، فهي مسئولية عظيمة، ولها مكانة عظيمة، ولها أجر عظيم، إذا أطاعت زوجها، وصلَّت فرضها، وأطاعت ربها؛ دخلت جنة ربها، فهي عليها مسئولية عظيمة، وهي تؤدي دورًا مهمًّا في المجتمع، ولها أجر عظيم إذا قامت بوظيفتها في الحياة.

أما إذا ضيعت وظيفتها، ضيعت رعيتها التي هي راعية لها ومسئولة عنها،

وخرجت إلىٰ عمل غير عملها؛ فإنها مسئولة أمام الله، فيسألها الله يوم القيامة عن هذه الرعية التي ضيعتها وخرجت لطلب الأعمال هنا وهناك، وضيعت عمل البيت.

المرأة لا شك لها دور عظيم، فإنها هي الأم وهي الزوجة وهي القريبة، وهي محلُّ الأمانة ومحلُّ الذمة في غياب الزوج، وحتىٰ في حضرة الزوج هناك أعمال لا يقوم بها الزوج ولا يدري عنها؛ لأنها هي من عمل المرأة، فمهمتها عظيمة.

وأعداء الإسلام يحاولون أن يصرفوا المرأة عما هُيِّئت له، وأن يولوها مهمةً غير مهمتها، وبهذا يحصل الفساد في المجتمع والنكسة العظيمة، فالمرأة إذا خرجت عن طورها وتولت عملًا غير عملها، هي أولًا: لا تنتج في هذا العمل كما ينبغي، وثانيًا: هي تضيع مسئوليتها ورعيتها المسترعاة عليها أمام الله تعالى؛ بالتالي يضيع المجتمع بأسره، وبيوته، فإذا ضاعت البيوت والأسر ضاع المجتمع كله، وهذا ما يريده أعداء الإسلام، يريدون أن يتخذوا من المرأة سلاحًا يطعنون به المسلمين، وهم لا يشعرون بحجة تثقيف المرأة وأنها قرينة الرجل، وأن ...، وأن ... إلىٰ آخره.

نعم، نحن نقول: المرأة قرينة الرجل، المرأة لا شك أنها إنسان وأن لها كرامتَها، وأن لها احترامَها، وأن لها أعمالَها الخاصة بها، وإذا ضيعت هذه المهمات خسرنا نصف المجتمع، كما يقولون.

أما إذا أخرجناها من بيتها وولّيناها عملًا غير عملها، هنا ضاع المجتمع كله، فيجب التنبه من هذه الدعايات المغرضة، وهذه الأفكار الخبيثة التي تريد إفساد المسلمين بسلاح المرأة.

سؤال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، يا شيخ صالح، لا شك أن هناك في الوقت الحاضر العديد من المفاهيم التي حاول البعض المساس بها أو

تأكيدها، وهناك قضية أو ما يعرف بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والعلاقة بين ولاة الأمر والرعية، حاول البعض إيجاد شيء من اللبس والتشكيك في هذه العلاقة، وظهر في الساحة العديد من المفاهيم والأغلاط في هذا الأمر، بودي من الشيخ صالح الفوزان أن يتفضل ويتكرم مشكورًا ببيان البيان الشرعي لهذه المسألة المهمة.

-لا شك أن هذا جزء من المكر الخبيث الذي يحوكه أعداء الإسلام، هم حاكوا قضية المرأة وحاكوا أيضًا قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ لأنهم يعلمون أنه إذا حصل الوئام بين الحاكم المسلم والرعية المسلمة حصل الاجتماع، حصلت القوة، فحصلت المواجهة مع الأعداء، فهم يريدون أن يقوضوا هذا البنيان، وأن يفصلوا بين الحاكم وبين المحكومين حتىٰ يتنافر المجتمع، وحتىٰ يسهل عليهم ابتلاع المسلمين والتدخل في شئونهم.

الله -جل وعلا- أولىٰ هذا الأمر عناية عظيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء: ٥٩].

عندنا آيتان كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، آيتان: واحدة للراعي وواحدة للرعية.

فالتي للراعي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء: ٥٨].

هذه توجيه للرعاة: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

والآية التي بعدها في الرعية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي

﴿ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فلو أن الرعاة والرعايا عملوا بهاتين الآيتين لحصل الخير الكثير، لانسد على دعاة الفتنة ودعاة الشر كل طريق للإفساد.

ولذلك كتب شيخ الإسلام ابن تيمية على هاتين الآيتين كتابًا مستقلًّا أسماه: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وهو كتاب مطبوع ونافع ومتداول يجب الرجوع إليه في هذا الأمر المهم.

فلا شك أن طاعة ولاة أمور المسلمين هي أمر مهم، وهي طاعة لله وطاعة للرسول ﷺ.

قال ﷺ: «**من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني**». وأمر بطاعتهم، ولو جاروا ولو ظلموا ما لم يرتكبوا مكفرًا ناقضًا من نواقض الإسلام، لما في ذلك من المصلحة العامة، ولما في الخروج عليهم من المفاسد العظيمة، وإن كان بحجة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلا أنَّ ما يترتب على الخروج عليهم من سفك الدماء وتفريق الكلمة وتسلط الأعداء أعظم مما يحصل من إنكار المنكر الجزئي، وإنكار المنكر إذا ترتب عليه منكر أعظم فإنه لا يجوز؛ بل يجب ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما.

فالواجب طاعتهم إلا إذا أمروا بمعصية الله، فإنهم لا يطاعون في المعصية؛ لكن يطاعون في غيرها من الأوامر، قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إنما الطاعة في المعروف**». يعني: تجتنب المعصية؛ لكن يطاعون في غيرها مما ليس فيه معصية، لمَا في ذلك من جمع الكلمة وحزم الرعية.

ويقول شيخ الإسلام كلامًا معناه: ما خرجت أمة علىٰ رعاتها إلا حصل من الفساد ما هو أعظم من مفسدة البقاء علىٰ طاعتهم مع ما فيه من المعصية. هذه قاعدة معروفة.

وإذا تتبعت واقع العالم وجدت هذا صحيحًا حتىٰ عند الكفار، فالكفار إذا أطاعوا رؤساءهم وانقادوا لولاتهم حصل لهم الأمن، وإذا حصل منهم نزاع بينهم وبين رعاتهم حصل الفساد، فكيف بالمسلمين وإذا استقرأت التاريخ وجدت ما يحصل من المفاسد في الخروج علىٰ الولاة أعظمَ من المفاسد في البقاء علىٰ طاعتهم مع معصية جزئية.

أما إذا وصل الأمر في الولاة إلىٰ الكفر، بالخروج عن الإسلام، فإنها لا تجوز طاعتهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. والنبي ﷺ يقول: **«اسمعوا وأطيعوا إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم عليه من الله فيه برهان»**.

فإذا قرأت تاريخ المسلمين، وما حصل من الخوارج والمعتزلة في منازعتهم لولاة الأمور، وما حصل من الويلات والحروب، وما حصل من تسلط الأعداء وسفك للدماء، عرفت قيمة أوامر الله وأوامر الرسول ﷺ بالسمع والطاعة واجتماع الكلمة.

أسأل الله ﷻ أن يوفقنا جميعًا، وأن يوفق المسلمين لما فيه الخير والصلاح في دينهم ودنياهم، وعلىٰ المسلمين جميعًا أن يعرفوا وقتهم وأن يعرفوا مكانتهم، ويعرفوا زمانهم، ويعرفوا العدو من الصديق، عليهم أن يعرفوا العدو من الصديق، وأن يقبلوا من الناصح وأن يرفضوا العدو ولو تظاهر لهم بمظهر الناصح ومظهر المشفق ومظهر الصديق، فإن العدو لا يكون صديقًا أبدًا مهما تظاهر، ولكن الناصح هو الصديق في الحقيقة وإن رأيت منه ما لا تقبله في أول الأمر، يعني: لو

واجهك بشيء تكرهه من أخطائك فإنه خير لك ممن يمدحك ويثني علىٰ جميع أعمالك، فالذي يذكر لك شيئًا من عيوبك هذا هو الناصح، وهذا خير لك.

فأنْ تكرَه بعض مصارحته لك خير لك من هذا الذي يتملق لك ويمدحك، ويزكي جميع أعمالك، هذا هو الصديق في الحقيقة، والمنافق والغاش هو عدو وإن تظاهر لك بمظهر الصديق والناصح، وعواقب الأمور تبين هذا.

فعلىٰ المسلمين أن يقبلوا من الناصحين، ولهذا لما حصل الهلاك علىٰ قوم صالح -عليه الصلاة والسلام-، وأخذتهم الصيحة ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]. هكذا، فالواجب علىٰ المسلمين أن يعرفوا هذا.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضىٰ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

❊ ❊ ❊



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وأصحابه ومن والاه.

أما بعد:

فإنَّ الإيمان هو أحد مراتب الدين؛ لأن دين الإسلام علىٰ ثلاث مراتب، كما جاء ذلك في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، حيث سأله ﷺ عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ولما انتهىٰ وخرج قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**أتدرون مَنِ السائل؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **هذا جبريلُ أتاكم يعلِّمكم دينكم**»(١). وكان قد أتاهم في صورة رجل طالب للعلم، فدلَّ هذا الحديث علىٰ أن الدِّين يتكون من ثلاثة مراتب:

الأولىٰ: الإسلام.

الثانية: الإيمان.

الثالثة: الإحسان.

وكلُّ مرتبة أعلىٰ من التي قبلها، والمقصود الآن هي المرتبة الثانية وهي الإيمان.

فقول الشيخ رحمه الله: «أصول الإيمان»؛ أي: أدلَّته؛ لأن الأصل عند الأصوليين

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو الدليل، ففي هذا الكتاب ذكر الشيخ فيه أدلة الإيمان من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ.

والإيمان في اللغة: التصديق، يُقال: آمَن له؛ أي: صدقه، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. أي: صدقه، حيث صدَّق لوطٌ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]. أي: بمصدِّق لما قلناه لك. هذا مفهوم الإيمان لغة.

وأمَّا الإيمان شرعًا فقد عرَّفه أهل السُّنة والجماعة، بأنه: «قولٌ باللسان، واعتقاد في القلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».

وهذا التعريف مأخوذ من الكتاب والسُّنة، فتعريفه بهذا التعريف إنما هو من باب الحقيقة الشرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عُرفية.

والحقيقة الشرعية، هي: التي جاء بها الشرع، وقد جاء الشرع في أنَّ الإيمان يتكون من هذه الأشياء الثلاثة: نُطقٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، ولابدَّ من اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

فليس الإيمان هو نطق باللسان فقط، كما تقول الكرَّامية، وليس هو اعتقادًا بالقلب فقط، كما تقول الأشاعرة، وليس هو النّطق باللسان والاعتقاد بالقلب كما تقول الحنفية، وإنما هو بمجموع الثلاثة معًا؛ نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فإذا عمل الإنسان الطاعات زاد إيمانه، وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ وكلما عمل الإنسان طاعةً زاد إيمانه حتىٰ يعظُم هذا الإيمان، وكلَّما عمل معصية، فإنه يضعف إيمانه وينقص حتىٰ إنه ليصل إلىٰ مقدار حبَّة الخردل أو أقلَّ كلما ازداد في عمل المعاصي، فالناس ليسوا في الإيمان سواء.

فمنهم مَنْ إيمانه عظيم، ومنهم مَن إيمانه قليل، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ رأىٰ منكم منكرًا فليغيِّرْهُ بِيَدِه، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**»[1]؛ فدلَّ هذا علىٰ أن الإيمان يكون ضعيفًا، ويكون أضعف.

وكذلك جاء في الحديث أن الله تعالىٰ -يقول يوم القيامة-: «**أخرجوا مِنَ النار مَن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»[2].

يعني: أقلَّ الناس إيمانًا، فإنه يخرج من النار، ولا يبقىٰ في النار إلَّا مَنْ ليس في قلبه إيمانٌ أصلًا، من الكفَّار والمنافقين والملاحدة، وأما من كان في قلبه إيمان ولو عُذِّب في النار ومكث فيها مدَّة، فإن الله يخرجه منها بإيمانه ولو كان ضعيفًا.

والشاهد من كل هذا هو بيان أن الإيمان قد يكون ضعيفًا؛ قال تعالىٰ: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فدلَّ هذا علىٰ أن هناك إيمانًا ضعيفًا يكون أقرب إلىٰ الكفر، هذا معنىٰ قولهم: «وينقص بالمعصية»، وهذا تعريف دقيق مأخوذٌ من النصوص.

والإيمان له أركان بيَّنها النبيُّ ﷺ، بقوله: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه،**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرِّه»[١].

والإيمان كذلك له شُعب تزيد علىٰ ستين أو سبعين شعبة كما قال ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان**»[٢]؛ فشُعب الإيمان وخصاله كثيرة. وهذا الكتاب يبيِّن فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ورد عن الرسول ﷺ من خصال الإيمان وشُعبه.

وأول هذه الشُّعب: معرفة الله ﷻ، وذلك بأن يعرف العبد ربَّه بأسمائه وصفاته الواردة بكتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الله تعرَّف إلىٰ عباده بأسمائه وصفاته، وهو أعلم بنفسه ﷻ، فما سمىٰ تعالىٰ به نفسه وجب الإيمان به، وبه يُعرف -جلَّ وعلا-، فمثلًا يُعرف تعالىٰ بأنه الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ، القيوم، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم؛ فهذه كلها أسماء لله -جل وعلا-.

وأما صفاته فكل اسم من أسمائه يتضمَّن صفة، فالعليم يتضمَّن العلم، والحكيم يتضمَّن الحكمة، والرحيم يتضمَّن الرَّحمة، والكريم يتضمَّن الكرم، والعظيم يتضمَّن العظمة، وهكذا، فأسماء الله تعالىٰ ليست أسماء مُجرَّدةً، وإنما هي أسماء حُسنىٰ وعظيمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فوصفها بأنها حُسنىٰ، فكل اسم منها يتضمَّن صفةً من صفاته -جلَّ وعلا-، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فالإنسان يعرف الله -جل وعلا- ويدعوه بأسمائه وصفاته ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الأسماء والصفات توقيفية، فلا أحد يسمِّي الله إلَّا بما سمىٰ به ﷻ نفسَه، أو سمَّاه به رسولُه، فلا أحد أعلم بالله من الله -جلَّ وعلا-، ولا أحد أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ؛ فلذلك لا يجوز وَصفُ الله تعالىٰ أو تسميته إلا بما ورد في كتاب الله -جل وعلا-، وسُنَّة رسوله ﷺ، لأن الله -جل وعلا- أعلمُ بنفسه وبغيره، وأحسنُ حديثًا من خَلْقه، فنحن نعرف الله بأسمائه وصفاته ﷻ.

* * *

قال الشيخ الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهَّاب -رحمه الله تعالىٰ-:



وبه أستعين

باب: معرفة الله تعالى والإيمان به

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عَمِلَ عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركتُه وشِرْكَه**». رواه مسلم(١) [١].

---

[١] هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهو ما يرويه النبيُّ ﷺ عن ربِّه، فلفظه ومعناه من الله -جلَّ وعلا-، فتكلَّم الله به، ورواه رسوله ﷺ وبلَّغه لأمته.

وقوله: «**قال الله تعالىٰ**»، فيه إثبات القول والكلام لله تعالىٰ، وهذه صفة من صفاته -جلَّ وعلا-.

وقوله: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**» فيه إثبات الغِنىٰ لله عز وجل، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]. فالله تعالىٰ غنيٌّ عن خَلقه لا يحتاج إلىٰ مُعينٍ، ولا إلىٰ شريك، ولا إلىٰ ظهير، فهو غنيٌّ عن خَلقه، وخلقهُ محتاجون إليه؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].
=

---

(١) برقم (٢٩٨٥).

[نفي النوم عن الله تعالى]

٢- وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالىٰ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القِسطَ ويرفعُه، يُرفع إليه عملُ اللَّيل قبل عَمَلِ النَّهار، وعَمَلُ النَّهار قبل عَمَلِ الليل، حجابُه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وَجهِهِ ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلقِهِ». رواه مسلم(١)[٢].

فهذا فيه وصف الله بالغنىٰ، وفيه نفي الشِّرك عنه -جل وعلا-؛ إذ ليس له شريك في الملك، وليس له شريك في العبادة، ولا في أسمائه وصفاته، فالله واحد أحد، فَرْد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]. هذه صفة الله -جل وعلا-، ولما قال المشركون للنبيِّ ﷺ: صِفْ لنا ربَّك، أنزل الله هذه السورة(٢).

ففي هذا تنزيهُ الله تعالىٰ عن الشرك، وأن العمل الذي يقع فيه الشِّرك لا يتقبَّله الله؛ ولهذا قال كما في هذا الحديث القدسي: «تَركتُه وشِركَه»، فالعمل الذي فيه شرك لا يقبله الله تعالىٰ، وهو مردود علىٰ صاحبه وباطل، فهو سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وكان صوابًا علىٰ سُنَّة نبيِّه ﷺ.

[٢] هذا حديث عظيمٌ، فيه تعريفٌ بالله -جلَّ وعلا-، فقوله ﷺ: «إن الله تعالىٰ لا ينامُ» فقد نفىٰ الله تعالىٰ عن نفسه النوم في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. لأن النوم موتة صغرىٰ؛ ولأن النوم ضعف

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٤٠) عن أُبي بن كعب رضي الله عنه موقوفًا.

في النائم، والله يُنزَّه عن ذلك، وذلك لكمال حياته ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فهو سبحانه لكمال حياته ولكمال قيُّوميَّته: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾: وهي النُّعاس الخفيف ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ مُستغرَق، فهو سبحانه منزَّه عن ذلك؛ لأن النوم من صفات البشر والمخلوقين، وهو صفةُ نقص.

وقوله ﷺ: «**ولا ينبغي له أن ينام**» يعني: لا يليق به ﷻ أن ينام؛ لأنه الكامل في حياته وقيُّوميَّته -جلَّ وعلا-، فهو منزَّه عن هذه الصفة، فلا ينبغي له أن ينام.

وقوله: «**يَخفضُ القسطَ ويرفعُه**»، قوله: «**يخفض القسط**» بمعنىٰ أنه ينزِّل علىٰ عباده أرزاقهم وما كتبه سبحانه لهم، والقِسط: العدل والميزان، وقوله: «**ويرفعه**» بمعنىٰ أنه يُرفع إليه العمل الذي اكتسبه بنو آدم، والله -جل وعلا- دائمًا هذه صفته، يُنزِّل الأرزاق والمقادير علىٰ عباده، وتُرفع إليه الأعمال، خيرُها وشرُّها، صالِحُها وسيِّئُها؛ فهذا فيه تنزيه الله سبحانه عن النَّوم، ووَصفُه بالحياة الكاملة، ووصفُه -جلَّ وعلا- بأنه يُدبِّر أمور الخَلق، ويُحصي أعمالهم؛ ليُجازيَهم بها يوم القيامة.

وقوله ﷺ: «**يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل اللَّيل**» هذا من عمل الحَفَظة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وفي الحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلون، وأتيناهم وهم يُصلون**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٩)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: محضورًا، تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، كما في الحديث، ولهذا كانت هاتان الصلاتان أفضل الصلوات الخمس، وقال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. أي: العصر، ففيهما فضيلة علىٰ غيرهما لحضور الملائكة فيهما.

وقوله ﷺ: **«حِجابُه النُّور، لو كَشفه لأحرقت سُبحاتُ وَجْهِهِ ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقِهِ»**. هذا فيه وصف الله -جلَّ وعلا- بالنُّور؛ والنُّور علىٰ قسمين:

١- نورٌ من صفات الله -جلَّ وعلا-؛ أي: نور الله سبحانه وتعالى.

٢- ونورٌ مخلوق، كنور الشمس ونور القمر.

وهناك نور آخر، وهو نور الوحي؛ فالله -جل وعلا- هو النور، ومنه النور، ونور الله -جل وعلا- قد حَجَبه عن رؤية عباده له؛ لأنهم لا يستطيعون رؤيته -جل وعلا- في الدنيا، ولو تجلَّىٰ لشيء من خلقه لاحترق، وفي قصة موسىٰ عليه السلام لما جاء لموعد الله له يتلقَّىٰ منه التوراة أوضحُ الدليل علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فهذا الجبل الجماد الصُّلب لما تجلَّىٰ الله له اندكَّ وصار ترابًا وعندها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾؛ أي: مغشيًّا عليه، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يرىٰ الله ﷻ؛ لأن حجابه النور، وفي ليلة المعراج سُئل النبيُّ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ قال: «**نورٌ أنَّىٰ أراه**»[1]؛ وذلك لأنه سبحانه حجابه النور، فلا يراه أحد في هذه الدُّنيا لا النبي ﷺ ولا غيره؛ إذ الخلق لا يستطيعون رؤيته لعظمته ﷻ، ولهذا قال: «**ولو كشفه**» أي: لو كشف الحجاب «**لأحرقت سُبحاتُ وجهه**» أي: نور وجهه وجلاله «**ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه**».

فهذا فيه وصف الله ﷻ بأنَّ له حجابًا يحتجب به عن المخلوقات؛ لأن المخلوقات لا تطيق رؤية الله ﷻ في هذه الدُّنيا.

وفي الحديث إثبات البَصَر لله ﷻ؛ لقوله ﷺ: «**ما انتهىٰ إليه بَصرُه**» ولقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]. فهو ﷻ يرىٰ ويُبصر عباده فلا يحجبه عنهم شيء، لا جدران ولا حصون، ولا ظُلمة ولا ستائر ولا أيُّ شيء، فيراهم أينما كانوا.

فهذا الحديث، حديث عظيم فيه -إضافةً إلىٰ ما سبق- وصفُ الله -جل وعلا- بالحجاب، وأنه نور، وأنه لو كشف هذا الحجاب لاحترق ما ينتهي إليه بصره من خلقه، وبصر الله -جل وعلا- لا يحجبه شيء، وفيه بيان الحكمة من الحجاب وهي كما جاء في هذا الحديث خشيةَ أن يحترق ما انتهىٰ إليه بصره سبحانه من خلقه، وأن المخلوقات لا تستطيع مقابلة جلال الله ﷻ لعظمته.

وأمَّا في الآخرة، فإن الله -جل وعلا- يُعطي أهل الجنة قوة يستطيعون بها رؤيته سبحانه، وهذا من إكرامهم لما عبدوه في هذه الدنيا ولم يَروهُ؛ بل عبدوه

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

[ما جاء في أن لله يمينًا]

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**يمينُ الله ملأىٰ لا تَغيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خَلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه، والقسطُ بيدِه الأخرىٰ، يرفعُ ويخفضُ**». أخرجاه[1][٣].

=

إيمانًا به سبحانه فأكرمهم الله بأن يتجلَّىٰ لهم يوم القيامة في الجنة، ويرونه -جلَّ وعلا-، فيرونه في عَرَصات القيامة ويرونه في الجنَّة[2]، لأنه سبحانه يعطيهم قوة ليست لهم في هذه الدنيا، وإنما هي لهم في الآخرة، فيستطيعون بها رؤيته سبحانه ويتلذَّذون بها، وهذا من كرمه سبحانه وتعالى لهم.

[٣] هذا الحديث فيه وصفٌ لله -جل وعلا-، بأنَّ له يدين، وهو سبحانه أثبت هذا في القرآن الكريم، فقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. أي: لآدم عليه السلام، خلقه الله بيديه، ففيه إثبات اليدين لله، وأنَّ له يمينًا.

وفيه وصف الله تعالىٰ بالجود والكرم، وأنه هو الذي ينفق علىٰ عباده، فيَدُه «**سحّاءُ الليل والنهار**»، والسَّح: الصَّبُّ الدائم؛ أي: دائمة بالعطاء والجود والكرم.

وقوله: «**أرأيتم ما أنفق منذ خَلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه**» أي: لا تنقص خزائنه سبحانه وتعالى بالإنفاق؛ لأنه الغني؛ قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

(١) البخاري (٤٦٨٤، و٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣) وفيه عندهما: «القبض» بدل: «القسط».

(٢) انظر في ذلك، ما أخرجه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

....

=

فجميع الأرزاق التي للآدميِّين وللبهائم وللحشرات وللطيور وللوحوش كلها من رزق الله وإنفاقه علىٰ مخلوقاته، وعلىٰ كثرة هذا الإنفاق لا ينقص ما عنده ﷻ، بخلاف المخلوق، فإنه وإن كانت عنده ثروة هائلة، فإنه إذا ما أنفق منها فإنها تنقص حتىٰ تنفد؛ قال تعالىٰ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي هذا الحديث إثبات اليد لله، ووصفها باليمين، وجاء أيضًا وصف الأخرىٰ بالشمال، وكلتا يديه تعالىٰ يمين، فهي شمال ليست كشمال المخلوقين؛ بل هي شمال وهي يمين أيضًا، واحدة من يديه سبحانه فيها الإنفاق علىٰ العباد، والأخرىٰ فيها القسط.

وقوله: «**يمينُه ملأىٰ**» أي: يده سبحانه ملأىٰ بالرزق والخير «**لا تغيضها نفقة**» أي: لا ينقص مما في يمينه ﷻ بما ينفق علىٰ عباده.

وقوله: «**سحَّاءُ الليلَ والنهارَ**» سحاء؛ أي: كثيرة العطاء الذي لا حدَّ له، فعطاؤه مستمر ليلًا ونهارًا، فلا يعطي في وقت ويمنع في وقت آخر كالمخلوقين، فعطاؤه دائم في جميع اللحظات والساعات.

وقوله: « **أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه**» هذا تقريب لبيان سعة الرزق، وكثرته من الله ﷻ وغناه، وأنه مع كثرة إنفاقه فإنه لا ينقص ما في يمينه ولا مما في خزائنه، بخلاف المخلوقين، فإنهم إذا أنفقوا فإنه ينقص مما عندهم فينفد، فإذا تأمَّلت هذه المخلوقات في البر والبحر وجدتَ أنها كلها تعيش من رزق الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. =

[ما جاء في وصف الله تعالى بالعلم]

٤- وعن أبي ذر ﷺ قال: «رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟ قلت: لا. قال: لكن الله يدري وسيحكم بينهما». رواه أحمد[1] [٤].

= فهو سبحانه ينفق على هذه المخلوقات منذ خلق السموات والأرض، فلم ينقص ذلك مما عنده شيئًا، ولم ينقطع رزقه ﷻ عن مخلوقاته، فهذا دليل على كمال غناه، وأن هذا الإنفاق في هذا الزمان الطويل لم يُنْقِصْ ما في يمينه -جل وعلا-.

قوله: «والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض» هذا فيه بيان أن لله ﷻ يَدَين، اليد اليمنى فيها العطاء والكرم والجود والإنفاق على عباده، والثانية فيها القسط والعدل، «ويخفض» أي: يرفع، ويخفض المقادير ويُنزلها على عباده، ويرفع أعمالهم ويُحصيها.

[٤] هذا الحديث فيه وصفُ الله تعالى بالعلم، وأنه ﷻ يدري ما يدور بين مخلوقاته، حتى الذي يكون بين البهائم.

فقوله: «شاتان ينتطحان. فقال: أتدري فيمَ ينتطحانِ» أي: ما السبب الذي جعل بينهما هذا التضارب والتدافع؟ فقال أبو ذر: لا، فقال ﷺ: «ولكن الله يدري». أي: الله يعلم ما بين هاتين الشاتين، وإذا كان هذا في الشاتين ففي غيرهما من باب أولى، فهو سبحانه يعلم ما يدور بين العباد من الاختلاف والنِّزاع والشِّقاق لا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى يحكم بينهم يوم القيامة، حتى إنه -جلَّ وعلا- يحكم بين =

---

(١) في «المسند» برقم (٢١٤٣٨).

[إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى]

٥- وعن أبي هريرة ﵁: «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، ويضعُ إبهاميهِ علىٰ أُذنيهِ والتي تليها علىٰ عينيه». رواه أبو داود، وابن حبان، وابن أبي حاتم[(١)] [٥].

= البهائم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥]. فالوحوش تُحشر وتُبعث يوم القيامة ويُقتصُّ من بعضها لبعض كما قال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلىٰ أهلها يوم القيامة حتىٰ يُقادَ للشاة الجَلحاءِ منَ الشاةِ القرناء**»[(٢)]. فإذا جرىٰ القِصاص بين الحيوانات قال الله -جل وعلا- لها: كوني ترابًا، فتكون ترابًا، فهي تُبعث من أجل القِصاص فيما بينها، وإذا كان القصاص والحكم بالعدل يجري بين البهائم، فبين غيرها من باب أولىٰ، وهذا من عدله ﷻ.

والحديث فيه صفتان من صفات الله:

الأولىٰ: علم الله -جل وعلا- بما يجري بين المخلوقات علىٰ اختلاف أصنافها.

والثانية: الحكم، حيث إنه -جل وعلا- يحكم يوم القيامة بين الناس وبين الحيوانات، فيقضي بينهم ويُنصف المظلوم من الظالم.

[٥] الأمانات، جمع أمانة، وهي: كل ما اؤتمن عليه من الأموال والأسرار والأعمال المسندة إلىٰ المؤتَمن، وكل المسئوليات أمانة، فليست الأمانة خاصة =

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

....

=

بالوديعة، كما يفهم بعض العوام؛ بل الأمانة عامة في كل ما يؤتَمن عليه؛ فعلىٰ الإنسان أن يؤدِّي ما استُحفظ عليه إلىٰ مَن ائتمنه، وألَّا يخون الأمانة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]. فهي أمانة بين العبد وبين الله، وبين الفرد ووليِّ الأمر، وبين الفرد وبين الناس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

والآية عامَّة في كلِّ ما يتعلق بموضوع الأمانات، وإن كانت نازلة في الوظائف، وبأنه يجب علىٰ وليِّ الأمر أن يُسند الوظائف إلىٰ من يقوم بها من الناس، ولا يُحابي فيها؛ لأن الآية نزلت في ردِّ مِفتاح الكعبة إلىٰ بني شيبة، فلما فتح النبيُّ ﷺ مكة، أخذ عليٌّ رضي الله عنه المفتاح من بني شيبة؛ فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

فأخذ النبيُّ ﷺ المفتاح من عليٍّ ودفعه إلىٰ بني شيبة[1]، ولا يزال في يدهم إلىٰ يوم القيامة، كما أخبر النبيُّ ﷺ بذلك.

فسببُ نزول الآية خاص، ولكن اللفظ عام، والعبرة بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما قرر ذلك علماء التفسير والأصول، فتشمل هذه الآية جميع الأمانات الحسِّية والمعنوية، فكلُّ ما كُلِّف به العبد من الأعمال فهو أمانة بينه وبين الله ﷻ؛ فالوضوء أمانة، والاغتسال من الجنابة أمانة، فجميع الأعمال التي أوجبها الله تعالىٰ علىٰ عباده أمانة، وجميع ما حرَّمه الله علىٰ عباده أمانة كذلك، وكذا جميع الأعمال والأموال والديون التي في ذمة الذين اؤتمنوا عليها إنما هي أمانة. =

---

(١) انظر في ذلك: ما أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٤٧) عن ابن جريج والزهري.

٦- وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يَعلَمُها إلَّا الله: لا يَعلم ما في غدٍ إلَّا الله، ولا يعلمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلمُ متىٰ يأتي المطرُ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إلا الله، ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله -تبارك وتعالىٰ-». رواه البخاري ومسلم(١) [٦].

=

فعلىٰ العبد أن يحفظ الأمانة، وأن يؤدِّيها في جميع أمورها، فلا أحد يَخْلُو من الأمانة، فالأولاد أمانة في ذمة وليِّ أمرهم، وهو مسئول عنهم، فالأمانات كثيرة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

ومحلُّ الشاهد في هذه الآية قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، ففيها وَصفُ الله بالسَّمع والبَصَر، وبأنه سميع بصير، وهذان اسمان لله تعالىٰ يتضمَّنان إثبات السمع والبصر له جل جلاله، بخلاف فِرَق الضلال الذين يؤوِّلون الصِّفات والأسماء، الذين يزعمون أن هذا من باب المجاز، وعلىٰ قولهم فليس لله سمعٌ حقيقةً وليس له سبحانه بصرٌ حقيقةً، وإنما هذا ونحوه من المجاز!

ويُجاب علىٰ هؤلاء: بأن الرسول ﷺ أبطل هذا، وبيَّن أنَّ السمع حقيقي، فوضع أصبعه علىٰ أُذنه ليبيِّن أن هذا حقيقي، ووضع الأصبع الأخرىٰ علىٰ عينه ليبيِّن أنه بصر حقيقي وليس مجازيًّا، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يؤولون أسماء الله وصفاته، ويدل علىٰ أن الواجب إثباتها كما جاءت، وكما دلَّت عليه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

[٦] هذا الحديث، فيه إثبات العلم لله -جلَّ وعلا-، وأن الله عليم، وفيه أن =

(١) البخاري (١٠٣٩)، وبنحوه مسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

=

مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ولهذا قال -جلَّ شأنه-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. جاء تفسير هذه المفاتيح في آخر سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه المفاتيح الخمسة لا يعلمها إلا الله، فلا يعلمها مَلَك مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، ولا أحد من خلقه -تبارك وتعالىٰ-، فهي من الأمور التي اختص الله بعلمها، ولهذا لمَّا سأل جبريلُ رسول الله ﷺ وقال له: «متىٰ الساعة؟ قال: **ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل**» يعني: أنا وأنت سواء لا نعلم هذا الأمر؛ لأن هذا من اختصاص الله ﷻ؛ وقد ذكر هذا في القرآن الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فلا يعلم أحدٌ متىٰ قيام الساعة إلا الله، وأما هؤلاء الذين يَحسِبون؛ ليقدِّروا عُمُرَ الحياة الدنيا إنما هم من الكَذَبة الذين يكذبون علىٰ الله -جل وعلا-، وينازعونه في علمه.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، وقوله في آية أخرىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورىٰ: ٢٨]. فيه بيان أنه لا يستطيع أن ينزل الغيث من السماء إلا الله -جل وعلا-، ولا أحد يدري أيضًا متىٰ ينزل الله الغيثَ، فهو من اختصاص الخالق ﷻ.

=

....

=

وأمَّا ما يُذكر في وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفاز من توقُّعات حول هبوب الرِّياح، وما أشبه ذلك فهو ليس من باب الجزم، إنما هو من التوقُّعات المبنية علىٰ ظواهر جويَّة، والتي من الممكن أن تصيب وأن تخطئ؛ فلا يُقال: إن هؤلاء يعلمون مما استأثر الله بعلمه من نزول المطر.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: الأجنَّة التي في البطون، لا يعلمها إلَّا الله ﷻ، سواء التي في بطون الآدميات، أو التي في بطون البهائم والحيوانات، فلا أحد يدري ما في بطونها من حيث كونه ذكرًا أو أنثىٰ، أو حيًّا أو ميتًا، أو كامل الخِلْقة، أو ناقص الخِلْقة، فلا يعلم كل هذا إلا الله -جل وعلا-، حتىٰ المَلَك الموكَّل بنفث الرُّوح إذا جاء لينفخ الروح، فإنه يسأل الله ﷻ عن أجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد فيكتب ما أخبره الله -جل وعلا-.

أما بخصوص ما استُحدث الآن من صور الأشعة التي تُشخِّص الحمل علىٰ الأجهزة المصوَّرة فيخبرون بكونه ذكرًا أو أنثىٰ، فهذا ليس من الأمور الداخلة في علم الغيب، وإنما هو من علم الشهادة التي تحصل بواسطة الأجهزة التي تصور ما في البطون فتظهره، فهو ليس من علم الغيب؛ لأنه لا أحد يعلم حقيقة ذلك قبل التصوير التي تتم بواسطة الأجهزة المذكورة، ثم لو قُدِّر أنهم علموا بكونه ذكرًا أو أنثىٰ أو حيًّا أو ميتًا، فهم لا يدرون شيئًا من أجله أو عن عمله، أو هل هو شقي أم سعيد، حتمًا هم لا يدرون شيئًا عن ذلك كما لا يدرون شيئًا عن رزقه، فكل هذه الأمور من الأشياء التي استأثر بعلمها الله ﷻ.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فهذا من المُسلَّمات التي أقرَّ بها الناسُ قبل نزول القرآن، ولهذا قال الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلْمَىٰ: =

وأعلمُ عِلمَ اليومِ والأمسِ قَبلَه ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ

هذا، وهو إنسان جاهلي، بأنه لا يدري ماذا يمكن أن يجري في الغد أو في المستقبل، كون هذا الأمر من علم الله -جلَّ وعلا-، فمن باب أَولىٰ أن يُقرَّ بذلك مَن جاء بعده علىٰ مَرِّ العصور!

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾؛ الموت لابدَّ منه، ولكن المجهول مكانه وزمانه، هل هو في البر، أم في البحر، أم في الجو؟ فلا أحد يدري متىٰ وأين يكون ذلك؛ لكونه في علم الله وحده -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾. هذه مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلَّا الله ﷻ.

ففي هذا الحديث إثبات العلم لله -جل وعلا-، وفيه بيان مفاتح الغيب التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فهو تفسير للآية.

والغيبُ: ما غاب عن الناس.

والشهادة: ما شاهدوه، والله -جل وعلا- عالم الغيب والشهادة؛ أي: ما ظهر للناس وما خفي عليهم، فالله سبحانه عليم به.

[إثبات صفة الفرح لله تعالى]

٧- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفَلَتَتْ منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته؛ فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامِها، فقال من شِدَّة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح». أخرجاه[1] [٧].

---

[٧] هذا الحديث فيه إثبات صفة الفرح لله ﷻ، وأنه يفرح بتوبة عبده، وفيه إثبات التوبة، وأنه ﷻ يتوب على عبده إذا ما أقبل إليه بإخلاص.

والتوبة معناها: الرُّجوع، فالله -جل وعلا- يعود على عبده بالرِّضا بدل الغضب، وبالمغفرة بدل العذاب، ومن أسمائه ﷻ التوَّاب، فقال: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]. أي: كثير التوبة على عباده، ففيه إثبات التوبة لله، وأنه يتوب على عباده، ويرجع عليهم بالخير.

وفي الحديث إثبات الفرح لله ﷻ، وأنَّ الله يفرح بتوبة عبده، وفيه حثُّ العباد على التوبة وعدم القنوط من رحمة الله، وأنه سبحانه يفرح بهذا، وهذا من كرمه سبحانه، وهو ليس محتاجًا إلينا، فإذا تُبْنا لم يَزِد في ملكه شيئًا، وإذا لم نَتُب لم نُنقِص من ملكه شيئًا، ولكن الله يفرح بذلك تكرُّمًا ولطفًا منه ﷻ بعباده؛ لأنه يريد لهم الخير والنجاة والفوز، ولا يحبُّ لهم الكفر والعذاب، وإنما يحبُّ لهم التوبة والمغفرة والنعيم، وهذا كلُّه من فضله ﷻ.

=

---

(١) البخاري (٦٣٠٩) مختصرًا، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

فقوله ﷺ: «لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده» فيه أنَّ الله يفرح فرحًا شديدًا أشد من فرح المخلوقين.

ثم ضرب ﷺ مثلًا في رجل فقد راحلته في أرض مهلكة ليس فيها ماءٌ ولا طعام، وقد استسلم للموت ونام تحت ظل الشجرة بانتظار هلاكه، وبينما هو كذلك فإذا براحلته فوق رأسه وعليها طعامه وشرابه.

فهذا فيه أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله تعالى مهما اشتدَّ الأمر والضِّيق بالعبد، بل عليه أن يعظم الرَّجاء بالله، فكلَّما اشتدَّ العسر كان اليسر قريبًا؛ لقوله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرَجَ مع الكَرب، وأنَّ مع العُسر يُسرًا»[1].

وكما في القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ففرح هذا الرجل فرحًا شديدًا حتىٰ إنه أخطأ في التعبير عن فرحه من شدَّته فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك» والله أشدُّ فرحًا من هذا الإنسان.

ففي الحديث إثبات صفة الفرح لله تعالى مع الاعتقاد بأنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقين.

وفي الحديث بيان أن المخطئ لا يؤاخذ، فهذا الإنسان أخطأ في التعبير من شدة فرحه؛ لكن الله لم يؤاخذه مع كونه وَصف الله -جل وعلا- بأنه عبدٌ ووَصف نفسَه بأنه الربُّ لكنه لم يتعمَّد هذا، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولما نزلت هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله -جل وعلا-:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[ما جاء في أن لله تعالى يدًا]

٨- وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيءُ النهارِ، ويبسط يده بالنهارِ؛ ليتوب مسيءُ الليلِ، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها». رواه مسلم(١) [٨].

«قد فعلت»(٢).

فهذه الأحاديث فيها معرفة الله -جل وعلا-، وقد اختارها الشيخ عن فقهٍ وعن معرفةٍ تامَّةٍ؛ لكونها تُعرِّف بالله عز وجل، وتبيِّن أسماءه وصفاته المذكورة في ثنايا هذه الأحاديث الثابتة.

[٨] هذا الحديث فيه إثبات صفة اليد لله سبحانه وتعالى، وهي يدٌ ليست كأيدي المخلوقين، إنما هي يد تليق بجلال الله سبحانه وتعالى دون تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، وأنَّه يبسُطها تكرُّمًا منه سبحانه وفضلًا.

قوله صلى الله عليه وسلم: **«يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار»** هذا فيه إثبات أن الله يتوب علىٰ عباده ليلًا ونهارًا متىٰ ما تابوا، وأن التوبة ليس لها وقت محدَّد، ففي أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار فإنه سبحانه وتعالى يقبل التوبة من عباده، فهو -جلَّ شأنه- ليس علىٰ أبوابه حجابٌ، وليس لفضله حدٌّ، وليس للتوبة إليه وقت محدَّد؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: **«ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»** فهذا شأنه سبحانه وتعالى.

وفي الحديث كذلك الحثُّ علىٰ التوبة، والمبادرة إليها، وأنه علىٰ الإنسان ألَّا يؤخِّرها.

---

(١) برقم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٥٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[ما جاء في إثبات صفة الرَّحمة لله تعالى]

٩- ولهما[١]، عن عمرَ رضي الله عنه قال: «قُدِمَ علىٰ رسول الله ﷺ بسَبْي هوازن، فإذا امرأة من السَّبي تسعىٰ، إذ وجدت صبيًّا في السبي، فأخذته فألزَقَتْهُ ببَطنها فأرضعتْهُ فقال النبي ﷺ: **أتَرون هذه المرأةَ طارحةً ولدها في النارِ؟** قلنا: لا والله. فقال: **لله أرحمُ بعبادِهِ من هذه بوَلدِها**»[٩].

=

وفيه وصف الله بأنَّ له يدًا، وأنها مبسوطة غير مقبوضة.

وأنه يتوب علىٰ عباده تعالى دائمًا وأبدًا، في الليل والنهار.

وأنَّ التوبة إليه تعالى لا تختص بوقت معين أو مكان معين، كما هو شأن بعض المِلَل الأخرىٰ.

ولهذا جاء في الحديث القدسي، قوله: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»[٢].

[٩] هذا الحديث فيه إثبات صفة الرحمة لله عز وجل، وأن رحمته أشدُّ من رحمة الوالدة بولدها، إذْ ليس هناك من الخَلْق أرحم من الوالدة بولدها، والله -جل وعلا- أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فرحمته سبحانه عظيمة شديدة.

وقوله: «**بسَبْي هوازن**»، هوازن، هي: قبيلة معروفة، وتسمىٰ الآن عتيبة، وقصتهم أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام ثمان من الهجرة، ودخلت قريش في طاعته ﷺ كانت هوازن تُقيم قريبًا من مكة، فخشوا من رسول الله ﷺ أن يغزوهم =

---

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

....

=

فاجتمعوا علىٰ غزو الرسول ﷺ قبل أن يغزوهم، فعلم ﷺ بذلك فجهَّز الجيش من الذين جاءوا معه من المدينة، ومن أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح.

فخرج معه ﷺ جيش عظيم، والتقىٰ الفريقان في وادي حنين، وحصل علىٰ المسلمين في أول الأمر ضيقٌ شديد بعدما كانوا معجبين من كثرة عددهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]؛ لكن الرسول ﷺ ثبت ولم يتزحزح من مكانه.

وجعل ينادي المسلمين حين أمر عمَّه العباس أن ينادي بصوته الجَهْورِيِّ، فنادىٰ المسلمين بنداء رسول الله ﷺ، فعاد المسلمون والتفُّوا حول الرسول ﷺ، ثم دارت المعركة من جديد فنصر الله المسلمين، وغنموا أموال هوازن ونساءها وأطفالها؛ لأن هوازن جاءت بأموالها ونسائها وأطفالها إلىٰ أرض المعركة، فصارت غَنيمةً للمسلمين.

فلما انتهت المعركة، وغَنم المسلمون مغانم هوازن، وجُمعت هذه الغنائم، رأىٰ الرسول ﷺ امرأة مسرعةً تجوب العسكر مشفقة تبحث عن ولدها، فلما رأته أخذته وألزقته ببطنها، وجعلت تُرضعه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النَّار؟** قالوا: لا، والله. فقال ﷺ: **لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بوَلَدها**».

فهذا فيه إثبات صفة الرَّحمة لله ﷻ، وأنها أرحم من رحمة الوالدة بولدها؛ لكن هذا لمن تسبَّب في طلب الرَّحمة.

وأما من ضيَّع العمل الصالح، وعصىٰ الله ﷻ وكفر به، فقد فرَّط وضيَّع نفسَه، وأما من أطاع الله، وأطاع رسوله ﷺ، وعمل بأسباب الرحمة، فإن الله ﷻ أشدُّ رحمةً به من هذه المرأة بولدها.

[مدى سعة رحمة الله تعالى]

١٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خَلق الله الخلق، كَتب في كتابٍ، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتِي غلبتْ غضبي». رواه البخاري(١)[١٠].

---

[١٠] قوله: «لَمَّا خلق الله الخلق» يعني: فرغ من خَلْق الخلق، السموات والأرض والمخلوقات كلها، كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وجاء تفصيل خَلقه في هذه الستة الأيام في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآيات، فلما خلق الخَلق سبحانه كتب كتابًا، فهو عنده فوق العرش، كما جاء في الحديث.

والمقصود بالكتاب: كتاب القضاء والقدر، وهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في غيره أيضًا مما شاء الله تعالى، فما من شيء إلا وهو مكتوب، وهذه الكتابة بعد خَلْق السموات والأرض، وهذه الكتابة غير الكتابة العامة في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة العامة في اللوح المحفوظ كانت قبل أن يخلق الله سبحانه السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وإنما هذه الكتابة المذكورة في هذا الحديث كتابة خاصة.

فقوله ﷺ: «كتب في كتابٍ» هذا فيه إثبات الكتابة، وأنها من أفعال الله -جل وعلا-.

=

(١) برقم (٣١٩٤)، وهو عند مسلم (٢٥٧١).

....

=

وقوله: «**عنده فوق العرش**» العرش: هو عرش الرَّحمن ﷻ وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وأعظمها، فهو عرش عظيم، لا يعلم عِظَمَه إلا الله سبحانه وتعالى، والعرش في الأصل: السرير الذي يجلس عليه المَلِك، والمراد به هنا: هذا المخلوق العظيم الذي استوىٰ الله -جل وعلا- عليه، وهذا فيه إثبات العُلوِّ لله واستوائه علىٰ العرش، والإيمان به؛ لأن الله اختصَّ هذا الكتاب عنده، وإذا كان عنده فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا الكتاب في مكان قريب من الله سبحانه وتعالى.

وليس المراد بقوله: «**عنده**» أنه في ملكه؛ لأن كل المخلوقات في ملكه؛ ولكنه اختصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مثل بعض الملائكة المقرَّبين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]. فخصَّ بعض الأشياء بأنها عنده مقرَّبة، وهذا يدلُّ علىٰ أهمية هذا الكتاب، ومكانته عند الله سبحانه وتعالى.

ومضمون هذا الكتاب ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**» هذا فيه وصف الله -جل وعلا- بهاتين الصفتين: الرحمة والغضب، وهذا من صفات أفعاله -جل وعلا-، فهي صفات فعلية، يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء، فهما صفتان لله -عز وجل- تليقان بجلاله، ورحمته ليست كرحمة المخلوق، ولا غضبه كغضب المخلوق، وإنما هما صفتان تليقان بجلاله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث أنَّ الرَّحمة سبقت الغضب، فهو سبحانه يُحبُّ أن يرحم عباده إذا هم فعلوا الأسباب التي تُسبِّب الرحمة، وأما إذا فعلوا موجبات الغضب وأسبابه كالمعاصي والمخالفات، فإنه سبحانه يغضب عليهم، فالرحمة لها أسباب، والغضب كذلك، فالأعمال الصالحة سبب لرحمة الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وللغضب أسباب كالكُفر والشِّرك والمعاصي، فإن ذلك كله مما يُغضب الله -جل وعلا-.

=

وفي الحديث كذلك بيان أن الله يُحبُّ أن يرحم عباده، ولا يُحبُّ أن يُعذِّبهم، وهذا من فضله وكرمه سبحانه علىٰ عباده، إلَّا إذا تركوا أسباب الرحمة وفعلوا أسباب الغضب، فهم الذين جَنَوا علىٰ أنفسهم، وهو سبحانه لا يُعذِّب أحدًا وهو ظالم له، أو بدون سبب، وإنما يعذِّب علىٰ أسباب تقتضي الغضب منه ﷻ، وهي: الكفر، والشرك، والنفاق، والمعاصي.

ولكن الله يُحبُّ أن يعفو، وأن يغفر إذا ما تاب العباد إليه وأنابوا واستغفروا، فإنه ﷻ يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، وهذا أحبُّ إليه ﷻ؛ لأنه عفوٌّ يحبُّ العفوَ، كما جاء في دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ»**[١].

وهذا من كرمه وجوده -جل وعلا-، وإلَّا فهو ليس بحاجة إلىٰ عباده؛ بل هم المحتاجون إليه ﷻ، وهو يُحبُّ لهم ما يُصلحهم، ويُحبُّ أن يتوب عليهم ويغفر لهم ويُنعِّمهم بالجنة، إذا هم تقرَّبوا وتابوا إليه واستغفروه؛ ولذلك حثَّ عباده علىٰ التوبة والاستغفار، ونهاهم عن المعاصي، وأمرهم بالطاعات، وكل ذلك من لطفه ﷻ، ومن محبَّته للمغفرة، وللعفو، وهو من صفاته ﷻ العظيمة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

١١- ولهما(١) عنه: أنَّ رسول اللهﷺ قال: «جعل الله الرَّحمة مائةَ جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمِن ذلك الجزء تَتراحمُ الخَلائقُ؛ حتىٰ تَرفعَ الدابَّةُ حافِرَها عن ولدِها خشيةَ أن تُصيبَه» [١١].

---

[١١] هذا حديث عظيمٌ فيه بيان سعة رحمة الله ﷻ، كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

فالرحمة لها أسباب، وهي رحمة واسعة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن هذه الرحمة المذكورة في هذا الحديث المتفق عليه، أنزل الله منها رحمة واحدة في الأرض، وعنده تسع وتسعون رحمة قد ادَّخرها سبحانه ليوم القيامة، وهذه الرحمة التي أنزلها في الأرض تتراحم المخلوقات من آثارها، حتىٰ إن «الدابة»، أي: البهيمة التي ليس عندها عقل «ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» فهي رحمة طبيعية، جعلها الله فيها، وهي من آثار هذه الرحمة التي أنزلها الله سبحانه تتراحم بها الخلائق فيما بينهم؛ فإذا كانت هذه آثار رحمة واحدة، فكيف ببقية الرحمة التي عنده ﷻ؟! وفي يوم القيامة تنضم هذه الرحمة إلىٰ ما عنده من الرحمة التي ادَّخرها ﷻ لتكون مائة رحمة يرحم بها مَن يستحق الرحمة من عباده الذين فعلوا الأسباب الموجبة لها في هذه الدُّنيا، فتابوا واستغفروا وأنابوا ورجعوا إلىٰ الله وأصلحوا أعمالهم.
=

---

(١) البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

١٢- ولمسلم[1] معناه من حديث سلمانَ، وفيه: «كلُّ رحمةٍ طِباق ما بَين السَّماء والأرضِ». وفيه: «فإذا كان يومُ القيامة كمَّلها بهذه الرحمة»[١٢].

فهذا الحديث فيه وصف الله -جل وعلا- بالرحمة، وأنها رحمة عظيمة، وأن الله تعالىٰ يرحم في الدُّنيا؛ ولكن رحمته في الآخرة أعظم، فمن لم تَسَعه رحمة الله؛ فإنه خاسر لا خير فيه، والله -جل وعلا- يرحم من عباده الرُّحماء، ولهذا قال ﷺ: «**ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء**»[2].

وقال: «**مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم، وتَعاطُفِهم مَثلُ الجسد إذا اشتكىٰ منه عُضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحمىٰ**»[3]. فإذا تراحموا -رحمهم الله-، فمن مقتضىٰ هذا الحديث ذكر أن أسباب -رحمة الله تعالىٰ- إنما تنشأ من تراحُم العباد فيما بينهم.

[١٢] في الحديث بيان مدىٰ سعة كل رحمة من المائة رحمة التي اتصف الله بها، فالرَّحمة الواحدةُ تَسعُ السموات والأرض، فإذا كان يوم القيامة تكاملت الرحمة مائة رحمة بانضمام الجزء الذي أنزله الله ﷻ إلىٰ الأرض إلىٰ ما ادَّخره في السماء، فصارت مائة رحمة في الآخرة؛ وهذا دليل علىٰ سعة رحمة الله ﷻ.

وهذا أيضًا من شأنه أن يجعل الإنسان لا يقنط من رحمة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

---

(١) برقم (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

....

=

وقال تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي هذا الحديث، وما جاء بمعناه من الأحاديث والآيات الكريمة، بيان أنه لا ينبغي للمسلم أن يقنط من رحمة الله، حتىٰ ولو تعاظمَ ذنبه، فإنه ينبغي ألَّا ييأس من العودة والرُّجوع إلىٰ الله، وألَّا يعتقد بأنه لن يغفر الله له، وألَّا يترك التوبة، وييأس من رحمة الله عز وجل، بل عليه أن يتوب ويرجو رحمة الله مهما كان ذنبه ومهما كانت معصيته، فإذا تاب منها تاب الله عليه، وكذا المشرك والكافر والمنافق والزاني والسارق وشارب الخمر وآكل الربا، فهؤلاء جميعًا إذا ما تابوا تاب الله عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

ولكن ينبغي للإنسان ألَّا يتَّكِل علىٰ سعة رحمة الله، وبالتالي يتهاون بالمعاصي، فكما أن الله عز وجل واسع المغفرة فإنه شديد العقاب؛ قال تعالىٰ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

فعلىٰ الإنسان ألَّا يتساهل في عمل المعاصي؛ بل عليه أن يتَّقي الله ويخاف من العذاب كما يرجو الرحمة، فالجمع بين الأمرين هو المطلوب، بين الخوف والرَّجاء، الخوف من عذاب الله، فلا يخاف خوفًا يُقنِّطهُ من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمِّنُه من مكر الله؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

=

١٣- وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الكافرَ إذا عَمِلَ حسنةً، أُطعمَ بها طُعمةً في الدُّنيا، وأمَّا المؤمنُ فإنَّ الله يدَّخرُ له حسناتِه في الآخرةِ ويُعقبُه رزقًا في الدُّنيا علىٰ طاعته». رواه مسلم[1][١٣].

=

وكما أن الله واسع الرحمة والمغفرة، فإنه كذلك شديد العقاب ﷻ، وقد جمع سبحانه بينهما في آية واحدة بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

فينبغي عدم الغفلة عن هذا الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يُغلِّب أحدهما علىٰ الآخر؛ ولكن قالوا: إلا في حالة واحدة وهي عند الموت، فإنه يُغلِّب جانب الرَّجاء، قال ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله ﷻ»[2]؛ فإذا ما عَجَز المرء عن العمل وحَضره الموتُ فإنه يُغلِّب جانبَ الرَّجاء، ولا يُغلِّب جانبَ الخوف، أَمَّا وإنه ما دام علىٰ قيد الحياة، وكان متمكِّنًا من العمل الصالح والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فإنه ينبغي أن يكون بين الخوف والرَّجاء.

والرجاء المحمود هو الذي لا يأمن به صاحبُه من غضب الله ﷻ وعقوبته، والخوف المحمود هو الذي لا يَقنط صاحبُه من رحمة الله ﷻ .

[١٣] في هذا الحديث بيان الفرق بين المسلم والكافر، من حيث إن الكافر إذا عمل حسنةً في الدُّنيا بأنْ أطعمَ جائعًا أو كسا عاريًا أو سقىٰ عطشانَ، ونحو ذلك من الأعمال الداخلة في باب الإحسان إلىٰ الناس، فإنه وإن كان هذا العمل =

(١) برقم (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

....

من كافر، فإن الله -جلَّ وعلا- لا يضيع عمل عامل؛ ولهذا فإنه سبحانه يُعجِّل له جزاءه، فيُعطىٰ بها طُعمة في هذه الدُّنيا، إما بأنْ يُطيل في عُمره أو بأن يُوسِّع له في رزقه أو غير ذلك من مصالح الحياة الدنيا؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا؛ فهذا المراد من قوله ﷺ: «**أُطعم بها طُعمة في الدنيا**».

وأمَّا المؤمن، فإنه إذا عمل الحسنات، فإنَّ الله يَجمع له بين خَيرَي الدنيا والآخرة، فيدَّخر له حسناته في الآخرة؛ لأنَّ جزاء الآخرة خير وأحسن، ولا يحرمه أيضًا من الجزاء في الدُّنيا، بل يعجِّل له شيئًا من الجزاء في هذه الحياة الدُّنيا من سَعة الرِّزق والصِّحة والعافية، فهو سبحانه يُعطي المؤمن علىٰ حسناته في الدُّنيا والآخرة، ولكنه سبحانه يعطيه في الآخرة أكثر ممَّا يُعطيه في الدُّنيا، وهذا بخلاف الكافر، فإن الله يُعطيه في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فإنه سبحانه يحرمه من رحمته وجنَّته، هذا ما يدل عليه المفهوم من الحديث.

وفي الحديث كذلك، بيان سعة فضل الله ﷻ، حتىٰ إنه يشمل أعداء الله والكفَّار، فهو سبحانه يرزقهم، ويُنعم عليهم في هذه الدُّنيا، ويُصحُّ أبدانَهم، وهذا كله من إحسانه وفضله ﷻ، فلا يُعاجلهم بالعقوبة؛ ولكنهم إذا ماتوا علىٰ كفرهم، فإنهم لا ثواب لهم في الآخرة.

[ما جاء في إثبات صفة الرضا لله تعالى]

١٤- وله[1]، عنه مرفوعًا: «إنَّ الله ليرضىٰ عن العبدِ يأكلُ الأكلةَ فيحمَده عليها، ويَشربُ الشَّربةَ فيَحمَده عليها»[١٤].

---

[١٤] في الحديث وصفُ الله ﷻ بالرِّضا، وهو صفة تليق بجلاله ﷻ، فقوله: **«ليرضىٰ عن العبد ...»** إلخ. يعني: يرضىٰ عن العبد الذي يشكر النِّعم.

وفي هذا مشروعية الشُّكر، والحمد لله ﷻ، فإذا أكل يقول: الحمد لله، وإذا شرب يقول ذلك، كما أنه عند البداية يقول: باسم الله، وهذا من آداب الإسلام؛ لأن هذا الأَكل وهذا الشُّرب، لم يصل إلىٰ الإنسان إلَّا بفضله ﷻ، فهو الذي خلقه ويسَّره، وهو الذي مكَّن العبد منه، وهو الذي يَنفع به إذا أُكل وشُرب، فيُغذِّي العبدَ به ويُخلِّصه من أذاه، فكلُّ هذا ونحوه من فضله وكرمه ﷻ، فإذا ما أكل وشرب العبد، وشكر الله علىٰ ذلك، فإنه سبحانه يرضىٰ عنه.

ففي هذا الحديث إثبات صفة الرِّضا لله ﷻ من غير تكييف ولا تمثيل، وفيه بيان مشروعيَّة حَمْد الله علىٰ الأكل والشرب.

---

(١) مسلم برقم (٢٧٣٤).

[بيان مدى عظمة الله تعالى]

١٥- وعن أبي ذرٍّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «**أَطَّتِ السماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وفيه ملكٌ ساجد لله تعالىٰ، والله ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُم بالنساء علىٰ الفُرُشِ، ولخرجتُم إلىٰ الصُّعُدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**». رواه الترمذي[١] وقال: حديث حسن.

قوله: «**لو تعلمون ما أعلمُ؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتُم كثيرًا**». في الصحيحين من حديث أنس[٢][١٥].

---

[١٥] هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه بيانُ عظمة الله ﷻ، وفيه وصفٌ لصوت السماء من ثِقَل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها.

وقوله ﷺ: «**أطَّتِ السماء**» **الأَطيط، هو**: في الأصل صوت الرَّحْلِ من ثِقَل ما عليه، فإذا أثقل الراكبُ الرَّحل يصير له صوت يسمَّىٰ بالأطيط من شدَّة التحمُّل، والمراد هنا: أنه صار للسماء صوت من شدَّة التحمُّل علىٰ الرغم من قوَّتها، وسعتها من كثرة الملائكة الذين أثقلوها.

وقوله: «**إلَّا وفيه مَلَك ساجد**» الملائكة من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، فهم خَلْق وجُند من جند الله تعالىٰ لا أحد يراهم، ولكننا نؤمن بهم، والإيمان بهم هو أحد أركان الإيمان الستة كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»[٣].

---

(١) برقم (٢٣١٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢١٥١٦).

(٢) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث ابن عمر ﵄.

وقال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

هذه أركان الإيمان، ومن بينها الإيمان بالملائكة، وهم خَلق من خلق الله ﷻ، خلقهم الله من نور، وخلق الجِنَّ من نار، وخلق بني آدم من تراب، فالجن والشياطين من عالم الغيب؛ ولكن الله خلقهم من مارج من نار، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أي: من لهب النار المرتفع، فهناك مخلوقات كثيرة خلقها الله، منها ما هو من عالم الغيب، ومنها ما هو من عالم الشهادة.

ومن عالم الغيب: الملائكة، فنؤمن بهم كما ذكرهم الله ﷻ، وكما ذكرهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، فالذي لا يؤمن بالملائكة كافر بالله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ فالملائكة رسل خلقهم الله ﷻ لمُهمات، ومن مهمَّاتهم أن الله يرسلهم بأوامره، قال ﷻ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

وهم رسل يعبدون الله ﷻ، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

....

وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. **هذه هي صفة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-.**

ومن هؤلاء الملائكة مَن اقتصر عمله علىٰ عبادة الله تعالىٰ؛ ولهذا قال ﷺ: «**ما فيها** -أي: في السماء- **موضع أربع أصابع إلا وفيه ملَك ساجد لله تعالىٰ**».

وهذا فيه دليل علىٰ كثرة الملائكة، وفيه دليل علىٰ فضلهم، وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى، فهم لا يَفتُرون عن عبادته، ويُنفِّذون أوامره سبحانه في الخلق والكون، وهم جند من جند الله عز وجل، يجب الإيمان بهم كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم، والإيمانُ بأعمالهم التي يقومون بها مما جاء تفصيله في القرآن الكريم، والسُّنة النبوية.

ثم إنَّ الذين لا يؤمنون بالملائكة، أو يؤولون حقيقتهم كما هو الحال عند بعض الفلاسفة الذين يؤولون حقيقة وجود الملائكة بأنها قوىٰ الخير النفسانية التي لدىٰ الإنسان، كما يسمُّون القُوىٰ الشريرة التي في الإنسان الشياطين، ويقولون: ليس هناك شياطين لهم أجسام، وليس هناك ملائكة مخلوقون لهم أجسام حسِّية، وإنما هي مجرد هواجس الخير المتمثلة بالملائكة، وهواجس الشرِّ المتمثلة في الشياطين، وهذا ونحوه من التخرُّصات والأباطيل من تأويل القرامطة والفلاسفة الباطنية، ومع الأسف هذا موجود في «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا عند تعرُّضه لقصَّة آدم عليه السلام، وقد ذكره صاحب «المنار» عن شيخه محمد عبده، وشيخه محمد عبده نقله عن كتاب «الإحياء» للغزالي، الذي كانت عنده نزعة فلسفية أثَّرت عليه، وهذا التأويل منها.

والحاصل: أن الذي يفسِّر الملائكة علىٰ أنها القوىٰ النفسية إن كان متعمدًا لهذا فهو كافر، وإن كان مقلِّدًا فهو ضالٌّ ومخطئ، فعلينا أن نعرف أفكار الفلاسفة ونعرف الوحي المنزَّل من عند الله ونفرِّق بينهما.

ففي هذا الحديث الحثُّ علىٰ وجوب الإيمان بالملائكة، وفيه بيان كثرتهم، وأنهم يملئون السموات علىٰ سعتها، وفيه دليل علىٰ فضلهم وعبادتهم لله ﷻ، فهم عالَم شريف جليل من عالم الغيب الذي خلقه الله ﷻ، لا يعلمهم إلَّا الله ﷻ.

وأمَّا قوله في آخر الحديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» في الصحيحين؛ أي: هو متفق عليه؛ رواه البخاري ومسلم، وأمَّا أوله فهو في السُّنن و«المسند» عند أحمد.

وقوله: «**وما تَلَذَّذتُم بالنساء علىٰ الفُرُش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعُدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**» هذا فيه ذكر شدَّة الخوف من أهوال يوم القيامة، وما فيها من أخطار عظيمة، والله -جلَّ وعلا- ذكر هذا في القرآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

ونحن لا نعلم من أهوال يوم القيامة مثل الذي يعلمه النبيُّ ﷺ؛ لأن الله ﷻ أطلعه علىٰ أمور الآخرة ما لم نطَّلع عليه رحمةً بنا، ولأنه لو أطلعنا علىٰ هذه الأشياء لحدث بنا ما ذكره النبيُّ ﷺ بقوله: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**».

وقوله: «**تجأرون**» يعني: ترفعون أصواتكم بالبكاء والتضُّرع من شدة الخوف، فالأمر شديد، والخطب هائل، فيجب علىٰ المسلم أن يكون مستعدًّا لهذه المواقف والأخطار التي هو قادم عليها.

ومما أطلع الله -جل وعلا- نبيَّه ﷺ عليه عذاب القبر الذي لا يخلو من المواقف والعجائب التي لا يعلمها إلا الله من أحوال الموتىٰ الذين يعذَّبون أو يُنعَّمون، ونحن لا نُحِسُّ بهذا، ولكن الرسول ﷺ أطلعه الله علىٰ شيء من ذلك.

وحينما مرَّ علىٰ قبرين فقال: «**إنهما ليُعذَّبان**»[1]. فنحن نمرُّ علىٰ القبور، ولا نشعر بشيء من ذلك مع أنَّ هذه القبور، «**إما روضة من رياض الجنة أو حُفرة من حُفر النار**»[2]، فكل هذا من أمور الآخرة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ومن الأمور التي حجبها الله عنا، وقد يحصل شيء من الاطلاع لبعض الناس علىٰ عذاب القبر من باب العِظَة، وهذا شيء معروف، ومن أراد شيئًا من هذا فليراجع كتاب «أهوال القبور» للحافظ ابن رجب رحمه الله وغيره من الكتب المؤلفة في هذا الباب؛ ليعتبر ويتَّعظ، مع أنَّ الذي غُيِّب عنَّا ولم نعلمه كثير.

ولما مرَّ الرسول ﷺ بقبرين، قال: «**إنهما ليُعذَّبان وما يعذَّبان في كبير، أما أحدُهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخرُ فكان يمشي بالنميمة**»[3].

فهذان سببان من أسباب عذاب القبر، فهذا مما أطلع الله نبيَّه ﷺ عليه، وقال:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[حُرمة التألِّي على الله تعالى]

١٦- ولمسلم(١) عن جُندبٍ ﷺ مرفوعًا: «قال رجلٌ: واللهِ لا يَغفرُ الله لفلانٍ، فقال الله ﷻ: مَن ذا الذي يَتألَّىٰ عليَّ ألَّا أغفرَ لفلانٍ؟ إنِّي قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك»[١٦].

=«لولا ألَّا تَدافنوا لدَعوت الله أن يُسمعَكُم من عذاب القبر»(٢)، فهو ﷺ يطَّلع علىٰ أشياء قد أطلعه الله ﷻ عليها، وهذا معجزة له ﷺ والبشر لا يطيقون سماع ومشاهدة ما أطلع الله سبحانه نبيَّه ﷺ عليه، وحجبها عنَّا رحمة من الله بنا؛ ولكن هذه الأشياء تنكشف لنا عند الموت.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. فالميت يُعاين عند الموت، ويُعاين الملائكة، ومنزلته عند الله إن كان من أهل الخير، وإن كان من أهل الشرِّ فإنه يُعاين ما سيئول إليه مصيره من الشقاء والعذاب، وإذا وُضع في قبره فإنه يُعاين هذه الأمور وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، أما وإنه ما دام علىٰ قيد الحياة، فإن الله حجب هذه الأمور عنه رحمةً به، وإلَّا فلو دَرىٰ بها وعاينها لما عاش ولا تلذَّذ بأكلٍ ولا شُربٍ ولا بأيِّ شيء من ملذَّات الحياة الدنيا.

[١٦] في هذا الحديث بيان مدىٰ سعة مغفرة الله ﷻ، وأنه ينبغي ألَّا يقنط أحد من رحمة الله، ولا أن يُقنِّط أحدٌ أحدًا من رحمة الله وعفوه، وإنما ينبغي الحَثُّ علىٰ التوبة والاستغفار، ويدخل في ذلك الكافر حيث ينبغي حثُّه علىٰ التوبة،=

---

(١) برقم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس ﷺ.

....

=

وعلىٰ الدخول في الإسلام وترغيبه في دخول الجنة والنجاة من النار، ومن باب أَولىٰ عدم تقنيط المؤمن من رحمة الله ﷻ إذا ما رُؤي علىٰ معصية، وإنما الواجب حثُّه علىٰ التوبة والاستغفار وتخويفه من العذاب، وأما الجزم بأنه لن يُغفر له والحَلِف علىٰ ذلك، فهذا من باب الإساءة في حقِّ الله تعالىٰ، كما أن فيه تقنيطًا من رحمة الله -جل وعلا-، معْ أن هذا القائل لهذه العبارة كما ورد في الحديث إنما قالها من باب الغَيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه رأىٰ أخاه علىٰ المعصية فنهاه؛ ولكنه أَبىٰ أن يترك المعصية، فعند ذلك غضب عليه، وقال: «**والله لا يغفر الله لفلان**» ولكن الله قال: «**مَنْ ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ**» وهذا استنكار منه -جلَّ وعلا- لما قاله.

وقوله: «**يتألَّىٰ**» يعني: يحلف «**عليَّ ألَّا أغفر لفلان، إني قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك**» لما أساء الأدب مع الله وقنَّطَ من رحمته -جل وعلا-، وقد قال -جل وعلا-: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧]. فلما قَنَّط من رحمة الله، فإنه سبحانه أحبط عمله.

فهذا الحديث فيه مسائل:

أولًا: بيان مدىٰ سعة رحمة الله ﷻ، وأنه ينبغي للعاصي ألَّا يقنط منها؛ ولكن ليس معناه أن يقيم علىٰ معصيته، فإذا كان يريد الرحمة، فإنه يتوب إلىٰ الله ﷻ، ولا ينبغي له أن يرجو رحمة الله وهو مقيم علىٰ المعاصي، فهذا أمر لا يجوز، وهو في هذه الحالة قد أَمِنَ من مكر الله تعالىٰ.

ثانيًا: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يُقنِّط الناسَ من رحمة الله مهما رأىٰ عليهم من المعاصي والمخالفات، ولكن يدعوهم إلىٰ الله ويأمرهم بالتوبة، ويُحبِّبهم بها ويُرغِّبهم في ثواب الله وفضله، وألَّا يحلف أنه لن يُغفر لهم. =

ثالثًا: أنه لا يجوز الحَلِفُ علىٰ الله في منعه -جلَّ وعلا- من فِعْل المغفرة والإفضال علىٰ عباده، وأمَّا الحَلِف علىٰ الله علىٰ أن يفعل الخيرَ ويُنزله، فهذا لا بأس به، قالﷺ: **«إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسَمَ علىٰ الله لأبرَّه»**(١). وهذا في الرَّجاء، وحُسن الظنِّ بالله -جل وعلا-، فإذا حَلَف المسلم علىٰ الله بأن يفعل الخيرَ ويغفر لعباده ويرحمهم، اعتُبر هذا من باب حُسن الظنِّ بالله ﷻ، وليس هو من سوء الظنِّ به ﷻ.

هذا الفرق بين الحالتين، وهذا الجمع بين الحديثين، حديث: **«والله، لا يغفرُ الله لفلانٍ»**، وحديث: **«إنَّ مِنْ عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبره»** فالأول أحبط الله عمله، والثاني في الرجاء وحُسن الظنِّ بالله ﷻ.

ثالثًا: وفي الحديث خطر الكلام السيِّئ، وأنه علىٰ المسلم أن يحفظ نفسَه من الانزلاق في الكلام السيئ في حقِّ الله ﷻ أو في حق العباد، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فعلىٰ المسلم أن يحفظ لسانه من أن يقول كلمة واحدة، فيكتب الله له بها غضبه إلىٰ يوم يلقاه، قال أبو هريرة عند هذا الحديث: والذي نفسي بيده لَتكلَّم بكلمة أوبقَتْ دُنياه وآخرتَه(٢)؛ ففيه خطر اللسان، فعلىٰ الإنسان أن يحفظ لسانه من الكلام السيئ؛ لأنه ربما يقول كلمةً تُحبط عمله، فلا يتساهل الإنسان بالكلام؛ وفي الحديث: **«وهل يكبُّ الناسَ علىٰ وجوههم في النار -أو قال: علىٰ مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس ﵁.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل ﵁.

[الترغيب في الجمع بين الخوف والرَّجاء]

١٧- وله[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «لو يَعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبةِ؛ ما طَمِعَ بجَنَّته أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرَّحمةِ؛ ما قَنَطَ مِن جنَّتِه أَحدٌ»[١٧].

=

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٢].

[١٧] إن الله -جل وعلا- واسع المغفرة، وهو شديد العقاب، فلو علم المؤمن ما عند الله من العذاب لما طمع في رحمة الله أحد، ولو علم الكافر ما عند الله من العفو والمغفرة لما قنط من رحمته أحد، فهذا فيه دليل علىٰ سعة رحمة الله -تبارك وتعالىٰ-، وعلىٰ شدَّة غضبه، وأن سعة الرحمة لا تحمل المؤمن علىٰ الأمن من مكر الله، والتساهل في عمل المعاصي والسيئات.

وأنَّ الخوف من عذاب الله لا يَحمل العبدَ علىٰ القنوط من رحمة الله فيترك التوبة والاستغفار ظنًّا منه أنه لن يغفر له، أو أن يدفع هذا الأمر أحدًا لتقنيط الآخرين من رحمته تعالى، فمثل هذا لا ينبغي لأحد، لأنه -جلَّ وعلا- فتح بابه للتائبين، وهو سبحانه بيَّن عذابه، وشدَّة غضبه، وهذا من حكمته سبحانه وتعالى من أجل أن يُرغِّب العباد في الأعمال الصالحة ويُنفِّرهم من الأعمال السيِّئة.

=

---

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[بيانُ مدى قُرب الجنَّة والنار من العبد]

١٨- وللبخاري[١]، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنَّةُ أقربُ إلىٰ أحَدِكُم مِن شِراكِ نَعلِهِ، والنَّارُ مثلُ ذلك»[١٨].

=

ولهذا؛ فإن القرآن الكريم مليء بآيات الوعد والوعيد، وغالبًا ما يأتي ذِكْر الجنَّةِ بعد ذِكْر النار، فيذكر سبحانه النار، وما اشتملت عليه من العذاب، ثم يذكر الجنة وما فيها من النعيم، فتجد هذا في الآيات المتجاورة، والحكمة في ذلك دفع العبد للخوف والرجاء، فإنه إذا قرأ عن النار وعرف ما فيها من العذاب لعلَّه يتوب إلىٰ الله ويستغفره ولا يقنط من رحمته، وإذا قرأ عن الجنة وما فيها من النعيم لعلَّه يطمع في رحمة الله فيعمل الأعمال الصالحة، فإذا ذُكرت النار تاب من الذنوب، وإذا ذُكرت الجنة أكثر من عمل الحسنات، هذه هي حكمة الله تعالىٰ، في كونه يجمع بين الأمرين.

وكذلك فإنه ينبغي علىٰ الدُّعاة والوعَّاظ ألَّا يعتمدوا علىٰ آيات الوعيد فحسب، وألَّا يُبالغوا في تخويف الناس، وإنما عليهم أن يبادروا إلىٰ فتح باب الرَّجاء والطمع في رحمة الله.

وعليه؛ فإن الأصل في ذلك ترغيبهم وترهيبهم، فيجمعون بين هذا وهذا، وعدم اقتصارهم علىٰ ذِكْر آيات العذاب والوعيد، أو الاقتصار علىٰ ذِكْر آيات الرحمة والثواب هذا هو المطلوب من الدُّعاة والوعَّاظ، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر.

[١٨] هذا الحديث في بيانِ مدىٰ قُرب الجنَّة من الإنسان، وقُرب النار منه=

---

(١) برقم (٦٤٨٨).

=

كذلك، وذلك أنه إذا مات الإنسان وكان صالحًا دخل الجنة، وإن كان غير صالح دخل النار، والموت قريب من الإنسان، فربما يكون في لحظة، فيئول أمره إمَّا إلىٰ الجنة، وإمَّا إلىٰ النار في لحظةٍ واحدة، فالجنةُ قريبة، والنار كذلك، فلا ينبغي للعبد أن يُوسِّع الأمل في هذه الدُّنيا، فيبسط النفس فيها، ويستبعد الموتَ، ومجيءَ يوم القيامة.

وفي قصة الرَّجلين اللذين مرَّا علىٰ الصنم الذي لم يكن أحد يجوزه حتىٰ يقرِّب له قربانًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب، فقال: لا أملك شيئًا أُقرِّبه، فقالوا: قرِّب ولو ذُبابًا؛ فقرَّب ذبابًا؛ فخلَّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر كذلك، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله؛ فقتلوه، فدخل الجنة[1].

وقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند هذا الحديث: «فيه: قُرب الجنة والنار من الإنسان». فأمر الجنة والنار قريب من الإنسان.

فينبغي عدم فتح باب طول الأمل من خلال استبعاد الموت ومجيء يوم القيامة، وبالتالي التمادي في الذنوب والغفلة عن الآخرة، وقدوم لحظة الموت، والأصل في ذلك هو الاستعداد دائمًا لذكر الجنة، واستحضار النار، وأنهما قريبتان من الإنسان، إذ ليس بينه وبينهما إلَّا قَبْض الروح، ثم المآل إلىٰ أحدهما، فتصوُّرُ الجنة يدفع بالعبد إلىٰ فِعْل الأعمال الصالحة، وتصوُّرُ النار يدفعه إلىٰ التوبة والاستغفار من الذنوب.

=

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠٣٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفًا.

والحذر كل الحذر من أن يَفجأ العبدَ الموتُ، وهو علىٰ حالة غير مرضيَّة، فإذا وقع العبد في ذنب فلا ينبغي له الاغترار بصِغَر سِنِّه وبطولِ الأمل زاعمًا أنه سيتوب إلىٰ الله إذا ما طال به العُمُر، وكأنه ضمِنَ أن ذلك سيكون وهو لا يدري أن هذا من تلاعُب الشيطان به، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. فهؤلاء سيتوب الله عليهم؛ ودلالة ذلك قوله -جلَّ وعلا-: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وأما الذي يفتح لنفسه باب الأمل، ويُسوِّف في التوبة بعدما غرَّر به الشيطان مزيِّنًا له أنه ما زال شابًّا في أول عمره، فيبدأ بتأجيل التوبة إلىٰ أن يصل إلىٰ آخر عمره فيحسن خاتمته بالتوبة المزعومة! فمَن الذي يضمن له أن عمره سيمتد إلىٰ أن يَشيخ ويكبر؟ بل مَنْ الذي يضمن له أنَّه سيعيش بُرهةً من الزمن؟ فكم من إنسان فاجأه الموت، وهو جالس مع الآخرين في لحظة؟ ولهذا نقول: إن الآجال بيد الله تعالىٰ، وقد أخفاها عنَّا، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ففي هذا الحديث الحثُّ علىٰ تقوية اليقين؛ بقُرب الجنَّة والنار، وفيه الحثُّ علىٰ المبادرة والإسراع بالأعمال الصالحة، والتوبة من الأعمال السيئة.

وفيه أن النار والجنة يبدآن من حين موت الإنسان، ووضعه في القبر، فيأتيه نصيبه إمَّا من الجنة، وإما من النار، ويصير قبره، إما روضةً من رياض الجنة، وإما حفرةً من حُفر النار.

والقبر هو أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد فما بعده أيسرُ منه.

[الحثُّ على الإحسان إلى المخلوقات]

١٩- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعًا: «إن امرأة بغيًّا، رأتْ كلبًا في يوم حارٍّ يُطيفُ ببئرٍ، قد أَدْلَعَ لسانَه مِنَ العطشِ، فنزعت له مُوقَها، فَسَقَتْهُ؛ فَغُفِرَ لها بِهِ»[1] [١٩].

[١٩] قوله: «**إن امرأةً بغيًّا**» المرأة البغي: هي الزانية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور: ٣٣]. يعني: علىٰ الزنا، وهذه المرأة من بني إسرائيل ممن كان قبلنا، والنبيُّ ﷺ كان يحدِّث أحيانًا عن بني إسرائيل، بما فيه عبرة وعظة لنا، وهذه المرأة كانت تمارس الزِّنا، وهو كبيرة من كبائر الذُّنوب وفاحشة، وقد كانت ذات يوم تسير في طريق فأدركها العطش، فنزلت في بئر لتشرب منه فشربت وصعدت من البئر فلما خرجت منه رأت كلبًا يلهث من شدَّة العطش، وفي رواية: «**يأكل الثَّرىٰ** من **العطش**»[2]. فرحمته، فنزلت في البئر مرة ثانية، «**فنزعت مُوقَها**»، والمُوق: هو الخفُّ الذي يُلبس علىٰ القدم، فنزعته، لعدم وجود الإناء الذي يُحمل فيه الماء، وملأته ماءً، وأمسكته في فمها ثم صعدت من البئر فسَقت الكلب، فشكر الله لها هذا الإحسان إلىٰ هذه البهيمة فغفر لها هذه الخطيئة.

فهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

منها: فضل الإحسان إلىٰ البهائم، وأنَّه يجب علىٰ الإنسان أن يُحسن إليها بإطعامها وسقيها وتقديم ما تحتاج إليه، وفيه فضل سَقْي الماء للعطشان، والنبي ﷺ =

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (١٧٦١)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هي عند البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) بذكر رجل من بني إسرائيل، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

يقول: «**أيُّما مؤمنٍ سَقىٰ مؤمنًا شَربةً علىٰ ظمأٍ؛ سقاهُ الله يومَ القيامةِ من الرَّحيق المختوم**»[١]. وكذلك البهائم.

وفي هذا الحديث بيان سَعة رحمة الله ﷻ، وأنه يغفر الذنوب، ولو كانت كبائر دون الشِّرك؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما دون الشِّرك، فهذا امرأة تمارس كبيرةً قبيحة من كبائر الذنوب فغفر الله لها، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الخوارج الذين يَرَون أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام، فيكفر بذلك، وهذا مذهبهم.

والمعتزلة، يقولون: يخرج من الإسلام، ولا يدخل في الكفر؛ فيكون في منزلة بين المنزلتين، وهذا من أصول المعتزلة.

وأهل السنة والجماعة، يقولون: إن مرتكب الكبيرة التي دون الشرك لا يُكفَّر، ولكنه ينقص إيمانه بالذنوب، كما أنه يزيد إيمانه بالطاعات، فالإيمان يزيد وينقص ولا يزول بالمعاصي التي دون الشرك وإن كانت كبائر؛ ولكنها تُنقص الإيمان، وهذا الحديث أصل من أصول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وبيان أن الله سبحانه يغفر له إذا شاء ﷻ.

وفيه أن الحسنات يُذهبن السيئات، فهذه امرأة أحسنت إلىٰ هذه البهيمة، فسقتها علىٰ عطش، فأذهب الله عنها إثم هذه السيئة القبيحة بسبب الحسنة، والنبيُّ ﷺ، يقول: «**وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها**»[٢]. والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٠١)، والترمذي (٢٤٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٢٠- وقال: «دخلت النَّارَ امرأةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها؛ لا هي أطْعَمَتْها، ولا هي أَرسلَتْها تأكل مِنْ خَشاشِ الأرضِ».

قال الزُّهريُّ: لئلَّا يَتَّكلَ أحدٌ ولا ييأسَ أحدٌ. أخرجاه[1][٢٠].

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ: «وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل ذات كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ»[2]. يعني: سواء كانت الكبد الرطبة من الآدميِّين أو من البهائم.

[٢٠] هذا الحديث على عكس الحديث الذي قبله، فهاهنا امرأة أساءت إلى حيوان، فقد كان عندها هرَّة حبستها عن الخروج لطلب الرزق، ولم تؤمِّن لها ما يُبقي على حياتها حتى هلكت هذه الهرَّة، وهذه جريمة وإساءة إلى هذا المخلوق، فدخلت النار بسبب هذه السيئة، وليس معنى ذلك أنها كفرت، فقد يدخل النار مَنْ هو مؤمن، إذا كان عنده ذنوب؛ لكنه لا يخلَّد فيها، فيعذَّب فيها إلى ما شاء الله، ثم يخرج منها، فلا يُخلَّد في النار إلا الكفَّار.

قوله ﷺ: «دخلت النار امرأة في هرَّة» هذا مثل ما سبق معنا في الحديث[3]، أنه دخل رجل النار في ذباب، ودخل الجنة رجل في ذباب، وهنا ذكر أنه بسبب هرَّة دخلت المرأة النار «حبستها» حيث لم تؤمِّن لها ما يكفيها من الطعام والشراب، فدلَّ هذا على أنَّ مَن أساء إلى البهائم أنه يؤاخذ، وأن عليه هذا الوعيد، =

---

(١) البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقول الزهري عند مسلم ولم يذكره البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) راجع (ص٧٧) عند الحديث رقم (١٨).

فلا ينبغي أن يستخِفَّ الإنسان بهذه البهائم فيظلمها؛ لأن الظلم قبيح سواء كان مع البهائم أو مع غيرها.

وفي الحديث دليل علىٰ أنه يجوز حبس البهائم بشرط أن يؤمِّن لها ما يُبقيها علىٰ قيد الحياة من المأكل والمشرب، فهذه المرأة لو أمَّنت لها ما يكفيها لما دخلت النار، فدلَّ هذا علىٰ أنه يجوز للإنسان أن يحبس الطيور والبهائم؛ ولكن دون تعذيبها أو إهلاكها، أو تعريضها للخطر.

قوله: «قال الزهري»، هو محمد بن شهاب الزهري، الإمام الجليل، وقوله: «لئلَّا يتَّكِلَ أحد» يعني: لئلا يتكلَ أحدٌ علىٰ عمله؛ بل ينبغي أن يخاف من الذنوب، وإن كان مؤمنًا، فهذه امرأة مؤمنة دخلت النار بسبب هرَّة، فلا ينبغي أن يأمَن المؤمن ويتَّكل علىٰ عمله؛ بل يخاف أن يدخل النار.

وقوله: «ولا ييأس أحد» لأجل أن هذه امرأة بغي، وكانت قد ارتكبت الكبائر من الذنوب، فلم تيأس من رحمة الله ﷻ؛ وعليه فلا ينبغي للعبد أن ييأس من رحمته ﷻ؛ بل عليه المبادرة إلىٰ التوبة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وحديث البغي يدلُّ علىٰ أن المسلم لا يقنط من رحمة الله، مهما بلغت ذنوبه فإذا تاب إلىٰ الله تاب الله عليه.

ومسألة الخوف والرَّجاء هي من أصول الإيمان، والخوف والرَّجاء من أعظم أنواع العبادة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فقوله ﷻ: ﴿رَغَبًا﴾ يعني: رجاء، ﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفًا، فيجمعون بين الخوف والرَّجاء، فلا يخافون فقط، ولا يرجون فقط، وإنما يجمعون بينهما، فمن خلال هذين الحديثين يتبيَّن لنا هذا.

[إثبات صفة العَجب لله تعالى]

٢١- وعنه، مرفوعًا: «عَجِبَ ربُّنا مِنْ قومٍ يُقادونَ إلىٰ الجنَّةِ بالسَّلاسِلِ». رواه أحمد والبخاري(١)[٢١].

والشيخ لما ذكر الحديث الأول خاف علىٰ سامعه أن يتكل علىٰ ما فيه من سعة الرحمة وعِظَم الرَّجاء فضَمَّ إليه حديث الهرَّة، الذي فيه التخويف ضدَّ ذلك؛ ليجتمع الخوف والرجاء.

[٢١] قوله ﷺ: «**عَجِبَ ربُّنا**» هذا فيه إثبات صفة العجب لله ﷻ؛ أي: أنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- يعجب، وهي صفة من صفاته سبحانه وتعالى، كما يليق بجلاله، وهذا العجب ليس كعجب المخلوق، وإنما هو عَجب خاصٌّ بالله سبحانه وتعالى كسائر صفاته.

وقوله: «**مِن قومٌ يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسلِ**» أي: أنهم أُسروا وقُيِّدوا حال كونهم كفارًا في الجهاد في سبيل الله، ثم بعد ذلك أسلموا، فيكون هذا الأسر سببًا لإسلامهم، ومن ثَمَّ لدخولهم الجنَّة، فكان أسرُهم مصلحةً لهم.

وهذا من العجائب؛ إذ لا أحد يرفض دخول الجنَّة، ولكن إذا كان الإنسان لم يعمل عملًا يؤهِّله لدخول الجنة فإنه لا يدخلها، فالكفر لا يدخل الجنة، ولكن إذا أراد الله له السعادة، فإنه قد يدخل الجنَّة بسببٍ يكرهه، فهو يكره الأسر؛ ولكنه صار سببًا في سعادته، أسره المسلمون وقيَّدوه بالسَّلاسل، ثم إنه تاب وأسلم بسبب الأسر، فدخل الجنَّة، وهذا من العَجب!

فهذا الحديث فيه إثبات صفة العجب لله سبحانه وتعالى، وهي صفة تليق بجلاله.

---

(١) أحمد في «المسند» (٨٠١٣)، والبخاري (٣٨٠)، وعنده: «**يدخلون الجنة**» بدل: «**يُقادون**».

[إثبات صفة الصَّبر لله تعالى]

٢٢- وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «وما أحدٌ أَصْبَرَ علىٰ أذًىٰ يَسْمعُه من الله، يَدْعُون له الولدَ، ثم يُعافِيهم ويَرْزقُهم». رواه البخاري[1] [٢٢].

=

وفيه أن الإنسان قد يكره شيئًا، ويكون خيرًا له، وقد يُحبُّ شيئًا ويكون شرًّا له، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفيه أن الجهاد في سبيل الله شُرع لغاية عظيمة؛ وهي إخراج الناس من الكفر إلىٰ الإيمان، وإنقاذهم من النار إلىٰ الجنة، فلم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل قَتْل الناس وسَفْك دمائهم أو من أجل أخذ أموالهم وسَبْي نسائهم والاستيلاء علىٰ بلادهم، لم يُشرع الجهاد في الإسلام من أجل ذلك.

وإنما شُرع من أجل غاية عظيمة وهي إخراج الناس من النار إلىٰ الجنَّة، ولو بالسلاسل، هذا هو غاية الجهاد في سبيل الله، وهو من مصلحة الناس؛ فالمؤمن ينال به الأجر والثواب والشهادة، وقد يكون الجهاد سببًا في دخول الكافر الإسلام، وإخراجه من الكفر إلىٰ الإيمان وبالتالي دخوله الجنة.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: إذا دعاكم للجهاد، سمَّاه حياة.

[٢٢]هذا الحديث فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى يصبر علىٰ أذىٰ عباده.

=

(١)برقم (٦٠٩٩، و ٧٣٧٨)، وأخرجه مسلم (٢٨٠٤).

والصبر معناه: الحبس، فالله -جلَّ وعلا- يصبر على أذى عباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخِّرهم، فإن تابوا -تاب الله عليهم- وتأخيرهم إنما هو من باب الإحسان إليهم، وإعطائهم الفرصة والمراجعة، فلا يعاجلهم بالعقوبة.

فهذا الحديث فيه وصف الله بالصبر، وأنه سبحانه وتعالى يصبر، ومن أسمائه سبحانه وتعالى: الصَّبور.

والصبور، معناه: شديد الصبر، الذي لا يُعاجل الناس بالعقوبة.

ومما يدلُّ على صبره سبحانه أن الناس يسبُّونه ويشركون به، ويعصونه، ومع ذلك يُغذِّيهم بالنعم ويُعطيهم العافية ويُحسن إليهم رحمةً بهم لعلهم يتوبون إليه سبحانه وتعالى.

وفي الحديث: أن الله يتأذى بأفعال عباده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وفي الحديث الصحيح: «**يؤذيني ابن آدم، يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدهر، بيدي الأمرُ أقلِّبُ الليل والنهار**»[١].

والله يتأذى بأفعال عباده؛ لكنه لا يتضرَّر، فلا تضرُّه المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [محمد: ٣٢].

فالله لا يضرُّه أحد، ولا تضرُّه المعاصي، وإنما تضرُّ مَنْ فَعَلَهَا، كما أن الطاعات لا تنفعه سبحانه، وإنما تنفع صاحبَها، فالضرر بالمعاصي والنفع بالطاعات راجع إلى العباد، أمَّا الله -جل وعلا- فلا تضرُّه معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين؛ =

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأنه سبحانه غنيٌّ عن عباده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي الحديث القدسي: **«يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أفجَر قلب رجلٍ واحد ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا»**[1].

ففي هذا الحديث أن الله يتأذىٰ بأفعال عباده من الكفر والمعاصي، وفيه أنه ﷻ يصبر عليهم، ويُمهلهم، ويُعاملهم بالإحسان مع أنهم يُعاملونه بالإساءة.

وفي الحديث: **«يا ابن آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعد إليَّ، وأتحبَّب إليك بالنِّعم، وتتبغَّض إليَّ بالمعاصي»**[2].

وقوله ﷺ: **«يدعون له الولد»** هذا من أشد الكفر، والله -جل وعلا-: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]. وهو سبحانه منزَّه عن الولد؛ لأن الولد جزءٌ من أبيه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]. يعني: نسبوا له الولد؛ والولدُ يُشبه أباه؛ لأنه جزء منه، والله -جلَّ وعلا- لا شبيه له، ولو كان له ولد لصار شريكًا له في الملك، وهو سبحانه منزَّه كذلك عن الشَّريك والشِّرك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٧) عن مالك بن دينار أنه قرأه في بعض الكتب.

[إثبات صفة الحبِّ لله تعالى]

٢٣- وله[(١)] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- إذا أحبَّ عبدًا نادىٰ: يا جبريل، إن الله يُحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل. ثم ينادي جبريلُ في السماء: إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه؛ فيُحبُّه أهلُ السماء، ويوضَعُ له القَبولُ في الأرض»[٢٣].

=

والوالد يحتاج إلىٰ الولد، وهو سبحانه ليس بحاجة إلىٰ شيء، فله سبحانه مُلك السموات والأرض، فليس بحاجة إلىٰ الولد من أجل أن يُعينه أو ينفعه -تعالىٰ الله عن ذلك-؛ لكن مع هذا ينسب المشركون له الولد، فيؤذونه ﷻ بذلك، وفي هذا بيان فضله سبحانه بالإحسان إليهم مع إساءاتهم بخلاف طبائع البشر، فلا يوصف بالإحسان إلىٰ المسيء مثله ﷻ.

[٢٣] هذا الحديث فيه وصف الله تعالىٰ بأنه يُحِبُّ كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. والله -جلَّ وعلا- يُحبُّ من عباده أهل الطاعة، وأهل الإيمان، فالحبُّ صفة من صفاته -جلَّ وعلا-، وهي صفة تليق بجلاله، وليست محبَّته كمحبة المخلوقين، فهو سبحانه يحبُّ، والمخلوق يحبُّ ولا تشبه محبَّة الخالق محبَّة المخلوقين، وهذا أصل متقرِّر عند أهل السنة والجماعة.

والله -جلَّ وعلا- يُحبُّ بعض عباده من أهل الطاعات والتقوىٰ، فإذا أحبَّهم نادىٰ الله تعالىٰ جبريل ﷵ: «يا جبريلُ، إن الله يحبُّ فلانًا، فأحبَّه، فيُحبُّه جبريلُ، =

---

(١) برقم (٦٠٤٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٧).

ثم ينادي جبريلُ في السماء: إن الله يُحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء».

وهذا فيه دليل علىٰ أنه يجب أن نُحبَّ من يُحبُّه الله، والله يُحبُّ التوابين ويُحبُّ المتطهِّرين، فنحن نحبُّهم بحبِّ الله -جلَّ وعلا- لهم، ونبغض أهل الكفر والمعاصي، وهذا من الولاء والبراء، فالملائكة تُحبُّ ما يُحبُّه الله، ونحن كذلك نحبُّ ما يحبُّه الله من الأعمال ومن الأشخاص.

وقوله ﷺ: «**ثم يوضع له القبول في الأرض**» أي: تُوضع له المحبَّة في قلوب الناس، فإذا رأيت شخصًا يُحبُّه الناس من أهل الخير والإيمان فهذا علامة علىٰ أن الله قد أحبَّه وأحبَّته الملائكة، وإذا رأيت شخصًا يكرهه أهل الدِّين وأهل الإيمان فاعلم بأن هذه علامة علىٰ أن الله يكرهه ويكرهه كذلك أهل السماء؛ والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]. أي: محبَّة.

فالطاعات سببٌ لنيل محبَّة الله -جلَّ وعلا-، ومحبَّة الملائكة وأهل الأرض، والمعاصي علىٰ العكس، فهي سبب لبغض الله -جلَّ وعلا- لها ولصاحبها، وبغض أهل السماء وأهل الأرض له؛ ولهذا يقول ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

[إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]

٢٤- وعن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: «كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ إذ نَظر إلىٰ القمرِ ليلة البدر، قال: **إنَّكم سترون ربكم كما تَرون هذا القمرَ، لا تُضامون في رؤيتِه، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا علىٰ صلاةٍ قبل طُلوع الشَّمسِ وقَبل غُروبها؛ فافعلوا** ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]». رواه الجماعة[1][٢٤].

---

[٢٤] هذا الحديث فيه أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا جلوسًا عند النبي ﷺ «إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر». يعني: ليلة التمام، إما ليلة الرابع عشر، أو الخامس عشر التي فيها يتكاملُ القمرُ؛ لأنه يبدو في أول الأمر هلالًا، ثم يكبر، ولا يزال يكبر حتىٰ يتكامل فيصير بدرًا كاملًا، ثم يأخذ في النقص حتىٰ يعود هلالًا في آخر الشهر.

وهذا من عجائب خَلق الله تعالىٰ، والحكمة في تقدير منازل القمر، هي لأجل أن يعرف الناس الحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

فقوله: «إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر» أي: في حال تكامُله وبهائه وحُسنه، فقال: «**إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر**» والقمر في ليلة البدر يراه جميع الناس، كلٌّ في مكانه دون أن يتزاحموا، فيراه أهل البرِّ وأهل البحر من غيرِ مزاحمة، =

---

(١) البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣)، وأبو داود (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، وابن ماجه (١٧٧).

فالمؤمنون يرون الله ﷻ يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، وهذا معنىٰ قوله: «**لا تضامون في رؤيته**» وفي رواية تقرأ: «**لا تضامُّون**» إذ يجوز ضم التاء وفتحها، وهو بتشديد الميم، من الضم؛ أي: لا ينضم بعضكم إلىٰ بعض فلا تتزاحمون لرؤيته؛ بل تستوون كلكم في رؤيته تعالىٰ؛ إذ من عادة الناس أنه إذا كان المرئيُّ شيئًا واحدًا أنهم يتزاحمون علىٰ رؤيته؛ لكن الله -جلَّ وعلا- يُرىٰ يوم القيامة دون مزاحمة، فكلٌّ يراه وهو في مكانه، وهذا في المخلوق كذلك، فالقمر مخلوق من مخلوقات الله ومع ذلك يراه الناس من غير مزاحمة.

وهذا من باب ضرب المثل ليُقرِّب للناس معرفة هذا الشيء، فإذا كان المخلوق يراه الناس دون مزاحمة رؤيةً واضحة، فإن الربَّ ﷻ يراه المؤمنون يوم القيامة دون مزاحمة، وليس هذا من باب تشبيه القمر بالله ﷻ، وإنما هو من باب تشبيه الرؤية بالرؤية، فهو سبحانه لا يُشبهه شيء؛ ولكن هذا من باب ضرب المثل لتشبيه الرؤية بالرؤية، لا من باب تشبيه المرئي بالمرئي؛ إذ قد يُشكل هذا علىٰ بعض الناس.

وقوله ﷺ: «**فإن استطعتم ألَّا تُغلبوا**» أي: لا يغلبكم الشيطان، ولا تغلبكم النفسُ والأشغال الدُّنيوية «**علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس**» وهي صلاة الفجر «**وصلاة قبل غروبها**» وهي صلاة العصر «**فافعلوا**» أي: اجتهدوا في المحافظة علىٰ هاتين الصلاتين في وقتهما، لتَحْظَوا يوم القيامة برؤية الله -جلَّ وعلا-، فهاتان الصلاتان لهما فضيلة علىٰ غيرهما من الصلوات الخمس؛ قال تعالىٰ: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّـلَوَٰتِ وَٱلصَّـلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. والصلاة الوسطىٰ هي صلاة العصر، عطفها الله علىٰ الصلوات من باب عطف الخاص علىٰ العام اهتمامًا بها.

....

وقوله: «ثم قرأ ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾» يعني: صلِّ، والصلاة تسمَّىٰ تسبيحًا ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صلاة العصر؛ والمراد: صلاتا الفجر والعصر؛ وصلاة الفجر يتهاون بها كثير من الناس، فينامون عنها، ولا يهتمون بها، وبعضهم لا يصليها أبدًا، فيذهب إلىٰ عمله وقد أهملها، فمثل هذا كافر بالله ﷻ، وبعضهم يصلي متىٰ قام من نومه، فصلاة هذا غير صحيحة؛ لكونه لم يصلِّ الصلاة التي أمر الله بها، وإنما صلىٰ صلاةً علىٰ اختياره هو، لا علىٰ اختيار الله -جلَّ وعلا-؛ فهي لا تُقبل؛ لأنه تعمَّد إخراجها عن وقتها، وإذا تعمَّد إخراجها عن وقتها فهي غير مقبولة، ولا تصح، وبعضهم يخرج من العمل بعد الظهر فيتناول غداءه وينام ويُهمل صلاة العصر، وهذا مضيع للصلاة، وربما لا يصليها أبدًا، فمثل هذا كافر، وربما صلاها إذا استيقظ بعد الغروب أو وسط الليل، فهذا أيضًا لا تُقبل منه صلاته، فمثل هذه الصلاة علىٰ هذا النحو لم يشرعها الله ﷻ، فلا يجوز له التلاعب في العبادة، ومثل هؤلاء يُحرمون من رؤية الله -تبارك وتعالىٰ- يوم القيامة.

فهذا الحديثُ حديثٌ عظيمٌ يتضمن إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، وهي من أعظم النِّعم التي تُعطىٰ يوم القيامة؛ إكرامًا لهم، ولا شيء ألذُّ عليهم من رؤية ربِّهم ﷻ، فهي ألذُّ عندهم من جميع النعيم والملذات التي هم فيها، ولذلك يمنحهم الله هذه الكرامة، فيرونه عِيانًا بأبصارهم.

وفيه ضرب الأمثلة للأمور الغائبة بأمور محسوسة ومشاهدة من أجل تقريب المعاني، فالنبيُّ ﷺ ضرب المثال علىٰ الشيء الغائب بشيء حاضر محسوس؛ لئلَّا يُقال: كيف سيرىٰ أهلُ الجنة كلُّهم ربَّهم -تبارك وتعالىٰ- وهو واحد، فلا يمكن =

[انتصار الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائهم]

٢٥- وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- قال: مَن عادىٰ لي وليًّا، فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تَقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مِنْ أداءِ ما افتَرضتُه عليه، ومَا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتىٰ أُحبَّه. فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذَني لأُعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُه، تردُّدي عن قبضِ نفس عبدي المؤمنِ، يكره الموت، وأكره مَساءَتَه، ولابدَّ له منه». رواه البخاري(١)[٢٥].

=

هذا؟! فبيَّن الرسول ﷺ أن هذا أمكَن في المخلوق وهو القمر، فهو ممكن في حقِّ الله -جل وعلا- من باب أولىٰ، ففي هذا إزاحة للإشكال، وإيضاحٌ بالمثال.

وفي الحديث الحثُّ علىٰ المحافظة علىٰ الصلوات الخمس لاسيَّما الفجر والعصر، وأن ذلك سبب لرؤية الله ﷻ يوم القيامة، وفيه: أن مَنْ لم يحافظ علىٰ الصلوات الخمس، فإنه يحرم من رؤية الله يوم القيامة؛ نسأل الله العفو والعافية.

[٢٥] هذا حديث عظيم، فيه أن الله -جلَّ وعلا- يقول في هذا الحديث القدسي: «**مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**».

الولي: العالم بالله، المواظب علىٰ طاعته، المخلص في عبادته، وهو المحبوب. ووليُّ الله: عبده الذي يُحبه ﷻ، وقد تقدم لنا أن الله يوصف بأنه يُحب أهلَ الإيمان، فمن أحبَّه الله، فهو وليُّ الله.

=

---

(١) برقم (٦٥٠٢).

....

=

والوَلاية -بفتح الواو-: الحُبُّ. وأما الوِلاية -بكسر الواو-، فهي: الوظيفة والإمارة، وأما الوَلاية -بفتح الواو- فهي: المحبة.

وقد بيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- مَن هو وليُّه في كتابه العزيز، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. هؤلاء هم أولياء الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ فمن اتَّصف بالإيمان والتقوىٰ فهو وليٌّ لله ﷻ، ومن ترك الإيمان والتقوىٰ فهو عدوُّ الله، فإذا أردت أن تكون وليًّا لله فكن من المؤمنين المتقين.

فليست الوَلاية مجرَّد دعوىٰ باللسان، كقول اليهود والنصارىٰ، كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. فلو كنتم أولياء الله لما عذَّبكم، فالله ردَّ عليهم بأنهم ليسوا بمؤمنين ولا متَّقين، ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]. فدعوىٰ الولاية لا يثبت إلا بدليل وبرهان، فمن كان تقيًّا ومؤمنًا بالله ﷻ فهو وليٌّ لله، وأمَّا من كان بخلاف ذلك، فإنه عدوٌّ لله ﷻ.

فقوله: «مَن عادىٰ لي وليًّا» أي: عبدًا محبوبًا لي من المؤمنين المتقين، «**فقد آذنته بالحرب**» أي: أعلمته بأنِّي أحاربه علىٰ عداوته لوليِّي، وإعلان الحرب من الله ﷻ بما يشاء من جنوده، فقد يحاربه بالأمراض وبالفقر أو بموت الأحباب والأقارب، ويحاربه بكل المصائب، أو بتسليط الظَّلمة عليه، فله سبحانه جنود السموات والأرض؛ فهو سبحانه يحارب أعداءَه بجنوده التي هي جنود السموات والأرض، فقد نراهم وقد لا نراهم، فالذي يُعادي أولياء الله فإنه سبحانه يحاربه. =

فهذا الحديث فيه أنه لا يجوز محاربة أولياء الله ومعاداتهم، وأنَّ من عاداهم وآذاهم فإن الله ينتقم منه، فهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين بالاستهزاء والسُّخرية والتنقُّص منهم من خلال كتاباتهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، فيسخرون من أهل الدِّين والإيمان وأهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هؤلاء يتناولهم هذا الحديث، والله ينتصر لأوليائه، فينبغي عدم إيذاء أولياء الله، وعدم التنقُّص لهم، أو التعرُّض لهم بأي نوع من أنواع الأذىٰ.

وقوله: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه**» هذا فيه -كما سبق- إثبات صفة الحبِّ لله -جلَّ وعلا-، وأنه سبحانه يحب الأشخاص والأعمال الصالحة التي تُعمل من قِبَلهم، وفيه أن الفرائض أحب إلىٰ الله من النوافل؛ فينبغي علىٰ الإنسان أن يحافظ علىٰ الفرائض أولًا ثم يأتي بالنوافل، أمَّا أن يأتي بالنوافل ويترك الفرائض فهذا علىٰ عكس ما يحبُّه الله تعالىٰ، وهذا لا ينفعه، إذن لا تُقبل النوافل إلَّا بعد أداء الفرائض، فينبغي للمسلم الاهتمام بأداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، ودفع الزكاة، وأداء فريضة الحج، وكل ما افترضه الله عليه كالبرِّ بالوالدين، والإحسان إلىٰ الأقارب.

فالأصل في هذا هو أداء الفرائض أولًا ثم بعد ذلك التزوُّد بالنوافل، هذا هو الأساس للأعمال الصالحة.

وقوله: «**وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه**»، والنوافل: هي العبادات غير المفروضة سواء في الصَّلاة أو في الصَّدقات أو في الصِّيام أو في الحج والعمرة، فكل عمل صالح ينقسم إلىٰ قسمين: فرائض، ونوافل، فيُبدأ بالفرائض أولًا، ثم بعد ذلك يأتي بالنوافل، فينبغي التقرُّب إلىٰ الله بالوصول إليه من خلال هذه النوافل.

وأمَّا عصيانه، فإنه يؤدي إلىٰ الابتعاد عنه -جلَّ وعلا-، فالتقربُ إلىٰ الله إنما يكون بالطاعات والابتعاد عنه -جلَّ وعلا- يكون بعمل المعاصي.

وقوله: «**حتىٰ أُحبَّه**» فكما ذكرنا فيه إثبات صفة الحبِّ لله -جلَّ وعلا-، وأنه يُحب عبده الذي يتقرب إليه بالفرائض أولًا ثم بالنوافل.

وقوله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به**» ومعنىٰ ذلك كما فسَّره في آخر الحديث، بقوله: «**ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» فآخر الحديث يفسِّر أوله، والمراد أن الله -جل وعلا- يكون معه معيَّة خاصة فيُسدِّده في أقواله وفي أفعاله؛ هذا معنىٰ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به...**» إلخ. وليس معناه أنه -جلَّ وعلا- معه معيَّة حسيَّة تقتضي المخالطة؛ أو يختلط في جسمه كما تقوله الحلولية والبهائية مما يُعتبر من الكفر والإلحاد؛ ولكن معناه أنه سبحانه يكون معه معيَّة خاصة تقتضي التوفيق والهداية والتسديد في جميع تصرُّفاته، وهذا نتيجة محبَّة الله له، وهذا كلُّه حاصل من التقرُّب إلىٰ الله -جلَّ وعلا- بالفرائض والنوافل؛ ففيه فضل التقرُّب إلىٰ الله بالفرائض والنوافل.

وقوله: «**وما تردَّدت عن شيء أنا فاعلُه، تردُّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن**» الله -جلَّ وعلا- يُحبُّ ما يحبه عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، فالمؤمن يكره الموت، والله -جلَّ وعلا- يكره له ذلك، ولكنه لابدَّ منه؛ ولهذا قال: «**ما تردَّدتُ**» والترددُ يكون بين شيئين؛ ولكن الله -جلَّ وعلا- لا يتردد، وإنما معناه كرهت.

وهو ما جاء في آخر الحديث، والمراد: ما كرهت شيئًا أشدَّ من قبض روح المؤمن؛ لأن الإنسان بطبيعته يكره الموت، وحتىٰ البهائم تكره الموت؛ ولكن لابدَّ له منه؛ وقوله: «**وأكره مساءَته**» يفسِّر قوله: «**ما تردَّدت**» فالحديث يفسِّر بعضه بعضًا، فإما أن يكون في حديث واحد أو في حديث آخر، وكذا كلام الله يفسِّر بعضه بعضًا، ومثل هذا يحتاج إلىٰ فقه وعدم استعجال في الفهم.

[إثبات نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا]

٢٦- وعنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ ربنا -تبارك وتعالىٰ- كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا، حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر، يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له. مَن يسألني فأُعطيه، مَن يستغفرني فأَغفر له». متفق عليه(١) [٢٦].

---

[٢٦] الله -جَلَّ وعلا- موصوفٌ بالعُلوِّ فوق مخلوقاته، وموصوف بالاستواء علىٰ العرش، وموصوف بأنه ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا، وكل هذا نُثبته لله ﷻ؛ لأنه جاء بأدلة صحيحة، فنثبت لله العُلو، ونثبت له الاستواء علىٰ العرش، ونثبت له سبحانه النُّزول إلىٰ سماء الدُّنيا كما جاء عَن رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

فنحن نثبت نزول الله تعالىٰ إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة، كما صحَّ في الحديث، ولا ندخل في تأويل ذلك أو في استنكاره؛ بل نثبت ما أثبته الله -جلَّ وعلا- لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، كما جاء دون الدُّخول في الكيفية، فلا نقول: كيف ينزل؟ وهل ينتقل من مكان إلىٰ مكان؟ ونحو هذه الأسئلة التي لم نكلَّف بها، ولا فائدة منها، ولكن نقول: ينزل كيف يشاء ﷻ، فكيفية النزول لا يعلمها إلا هو ﷻ، وكذلك الاستواء، فلا نعلم كيفية استوائه -جلَّ وعلا-.

ولما سأل رجل الإمام مالك بن أنس قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. كيف استوىٰ؟ قال الإمام مالك -بعدما أخذته الرُّحضاء- ثم أطرق رأسه حياءً من الله ﷻ، ثم رفع رأسه، وقال: يا هذا، الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به =

---

(١) البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر به فأُخرج من المجلس.

هكذا كان السلف الصالح يثبتون ما أثبته الله لنفسه علىٰ معناه الصحيح الذي جاء به، ولا يتعرضون للكيفية، ونحن نثبت النزول كما نثبت الاستواء، والعلو لله ﷻ، ونقول: الله أعلم بكيفية نزوله واستوائه.

فقوله: «**ينزل إلىٰ سماء الدنيا**» فيه إثبات النزول لله -جلَّ وعلا-، وهو أمر متواتر عن الرسول ﷺ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مؤلَّفًا مستقلًا علىٰ هذا الحديث سماه: «شرح حديث النزول»، وهو مطبوع، ومنتشر -ولله الحمد- وهو من عقيدة أهل السنة والجماعة.

وقوله ﷺ عن ربه -أنه يقول-: «**مَن يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» فيه فضل وقت آخر الليل؛ أي: الثلث الأخير منه، وفضل قيام العبد في هذه الفترة وصلاته ودعائه واستغفاره وتوبته وسؤاله لربِّه من أجل أن ينال هذه الكرامات من الله -جلَّ وعلا-، فلا تمرُّ عليه هذه الفترة، وهو نائم؛ بل يقوم في الثلث الأخير من الليل ويتعرض لنفحات الله، ويحظىٰ بهذه الإجابات منه ﷻ.

وأهل التأويل يؤولون هذا الحديث، بقولهم: إنما ينزل أمرُه إلىٰ سماء الدُّنيا! ونحن نقول: هل الأمر الذي أوَّلوا به النزول يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ أو من يسألني فأعطيه؟ وهل الأمر يغفر؟ وهل الأمر يجيب الدعاء، ويتوب علىٰ التائب؟! ما أقبح هذا التأويل! فالحديث واضح في أنَّ الله ينزل بذاته نزولًا حقيقيًّا لا أمرُه؛ إذ إنَّ أمرَه ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا وإلىٰ الأرض كل وقت وليس في وقت مخصوص، والواجب علينا والحالة هذه الإيمان بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وألَّا ندخل في الكيفية.

٢٧- وعن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جنَّتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وجنَّتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يَنظروا إلىٰ ربِّهم إلا رِداء الكبرياء علىٰ وجهه في جنَّةِ عَدْنٍ». رواه البخاري[1][٢٧].

=

وبعضهم يُورد شُبهة أخرىٰ في هذا الحديث، ويقول: ثلث الليل الآخر، يختلف باختلاف الأقاليم! نقول: إن هؤلاء يبحثون في أمور لم يكلفهم الله بالبحث فيها، فالذي خلق الليل والنهار وخلق الأقاليم قادر علىٰ أن ينزل نزولًا يليق بجلاله، متىٰ شاء وكيف شاء تعالى، فالله -جلَّ وعلا- قادر علىٰ كل شيء، فهو سبحانه أخبرنا أنه ينزل فنقول: ينزل، سواء اختلف الليل أو اختلفت الأقاليم، والله تعالىٰ أعلم.

[٢٧] الجنَّات كثيرة؛ فهناك جنة عدن، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وهناك جِنان كثيرة، وأعلاها الفردوس، وفي الحديث: «**إذا سألتم الله فسَلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ**»[2].

والجِنان مخلوقة، فمنها ما هو مخلوق من ذهب كله بآنيته وما فيه، ومنها ما هو مخلوق من فضة آنيته وما فيه، والمؤمنون ينزلون في الجنان بحسب أعمالهم.

ففي الحديث إثبات الجنان، وهي من أمور الآخرة، ومن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فنؤمن بوجود الجنَّة، وبوجود النار، ونؤمن بما يكون يوم =

(١) برقم (٤٨٧٨، و٤٨٨٠)، وأخرجه مسلم (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب

قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣][٢٨].

القيامة بجميع ما أخبر الله -جلَّ وعلا- به، وما أخبر عنه رسوله ﷺ، فما صحَّ في الخبر نؤمن به.

والشاهد في الحديث: بيان أنه ليس بين أهل الجنة، وبين أن يروا ربَّهم إلا أن ينزع سبحانه الحجاب، فهذا فيه إثبات الرؤية كما سبق، وأن المؤمنين يَرَون ربَّهم.

وفيه إثبات الحجاب لله ﷻ، وأنه اتخذ الحجاب، فإذا شاء سبحانه وأراد إكرام المؤمنين حفَّهم برأفته، وتفضَّل عليهم ونزعه فرآه المؤمنون.

[٢٨] **قال الشيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب: قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾» أي: بيان تفسير هذه الآية، وما جاء بمعناها من الأحاديث الصحيحة؛ لأن القرآن العظيم يُفسَّر بالقرآن، فإذا لم يوجد في القرآن تفسير، فإنه يُفسَّر بالسُّنة الثابتة عن الرسول ﷺ، وهذه الآية جاء تفسيرها في السُّنة.

فقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الملائكة إذا سمعت كلام الربِّ سبحانه وتعالى، فإنه يُصيبهم فزع وخوف من الله -جلَّ وعلا-؛ لأن كلامه عظيم ترعد له السموات، ولو أنزل الله القرآن علىٰ جبل لأصبح خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، فكلامه سبحانه له هيبة وعظمة وجلال.

فإذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السموات منه رعدة شديدة وهي جماد، فإذا سمع ذلك الملائكة صُعِقوا وأصابهم غشيٌ وخرُّوا لله سُجَّدًا؛ تعظيمًا له سبحانه وتعالى وهيبة

....

=

من كلامه وخوفًا من غضبه، هذا كلام الله الذي هو بين أيدينا الآن، ولا نحرِّك معه ساكنًا إذا سمعناه أو قرأناه وذلك لقسوة قلوبنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو كانت القلوب حيَّةً لأصابها الخوف والإجلال والتعظيم لكلام الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فالجبل أَلينُ من قلوب بني آدم، وهذا من العجائب؛ لكن ما السَّبب الذي جعل القلوب هكذا؟ إنها الذُّنوب والمعاصي والغفلة عن ذكر الله، وأكل الحرام والاشتغال بالقيل والقال والضحك والمزاح، كل هذه الأمور من شأنها أن تُقسِّي القلوب، فإذا سَمعت هذه القلوب كلام الله، فإنها لا تتأثر ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ مع أن السموات علىٰ عظمها ترعُد من كلام الله، والملائكة تُصعق وتَخِرُّ ساجدة لله -جل شأنه- عند سماع كلامه.

ثم إن الملائكة يتساءلون إذا ذهب عنهم الفزع ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يسألون جبريل عليه السلام، أمين الوحي، فيقول جبريل: قال الحق، فإذا سمعوا ذلك: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فهذا فيه بيان عظمة كلام الله -جلَّ وعلا-، ووَجَل الملائكة والسموات والمخلوقات العلوية منه.

[بيان افتراء الكهنة وكذبهم]

٢٨- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدَّثني رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ -مِن الأنصار-: «أنَّهم بينما هم جلوسٌ ليلة مع رسولِ الله ﷺ إذ رُميَ بنجم فاستنارَ. فقال: ما كنتم تقولون إذا رُميَ بمثل هذا؟ قالوا: كنَّا نقول: وُلِدَ الليلةَ عظيمٌ، أو مات عظيمٌ. فقال: إنها لم تُرمَ لموتِ أحدٍ ولا لحياته؛ ولكنَّ ربنا عز وجل إذا قضىٰ أمرًا سبَّحت حَمَلةُ العرشِ، حتىٰ يُسبِّحَ أهل السماءِ الذين يَلُونهم، حتىٰ يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يَلُون حملةَ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، فيَستخبرُ أهل السموات بعضهم بعضًا، حتىٰ يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيُلقونَه إلىٰ أوليائهم، فما جاءوا به علىٰ وجهِهِ فهو الحقُّ؛ ولكنهم يَقْرِفونَ ويَزيدونَ». رواه مسلم، والترمذي، والنسائي[1][٢٩].

---

[٢٩] قوله: «حدثني رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ» كونه قال «من أصحاب النبيِّ ﷺ» فهذا لا يحتاج إلىٰ بحث؛ لأن الصحابة كلهم عدول، فالجهالة في اسم الراوي لا تضرُّ، إنما المجهول إذا كان من غير الصحابة فإنه يُبحث عنه، وأما المجهول من الصحابة فلا حاجة للبحث عنه؛ لأن الله سبحانه عدَّلهم ومَدَحهم وأثنىٰ عليهم، وكذا النبيُّ ﷺ مدحهم، وأثنىٰ عليهم.

قوله: «رُميَ بنجمٍ» أي: بشهاب، والمراد: رجْم الشُّهب التي تُرمىٰ بها الشياطين التي تحاول استراق السمع كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك:٥]. =

---

(١) مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٠٨).

....

=

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]. ورميُ الشُّهب من السماء سببه أنه رجوم للشياطين.

قوله: «فقالﷺ: **ما كنتم تقولون إذا رُميَ بمثل هذا؟**» يعني: في الجاهلية؛ لأن رمي الشُّهب متكرِّر، وهو في الجاهلية، وهو في الجاهلية أكثر، فكانوا في الجاهلية يعتقدون اعتقادًا سيئًا فيقولون: إنه إذا رمي بالشهاب فإنه سيموت عظيم، أو سيولد عظيم، هذا ظنهم وتخرُّصهم، كما كانوا يعتقدون ذلك، إذا ما كُسفت الشمس أو خُسف القمر، فبيَّنﷺ كذب هذا الزعم وأنه غير صحيح، وأن هذه الشُّهب ليست لولادة أحد أو لموت أحد، وإنما هي لأمر أعظم من ذلك.

قوله: «فقالﷺ: **إنها لم تُرم لموت أحدٍ ولا لحياته**» في هذا تصحيح منه ﷺ لاعتقادهم، وفيه تعليم الجُهَّال، ولاسيَّما في المناسبات الشبيهة بهذه.

قوله: «**ولكن ربنا إذا قضىٰ أمرًا سبَّحت حَمَلة العرش**» إذا قضىٰ أمرًا ﷻ من الأمور التي ستحدث في هذا الكون مما قضاه وقدَّره، فإن الملائكة الذين يحملون العرش يشرعون بالتسبيح، وهذا فيه أن كلَّ شيء يحدث في هذا الكون إنما هو بقضاء وقدر من الله ﷻ، فلا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه الله ﷻ وقضاه وأراده وقدَّره؛ وفي هذا إثبات القدر.

قوله: «**حتىٰ يُسبِّح أهل السماء الذين يلونهم**» هؤلاء الملائكة إذا سمعوا كلام الله، فإنهم يسبِّحون له؛ أي: يُنزِّهونه -جلَّ وعلا- عن النقص والعيب، فيشتغلون بالذِّكر.

=

....

وقوله: «حتىٰ يبلغ التسبيح أهلَ السماء الدُّنيا» هذا فيه أن السموات معمورة بالملائكة، فكل سماء لها ملائكة خاصُّون يسكنونها، وهي سبع سموات، والملائكة هم عمَّار السموات بالعبادة والتسبيح والتهليل، ومنهم حملة العرش.

وقوله: «فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟» هذا فيه إثبات وجود حملة العرش، وهم أربعة ملائكة، ولا يعلم عِظَم خِلْقَتِهم إلا الله ﷻ، ثم إنه يوم القيامة عند قيام الساعة يضاعف عددُهم فيكونون ثمانية؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧]. زاد عددهم الضعف للهول الذي يحصل.

وقوله: «فيستخبر أهل السموات بعضُهم بعضًا» يسأل بعضهم بعضًا: ما الذي قضاه الله؟ وما الذي قاله -جلَّ وعلا-؟

وقوله: «حتىٰ يبلغ الخبرُ أهل السماء الدنيا» السماءُ الدُّنيا هي التي تلي الأرضَ، فحينما يتكلمون، فإن الشياطين تسترق السمع فترتفع في العَنان، ويركب بعضُهم بعضًا حتىٰ يصلوا إلىٰ الجوِّ قُرب السماء؛ ليستمعوا ماذا تقول الملائكة.

وقوله: «فتَخطف الجِنُّ السَّمع فيُلقونه إلىٰ أوليائهم» فهؤلاء الجنُّ يحاولون استراق السَّمع فيُرمون بالشُّهب، ولا يُدركون ما أرادوا إلَّا في بعض الأحيان، فقد يخطف الشيطان كلمةً من كلام الملائكة، ثم يُلقيها إلىٰ وليِّه من بني آدم من الكهنة؛ لأن هؤلاء الكُهان يأخذون عن الشياطين؛ قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، فإذا حصل الشيطان علىٰ هذه الكلمة ألقاها إلىٰ الكاهن من بني آدم، ثم الكاهن يكذب معها مائة كذبة، ويحدِّث بها فيُصدِّقه الناس في كلِّ ما قال من الكذب بسبب الكلمة التي سمعها الشيطان من كلام الملائكة.

....

وقوله: «**فما جاءوا به على وجهه، فهو الحقُّ**» يعني: يصدُق في كلمة واحدة وهي التي سمعتها الشياطين، ثم قال: «**ولكنهم يَقْرِفون ويزيدون**» أي: ولكن الكهنة يزيدون على الكلام الذي يسمعونه كما جاء في الحديث، أنه: «**يكذب مع الكلمة الواحدة مائة كذبة**»(١). فيحدِّث بها الناسَ فيُصدِّقونه في كل ما قال بسبب كلمة واحدة ويقبلون منه التسع والتسعين من الكذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

والرسول ﷺ قد بيَّن للصحابة ولغيرهم من المسلمين إلى أن تقوم الساعة سبب رَمْي الشُّهب، وأنه ليس كما تقوله الجاهلية إنما كان لموت عظيم أو لولادة عظيم، وإنما كان ذلك بسبب محاولة اختراق الشياطين للسمع، وأنهم يُرمَون بهذه الشُّهب، هذا ما يدلُّ عليه هذا الحديث.

وفي الحديث أيضًا إثبات صفة العُلو لله تعالى فوق مخلوقاته على عرشه.

وفيه أن السموات معمورة بالملائكة، كل سماء مملوءة بالعُمَّار من الملائكة الذين يعبدون الله ﷻ، ويمتثلون ما يأمرهم به.

وفيه إثبات القضاء والقدر، وفيه تفسيرٌ للآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. كما يأتي هذا في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه التالي.

---

(١) انظر: البخاري (٣٢٨٨)، ومسلمًا (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٩- وعن النَّواسِ بنِ سَمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أرادَ الله أن يوحيَ بالأمر، تكلَّم بالوحي، أخذتِ السمواتِ منه رَجْفةٌ -أو قال: رِعْدَةٌ- شديدةٌ؛ خوفًا من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهلُ السموات، صَعِقوا -أو قال: خَرُّوا- لله سُجدًا، فيكون أولُ مَن يرفع رأسه جبرائيل عليه السلام، فيُكلِّمُه الله مِن وَحْيِهِ بما أراد، ثم يَمرُّ جبرائيلُ علىٰ الملائكة، كلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟ فيقول: قال الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ. فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عز وجل». رواه ابن جرير، وابن خزيمة، والطبراني، وابن أبي حاتم واللفظ له(١)[٣٠].

---

[٣٠] قوله: «**إذا أراد الله**» هذا فيه إثبات الإرادة لله تعالى.

وقوله: «**تكلَّم بالوحي**» فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل: «**أخذت السموات منه رجفة -أو قال: رِعْدة- شديدة**». السموات -وهي جماد- ترتجف وترعد من خشية الله تعالى، وتعظيم كلامه -جلَّ وعلا-.

وقوله: «**صعقوا**» يعني: أصابهم الغشي من هيبة الله -جلَّ وعلا-، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ هذا لما تجلَّىٰ الله للجبل، واندكَّ ذلك الجبل؛ خرَّ موسىٰ علىٰ الأرض صعقًا من شدَّة الهول والخوف من الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الصعق ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وكذلك الملائكة إذا أُزيل الفزع الذي أصاب قلوبهم، أخذوا ينادون جبريل ويسألونه. =

---

(١) ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٠٧).

وقوله: «**فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل** عليه السلام». لأنه أمين الوحي، والسفير بين الله عز وجل، وبين رسله بالوحي، وهو أشرف الملائكة سمَّاه الله أمينًا فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] فجبريل عليه السلام موكَّل بالوحي، وهذا يدلُّ علىٰ شرفه وفضله -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: «**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**» هذا فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل، فيكلم جبريلَ عليه السلام بالوحي الذي يوحيه إلىٰ أحد أنبيائه.

وقوله: «**ثم يمرُّ جبرائيل علىٰ الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها، ماذا قال ربُّنا يا جبرائيل؟**» هذا فيه اهتمام الملائكة بكلام الله عز وجل، وفيه فضل جبريل كونه هو الذي يحمل الوحي، اختُصَّ بذلك من بين الملائكة، حتىٰ إن الملائكة يسألونه سؤال المتعلِّم للعالم.

وقوله: «**فيقول: قال الحقَّ وهو العلي الكبير**» يقول جبريل بعدما سأله الملائكة: «**ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟**»، فيُجيبهم «**فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل**». وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله وأن كلامه حقٌّ لا يعتريه الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله: «**فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبرائيل**» أي: قالوا كلهم: «**قال الحقَّ، وهو العلي الكبير**» هذا تفسير آية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ ﴾ [سبأ: ٢٣]. أي قالوا: قال اللهُ الحقَّ.

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله** عز وجل» أي: ينتهي به جبريل إلىٰ ما أمره الله من تبليغ الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن جبريل هو الوسيط

باب

قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] [٣١].

= بالوحي بين الله ﷻ ورسله -عليه الصلاة والسلام-؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

واليهود يُعادون جبريل، فقد قالوا للرسول ﷺ: لو كان الذي يأتيك غير جبريل لآمنَّا بك، لأن جبريلَ عدوٌّ لنا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. فهذا القرآن ليس من كلام جبريل، وإنما هو من كلام الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. هذه مقالة اليهود.

وهناك من الطوائف الضالة المنحرفة من يقول بقول اليهود، ويقولون: إن جبريل خان الرسالة؛ لأنها لعلي بن أبي طالب، ولكن جبريل صرفها لمحمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين؛ -قبحهم الله- لأنهم هم أنفسهم منحدرون من اليهود، فهذه مقالة اليهود تمامًا.

[٣١] هذا الباب جاء في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وتفسير هذه الآية جاء في السُّنة كما في صحيح مسلم[١]: «**يطوي الله** ﷻ =

---

(١) برقم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[قَبْض الله تعالى الأرض وطيُّ السماء بيمينه]

٣٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِهِ ثم يقول: أنا الملك، أين ملوكُ الأرض؟». رواه البخاري[1] [٣٢].

السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا المَلِك، أين الجبَّارون، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ويكرِّر هذا فلا يُجيبه أحد، كما جاء في حديث آخر[2]، فيجيب سبحانه وتعالى فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ولا أحد يعترض علىٰ هذا، كلٌّ مقرٌّ بأنَّ الملك لله سبحانه وتعالى، وهذا من توحيد الرُّبوبية وهو مُقِرَّةٌ به جميع الأمم، وأن الملك اليوم لله، ولكنهم في حياتهم الدُّنيا كانوا يعبدون معه غيره، يزعمون أن هؤلاء شفعاء ووسائط عند الله سبحانه وتعالى، وإلَّا فهم يعرفون أنَّ هذه المعبودات ليس لها من الملك شيء، وأن الملك لله عز وجل.

[٣٢] وهذا تفسير آخر للآية، فيه أن الله -تبارك وتعالىٰ- يقبض الأرض، ويطوي السماء بيديه سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل علىٰ عظمة الله -جلَّ وعلا-، وأن هذه المخلوقات حقيرة قياسًا بعظمة الله عز وجل؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه حيث إنهم كذَّبوا رسله وأشركوا بالله عز وجل وعبدوا غيره، وأنكروا كلامه، وأنكروا أسماء الله وصفاته، وتجرءوا علىٰ حرماته، وتركوا طاعته، كل هؤلاء ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ وهم الكفَّار والمشركون والعُصاة،

---

(١) برقم (٧٣٨٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٧).

(٢) انظر: «المستدرك» للحاكم (٢/ ٤٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣١- وله[١]، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يقبضُ يومَ القيامةِ الأرَضينَ، وتكون السمواتُ بيمينِه، ثم يقول: أنا الملك»[٣٣].

=والفِرق الضالَّة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين نَفَوا أسماء الله وصفاته وحرَّفوا، فجميعهم داخلون في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظَّموه حق تعظيمه.

وكذلك كل مَن خالف أمر الله وعصاه وارتكب ما نهاه عنه، وترك ما أوجبه عليه، فإنه لم يَقْدِرِ اللهَ حقَّ قَدْرِه، وقد بيَّن سبحانه عظمته، وأنَّ من عظمته أنه يطوي هذه المخلوقات يوم القيامة، ويقبضها بيديه علىٰ الرغم من اتساعها وضخامتها، وهي سبع سموات وسبع أرضين مضافًا إليهما ما في الأرض من المخلوقات والجبال والبحار والأشجار، كلها يقبضها الله عز وجل بيديه وعلىٰ أصابعه -جلَّ وعلا- كما جاء في الحديث[٢].

[٣٣] يقول الله -جلَّ وعلا- يوم القيامة: **«أنا الملك»** أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ لقد كان في الدُّنيا جبابرة ومتكبِّرون عن طاعته -جلَّ وعلا-، وكانوا يستعملون جبروتهم علىٰ الناس، ويظلمونهم، ويتسلَّطون علىٰ العباد؛ لكن في الآخرة وبمجرد أن تقوم القيامة يذهب سلطانهم ومُلكهم، ولا يبقىٰ المُلك إلا لله الواحد القهار سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث فيه إثبات أن من أسمائه -جلَّ وعلا- المَلِك، وهو الملك الحقيقي، وأما غيره من الملوك فملكهم إنما هو مجرد منحة منه -جلَّ وعلا-،=

(١) البخاري (٧٤١٢)، وأخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) انظر: البخاري (٧٤١٥)، ومسلمًا (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٣٢- وفي روايةٍ عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيَدِه يُحرِّكها، ويُقْبِلُ بها ويُدْبِرُ: يُمجِّدُ الربُّ نفسَه: أنا الجبَّارُ، أنا المُتكبر، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجفَ برسول الله ﷺ المِنْبَرُ، حتى قلنا: ليخِرَّنَّ به». رواه أحمد[1] [٣٤].

وإلا فالمُلك الحقيقي هو لله -جلَّ وعلا-؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فملوك الدنيا جميعهم إنما ملكهم منحة وعطية منه -جلَّ وعلا-، وليس ملكهم بسبب قوتهم، ومكانتهم، وإنما هو ابتلاء وامتحان منه سبحانه وتعالى، يبتليهم، ويبتلي بهم، يبتليهم بإعطائهم الملك، ويبتلي بهم الناس بتسليطهم عليهم.

[٣٤] لقد بيَّن الرسول ﷺ للصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الآية وفسَّرها على المنبر، فأخبرهم أن الله تعالى يقبض السموات والأرض بيديه، ثم يقول: أنا الملِكُ، أين ملوك الدُّنيا؟ أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون.

ثم إنه -جلَّ وعلا- يعظم نفسه بأسمائه وصفاته، كما ذكر ذلك النبيُّ ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، حتى إن المنبر -وهو جماد- قد اهتزَّ من هيبة الله وجلاله وعظمته، وهذا يعني أن الإدراك موجود في الجمادات، فهي تعرف ربَّها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) في «المسند» برقم (٥٤١٤).

٣٣- ورواه مسلم[(١)]، عن عُبيد الله بن مِقسَم أنه نظَر إلىٰ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله ﷺ، قال: «يأخذ الله سمواتِه، وأرَضيهِ بيديه فيقبضهما فيقول: أنا الملكُ، ويَقبضُ أصابعَه ويَبسُطُها، فيقول: أنا الملكُ، حتىٰ نَظرتُ إلىٰ المنبرِ يتحرَّكُ من أسفلِ شيءٍ منه، حتىٰ إنِّي لأقولُ: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟»[٣٥]

=

فكلُّ المخلوقات تسبِّح الله بلغتها التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وهذا المنبر قد اهتزَّ من هيبة الله وعظمته -جلَّ وعلا-، وقد كان ﷺ يخطب في أول الأمر علىٰ جِذْع نخلة، فيضع يده عليها ﷺ ويخطب، ثم لما صُنع له المنبر ترك الجذع وصعد علىٰ المنبر وصار يخطب الناس، ولكن الجذْع حَنَّ إلىٰ رسول الله ﷺ، وبكىٰ كما يبكي الصبيُّ، وسمع الصحابة الجذع، حتىٰ نزل رسول الله ﷺ، ووضع يده عليه، فجعل يَئِنُّ كأنين الطفل[(٢)]، وهذا إدراك من الجمادات، وقد يُظهر الله لعباده شيئًا من ذلك للاعتبار والعظة.

[٣٥] **الرسول ﷺ يوضِّح في هذا الحديث للصحابة رضي الله عنهم كيفية قبض الله تعالىٰ للسموات والأرض، وأنه قبضٌ حقيقي، وهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يقولون بالمجاز، فيبيِّن لهم ﷺ أنه قبض حقيقي، فيقبض بيديه ويفتحهما، وهذا توضيح وليس معناه تشبيهَ يَدَي الرسول ﷺ بيد الله كما قال ﷺ: «أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته»[(٣)]. فليس هذا من باب تشبيه القمر بالله عز وجل، وإنما هو تشبيه لرؤية الله برؤية القمر، وكذلك هنا كما جاء في رواية ابن عمر، فقد قبض الرسول ﷺ يديه ليبيِّن لهم أن القبض حقيقي، وليس مجازًا.** =

(١) برقم (٢٧٨٨).

(٢) انظر: البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

[ما هو أوَّل هذا الأمر]

٣٤- وفي «الصحيحين»(١)، عن عمرانَ بن حصينٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبَلوا البُشرىٰ يا بني تميم. قالوا: قد بشَّرتَنا فأعطِنا. قال: اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمن. قالوا: قد قَبِلْنا فأخبِرْنا عن أوَّل هذا الأمر. قال: كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه علىٰ الماء، وكتب في اللوح المحفوظِ ذِكْرَ كلِّ شيءٍ. قال: فأتاني آتٍ. فقال: يا عِمْرانُ، انحلَّت ناقتُكَ من عقالِها. قال: فخرجتُ في أثرِها، فلا أدري ما كان بعدي»[٣٦].

وقوله: «حتىٰ نظرت إلىٰ المنبر يتحرَّك من أسفل شيء منه ...» إلخ. هذا فيه أن المنبر أصابه ما أصابه من الهيبة لله وهو جماد!

[٣٦] الرسول ﷺ عَرَضَ البُشرىٰ علىٰ بني تميم؛ ولكنهم استعجلوا ذلك، وقالوا: أعطنا، دون أن يستفسروا ويعرفوا حقيقة هذه البشرىٰ، وإنما كان همُّهم نصيبَهم من عَرَض الحياة الدُّنيا، فقالوا: بشَّرتنا فأعطنا، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

فأعرض عنهم الرسول ﷺ، وقال لأهل اليمن: «اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمن» قال ذلك بعدما لم يقبلها بنو تميم، فقالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر؛ ذلك أن بني تميم لم يقبلوا؛ ولكنهم قالوا: فأعطنا؛ ظنًّا منهم أن البشرىٰ أمر دنيويٌّ؛ ولكنه ﷺ لم يكن هذا قصده، ولذلك كان أهل اليمن أحسن أدبًا من بني تميم؛ فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله؛ فأخبرنا عن أول هذا الأمر، يعني: عن أول

---

(١) البخاري (٤٧١٨)، وأحمد (١٩٨٧٦)، ولم يخرِّجه مسلم.

هذا الخَلْق، فقد طلبوا من الرسول ﷺ أن يبيِّن لهم بداية هذا الخلق، والخلق -لاشك- أنه حادثٌ، وأن له بداية.

وأما الخالق -جلَّ وعلا-، فإنه ليس له بداية، ولهذا قال ﷺ: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1]. هذا تفسير الرسول ﷺ لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. في هذه الأسماء الأربعة المتقابلة.

قوله: «**كان الله قبل كلِّ شيء**» يعني: أنه سبحانه ليس له بداية، وأما المخلوقات فإنه لها بداية؛ لأنه هو الأول فليس قبله شيء سبحانه وتعالى.

وقوله: «**وكان عرشه علىٰ الماء**» أي: علىٰ الماء الذي فوق السموات، وهذا فيه دليل علىٰ أن العرش هو أول المخلوقات، وهو أعلاها؛ إذ ليس قبل العرش شيء من المخلوقات، وكان علىٰ الماء، فهو بحر في السموات، كما جاء في الحديث: «**وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش علىٰ الماء، والله عز وجل علىٰ العرش يعلم ما أنتم عليه**»[2]. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقوله: «**وكتب في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كلِّ شيء**» فهذا فيه أن كل شيء يحدث من أول الخلق إلىٰ آخره إنما هو مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفي هذا إثباتُ القضاء والقدر، والكتابة في اللوح المحفوظ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٠٢) (٩٩٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[النهي عن الاستشفاع بالله على أحد]

٣٥- وعن جُبير بن محمَّد بن جُبير بن مطعم، عن أبيه، عن جدِّه، قال: «جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جَهِدَتِ الأنفسُ، وضاعتِ العيالُ، ونُهِكَتِ الأموالُ، وهلكت الأنعامُ، فاستسقِ لنا ربَّك، فإنا نستشفعُ بك على الله، وبالله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك! أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله، فما زال يسبِّح حتىٰ عُرِف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه، شأن الله أعظم مِن ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟! إنَّ عرشَه علىٰ سمواته لَهكذا -وقال بأصابعه مثلَ القُبَّةِ عليه- وإنه ليَئِطّ به أَطيطَ الرَّحْلِ بالراكبِ». رواه أحمد، وأبو داود[1] [٣٧].

وقوله: «قال: فأتاني آتٍ، فقال: يا عمران، انحلَّت ناقتك من عقالها...» إلخ. لم يكن عمران رضي الله عنه استكمل كلامه مع الرسول ﷺ بسبب أن ناقته كانت قد انحلَّت من عقالها، فلما أُخبر بذلك خرج في إثرها لطلبها، ولم يكن قد أدرك آخر الحديث.

[٣٧] وهذا الحديث كذلك جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. فهذا الأعرابي كان قد حصلت منه إساءة في حقه -جلَّ وعلا-، فهو ما قَدَر اللهَ حق قدره، وذلك لأنه لم يعرف الله ﷻ من خلال قوله للرسول ﷺ: «.. وبالله عليك» بسبب جهله؛ والجهلُ آفة.

---

(١) أبو داود (٤٧٢٦) ولم أقف عليه في النسخ المطبوعة من «مسند أحمد».

ففي هذا الحديث الحثُّ علىٰ معرفة الله -جلَّ وعلا- بأسمائه وصفاته وأفعاله، حتىٰ يَقدِروه حق قدره -جلَّ وعلا-، فمن لم يعرف الله فإنه حَرِيٌّ بألَّا يَقْدِر الله حقَّ قدره.

وقوله: «جاء أعرابيٌّ» الأعرابي: هو الذي يسكن البادية؛ والحَضَري: هو الذي يسكن الحاضرة. والغالب علىٰ الأعراب الجفاءُ والجهلُ؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. ولهذا جاء النهي عن البقاء في البادية ولهذا قال ﷺ: **«مَنْ سكن البادية جَفا»**(١).

وجاء الحثُّ علىٰ الذهاب إلىٰ أهل الحواضر؛ لأجل التعلُّم، فلا يبقىٰ الإنسان أعرابيًّا وبدويًّا طوال حياته، وإنما ينبغي له أن يتفقَّه في دين الله ﷻ.

فهذا الأعرابي جاء وطلب من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، وطلبٌ كهذا لا غُبار عليه، فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا أجدبوا يطلبون من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، وكان هذا الأعرابي قد أخبر النبي ﷺ ما حصل للناس بسبب تأخُّر نزول المطر من الجدب والقحط والفقر، ومثل هذه الأمور لا بأس من ذكرها للغير حتىٰ يكون هذا حافزًا لطلب السُّقيا من الله ﷻ، ولهذا قال هذا الأعرابي للنبي ﷺ: «فإنَّا نستشفع بك علىٰ الله» وهذا القول أيضًا لا غبار عليه، أنهم يطلبون الشفاعة من الرسول ﷺ، وطلب الشفاعة منه ﷺ أو من غيره إن كان حاضرًا لا بأس به، وهذا بخلاف طلب الشفاعة من الميت، فهو الممنوع.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٣٦٢)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

....

=

والشفاعة معناها: الدُّعاء، فإذا دعوت لأخيك فقد شفعت له، وصلاة المسلمين علىٰ الميت شفاعة له، والشفاعة إنما تُطلب من الأحياء القادرين علىٰ الدُّعاء، فقوله: «نستشفع بك علىٰ الله» يعني: بدعائك، وهذا القول منه للنبي ﷺ مقبول.

وقوله: «وبالله عليك»؛ أي: نستشفع بالله عليك، هذه الجملة هي التي أنكرها الرسول ﷺ؛ لأنه جعل الله -جلَّ وعلا- شفيعًا عند الرسول ﷺ، فجعل الخالق شافعًا عند المخلوق، وهذا فيه تنقُّص لله ﷻ، فهو لم يَقْدر الله حق قدره، فهذا هو وجه إنكار الرسول ﷺ علىٰ قوله هذا؛ لأنه تنقَّص الله فاستشفع به إلىٰ الرسول ﷺ، وهو ﷺ لم يرضَ بهذا؛ بل أنكره.

ففي هذا الحديث إنكار المنكر، وفيه تغليظ علىٰ من أساء بحقِّ الله ﷻ، فلا يُقال: هذا جاهل؛ بل يُغلَّظ عليه؛ لأجل أن يرتدع هو وغيره، فمن أساء بحقِّ الله فإنه ينكر عليه ويشدَّد القول بحقِّه ولا يُترك بحُجَّة أنه جاهل؛ لأجل أن يدرك ويعرف أنه أخطأ وأساء الأدب مع خالقه -جلَّ وعلا-؛ فيتوب ويُقدِّر الله -جلَّ وعلا- حقَّ قدره؛ ولهذا شدَّد الرسول ﷺ عليه وسبَّح الله ونزَّهه عما قال هذا الأعرابي، وكرَّر التسبيح تنزيهًا لله عمَّا قاله هذا الأعرابيُّ!

وقوله: «فمازال يُسبِّح ﷺ حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه» يعني: قد شاهد الصحابة -رضوان الله عليهم- شدَّة التأثُّر في وجهه ﷺ، لِمَا قاله هذا الأعرابي، وبالتالي عُرف ذلك في وجوه الصحابة رضي الله عنهم.

ثم بيَّن ﷺ للأعرابي بعدما أنكر عليه وبعدما نزَّه الله -جلَّ وعلا- عن هذا التنقُّص وعلَّمه بقوله: «**ويحك! أتدري ما الله؟**» ثم بيَّن له ﷺ عظمة الله -جلَّ وعلا-، وأن هذه المخلوقات العظيمة الهائلة من السموات والأرض كلها تحت العرش، =

....

والعرش هو أعظمها وأكبرها، والله -جلَّ وعلا- فوق عرشه، وهذا العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات له تأثرٌ من استواء الله عليه، حتىٰ إنَّ له أطيطًا، يعني: له صوت؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنه لَيَئطُّ به أطيطَ الرَّحْل بالراكب**» وهذا دليل علىٰ عظمته ﷻ.

فهذا العرش العظيم الذي فوق السموات ومحيط بها، وشاملٌ لها كلها، والكرسي، قد وسع السموات والأرض، والكرسي في العرش كحلقة في فَلاة، وهذا دليل علىٰ عظمة هذا العرش، والله -جلَّ وعلا- أعظم من ذلك، فالعرش مع عظمته وسعته يحصل له هذا التأثر الذي عبَّر عنه ﷺبقوله: «**وإنه ليئط به أطيط الرَّحْل بالراكب**». من استواء الله عليه، فكيف مَنْ هذا شأنه، وهذه عظمته ﷻيُستَشفع به علىٰ مخلوقٍ من خلقه؟! ولهذا قال ﷺ للأعرابي: «**أتدري ما الله؟!**» أي: هل تعرف شأن الله وتعرف معنىٰ ما قلتَه بحقِّ الله ﷻ، وكيف أنك أسأت بحقِّه وتنقَّصتَه؟!

وأما قوله: «فما زال يُسبِّح» هذا فيه التسبيح عند إنكار المنكر، وكذا التكبير عند رؤية أو سماع شيء منكر، وكذلك عند رؤية شيء يُعجب به، فإنه يُسبَّح ويكبِّر الله -جلَّ وعلا-.

وقوله: «حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه» فقد تأثَّروا -رضوان الله عليهم-؛ لتأثُّر رسول الله ﷺ فالأمر عظيم، والكلمة شنيعة، وهذا فيه أن بعض الكلمات تكون وخيمة، فينبغي علىٰ الإنسان أن يحفظ لسانه.

وفيه أن الإنسان لا يتكلم بحقِّ الله -جلَّ وعلا- إلا عن علم ومعرفة، ولا يقول علىٰ الله بلا علم.

=

وقوله: «ثم قال: **وَيْحَكَ**» كرَّر قوله ﷺ: «**وَيْحَكَ**» دلالة علىٰ عظم الأمر، وكلمة «**وَيْحَك**» كلمة تقال لِمَن أشرف علىٰ الهلكة، وفيها معنىٰ الزَّجر.

وقوله: «**إن عرشه علىٰ سمواته لهكذا**، وقال بأصابعه مثل القُبة» أي: أشار بيديه كالقُبَّة؛ لأن العرش هو سقف المخلوقات، فإذا كان هو كذلك ففيه دليل علىٰ عظمته؛ لأن المخلوقات علىٰ سعتها وامتدادها بما في ذلك السموات والأرض وما بينهما كلها سقفها العرش، فهو عرش متناهٍ في العِظَم! وفيه بيان أن العرش مُقبَّب.

وقوله: «**ليئطُّ به أطيط الرَّحل بالراكب**» بيان أنه إذا كان هذا العرش علىٰ عظمته وضخامته يُصيبه هذا التأثر من عظمة الله ﷻ فكيف بغيره من المخلوقات!

وهذا فيه إثبات استواء الله علىٰ عرشه، وفيه أن العرش هو أعظم المخلوقات، وفيه أنه لا يستغاث بالله علىٰ أحدٍ من خلقه، وإنما العكس أنه يستغاث بالمخلوق الحي الحاضر إلىٰ الخالق، بمعنىٰ طلب الشفاعة من المخلوق عند الله ﷻ، وذلك بدعائه ﷻ للمحتاج، والدعاء للمحتاج إنما هو شفاعة أو نوع منها.

[صبر الله تعالى على تكذيب المخلوق له]

٣٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك؛ أما تكذيبه إيايَ؛ فقوله: لن يُعيدنَي كما بَدَأني، وليس أَوَّلُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِن إعادَتِه، وأما شتْمُه إيايَ؛ فقوله: اتَّخَذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[1].

٣٧- وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وأما شتْمُه إيايَ؛ فقوله: لي وَلدٌ وسبحاني أن أتَّخذَ صاحبةً أو ولدًا». رواه البخاري[2] [٣٨].

---

[٣٨] في هذا الحديث تكذيب المخلوق لخالقه -جلَّ وعلا-؛ وذلك أنه -جلَّ وعلا- أخبر أنه سيبعث الخَلْق يوم القيامة، وكثير من الخَلْق قد أنكروا البعث، وقالوا: إن الميت لا يمكن أن يُبعث حيًّا مرةً أخرىٰ بعد أن صار ترابًا، فهؤلاء القائلون لهذه المقالة ما قَدَروا الله حقَّ قدره، وما عرفوا أن الله علىٰ كلِّ شيء قدير، ووصفوا قدرة الله بالعجز عن إحياء الأموات، وفي هذا تكذيب له عز وجل، مع أنه سبحانه قد أقام الأدلَّة والبراهين الدالَّة علىٰ إعادة الخلق والإحياء والبعث، فذكر أنه يُحيي الأرضَ بعد موتها، فتكون جدباء قاحلة ثم ينزل عليها الماء وسرعان ما تهتزُّ فتصبح خضراءَ وبهيجةً، فالذي قدر علىٰ إحياء الأرض بعد موتها قادر علىٰ أن يُحيي الأموات يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) برقم (٤٤٨٢).

ثم إن الذي خلقهم أوَّل مرة من عَدَم أليس قادرًا علىٰ أن يعيدهم مرة ثانية؛ والإعادة في نظر العقول أهونُ من البداية، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فالذي قدر علىٰ البداءة من لا شيء، لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]. فهو قادرٌ علىٰ الإعادة من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

ثم إن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فالذي قدر علىٰ خَلْق ما هو أعظم قادرٌ علىٰ خلق ما هو دون ذلك من باب أَوْلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وهذه كلها براهين عقلية علىٰ حصول البعث، ومع ذلك فإن بعض الخلق ينكر ذلك، ويكذب الخالق -جلَّ وعلا-، وما كان لهم أن يكذِّبوه ﷻ!

وأمَّا شَتمُه لله ﷻ وذلك بأن ينسبوا له الولد، والله -جلَّ وعلا- لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ولأنَّ الولد يُشبه الوالد، وهو ﷻ لا شبيه له، والولد كذلك جزءٌ من الوالد، وهو ﷻ ما ينبغي أن يكون له جزء مخلوق -تعالىٰ الله عن ذلك- وفي القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]. يعني: ولدًا، والولد كما ذكرنا جزءٌ من الوالد، والولد بذلك يكون إلهًا مع الله، والله -جلَّ وعلا- ليس له شريك، فلو كان له ولد لصار له شريك -تعالىٰ الله عن ذلك-.

[النهي عن سبِّ الدهر]

٣٨- ولهما[(١)]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر؛ بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»[٣٩].

=

والنصارىٰ قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، وأهل الجاهلية من مشركي العرب، قالوا: الملائكة بنات الله؛ لأنه سبحانه -بزعمهم- تزوَّج من الجنِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. فينسبون البنات إليه ﷻ، وهم لا يريدون البنات لأنفسهم! قال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]. تعالىٰ الله عما يقولون.

وقوله في حديث ابن عباس: «**سبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا**» قوله: «**صاحبة**» يعني: زوجة؛ لأن الولد لا يكون إلا من زوجة، والله سبحانه ليس له صاحبة؛ قال تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ يعني: ليس له سبحانه زوجة.

[٣٩] في هذا الحديث بيان أن ابن آدم يسبُّ الله من خلال سبِّه للدهر، فإذا ما أصابه شيء أخذ يلوم الدَّهرَ واليومَ والساعةَ والسنةَ، والدهر إنما هو زمانٌ خَلَقَه الله -جلَّ وعلا-، وهو ظرف زمان ليس بيده شيء، وإنما الذي أوجد هذه النوازل والحوادث والمصائب والمكاره هو الله -جلَّ وعلا-، فكان سبُّه للدهر سبًّا لله ﷻ؛ لأن الله هو الذي قدَّر هذه الحوادث والنوازل والمصائب التي تقع علىٰ العباد. =

---

(١) البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

[باب: الإيمان بالقدر]

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٣٩- وفي صحيح مسلم(١)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء»[٤٠].

=

وقوله: «**أنا الدهر**» ليس معناه أن الدَّهر من أسماء الله -جلَّ وعلا-، وقد فسَّر ذلك في آخر الحديث، وقال: «**بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**» وهذا تفسير منه ﷺ فيما يرويه عن ربِّه ﷻ، وهو في سياق حديث قدسي شريف.

وقوله: «**بيدي الأمر**» تفسير لقوله: «**وأنا الدهرُ**» إذ البعض يعتقد أن كلمة «الدهر» من أسماء الله -جلَّ وعلا-!

[٤٠] **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب الإيمان بالقدر».

القَدَرُ، هو: إحاطة الله ﷻ بمقادير الأشياء، وقضاؤه سبحانه ما يجري بهذا الكون من الحوادث التي تقع شيئًا فشيئًا في هذا الكون، فإنه لا يقع في هذا الكون من شيء، أو يحصل فيه من شيء إلا وقد علمه الله -جلَّ وعلا- في الأزل وقضاه وقدره، لا يخرج شيء عن قدره وقضائه، والأزل معناه: الزمان الماضي الذي لا حدَّ له، ولا بداية له.

=

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

....

=

والأبد، هو: الزمان المستقبل الذي لا حدَّ لنهايته، فلا يجري في هذا الكون شيء اعتباطًا أو دون تقدير وقضاء من الله -جلَّ وعلا-، ولا يكون فيه شيء يخرج عما قضاه ﷻ وقدَّره في الأزل.

والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»(١).

ومحل الشاهد: قوله ﷺ: «**وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه**» فما يجري من الخير والشرِّ في هذا الكون فإنه قد قضاه الله وقدَّره، فمَنْ لم يؤمن بهذا فإنه ليس بمؤمن بالله ﷻ، وإذا مات وهو ينكر القضاء والقدر فإنه من أهل النار، كما جاءت بذلك الأحاديث التي ستأتي في هذا الباب، أن مَنْ لم يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه لم يؤمن بالله؛ لأنه نفىٰ شيئًا من أفعال الله ﷻ وزعم أن الله عاجز، وأنه يحدث في ملكه ما لم يَقضِه ولم يُقدِّرهُ -تعالىٰ الله عن ذلك-، فمن لم يؤمن بهما فهو كافر، وعليه وعيد شديد، وهو من أهل النار، ولو أنفق مثل أُحد ذهبًا، فإن الله لا يتقبله منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الإيمان بأن الله علم ما كان وما يكون في علمه الأزلي، ولا يقع شيء لا يعلمه الله ﷻ.

=

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

....

=

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كلِّ شيء إلىٰ أن تقوم الساعة، علمه أولًا ثم كتبه في اللوح المحفوظ، **«أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتبُ ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»**[1].

وكما قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. والكتاب، هو: اللوح المحفوظ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نوجدها.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأنَّ الله ﷻ شاء كلَّ شيء وأراده مما قضاه وقدَّره في اللوح المحفوظ، فلا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته ﷻ، ولا يقع في ملكه ما لا يريد؛ قال تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأنَّ كلَّ ما يقع في هذا الكون هو من خَلْق الله -جلَّ وعلا-، فكل شيء في هذا الكون من خير أو شرٍّ إنما هو من خلقه -جل شأنه-، وهو فِعْل العباد، فالخير والشر من أفعال العباد، وهما خلقٌ من خلق الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]. أي: وخَلَق ما تعملون، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]. وكل ما يجري وما يحدث وما يكون فإنه خلق الله -جلَّ وعلا-.

=

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣٩٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

....

=

فلابدَّ من الإيمان بهذه المراتب كلِّها، سواء الإيمان بعلم الله السابق، أو الإيمان بالكتابة باللوح المحفوظ، والإيمان بمشيئة الله وإرادته وبكل ما يحدث، والإيمان بأن كلَّ ما يحدث بأنه خلق الله ﷻ، فلا أحد يخلق مع الله ﷻ، ولا يكفي الإيمان بمرتبة دون مرتبة أخرىٰ، أو بمرتبة واحدة أو اثنتين أو ثلاث، فلابد من الإيمان بكل هذه المراتب الأربع، وهي موجودة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ هذه مرتبة العلم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هذه مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. فهذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إنه بعد الإيمان بالقضاء والقدر وإثباته كما جاء فلا ينبغي تركُ العمل بحُجَّة أنَّ كلَّ شيء مقدَّر ويكفي التسليم بالقضاء والقدر، وبحجة أن دخول الجنة والنار مقدر منه ﷻ ولا فائدة من العمل، هذا كلام باطل؛ لأن الإنسان مأمور بالعمل، إذ دخول الجنة لا يكون إلا بالعمل لها، ولا يمكن دخول النار إلا بسبب، والله لا يعذِّب علىٰ القضاء والقدر، وإنما يعذِّب علىٰ الأعمال، ولا يُنعِّم بالقضاء والقدر، وإنما بالأعمال؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فالثواب والعقاب لا يتعلقان بالقضاء والقدر، وإنما يتعلقان بأفعال العباد، ولهذا لما أخبر النبي ﷺ الصحابة أن كلَّ إنسان مقدَّر مقعده من الجنَّة، ومقعده من النار، قالوا: يا رسول الله، ففِيمَ العمل، أفلا نتَّكِل علىٰ كتابنا ونَدَع العمل؟ قال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، أمَّا مَنْ كان من أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل** =

....

أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشَّقاء فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاء». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾[1] الآية. يعني: الجنة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ رتب تفسيره لليسرىٰ علىٰ العمل، علىٰ عمل العبد ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]؛ هي النار، رتب تيسيره للعسر علىٰ عمل العبد، وليس بسبب القضاء والقدر.

فإذا ما كان الجوع الذي يشعر به الإنسان يتطلَّب البحث عن الطعام والرزق، وكذا دفع الظُّلم يحتاج إلىٰ عمل وردَّة فعل وطَلَب القِصاص ممن ظَلَم، فكيف يُقال: إنَّ الجنة والنار لا تحتاجان إلىٰ عمل، أو إن المصير إليهما لا يترتب علىٰ العمل الذي يقوم به العبد، والحق أنه لابدَّ من السعي والعمل سواء في أمور الآخرة أو في أمور الدنيا، فإذا كان الإنسان في أموره الدنيا لا يتكل علىٰ القضاء والقدر فأمور الآخرة من باب أولىٰ، فليس معنىٰ الإيمان بالقضاء والقدر ترك العمل؛ لأن هذا لا يكون إلَّا من القدرية الذين يحتجون بالقضاء والقدر علىٰ ترك الفرائض، وهؤلاء محجوجون، كونهم لا يحتجون بالقضاء والقدر في مصالحهم الدُّنيوية.

وفائدة الإيمان بالقضاء والقدر؛ معناه الصبر علىٰ المصائب، وعدم الجزع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

والحكمة في ذلك متمثلة في قوله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

[1] أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، وبنحوه مسلم (٢٦٤٧) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

....

=

هذه هي الحكمة في ذلك، وهي أن الله أخبرنا بأن كل ما يحدث من مصائب إنما هو في كتاب في اللوح المحفوظ؛ لأجل ألَّا يجزع الإنسان؛ بل يصبر ويحتسب، هذه هي حكمة الإيمان بالقضاء والقدر، وليس معناه تَرْكَ العمل وتعطيله؛ ولهذا يقول ﷺ: **«احرِصْ علىٰ ما يَنفعُكَ واستَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وإن أصابكَ شيءٌ فلا تَقُل: لو أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تَفتَحُ عملَ الشيطانِ»**[1]. هذه هي فائدة الإيمان بالقضاء والقدر المبنية علىٰ الصبر والاحتساب وعدم الجزع والتسخُّط.

والإيمان بالقضاء والقدر ضَلَّ فيه طائفتان؛ طائفة الجبرية، وطائفة القدرية من المعتزلة:

فالجبرية غَلَتْ في إثبات القَدَر ونَفَت أفعال العباد، وقالت: إنما هذه أفعال الله وقضاؤه، والعبد إنما هو مجبور كالآلة أو كالريشة يُحركها الهواء -تعالىٰ الله عما يقولون- فالزِّنا والسرقة وظلم العباد وشرب الخمر إنما هي أفعال الله -جلَّ وعلا- وليست أفعال العبيد، وكفىٰ بهذا القول شناعة وكفرًا!!

وأما القَدَريَّة فكانت في مقابلة الجَبْرية، فغَلَوا في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقدر، وقالوا: إن الإنسان حُرٌّ حرية كاملة ليس لها تعلُّق بقضاء الله وقَدَره، فهو الذي يخلق فعل نفسه، ولم يخلقه الله، وليس له سبحانه تدخُّل في أفعال العباد؛ وهم في ذلك كانوا علىٰ النقيض من الجبرية الذين غَلَوا في إثبات القضاء والقدر ونَفَوا أفعال العباد، وهؤلاء القدرية كانوا علىٰ العكس، فقد غَلَوا =

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في إثبات أفعال العباد، ونَفَوا القضاء والقَدَر؛ ولذلك يسمَّون بالقدرية؛ لأنهم نَفَوا القدر، فهؤلاء لا يؤمنون بالقضاء والقدر، وهم بذلك جحدوا الركن السادس من أركان الإسلام.

وأمَّا أهل السُّنة والجماعة فقد توسَّطوا -كعادتهم أنهم وسط في جميع الأمور- بين الإفراط والتفريط، وبين الغُلوِّ والجفاء، فقد أثبتوا القضاء والقدر، وأثبتوا أفعال العباد، ولا تناقض بينهما، فالله -جلَّ وعلا- قضىٰ وقدَّر، والعبد يفعل باختياره وإرادته، ولكنه لا يخرج عن قضاء الله وقدره، وهذا هو موجب الكتاب والسُّنة، وهو المذهب الوسط والعدل المتمشي مع الأدلة، هذا حاصل الخلاف في مسألة القضاء والقدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ يعني: في القضاء والقدر، حيث إنَّ الله قدَّر لهم الجنة والنَّجاة من النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ أي: عن النار مُبعَدُون، ثم قال: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

هذا فيه إثبات القضاء والقدر. فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ أي: قدَّرنا لهم ذلك، فهم عملوا ما يسبِّب لهم دخول الجنة، فأبعدهم الله عن النار.

وسبب نزول الآية أن الله -جلَّ وعلا- لمَّا قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

لما سمع المشركون هذه الآية، قالوا: نحن نعبد أُناسًا صالحين، فإذا كانوا معنا في النار، فإن الأمر يَهُون علينا، يعني: هم ينتقدون كلام الله ﷻ، ومن جملة ما يعبدون من دون الله ملائكة ورسلًا مثل عيسىٰ عليه السلام؛ فكيف يكونون في النار؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وهم الملائكة والأنبياء والرسل والصالحون، هؤلاء لا تتناولهم هذه الآية، فهو تخصيص بعد عموم، لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قال ابن الزبعري: فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارىٰ تعبد المسيح عيسىٰ بن مريم، فهل هؤلاء معنا في النار[1]؟! وغرض المشركين من هذا انتقاد كلام الله.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨]. لأنه من المعروف أن عيسىٰ بن مريم والصالحين لا يدخلون النار؛ لأن الله تكفَّل بأن يدخلهم الجنة، وهم يعرفون هذا، لكنهم من باب المغالطة يقولون ذلك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٨-٥٩].

وقد ردَّ الله -جلَّ وعلا- عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾. كعيسىٰ عليه السلام، وعُزير، ومَن عُبد من دون الله من عباد الله الصالحين، هؤلاء مستثنَون من دخول جهنم.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير الطبري» (٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦٥).

....

=

والشاهد من الآية: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هذا فيه إثبات القضاء والقدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وهذه الآية متضمنة إثبات القضاء والقدر، فقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأمر الكوني، علىٰ اعتبار أن أمر الله قسمان:

الأول: الأمر الكوني كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢].

والثاني: الأمر الشرعي، كالأمر بالصلاة، والزكاة، وبر الوالدين، ونحو ذلك من الأمور التكليفية.

والأمر الكوني لابد أن يقع، وأما الأمر الشرعي، فقد يقع، وقد لا يقع، فمن الناس مَن يمتثل ومنهم مَنْ يعصي، هذا الفرق بين الأمرين؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ يراد به الأمر الكوني القَدَري، بمعنىٰ أن كل ما يجري في هذا الكون مقدَّر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. أي: وخلق ما تعملون، هذه الآية فيها أن أعمال العباد إنما هي من خَلْق الله ﷻ، نعم هي فعل الخَلْق ولكنها خلق الخالق ﷻ فيجتمع فيها الأمران أنها خَلْق الله، وأنها فِعْل العبد، وفي الآية ردٌّ علىٰ المعتزلة الذين ينفون القضاء والقدر، ويقولون: إن العبد إنما يفعل باختياره المطلق الذي ليس لله فيه أيُّ قضاء وقدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[القمر: ٤٩]. وفي هذه الآية أيضًا إثباتٌ للقضاء والقدر؛ إذ كل المخلوقات من خير أو شرٍّ إنما يقع بقَدَر الله ﷻ؛ ففي الآية أمران:

=

[عدم جواز الاتكال على القضاء والقدر وترك العمل]

٤٠- وعن عليِّ بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا منكم مِن أحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مقعدُه من النار، ومَقْعده مِنَ الجنة. قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل. قال: اعملوا، فكلٌّ ميسرٌ لما خلق له، أمَّا مَنْ كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأمَّا مَن كان من أهل الشقاوة؛ فسييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. متفق عليه[1][٤١].

=

الأول: أن كلَّ ما يحدث في هذا الكون إنما هو خَلْقُ الله ﷻ.

الثاني: أن كلَّ ما يحدث إنما هو بقَدَر الله -جلَّ وعلا-.

وأما حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وهو حديث الباب الذي فيه: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق ...» إلخ. فهذا فيه إثبات أن الله قدَّر مقادير الخلائق، وأن التقدير سابقٌ لخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فهذا فيه إثبات أسبقية القضاء والقدر على حدوث الأشياء، وأنها مقدَّرة قبل وقوعها.

[٤١] لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة على إثبات القضاء والقدر بيَّن أنه لا يجوز الاعتماد على القدر، وترك العمل، وإنما ينبغي للمسلم أن يعمل الأعمال التي تنفعه في الدنيا والآخرة، وعدم الاتكال على أن كل شيء مقدَّر سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فكما أنَّ الإنسان لا يتَّكل في أمور دُنياه على القضاء والقدر؛ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- رتَّب الأشياء على الأسباب.

=

(١) البخاري (٦٦٠٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

وكذلك الأمر نفسه، يُقال في أمور الآخرة، فالإنسان بفطرته التي تقتضي أنه عليه أن يعمل لتحصيل أمور دُنياه، فكيف يُعطِّل أعمال الآخرة، ويعتمد على القضاء والقدر؟!

ومن دلالة فقه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لما ذكر أدلة القضاء والقدر، ذكر أدلة إثبات العمل، فساق هذا الحديث الذي يدل على أن الأصل في الإنسان عدم ترك العمل، اعتمادًا على القضاء والقدر.

فقد بيَّن ﷺ في هذا الحديث للصحابة بعدما ذكر لهم أن كل إنسان قد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، وأجابوا بقولهم: أفلا نتَّكل ونَدَع العمل؟ ولكنه ﷺ بيَّن لهم غَلَطهم في هذا، وأن ما فهموه من قوله إنما هو فَهم خاطئ، وأنه ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر تركَ الأعمال؛ بل بيَّن ﷺ أن هذا فيه حثٌّ للإنسان على العمل؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ عمل لها، وأن النار لا يَسلمُ منها إلا من ترك الأعمال التي من شأنها أن تورد المرء إيَّاها.

ثم استدل ﷺ بالآية الكريمة، فقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧] فدلَّ على أن دخول الجنة، إنما هو بسبب الأعمال، وأن دخول النار كذلك، لا سبب القضاء والقدر فحسب؛ لأن القضاء والقدر إنما هو من شأن الله -جلَّ وعلا-، والإنسان لا يدخل بشئون خالقه، وإنما يدخل في شئون نفسه، والذي ينبغي له هو العمل، لا السؤال عن القضاء والقدر.

٤١- وعن مسلمٍ بن يسارٍ الجُهني، قال: «سُئل عمر بن الخطاب ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقال عمرُ ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: **إن الله خَلقَ آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خَلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خَلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون.** فقال رجلٌ: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال: **إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النَّار**». رواه مالكٌ، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم[1]، ورواه أبو داود[2] من وجه آخر، عن مسلم بن يسار، عن نُعيم بن ربيعةَ، عن عمر [٤٢].

---

[٤٢] قوله: «**وبعمل أهل الجنة يعملون**» لم يقل: خلقتهم للجنة، فهم يدخلون الجنة، وإنما قال: «**وبعمل أهل الجنة يعملون**»؛ فدل علىٰ أن الجنة لا تُدخل إلَّا بعمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢] .

وكذا قوله: «**وبعمل أهل النار يعملون**» لم يقل: خلقتهم للنار، فحسب؛ بل قال: «**وبعمل أهل النار يعملون**» فدلَّ علىٰ أنه -كما ذكر- أنه لا أحد يدخل الجنة إلا بعمل، ولا يدخل النار إلا بعمل؛ أي: ليس بمجرد القضاء والقدر، وهذا واضح من الحديث.

=

(١) مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٨٠).

(٢) برقم (٤٧٠٣).

٤٢- وقال إسحاقُ بن راهويه: حدثنا بقية بن الوليد، فقال: أخبرني الزُّبيدي محمد بن الوليد، عن راشد بن سعد بن عبد الرحمن بن أبي قتادة، عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام: «أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، أَتُبتَدأُ الأعمالُ، أم قد قُضيَ القضاء؟ فقال: **إن الله لما أخرج ذُرِّية آدمَ من ظهره، أشهدَهم علىٰ أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار**»[1] [٤٣].

ففي الحديث بيانُ أنه لابدَّ من العمل، ولا يعني هذا أن مَنْ قضىٰ الله له أنه من أهل النار أنه يترك العمل الذي ينجيه من النار، أو مَنْ قدَّر الله له أنه من أهل الجنة أنه يترك العمل الذي يسبِّب له دخول الجنَّة، فلابدَّ من العمل، لأن الجنة لا تُدخل إلا بعمل الخير، والنار كذلك لا تُدخَل إلا بعمل الشر، فلا ينبغي أن تعطَّل الأعمال.

[٤٣] هذا الحديث يشهد للذي قبله في أن القضاء والقدر حاصل؛ ولكنه لابدَّ من العمل، سواء العمل الذي يُنجي من النار، ويدخل الجنة، أو الذي يدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٩١) (١٨٥٤).

[كتابة العمل، والأجل، والرزق، والشقاء، والسعادة]

٤٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادقُ المصدوق-: «إنَّ أحدَكُم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يَبعثُ الله إليه ملكًا بأربع كلمات: فيُكتبُ عملُه، وأجلُه، ورزقُه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخُ فيه الروح، فوالذي لا إله غيرُه، إن أحدكُم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكُم ليعمل بعمل أهل النار، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» متفق عليه[(١)] [٤٤].

---

[٤٤] قوله ﷺ: «أربعين يومًا نطفةً».

النطفة، هي: المنيُّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيبقىٰ منيًّا، أربعين يومًا، ثم بعد الأربعين يتحوَّل إلىٰ «علقة»؛ يعني: إلىٰ دم، فيبقىٰ أربعين يومًا كذلك، وهو دم، ثم بعد الأربعين الثانية يتحول إلىٰ «مضغة» يعني: قطعة لحم.

والمضغة، هي: التي يكون منها تركيب الإنسان من: العروق، والأعضاء، والعَصَب، والسَّمع، والبصر، والعِظام، وغير ذلك من تراكيب الإنسان.

ثم في الأربعين الأخيرة تُنفخ فيه الرُّوح بعدما يأتيه الملك، ثم يؤمر الملَك بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأَجلَه، ورزقه، وهل هو شقي أو سعيد، وهي كتابة خاصة غير الكتابة التي في اللوح المحفوظ؛ بل هي كتابة مأخوذة من اللوح =

---

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

....

=

المحفوظ، التي هي كتابة عامة.

فهناك كتابة خاصة وكتابة عامة، ومن الكتابات الخاصة ما يأتي في ليلة القدر، ومنها ما جاء في هذا الحديث، وأما ما يأتي في كل يوم من الأيام فكلها من باب الكتابة الخاصة المنقولة من اللوح المحفوظ.

وقوله ﷺ: **«ثم يكون علقة مثل ذلك»**.

العلقة: قطعة اللحم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا** ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وتفصيل هذه الأمور في سورة المؤمنون، وقوله في الآية الكريمة: ﴿ **مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ** ﴾. يعني: آدم عليه السلام.

والقرار المكين، هو: رحم المرأة الذي هو ثابت لا يتغير، والنطفة مستقرة فيه دون اضطراب، وقوله: ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ** ﴾ يعني: المني ﴿ **عَلَقَةً** ﴾ يعني: دمًا يعلق باليد؛ جاء بـ: «ثم» التي تفيد التَّراخي؛ إذ كل طَوْر له أربعون يومًا ﴿ **فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ** ﴾.

وقوله: **«ثم يبعث الله إليه الملك»** لينفخ فيه الروح ليحيا ويتحرك، ولذلك يتحرك الحمل في الشهر الرابع.

وقوله: **«فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد»** مع نفخ الروح فيه يُكتب ما يجري عليه من الكتابة الخاصة بالنسبة لكل فرد من بني آدم، وأما الذي في اللوح المحفوظ فهي كتابة عامة للجميع فلا تعارض بين الكتابتين. =

....

=

فالكتابة العامة سابقة لخلق السموات والأرض، والكتابة الخاصة تتكرر بإذن الله إلىٰ آخر الخليقة مع كل مولود.

وقوله: «**ثم ينفخ فيه الرُّوح**» كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]. أي: من روح الله ﷻ المخلوقة فالروح مخلوقة، وإضافتها إلىٰ الله إضافة مخلوق إلىٰ خالقه، فهي ليست من صفات الله ﷻ، وإنما معنىٰ قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: الروح المخلوقة له سبحانه.

وقوله: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» إذا قدَّر أنه من أهل النار؛ فلابد وأن يعمل بعمل أهل النار، إما في كلِّ عمره، يكون من أهل المعاصي وأهل الكفر ويَموت علىٰ هذا، وإما بأن يعمل بعمل أهل الجنة، يُختم له بعمل أهل النار، فتسوء خاتمته فيدخل النار، أو العكس يعمل بعمل أهل النار طول عمره، ثم يُختم له بعمل صالح فيكون من أهل الجنة، والأعمال بالخواتيم، وفي هذا مسألتان:

المسألة الأولىٰ: أنه لابد من العمل.

المسألة الثانية: أن الأعمال بالخواتيم، ولذلك لا ينبغي أن يشهد لأحد بجنَّة أو نار؛ لأنه لا يُدرىٰ ما يُختم له؛ لأنه في علم الله -جلَّ وعلا-.

ففي هذا الحديث العظيم جملة من الفوائد:

منها أولًا: بيان قدرة الله -جلَّ وعلا- علىٰ خلق هذا الإنسان، ونَقْلِهِ من طور إلىٰ طور.

ثانيًا: فيه إثبات القضاء والقدر؛ لأن الملَك يكتب رزق الإنسان، وأجلَه، وعملَه، وهل هو شقيٌّ أو سعيدٌ.

=

٤٤- وعن حذيفةَ بن أسيد ﷺ يَبلغُ به النبيَّ ﷺ قال: «يدخلُ الملكُ علىٰ النطفةُ بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيُكتَبانِ، فيقول: يا رب، أَذَكَرٌ أو أنثىٰ؟ فيُكتبان، ويكتبُ عملُه، وأثرُه، وأجلُه، ورزقُه، ثم تُطوىٰ الصُّحفُ، فلا يُزاد فيها ولا يُنقصُ». رواه مسلم(١)[٤٥].

ثالثًا: فيه أن الجنة والنار لا تُدخَلان إلَّا بعمل، إما بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة، ولو بعملٍ قليل، فإذا ختم له بعمل صالح دخل الجنة، وإما بعمل أهل النار، فيدخل النارَ، ولو عمل ابتداءً بعمل أهل الجنة؛ لأنه في آخر عمره عمل بعمل أهل النار، كأنْ يرتدَّ فيموت علىٰ الرِّدةِ فيكون من أهل النار.

رابعًا: وفيه أن الأعمال بالخواتيم، فعلىٰ الإنسان ألَّا يغترَّ بصلاته وصلاحه واستقامته؛ بل عليه أن يخشىٰ من سوء الخاتمة، وعلىٰ العاصي ألَّا يقنط من رحمة الله؛ بل يرجو حُسن الخاتمة، ويسأل الله حُسنها.

خامسًا: فيه أنه لا يُشهد لأحد بجنَّة أو نار، وإنما يُرجىٰ للمحسنين، ويُخاف علىٰ المسيئين؛ لأن الشهادة لابد فيها من خبرِ المعصوم ﷺ أن هذا من أهل النار وهذا من أهل الجنة.

[٤٥] هذا الحديث كحديث ابن مسعود ﷺ الذي سلف قبله، ففيه أن الملك يدخل علىٰ الجنين في بطن أمِّه -والله قادرٌ علىٰ كل شيء- فيسأل ربَّه ماذا يكتب، والله -جلَّ وعلا- يُخبره ماذا يكتب.

ففي هذا الحديث بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله -جلَّ وعلا-، وفيه إثبات حقيقة القضاء والقدر، وفيه أنه لابد من العمل.

---

(١) برقم (٢٦٤٤).

[لا يقطع لأحد بدخول الجنة والنار إلا بدليل]

٤٥- وفي صحيح مسلم[١]، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دُعيَ رسول الله ﷺ إلىٰ جنازة صَبيٍّ مِنَ الأنصار، فقلتُ: طُوبىٰ له، عُصفورٌ مِن عصافير الجنةِ لم يعمل سُوءًا، ولم يدركه. فقال: أوَغيرَ ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلًا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[٤٦].

---

[٤٦] في هذا الحديث أنه لا يُشهد لأحدٍ بأنه من أهل الجنَّة إلَّا بدليل، وكذلك لا يُشهد لأحدٍ أنه من أهل النار إلَّا بدليل، وعائشةُ رضي الله عنها قالت: في هذا الحديث: «**طُوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة**» وهي بذلك شهدت له بدخول الجنة؛ ولكن الرسول ﷺ أنكر عليها هذه الشهادة.

وأما مسألة أطفال المسلمين، وماذا يكون مصيرهم في الآخرة، نقول: إن أطفال المؤمنين تَبع لآبائهم في الجنة، وأمَّا أطفال الكفَّار فهؤلاء موضع خلاف بين العلماء:

منهم مَن يقول: إنهم من أهل النار، وهم تَبَع لآبائهم.

ومنهم مَن يقول: إنهم من أهل الجنة؛ لأنهم لم يعملوا عملَ أهل النار، فهم من أهل الجنة.

ومنهم من يقول: إنه يُرسل إليهم رسول يوم القيامة ويدعوهم، فمَن آمن دخل الجنة، ومن كفر دخل النار.

=

---

(١) برقم (٢٦٦٢).

[كلُّ شيء بقدر]

٤٦- وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقدرٍ، حتىٰ العجز والكَيْس». رواه مسلم[1][٤٧].

=

والصحيح: التوقُّف في هذا الأمر، وهو أمر موكولٌ إلىٰ الله -جلَّ وعلا-، فهو أعلم بهم وبمصيرهم، وأمَّا نحن فينتهي علمنا عند ذلك.

[٤٧] قوله ﷺ: **«كلُّ شيء بقدَر»** فيه إثبات القَدَر، **«حتىٰ العجزُ والكَيْسُ»**. فالعجز من الإنسان، وكونه يترك العمل تكاسلًا، فهو مقدَّر عليه؛ قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

والكَيْس: هو النشاط والعَزْم والحزم علىٰ مزاولة العمل الصالح، فهما مكتوبان في اللوح المحفوظ، ومقدَّران علىٰ الإنسان، بأن يكون كسلان أو نشيطًا وحازمًا في العمل؛ فدلَّ هذا علىٰ أنَّ الكسل والحزم إنما هما من فعل العبد إلَّا أنهما مقدَّران مكتوبان في اللوح المحفوظ.

---

(١) برقم (٢٦٥٥).

[تفسير قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾]

٤٧- وعن قتادةَ رضي الله عنه، في قوله تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤] قال: «يُقضىٰ فيها ما يكون في السنة إلىٰ مثلِها». رواه عبد الرزاق، وابن جرير[1].

وقد رُوي معنىٰ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وسعيد بن جُبير، ومقاتل[2] [٤٨].

---

[٤٨] قوله تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ هذا التقدير الحَوْلي، سَبق التقدير العُمُري في بطن الأم؛ والتقدير الحَوْلي، هو: ما يحصل في ليلة القدر، وهي من ليالي رمضان؛ قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١-٥]. هذه ليلة القدر يُقدَّر فيها ما يجري في السنة من حياة وموت، وخصب وقحط، وغنًىٰ وفقر وغير ذلك، وهو مأخوذ من القَدَر السابق المكتوب في اللوح المحفوظ، هذا التقدير الحولي، وهو التقدير الخاص.

وقوله: «يُقضىٰ فيها ما يكون في السنة إلىٰ مثلها» أي: يُقدَّر فيها ما يكون في السنة، وهو مأخوذٌ من التقدير العام المدوَّن في اللوح المحفوظ.

---

(١) عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٥٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٨، ٥٦٩).

[ما جاء في صفة اللوح المحفوظ]

٤٨- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إنَّ الله خلق لوحًا محفوظًا، من دُرَّة بيضاء، دفَّتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نورٌ، وكتابه نورٌ، عرضه ما بين السماء والأرض، يَنظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرةً، ففي كل نظرة منها يَخلُقُ ويَرزق، ويُحيي ويُميت، ويعزُّ ويذلُّ ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]». رواه عبد الرزاق، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم[١].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-[٢] -لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها- قال: «فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أوَّلِ تخليقه، وكونه مُضغة، والذي قبله تقدير سابقٌ علىٰ وجوده؛ لكن بعد خَلْق السموات والأرض، والذي قبله تقدير سابق علىٰ خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكلٌّ واحد من هذه التقادير؛ كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل علىٰ كمال علم الربِّ، وقدرتِه وحكمتِه، وزيادةِ تعريفِه الملائكة، وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

ثم قال: فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها، علىٰ أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه؛ بل يُوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: «ما كنت بأشدَّ اجتهادًا مني الآن».

وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: «لأنا بأوَّل هذا الأمرِ أشدُّ فرحًا مني بآخرِه».

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٦، ٥٦٥).

(٢) انظر: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (١/ ٢٣، ٢٤).

وذلك لأنه إذا كان قد سَبق له من الله سابقةٌ، وهيّأه ويسَّره للوصول إليها كان فَرحُه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها [٤٩].

---

[٤٩] قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا من التقدير اليومي بعد التقدير السَّنوي أو الحَوْلي، وهناك ثلاثة أنواع من التقدير:

الأول: التقدير العُمُري.

والثاني: السنوي.

والثالث: التقدير اليومي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وجاء تفسير ذلك في الحديث الذي ساقه المصنف في هذا الباب، وفيه: «**ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة**» فيدبِّر ما يشاء ﷻ، ويقضي ويخلق ويرزق كل يوم إذا نظر في اللوح المحفوظ، وهذا تقدير خاص من التقدير العام.

وابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق جملة من نحو هذه الأحاديث، وعلَّق عليها في كتابه «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل»، فقوله: «**فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عُمُري**». هذا قد أخذه واستنبطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مجموع الأحاديث.

فقوله: «هذا تقدير يومي»، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقوله: «والذي قبله تقدير حَوْلي» كما في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقوله: «والذي قبله تقدير عُمُري» وهو ما يُكتب علىٰ الجنين في بطن أمه.

وقوله: «والذي قَبله كذلك عند أول تَخليقه، وكَونِه مُضغةً» يشير بذلك إلىٰ ما جاء في حديث حذيفة بن أَسيد من أن: «**الملك يدخل علىٰ النطفة بعدما تستقر** =

....

في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة» وأما حديث ابن مسعود[١]، فذكر أنه عندما تُنفخ فيه الرُّوح، وهذا مراده من ذِكر هذا القول، وهو بيان اختلاف الحديثين؛ حديث ابن مسعود والذي بعده.

وقوله: «والذي قبله تقدير سابق علىٰ وجوده؛ لكن بعد خلق السموات والأرض» يشير بذلك إلىٰ التقدير العام السابق علىٰ وجود المخلوقات، وهو ما كان في اللوح المحفوظ؛ والمراد به حديث آدم عندما أخذ الله ذريته، وقال: «**هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار**»[٢]. وهذا بعد خلق السموات والأرض؛ لأن خلق آدم متأخِّر عن خلقهما.

وقوله: «والذي قبله سابق علىٰ خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» يريد بالذي قبله ما جاء في الحديث من أنَّ الله «**مسح ظهر آدم، فاستخرج منه ذرية، وقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار**»[٣]. فهذا تقدير بعد خلق السموات والأرض حين خلق آدم عليه السلام، والذي قبله النهائي هو التقدير العام.

فلقد رتَّب ابن القيم رحمه الله مدلولات هذه الأحاديث علىٰ هذا الترتيب الدَّقيق العجيب؛ فكل واحد من هذه التقادير التي بعد ما في اللوح المحفوظ تفاصيل لما في اللوح المحفوظ، وهذه التقادير الدقيقة التي لا تتخلف أبدًا، إنما هي دليل علىٰ علم الرب وقدرته تعالى.

(١) السالف برقم (٤٣).
(٢) السالف برقم (٤١).
(٣) السالف برقم (٤١).

وأنه سبحانه أظهر هذا لعباده؛ ليتعرَّفوا عليه، ولتتعلَّق رغبتهم في الله ﷻ؛ ليخافوا منه ويرجوه، وليعبدوه سبحانه وتعالى، فإطلاعه سبحانه لهم علىٰ هذه التقادير وأنواعها في القرآن والأحاديث إنما هو من مصلحة العباد؛ لأجل أن يعرفوا ربهم سبحانه وتعالى وقضاءه وقدَره، وتدبيراته، وأحكامه؛ ليكونوا علىٰ بصيرة، لا أن يكونوا كالبهائم التي لا تدري لماذا خُلقت! هذا مراده رحمه الله من قوله: «وفي ذلك دليل علىٰ كمال علم الرب... » إلخ.

وأما قوله: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها علىٰ أن القَدَر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال ...» إذ كل الأحاديث يأتي فيها ذِكر العمل، فدلَّ علىٰ أن التقادير لا تسدُّ مسدَّ العمل؛ ولذلك أعطىٰ الله -جلَّ وعلا- الإنسان القدرة والمشيئة والاختيار بعد أن بيَّن له الخير من الشر، كلُّ ذلك لأجل أن يعمل، لا من أجل الاطلاع فقط، وهذا من لُطفه -جلَّ وعلا- بالإنسان، وهذا يوجب عليه بعد معرفته لهذه الأمور أن يجتهد للعمل الصالح، ويتجنَّب العمل السيئ.

وقوله: «لما سمع بعض الصحابة ذلك، قال: ما كنت بأشدَّ اجتهادًا منِّي الآن». هذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم، فلمَّا عرفوا هذا زاد اجتهادهم في العمل، ولم يتكاسلوا أو يتكلوا علىٰ القضاء والقدر.

[ثمرة الإيمان بالقدر]

٤٩- وعن الوليد بن عُبادة قال: «دخلتُ علىٰ أبي وهو مريضٌ، أَتَخايَلُ فيه الموتَ، فقلتُ: يا أبتَاهُ أَوْصِني، واجتهد لي. فقال: أجلسوني، فلمَّا أَجلَسُوه قال: يا بُنيَّ إنك لن تَجدَ طعم الإيمان، ولن تبلغَ حقيقةَ العلم بالله -تبارك وتعالىٰ-؛ حتىٰ تؤمنَ بالقدر خيرِه وشرِّه. قلتُ: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدَر وشرُّه؟ قال: تعلمُ أن ما أخطأَكَ لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئكَ.

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **أوَّلُ ما خلقَ الله القلمَ، قال: اكتبْ، فجرىٰ في تلك الساعةِ بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة.** يا بُني، إن متَّ ولست علىٰ ذلك دخلت النار». رواه أحمد[1][٥٠].

---

[٥٠] وهذا الحديث أيضًا في موضوع الإيمان بالقضاء والقَدَر، والإيمان بهما هو أحد أركان الإيمان السِّتة.

ففي هذا الحديث أن الوليد بن عُبادة بن الصامت ﷺ دخل علىٰ أبيه عبادة ابن الصامت ﷺ وهو في آخر حياته عند الموت، فلمَّا عَلم بأنَّ أباه قد احتُضر أو قارب الموت طلب منه وصيَّةً تكون من الميت؛ لأنه يُستحب أن يُوصِيَ قبل موته أولاده وأقاربه بتقوىٰ الله، والتمسُّك بالدِّين من بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

=

---

(١) في «المسند» برقم (٢٢٧٠٥).

....

=

وهكذا يطمئن الوالد علىٰ عقيدة أولاده من بعده، وهذا من النُّصح ومن كمال الشفقة، وإذا كان هذا عند الموت، فكيف بحال الحياة والصحة؛ ولهذا فإنه ينبغي للوالد أن يعتني بالمحافظة علىٰ أولاده، والمحافظة علىٰ عقيدتهم، وعلىٰ دينهم، وأن يعلِّمهم الخير، ويحثهم علىٰ تجنُّب الشرِّ، ووسائل المعاصي حتىٰ ينشئوا نشأة صالحةً.

وفي هذا الحديث أيضًا أن الوليد يطلب من والده أن يوصيه، وهذا من حرص السَّلف علىٰ الخير، والتواصي به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي الحديث أن عبادة بن الصامت طلب أن يُجلسوه، اهتمامًا منه رضي الله عنه بالوصية، فأجلسوه، فأوصىٰ ابنه وصيته العظيمة، أوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر؛ فدلَّ علىٰ أهمية هذا الأمر، فإنه في هذا الموقف، وهذه الحالة الحرجة، أوصاه بالإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه قد ظهرت في آخر عهد الصحابة فرقة القَدَرية الذين كانوا ينفون القَدَر، فتحاذرهم الصحابة رضي الله عنهم، وحذَّروا منهم.

وهكذا ينبغي للمسلمين إذا ظهرت فرقة ضالة أن يُحاصروها، وأن يُحذِّروا منها، وأن يقوموا ضدَّها حتىٰ يسلم هذا الدِّين من دُعاة الضلال.

ولما ظهرت فرقة القدرية أوصىٰ عُبادةُ ابنَه بالحذر من هذه الفرقة، ومذهبها، وأن يؤمن بالقضاء والقدر عكسًا لِما عليه هذه الفرقة الضالة التي تُشكِّك، أو تنفي القضاء والقدر، فأوصاه أن يؤمن بالقضاء والقدر.

وقال له: «لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تؤمن بالقضاء والقدر، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك» وروىٰ عن رسول الله ﷺ، وهكذا ينبغي لمن يقول قولًا، أن يذكر دليله من الكتاب والسنة.

=

[عدم المنافاة بين الإيمان بالقدر والتداوي]

٥٠- وعن أبي خُزامةَ، عن أبيه ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقًىٰ نَستَرقيها، ودواءً نَتداوىٰ به، وتُقاةً نتَّقيها، هل تَردُّ من قَدَر الله شيئًا؟ قال: هي من قدر الله». رواه أحمد، والترمذي وحسَّنه(١)[٥١].

فهذا عبادة بن الصامت لما أوصىٰ ابنه بهذه الوصية العظيمة ذكر دليله علىٰ هذه الوصية من حديث الرسول ﷺ، وأشار بأنه ﷺ ذكر بأن مَنْ لم يؤمن بالقضاء والقدر أحرقه الله بالنار، هذا وعيد شديد؛ يدل علىٰ كُفر من أنكر القضاء والقدر.

[٥١] هذا حديثٌ عظيمٌ فيه أنه لا منافاة بين الإيمان بالقضاء والقدر، واتخاذ الأسباب النافعة، فلا يُقال: نؤمن بالقضاء والقدر، دون الحاجة إلىٰ اتخاذ الأسباب؛ لأنه من الخطأ، ولا يُقال: نتخذ الأسباب وحسب، ولا حاجة إلىٰ الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضًا من الخطأ؛ لأن الاعتماد علىٰ القضاء والقدر ضلال، وكذلك الاعتماد علىٰ الأسباب لوحدها ضلال.

والحق هو: الجمع بين الإيمان بالقضاء والقدر، واتخاذ الأسباب النافعة؛ لأنها لا تنافي القضاء والقدر؛ لأن اتخاذ الأسباب إنما هو من القضاء والقدر، فلولا أن الله قدَّر اتخاذ هذه الأسباب لما اتخذها الإنسان، فلا تنافي في ذلك بينهما؛ لأنه لا يكون في هذه الكون شيء إلا بقضاء الله وقدره.

وقوله في الحديث: «**رُقًىٰ نسترقيها**».

رُقىٰ -جمع رُقية، والمراد بها-: التعويذة التي يتعوَّذ بها المريض.

---

(١) أحمد في «المسند» (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٥٦ و٢١٤٨).

....

=

وهذه الرُّقىٰ إن كانت من كتاب الله ﷻ، ومن الأدعية المشروعة فهي رقًىٰ شرعية صحيحة، فقد رَقىٰ النبيُّ ﷺ، ورُقي الرُّقىٰ الشرعية، وهي صحيحة، فِعْلها ومضمونُها؛ لأنها من اتخاذ الأسباب، والله -جلَّ وعلا- جعل القرآن شفاءً من الأمراض، ومن الشكوك والأوهام والشُّبهات، فهو شفاءٌ للأجسام وللقلوب، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. فهو يشفي من الأمراض والأسقام، ويشفي من الشُّبهات والشكوك والوساوس التي تكون في القلوب.

فإذا كانت الرُّقية من القرآن الكريم، ومن الأدعية المشروعة، فإنه لا بأس بها، وأمَّا إن كانت من الشركيات، وعن طريق الاستعانة بالجن والشياطين أو كانت بألفاظ مجهولة، وبحروف مقطَّعة وطلاسم فهي رُقية شركية شيطانية، فلا يجوز العمل بها.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**اعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرُّقىٰ ما لم تكن شركًا**»[1]؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعملون الرُّقىٰ الشِّركية، وأما الإسلام فقد جاء بالرُّقىٰ الشرعية.

وقوله: «ودواء نَتداوىٰ به» المراد: الأدوية الحسِّية التي يتداوىٰ بها الناس في المستشفيات والمستوصفات، أو بالطب النبويّ المعروف، وما يُسمُّونه بالطب الشعبي، والصحيح منه هو الطب النبوي، وما ليس بصحيح فهو ليس من الطب النبوي؛ فالأدوية الحسِّية لا بأس بها، فقد قالﷺ: «**ما أَنزل الله داءً إلَّا أنزل** =

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٦) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

....

له شفاء»[1].

وفي رواية بزيادة: «عَلِمَه من عَلمَه، وجهِلَه مَن جَهِلَه»[2].

فهو سبحانه جعل في هذه المخلوقات وهذه النباتات أدوية يستخرجها الأطباء وأهل الخبرة فينفع الله بها، فلا بأس بالتداوي والعلاج بالأدوية المباحة؛ لكن السائل سأل النبي ﷺ عن هذه الرُّقىٰ والأدوية والتُّقاة التي يتَّقون بها المكروه: هل هي تردُّ القضاء والقدر؟

فقال النبي ﷺ: «هي مِنْ قَدَر الله» لأنها مخلوقة، والله هو الذي قدَّرها ﷻ وجعلها أدوية وشفاء للناس، فهي من القضاء والقدر، ولا تنافيه، فأن يتداوىٰ الناس ويؤمنوا بالقضاء والقدر فذلك هو المنهج الصحيح، والعقيدة السَّليمة، فاتخاذ الأسباب المباحة لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنها هي من القضاء والقدر؛ فلا شيء في هذا الكون إلا وقد قدَّره الله -جلَّ وعلا-.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٧٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف]

٥١- وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ؛ احرِص علىٰ ما ينفعُكَ، واستَعن بالله ولا تَعجزنَّ، فإنْ أصابكَ شيءٌ، فلا تَقُل: لو أني فعلتُ كذا، كان كذا وكذا، ولكن قُل: قدَّر الله وما شاء فَعَلَ؛ فإنَّ (لو) تفتح عمل الشيطان». رواه مسلم[1][٥٢].

---

[٥٢] في هذا الحديث الصحيح أنه لا تنافي بين فِعْل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر.

قوله ﷺ: «المؤمن القويُّ» أي: القويُّ في إيمانه وعزيمته ورأيه، وفي بَدَنِه، فإذا اجتمع له قوة الإيمان، والقوَّة البدنية فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف في رأيه وإيمانه؛ لأن المؤمن القوي ينفع نفسَه، وينفع غيرَه، وأمَّا المؤمن الضعيف فهذا يقتصر نفعُه علىٰ نفسِه فقط، ولا ينفع غيرَه.

وقوله: «وفي كلٍّ خيرٌ» أي: المؤمن القويّ والمؤمن الضعيف، كلٌّ منهما فيه خير؛ لكن الخير الذي في المؤمن القوي أكثر منه في الضعيف، فهذا فيه مدح للمؤمن القوي؛ لِمَا يجعل الله فيه من الخير والبركة للمسلمين، وفيه أن المؤمن الضعيف فيه خير فلا يُزهد فيه؛ لأنه مؤمن؛ لكن نفعُه قاصرٌ علىٰ نفسه.

وقوله ﷺ: «احرِصْ علىٰ ما يَنفعُك» احرصْ؛ أي: جِدَّ في طلب الخير ولا تكسل، واحرص علىٰ ما ينفعك في دينك ودُنياك، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الكسب والعمل، وألَّا يركن الإنسان إلىٰ الراحة والخمول، أو الاتِّكال علىٰ القضاء والقدر

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

دون العمل والمثابرة عليه، فهذه مغالطة يُضلِّل فيها شياطينُ الإنس والجنِّ الجُهَّالَ من المسلمين، لتخذيلهم من السعي لطلب الخير، بحجَّة أنَّ المقسوم حاصل.

وقوله ﷺ: «**واستَعِنْ بالله**» يعني: لا تعتمد علىٰ حرصك وأعمالك؛ بل لابدَّ من الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه ﷻ.

فالأصل في هذا هو الجمع بين الأمرين، الحرص علىٰ ما ينفع، والاستعانة بالله والتوكُّل عليه -جلَّ وعلا-؛ فهذا فيه دليل علىٰ أنَّ السَّعي في طلب الرزق وغيره من الأمور النافعة لا يكفي دون التوكُّل علىٰ الله والاستعانة بطلب العون منه ﷻ؛ فلا يقتصر الإنسان علىٰ التوكُّل علىٰ الله، ويترك السعي لطلب الخير، ولا يعتمد علىٰ السَّعي، ويترك التوكُّل علىٰ الله، فلابدَّ من الجمع بين الأمرين.

وقوله: «**ولا تعجزَنَّ**» يعني: لا تكسَل؛ والعجز هنا معناه: الكسل والخمول؛ إذ بعض الناس يُقعده العجز والكسل، ولهذا ينهىٰ ﷺ عن العجز والكسل؛ ولهذا استعاذ ﷺ من العجز والكسل ومن الجبن والبخل بقوله: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل والجُبْن والبُخل**»[1].

فإذا فعلت هذا بأنْ سعيت في طلب الخير واستعنتَ بالله، فإن حصل كل مقصودك فاحمد الله ﷻ، وإن لم يحصل لك مقصودك فلا تتحسَّر وتيأس؛ بل اعلم أن هذا قضاء وقدر، وأنه لو كان قُدِّر لك هذا الشيء لحصل، فارضَ بقضاء الله وقدره بعد تقديم الأسباب، وأما الرضا بقضاء الله وقدره مع تعطيل الأسباب فهو غير مشروع.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

بابُ ذكر الملائكة عليهم السلام، والإيمان بهم

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] الآية [٥٣].

=

فإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فالقدر لا يُنجي منه شيء، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا يُطمئن المؤمن؛ لأن الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر إذا فاته ما يريد فإنه يتحسَّر، وأما المؤمن فلا يحزن ولا يتحسَّر ولا يلوم أحدًا؛ لأنه يؤمن بالقضاء والقدر لِمَا فيه راحة للمؤمن.

[٥٣] كما ذكرنا سابقًا أن الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان الستة، فكذلك الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. =

وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والملائكة، -جمع مَلَك-، والملك أصله مَلْأَك -بالهمز- مأخوذ من الألُوكة، وهي: الرسالة؛ لأن المَلَك رسولٌ من الله ﷻ، والملائكة خَلْق من خلق الله -جلَّ وعلا- من عالَم الغيب، نؤمن بهم ولو لم نرهم؛ اعتمادًا علىٰ خبر الله -جلَّ وعلا- وخبر رسوله ﷺ، فإنَّ الله أخبر عن الملائكة، وكذا النبيُّ ﷺ، فليس كلُّ موجود يُرىٰ ويُشاهد، فالرُّوح مثلًا هي موجودة؛ ولكنها لا تُرىٰ، وكذا العقل هو موجود؛ ولكننا لا نراه، ونحن نؤمن بالملائكة وإن لم نَرَهم بخلاف الملاحدة الذين يقولون: لا نؤمن إلا بما نشاهده، فهؤلاء ليس لهم مِيزة؛ ولكن المِيزَة تكون للذين يؤمنون بالغيب اعتمادًا علىٰ خبر الله -جلَّ وعلا- وخبر رسوله ﷺ، ولهذا فإنه جاء أول سورة البقرة قوله تعالىٰ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]. أي: ما غاب عنهم، والله -جلَّ وعلا- عالِمُ الغيب والشهادة، يعلم المُشاهَد ويعلم الغائب، أمَّا نحن فلا نعلم إلَّا المُشاهَد، وأمَّا الغائب فلا نعلمه إلا بواسطة الوحي المنزَّل من عند الله ﷻ.

فالملائكة من عالَم الغيب، خلقهم الله من نور، وخلق الشيطان من لهب النار، وخلق آدم من تراب، قال ﷺ: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم**»(١).

وقد خلق الله الملائكة لِحكَم عظيمة، ومن ذلك أنه خَلقهم لعبادته؛ قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

=

وخَلقهم سبحانه وتعالى أيضًا لتنفيذ أوامره في هذا الكون، فكلُّ صنفٍ من الملائكة موكَّل بشيء من العمل، فمنهم الموكَّل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، ومنهم الموكَّل بالقَطْر والنبات، وهو ميكائيل، ومنهم الموكَّل بقبض الأرواح والنَّفْخِ في الصور وهو إسرافيل.

ومنهم الموكَّل بالأجنَّة في البطون، فيدخل علىٰ الجنين ويكتب رزقه وأَجلَه وعمله وشقيٌّ أو سعيد، ومنهم الموكَّل بحفظ أعمال بني آدم وهم الحَفَظَة الذين يتعاقبون علىٰ بني آدم بالليل والنهار، يُسجلون أعمالهم ويصعدون بها إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

وكلُّ صنفٍ من الملائكة له وظيفة وَكَلَهَا الله إليه لا يتخلف عنها؛ قال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

وقال عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. فلا أحد منهم يتخلَّف عن عمله الذي أوكله الله إليه، بل هم يمتثلون أوامر الله -جلَّ وعلا-، فيجب الإيمان بهم، وهم -كما ذكرنا- أصناف:

منهم الموكلون بحمل العرش، ومنهم مَنْ هم حول العرش، ومنهم المقرَّبون من الله سبحانه وتعالى، ومنهم خازن الجنان، ومنهم خزنة النار، فهم أنواع كثيرة لا يعلمها إلَّا الله سبحانه وتعالى.

وخِلْقة المَلك الواحد عظيمة ليست كخلقه بني آدم؛ ولذلك لا يأتون إلىٰ البشر في خِلْقتهم الأصلية المَلكية وإنما يأتون إلىٰ البشر بصورة البشر؛ لئلا ينفروا منهم؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملك علىٰ هيئته الملَكية؛ ولذلك يأتون بصورة آدمي كما كان جبريل يأتي إلىٰ النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجل من الصحابة، وهو دحية الكلبي، فيتخاطب مع الرسول بما أرسله الله به.

=

....

ولم يَرَ الرسول ﷺ جبريل علىٰ خِلْقته إلا مرتين، مرة رآه بين السماء والأرض له ستمائة جناح كل جناح منها سدَّ الأفق، ومرة ثانية رآه ليلة المعراج عند سدرة المنتهىٰ[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]. لما عُرج بهﷺ إلىٰ السماء، وأمَّا بقيَّة مجيء جبريل إلىٰ الرسول ﷺ، فإنه كان يأتيه علىٰ صورة آدمي.

والملَك الواحد أعطاه الله -جلَّ وعلا- قوَّة كبيرة، ومنهم جبريل عليه السلام، الذي قال الله -جلَّ وعلا- عنه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. يعني: جبريل ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾. قيل: المِرَّة: الهيئة الحسنة. وقيل: المِرَّة: القوَّة، فجبريل عليه السلام قويٌّ؛ ومما يدلُّ علىٰ قوَّته أن الله لما أمره بقلب قُرىٰ قوم لوط رفع سبع مدائن مملوءة بالخَلْق والمباني جميعًا علىٰ طرف جناحه حتىٰ سمعت الملائكة في السماء نباح كلابهم، وصياح ديكتهم ثم قلبها عليهم، فخسف الله بهم، وهذا ممَّا يدل علىٰ قوَّة جبريل عليه السلام.

ولما صاح بقبيلة ثمود صيحة واحدة صاعقة قطَّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]. صيحة واحدة من جبريل عليه السلام، أهلكت أمة عظيمة، وهذا أيضًا ممَّا يدلُّ علىٰ قوَّته عليه السلام.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. الآية، سبب نزول هذه الآية أن اليهود اعترضوا علىٰ تحويل القبلة من بيت المقدس=

---

(١) انظر: البخاري (٣٢٣٢)، ومسلمًا (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

....

=

إلىٰ الكعبة المشرفة وهم يعلمون أنه حق، ويجدون هذا في كتبهم التي فيها وصف النبي ﷺ، بحيث لو أن الرسول ﷺ بقي علىٰ استقبال بيت المقدس لاعترضوا أيضًا بحجَّة أن الرسول الموصوف عندهم في كتبهم يستقبل الكعبة، ولقالوا: إنك تستقبل بيت المقدس، فهم سيعترضون علىٰ كلتا الحالتين.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]. يعني: حوَّلناكم إلىٰ الكعبة؛ لئلا يكون لليهود عليكم حجة؛ لأنهم يعلمون أن الرسول الذي سيبعث سيستقبل الكعبة المشرفة، فلو بقي محمدٌ ﷺ يستقبل بيت المقدس، لقالوا: ليس هذا الرسولَ الموعود، فلما حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة المشرفة، قبلة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- اعترضوا، فالله -جلَّ وعلا- يقول: ليست الطاعة أن تُستَقبل المشرق أو المغرب؛ ولكن الطاعة أن تستقبل الجهة التي آمركم بها، فالمدار علىٰ الأمر لا علىٰ الجهة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: أنه من الإيمان بالله استقبال الجهة التي يأمر الله -جلَّ وعلا- بها.

وقد ذكر الله -جلَّ وعلا- في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. ذكر في هذه الآية خمسة أركان من أركان الإيمان الستة، والشاهد في ذلك هو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فجعل الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان السِّتة، فمَن لم يؤمن بالملائكة فقد افتقد ركنًا من أركان الإيمان، ولا يكون مسلمًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[فصلت: ٣٠].

=

....

=

هذا خبرٌ من الله -جلَّ وعلا-، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: أعلنوا توحيد الألوهية، ولا إله إلا الله؛ أي: لا معبود عندهم بحق إلا الله ﷻ، فنطقوا بالحقِّ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وليس المراد النطق بالحروف فحسب؛ ولكن النُّطق بالألسنة والاعتقاد بالقلوب والعمل بالجوارح، فشهادة أن لا إله إلا الله لابدَّ من التلفُّظ بها ومعرفة معناها والعمل بمقتضاها، فلابدَّ من هذه الأمور مجتمعة.

أما قول: لا إله إلا الله، دون معرفة معناها، أو معرفة معناها دون العمل بمقتضاها، أو معرفة معناها والعمل بمقتضاها دون التلفظ بها كحال المشركين، كل هذا لا ينفع حتىٰ ينطق بها، ويعرف معناها ويعمل بمقتضاها، ومن العمل بمقتضاها: البراءة من الشرك والمشركين هذا مقتضىٰ التوحيد؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ لم يقتصر علىٰ قوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بل قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ يعني: عملوا بهذه الكلمة، فأفردوا الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، هذه هي الاستقامة، أما مجرَّد النطق بها من غير استقامة؛ أي: من غير عمل بمقتضاها، فإنها لا تنفع صاحبها.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ هذا هو محلُّ الشاهد، والملائكة تتنزل عليهم عند الموت، وهي ملائكة الموت، فمَلَك الموت جعل الله معه ملائكة يساعدونه؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١] . وقال في آية أخرىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١] . يعني: الملائكة؛ لأنهم رسل، وفي آية أخرىٰ قال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾[النحل:٣٢] .

=

....

=

والجمع في ذلك، هو: أن ملك الموت معه أعوان من الملائكة يستخرجون الرُّوح من جسد الإنسان، ثم يقبضها منهم ملك الموت، وأما الباقون فهم أعوان له.

فالملائكة تتنزل علىٰ الإنسان عند الاحتضار في الموقف الحرج، وحينها يطَّلع الإنسان علىٰ ما هو أمامه، فيطَّلع علىٰ منزلته في الآخرة، إما في الجنة، وإما في النار، فيحصل عند الإنسان في هذا خوف شديد، فتطمئنه الملائكة بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ مما أنتم قادمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ علىٰ ما فاتكم من الدنيا، علىٰ أولادكم وأموالكم ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ بعدما هدَّءوهم بشَّروهم ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ يعني: نتولىٰ أمركم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ هذه صفة احتضار المؤمن.

وأما الكافر والمنافق، فإنَّ الملائكة، إذا نزلت لقبض روحه، فإنها تبشِّره بالنار والتهديد والضرب؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الأنفال: ٥٠].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. يعني: باسطو أيديهم بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[الأنعام: ٩٣]. بعدما استصعبت أنفسُهم، وامتنعت عن الخروج من الأجساد، وذلك إذ يُبشِّرونهم بالنار والعذاب؛ هذه صفة احتضار الكافر والمنافق.

وفي هذا دليل علىٰ وجوب الإيمان بالملائكة، وأن منهم صنفًا مهمَّتهم قبض الأرواح، وبشارة المؤمنين بالجنة، وبشارة الكفار والمنافقين بالنار عند هذه الحال. =

....

وقوله تعالىٰ: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾. أي: عيسىٰ بن مريم عليه السلام، فلا يستكبر أو يمتنع من أن يكون عبدًا لله عز وجل؛ لأن النصارىٰ اعتقدت في المسيح أنه هو الله، أو أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والله -جلَّ وعلا- يقول: إن المسيح -عليه الصلاة والسلام- لا يدَّعي هذا الذي تقولونه، وهو عليه السلام يعترف بأنه عبد الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. يعني: المسيح عليه السلام، وقال تعالىٰ علىٰ لسانه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. هذا أول ما نطق به، وهو في المهد، ولم يقل: إني ابن الله، وقال كما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

هذا قول المسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله، بخلاف ما تدَّعيه النصارىٰ من أنه ابن الله -تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- وهذا فيه ردٌّ علىٰ زعمهم بأنه ابن الله، فهو عليه السلام يتشرف في أن يكون عبدًا لله، وأفضل الخلق محمد ﷺ يقول: «**إنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه**»[1]. والعبودية هي أعلىٰ مراتب الشَّرف لبني آدم وللملائكة ولجميع الخَلْق، وأمَّا الألوهية، فإنها لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

للَّـــــه حـــقٌّ لــيس لعـــبده ... ولعـــبده حـــقٌّ همـــا حَقَّـــانِ

لا تجعـل الحَقَّـينِ حقًّـا واحـدًا ... مـــن غيـــر تمييـــز ولا فُـــرْقَانِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

....

فيجب التفريق بين حقِّ الله وحق الرسول ﷺ، فحقُّ الله: العبادة، وحقُّ الرسول ﷺ: المتابعة والطاعة له ﷺ والإيمان برسالته ومحبَّته أكثر من محبَّة النفس والأهل والمال والولد والناس أجمعين، هذا هو حق الرسول ﷺ؛ لأنه ليس له في العبادة حق؛ لأنها حقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ وحده دون سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هذا هو محلُّ الشاهد؛ فالملائكة لا يستكبرون أن يكونوا عبيدًا لله -جلَّ وعلا-؛ بل هم معترفون بالعبودية، ولهذا فهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠].

وقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه دليل علىٰ أن هناك صنفًا من الملائكة مقرَّبون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالملائكة درجات، فمنهم المقرَّبون عند الله -جلَّ وعلا-، ولكن مع كونهم مقرَّبين عند الله إلَّا أنهم لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩-٢٠]. وهذا أيضًا في وصف الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-؛ يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَلَهُۥ﴾ أي: لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلهم عبيده، المؤمن والكافر، والجن والإنس، كلهم عبيد لله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم: ٩٣]. لكن الكافر عبدٌ لله العبودية العامة، وأما المؤمن فهو عبدٌ لله العبودية الخاصَّة، وإلا فكلهم عباد الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: الملائكة، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يستنكفون ولا يسأمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ=

....

=

جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. فالملائكة لا يدَّعون الألوهية، ولو قُدِّر أنهم ادَّعوا الألوهية لأحرقهم الله في النار؛ لأن العبودية حقٌّ له ﷻ دون سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ قوله: ﴿رُسُلًا﴾ إلىٰ خلقه يرسلهم الله -جلَّ وعلا- بالمهمَّات التي يُنفِّذونها في الأرض، فمنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من ينزل بالعذاب، ومنهم من ينزل بالبشارة للمؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]. فهناك رسلٌ من الملائكة، ورسلٌ من البشر، فالملائكة رسل يرسلهم الله -جلَّ وعلا- لِما يريد من أمره.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ هذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة؛ لأن الملائكة تطير في الهواء، وهذه الأجنحة كثيرة لا يعلمها إلا الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّثۡنَىٰ﴾ يعني: منهم من له جناحان ﴿وَثُلَٰثَ﴾ أي: ومنهم من له ثلاثة أجنحة ﴿وَرُبَٰعَۚ﴾ أي: منهم من له أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: زيادته -تبارك وتعالىٰ- في خلق هذا الملك من الأجنحة علىٰ الآخر ما يشاء ونُقصانه عن الآخر ما أحبَّ، فمنهم مَنْ له ستمائة جناح كما في الحديث الصحيح[1].

فهذا فيه إثبات أن الملائكة رسل، وأنهم ليس لهم من الرُّبوبية والألوهية شيء، وإنما هم مجرَّد رسل، وأنَّ لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وأنَّ هذه الأجنحة متعدِّدة. =

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[خُلقت الملائكة من نور]

٥٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ مِن نورٍ، وخُلق الجانُّ مِن مارجٍ مِنْ نار، وخُلق آدمُ مما وُصف لكم». رواه مسلم[1] [٥٤].

= وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]. وهذا صنفٌ آخر من الملائكة أيضًا هم حملة العرش، الذي هو أعظم المخلوقات يحمله ملائكة وهم أربعة، ومع عِظَم العرش الكريم يُذكر عِظَم هؤلاء الملائكة الذين يحملونه، ويوم القيامة يُضاعف عددهم فيكونون ثمانية ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]. يعني: من الملائكة الذين يُقال لهم: حملة العرش.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ أي: حول العرش، وهم الملائكة المقرَّبون.

ومن نُصحهم ومحبَّتهم للمؤمنين، فإنهم يستغفرون لهم، ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يُنزِّهون الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهم يستغفرون للمؤمنين من بني آدم؛ لأنهم يحبُّون المؤمنين منهم، وهم أنصح الخلق لبني آدم، بخلاف الشياطين الذين هم أكثرهم غشًّا لبني آدم.

[٥٤] ما زال المصنِّف رحمه الله يذكر الأحاديث الواردة في الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وفي هذا الحديث المرويِّ عن عائشة رضي الله عنها فيه: أن الله تعالى خَلقَ الملائكة من النُّور، وخلق الجانَّ وهم إبليس وذُريته من مارج من نار. =

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

والمراد بقوله ﷺ: «مَنْ مارج من نار» أي: من اللَّهب، وخلق آدم أبا البشرية عليه السلام: «مما وُصِفَ لكم» يعني: مما ذكر الله في آياتٍ كثيرة أنه خلقه من تراب، هذا أصل خِلْقة الملائكة والشياطين والإنسان، والله علىٰ كلِّ شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

وكان إبليسُ قد استكبر علىٰ آدم وأبىٰ أن يسجد له وعصىٰ أمر الله، وقال كما ذكر الله عنه سبحانه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]. فبزعمه أن النار أحسن من الطِّين، وهذا قياس فاسد، فإنَّ الطين أحسن من النار؛ لأن النار محرقة متلفة، ولا تُنتج شيئًا، أمَّا الطِّين؛ فإنه مبارك، ويُنتج النباتات والأشجار الطَّيبة، وفيه منافع للناس كثيرة.

فلو رجعنا إلىٰ القياس والأصل لوجدنا أنَّ آدم أطيب أصلًا من إبليس، مع أنَّ هذا القياس الفاسد في مقابل الأمر؛ أي: أمر الله -جلَّ وعلا- الذي كان من الواجب امتثاله من قِبَل إبليس وغيره، فإذا أمر سبحانه بشيء فلا اعتراض، ويجب الانقياد له، والله يؤتي فضله مَنْ يَشاء، والذي حَمَل إبليس علىٰ هذا هو الحَسد، فحسد آدم عليه السلام، واستكبر عن أمر الله، فحصل عليه من العقوبة ما حصل.

والشاهد من الحديث: أن الملائكة خُلقوا من النُّور، فيؤمن المسلم بما جاءه عن الله عز وجل، وعن رسوله ﷺ، وقد سبق القول بأنهم عباد مكرمون، وأنهم أصناف كثيرة.

[ذكر عبادة الملائكة والبيت المعمور]

٥٣- وثبت في بعض أحاديثِ المعراجِ[١]: «أنه ﷺ رُفِعَ له البيتُ المعمورُ الذي هو في السَّماء السابعةِ. وقيل: في السادسة بمنزلة الكعبة في الأرض، وهو بِحيال الكعبة، حُرمتُه في السَّماء كحُرمةِ الكعبةِ في الأرضِ، وإذا هو يَدخلُه كلَّ يوم سبعون ألف مَلكٍ، ثم لا يَعودون إليه آخِرُ ما عليهم»[٥٥].

---

[٥٥] هذا الحديث فيه ذكر عبادة الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وأنَّ الله -جلَّ وعلا- جعل لهم بيتًا في السَّماء، كما جعل لبني آدم بيتًا في الأرض، وهذا البيت الذي في السماء بحِيال الكعبة المشرفة التي في الأرض؛ وذلك لعبادة الله ﷻ، وهذا البيت الذي في السماء هو البيت المعمور، يزوره هذا العدد كلَّ يوم من الملائكة، ولا يرجعون إليه؛ بل يأتي غيرهم، فهذا يدل على أمرين:

الأول: أن الملائكة يعبدون الله ﷻ، وأنهم عباد ليس لهم من الأمر شيء.

الثاني: فيه دليل على كثرة الملائكة، حيث إنه يأتي البيت المعمور كلَّ يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، حيث لا يعلم عددهم الهائل إلَّا الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

٥٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ «ما في السَّماء مَوضعُ قَدَمٍ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ، أو ملكٌ قائم، فذلك قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]». رواه محمد بن نصر، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ[1][٥٦].

---

[٥٦] وهذا الحديث أيضًا يدلُّ علىٰ أنَّ الملائكة يعبدون الله ﷻ بالركوع والسُّجود والقيام عبادةً لله ﷻ، وفيه بيان كثرتهم في السَّماء علىٰ سعتها، إذ ليس فيها موضع قَدَم إلَّا وفيه مَلَك يعبد الله ﷻ، فهذا دليل علىٰ كثرتهم، وأنهم ملئوا السماء علىٰ سعتها، ويدل علىٰ هذا قوله ﷻ عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ لأن الملائكة تَصفُّ عند ربِّها للعبادة؛ ولهذا قال ﷺ: **«ألا تَصفُّون كما تَصفُّ الملائكة عند ربِّها»** يعني: في الصلاة، قالوا: وكيف تصفُّ الملائكة؟ فقال ﷺ: **«يُتِمُّون الصَّفَّ الأوَّلَ ويَتراصُّون في الصَّفِّ»**[2].

وفي هذا دليل علىٰ عبادة الملائكة لله ﷻ وعلىٰ كثرة عددهم، حيث إنهم يملئون السماء علىٰ سعتها.

---

(١) محمد بن نصر في «الصلاة» (١/ ٢٦٠)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٣٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٩٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

٥٥- وروىٰ الطبراني[١]، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السَّموات السبع مَوضعُ قدمٍ ولا شِبْرٍ ولا كفٍّ، إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ، أو ملكٌ ساجدٌ، أو ملكٌ راكعٌ، فإذا كان يومُ القيامةِ، قالوا -جميعًا-: سُبحانك ما عبدناكَ حقَّ عبادتِكَ، إلَّا أنَّا لم نُشرك بكَ شيئًا»[٥٧].

---

[٥٧] وهذا الحديث كالأحاديث السابقة، فيه ذكر عبادة الملائكة، وفيه ذكر كثرتهم، حيث إنه لم يَبقَ في السَّماء فضاء؛ بل هم ملئوه، وفيه ذكر مسألة عظيمة، وهي أنه علىٰ الإنسان ألَّا يغترَّ بعمله مهما كثُر، فالملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ومع هذا يقولون لله عز وجل: **«سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك»** لأن حقَّ الله عظيم، ولو قارن الإنسان عمله بنِعَم الله عليه لما بلغت شيئًا يُذكر أمام هذه النِّعَم.

فالعمل قليلٌ وإن كثُر؛ لأن نِعَم الله أكثر وأكثر، فلا أحدَ يعبد الله حقَّ عبادته؛ لعظم حق الله تعالىٰ؛ ولهذا فإن نبينا محمدًا ﷺ وهو أفضل الخَلْق علىٰ الإطلاق وأكثرهم عبادة لله عز وجل، يقول: **«سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك»**[٢]. هذا فيه اعتراف بأنَّ عمل المخلوق مهما بلغ فإنه لا يعادل حقَّ الله تعالىٰ، وهذا فيه أيضًا أنه علىٰ الإنسان ألَّا يَغترَّ بعمله، أو يُعجَب به.

وفي قولهم: **«إلَّا أنَّا لم نُشرك بك شيئًا»** بيان أنَّ مَنْ سَلِمَ من الشِّرك فإنه سَلِمَ من خطر عظيم، وفيه أيضًا الخوف من الشِّرك، وأن الملائكة عليهم السلام شكروا الله عز وجل أنه سلَّمهم من الشرك وهذه نعمة عظيمة، فمَن سَلِمَ من الشرك فإنه قد سَلِم من الخطر العظيم، ومَن وقع في الشِّرك ولم يَتُبْ منه فإنه لا نجاة له.

---

(١) في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤) (١٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[ذكر عِظَم خِلْقة الملائكة]

٥٦- وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أَنْ أُحدِّثَ عن ملكٍ مِن ملائكة الله مِن حَمَلةِ العرشِ، ما بين شَحمةِ أُذنِه إلىٰ عاتِقِه مسيرةُ سبعمائة عامٍ». رواه أبو داود، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»، والضياء في «المختارة»[(١)] [٥٨].

فمِنْ سادتِهم جبرائيل عليه السلام، وقد وَصفَه الله تعالىٰ بالأمانةِ، وحُسنِ الخلق، والقوَّة، فقال تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦][٥٩].

---

[٥٨] هذا الحديث فيه ذكر عِظَم خِلقة الملائكة، وأنَّ هذا الملَك من حَمَلة العرش ما بين شحمة أُذنِه وعاتِقِه مسيرة سبعمائة عام، فدلَّ علىٰ عِظَم خِلْقة الملائكة، وأنه لا يعلم خِلْقة المَلَك إلَّا الله تعالى، وإذا كان هذا عِظَم المخلوق فكيف بعِظَم الخالق سبحانه وتعالى!

وفيه أنَّ من الملائكة صنفًا يحملون العرش، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

[٥٩] من سادات الملائكة جبريل عليه السلام، وهو الملَك الموكَّل بالوحي، وقد مدحه الله -جلَّ وعلا- بالأمانة، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. فهو أمين علىٰ الوحي، ومدحه بالقوَّة، قوَّة الخِلْقة والبَدَن، فقوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ووصفه بحسن الصورة، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: خلقة حسنة ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾. علَّم نبيَّنا محمدًا ﷺ وهو جبريل عليه السلام، وسيأتي ذكر شيء من قوته -عليه الصلاة والسلام-.

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧)، والبيهقي (٨٤٦).

ومِنْ شدَّة قوَّته؛ أنَّه رفع مدائنَ قوم لوط عليه السلام، وكُنَّ سبعًا بمن فيهنَّ من الأمم، وكانوا قريبًا من أربعمائة ألف، وما معهم مِن الدوابِّ والحيوانات وما لتلك المدائن مِنَ الأراضي والعمارات؛ علىٰ طَرَف جناحه، حتىٰ بلغ بهنَّ عَنانَ السماءِ، حتىٰ سَمعتِ الملائكةُ نُباحَ كلابِهم، وصياحَ دِيكَتِهم، ثم قَلَبَها فجعل عاليها سافِلَها، فهذا هو: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥][٦٠].

---

[٦٠] قوله تعالىٰ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: جبريل عليه السلام، جاء أنه لما أمره الله بإهلاك قوم لوط عليه السلام، ولوط نبيٌّ من أنبياء الله، وهو ابن أخي إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإبراهيم هو عمُّه -عليهما الصلاة والسلام-، وجاء مهاجرًا مع إبراهيم من أرض بابل بالعراق إلىٰ الشام، وأرسله الله إلىٰ قومه، وكان قومه أمّةً خبيثة، قومَ سَوءٍ، وكانوا يأتون الذُّكران من العالمين، وهم أول مَنْ فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فقد خلق الله للرجال النساء يكنَّ زوجات لهم، وهنَّ طيبات ومحلٌّ للحرث والإنجاب، وكون هؤلاء القوم الخبثاء يَعْدِلون عمَّا خلق الله لهم من أزواج، ويكفرون نعمة الله، ويهلكون الحرث ويضعونه في أدبار الرجال، فهو دليل علىٰ خُبثهم.

وهذه جريمة شنيعة تأنف منها حتىٰ البهائم، فأرسل الله إليهم لوطًا عليه السلام وأنكر عليهم فعْلَتهم، وقال لهم كما أخبر الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. يعني متجاوزون من الحلال إلىٰ الحرام، وهؤلاء خرجوا من الإنسانية إلىٰ البهائمية المنحطَّة؛ بل حتىٰ البهائم لا تفعل هذا الفعل.

فلما أَبَوا أن يتركوا هذه الجريمة عاقبهم الله بعقوبة لم يُعاقب بها أمةً من الأمم؛
=

....

لأن فِعْلهم لم يفعله أحد من قَبل، فأمر الله جبرائيل عليه السلام بأن يرفع ديارهم -وكانت سبع مدن مكتظَّة بالسكان- وما فيها من الأمتعة والحيوانات، فحملها جبريل علىٰ طرف جناحه إلىٰ أن بلغ بها عنان السماء، فسمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها عليهم، وأُتبعوا بحجارة من سجِّيل عقوبةً لهم.

وكانت هذه البلاد المخسوفة ممرًّا للعرب إذا سافروا إلىٰ الشام ولا يعتبرون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

وتسمَّىٰ بحيرة لوط، أبقاها الله علىٰ هذه الصورة عبرة وعظة؛ ولهذا جاء في الأحاديث عن النبي ﷺ، أنه قال: **«مَنْ وَجَدْتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**[1]. وأجمع الصحابة علىٰ قتل من يفعل فعلهم؛ ولكنهم اختلفوا في كيفية القتل.

فمنهم مَن يرىٰ: **أنه يُرفع إلىٰ أعلىٰ مكان في البلد، ثم يُلقىٰ، ويُتبَع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط.**

ومنهم مَنْ يرىٰ: **أنه يُحرَّق في النار، وقد حرَّق أبو بكر رضي الله عنه.**

ومن العلماء مَنْ يرىٰ: **أنهم يُقتلون بالسيف.**

فالعلماء لم يختلفوا في قتلهم، وإنما اختلفوا في كيفية قتلهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦]. أي: ذو خلقٍ حَسنٍ، وبهاءٍ، وسناءٍ، وقوَّة شديدة. قال معناه ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال غيرُه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوَّة[٦١].

وقال تعالىٰ في صفته: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]. أي: له قوة وبأس شديد، وله مكانة ومنزلةٌ عالية رفيعة عند ذي العرش المجيد، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: مطاع في الملأ الأعلىٰ، ﴿أَمِينٍ﴾ ذي أمانةٍ عظيمة؛ ولهذا كان هو السَّفيرَ بين الله وبين رسله[٦٢].

---

[٦١] قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ لابدَّ أن بينهما فَرْقًا، فالمِرَّة غير القوة، والمِرَّة: هي الهيئة الحسنة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

[٦٢] هذه أوصاف جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فيه وصف جبريل عليه السلام بالكرم، ووصفه بالرسالة، فهو رسول من عند الله عز وجل يرسله إلىٰ مَنْ يشاء من رسله من بني آدم بالوحي، فهو واسطة بين الله عز وجل والرسل من البشر بالوحي، وهذا مدحٌ له، ولهذا قال عنه تعالىٰ: ﴿كَرِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ فوصفه تعالىٰ بالقوة، ثمَّ وصفه بما هو أعلىٰ فقال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بعُلوِّ المكانة، فهو قريب من الله عز وجل، ثم قال: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عظيمة، ثم قال تعالىٰ: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أي: تطيعه الملائكة، فهو رئيسهم ومقدَّمهم، ثم قال تعالىٰ: ﴿ثَمَّ﴾ وهي اسم إشارة، فقوله تعالىٰ: ﴿ثَمَّ﴾ أي: في السماء، ثم قال: ﴿أَمِينٍ﴾ فوصفه تعالىٰ بالأمانة، هذه أوصاف جبريل عليه السلام.

ثم قال تعالىٰ عن نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي يتلقَّىٰ الوحي من جبريل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ لأنهم كانوا يصفونه صلى الله عليه وسلم بالجنون، والله -جلَّ وعلا- نفىٰ عنه ذلك =

....

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: رأىٰ محمد ﷺ جبريل علىٰ خِلقته التي خلقه الله عليها بالأفق، وذلك في بطحاء مكة لما حصل علىٰ النبي ﷺ من الضيق والشدَّة من كفَّار أهل مكة، فسمع ﷺ صوتًا من فوق رأسه فرفع طرفه إلىٰ السماء، فإذا هو جبريل بين السَّماء والأرض له ستمائة جناح[1].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير: ٢٣-٢٤].

ما هذا الرسول ﷺ ﴿بِضَنِينٍ﴾ علىٰ الغيب؛ أي: ما هو بمُتَّهم علىٰ الأخبار التي يُخبر بها عن الله ﷻ، بل هو صادق -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ هذا القرآن ليس من قول الشياطين؛ لأن الشياطين لا تقرب الوحي؛ لأنه يُحرقها، وهي لا تُطيق ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعني: بالقرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي: لا يليق بهم: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. يعني: عن الوحي فهم مبعدون يُرجمون بالشُّهب، فلا يستطيعون أن يَقْربوا من الوحي ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥-٢٦]. ليس لكم طريق لتكذيب هذا الرسول وهذا القرآن بعد هذه الأوصاف العظيمة، وهذا السند المتصل إلىٰ الله -جلَّ وعلا-، فالسند إنما هو عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن الله -تبارك وتعالىٰ-.

---

(١) انظر: البخاري (٤٨٥٦)، ومسلمًا (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[ذكر صفة خِلْقة جبريل عليه السلام]

٥٧- وقد كان يأتي إلىٰ رسول الله ﷺ في صفات متعدِّدة، وقد رآه علىٰ صفته التي خلقَه الله عليها مرتين وله ستمائة جناح. روىٰ ذلك البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه[1][٦٣].

---

[٦٣] لقد رأىٰ رسول الله ﷺ جبريلَ علىٰ خلقته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في مكة حين رفع رأسه ﷺ، وفي المرة الثانية ليلة المعراج؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]. أي: ليلة عُرج به ﷺ.

وأما في بقيَّة الأحوال فقد كان يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة البشر، ويراه الصحابة، ويظنون أنه رجل من البشر؛ لأنهم لا يطيقون رؤية جبريل عليه السلام علىٰ خِلْقته، فيأتي بصورة رجل كما في حديث عمر رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد» هذا جبريل عليه السلام، ولذلك قال ﷺ في نهاية الحديث: «أتدرون من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[2].

---

(١) برقم (٤٨٥٦ و٤٨٥٧)، وأخرجه مسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

٥٨- وروىٰ الإمامُ أحمد[1]، عن عبد الله قال: «رأىٰ رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كلُّ جناحٍ منها سَدَّ الأُفقَ يَسقطُ من جَناحِهِ التَّهاويلِ والدُّرِّ والياقوتِ ما الله به عليم». إسناده قوي [٦٤].

---

[٦٤] ما زال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسوق الأحاديث الدالَّة علىٰ عِظَم خِلْقة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويؤيِّد ما جاء في هذه الأحاديث قولُ الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. دلَّت الآية علىٰ أن للملائكة أجنحة، وأنها كثيرة، منها ما هو مثنىٰ وثلاث ورباع، ثم قال تعالىٰ: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) في «المسند» برقم (٣٧٤٨).

[صفة ثياب جبريل عليه السلام]

٥٩- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأىٰ رسولُ الله ﷺ جبريلَ في حُلَّةٍ خضراءَ، وقد ملأَ ما بين السَّماء والأرض». رواه مسلم[1] [٦٥].

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ جبريلَ مُنهَبطًا، قد ملأ ما بين الخافقينِ، عليه ثياب سُندسٍ معلَّقٌ بها اللؤلؤ والياقوتُ». رواه أبو الشيخ[2].

- ولابن جريرٍ[3]، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: «جبرائيل: عبدُ الله، وميكائيلُ: عبيد الله، وكلُّ اسمٍ فيه إيل، فهو عبدُ الله».

٦٠- وله[4]، عن عليِّ بن الحسين مثله، وزاد: وإسرافيل: عبد الرحمن [٦٦].

---

[٦٥] وهذا دليل آخر، علىٰ عِظَم خِلْقَةِ جبريلَ عليه السلام، وأنَّ هيئته جميلة، وقد بسط أجنحته بحُلَّته الخضراء الجميلة، وقد سبق بيان جمال وبهاء وعِظَم خلقته عليه السلام فيما مضىٰ من الأحاديث.

[٦٦] هذا تفسير لكلمة: «إيل» في أسماء الملائكة الكرام.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧٤٠)، والترمذي (٣٢٨٣) وعندهما: «من رفرف» بدل: «خضراء». ولم يخرِّجه مسلم.

(٢) في «العظمة» (٣/ ٩٧٢) (٤٩٥) بنحوه، وانظر: صحيح مسلم (١٧٧).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٢٨٦ و٤٧٦).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٤٧٦).

[جبريل أفضل الملائكة]

٦٣- وروىٰ الطبراني[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأفضلِ الملائكة؟ جبرائيلُ» [٦٧].

---

[٦٧] هذا فيه أن جبريل -ويُقال: جبرائيل- هو أفضل الملائكة؛ لأن الله اختصَّه بالوحي، وبسماع كلامه سبحانه وتعالى فهو عليه السلام يسمع كلام الله ويُبلِّغه لمن أمره الله بتبليغه له كما جاء في الحديث: «**إذا أراد الله أن يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، فأخذت السموات منه رَجفةٌ** -أو قال: رعدة- **شديدة خوفًا من الله** عز وجل**، فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صَعقُوا** -أو قال: **خَرُّوا**- **لله سُجَّدًا، فيكون أولَ مَنْ يرفع رأسَه جبرائيل** عليه السلام**، فيُكلِّمه الله من وَحيِهِ بما أراد**»[2].

فهذا دليل علىٰ فضل جبريل عليه السلام علىٰ غيره من الملائكة.

---

(١) في «المعجم الكبير» (١١/ ١٦٠) (١١٣٦١).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٣٦) (٥٩١) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

[خشية الملائكة من عصيان الله تعالى]

٦٤- وعن أبي عمران الجوني، أنَّه بلغه أن جبرائيل أتىٰ النبيﷺ، -وهو يبكي-، فقال له رسول اللهﷺ: «ما يُبكيك؟ قال: وما لي لا أبكي، فوالله ما جَفَّت لي عينٌ منذ خَلق الله النارَ، مخافةَ أَنْ أَعصيَه فيقذفَني فيها». رواه الإمام أحمد في «الزهد»[1] [٦٨].

---

[٦٨] وهذا الحديث فيه -كما سبق- أن الملائكة مع كثرة عبادتهم أنهم لا يَغترُّون بأعمالهم، ويخافون أن يعصوا الله ﷻ فيقذفهم في النار كما حصل لإبليس، فإنه كان مع الملائكة يعبد الله، فلمَّا عصىٰ الله، لعنه الله ﷻ وأبعدَه، وجبرائيل لما رأىٰ النار وشدَّة عذابها، وأنها دار العقاب خشي أن يعصي الله فيقع فيها.

وفي هذا دليل علىٰ أنه لا ينبغي للإنسان أن يُزكِّي نفسَه، وأنه ينبغي له أن يخاف من النار، ويخاف الله ومَكْره ﷻ بمن عصاه.

---

(١) لم أجده فيه، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٢١) (٩١٥).

[الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله]

٦٥- وللبخاري[١]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ألا تَزورنا أكثرَ ممَّا تَزورُنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤]».

ومن ساداتهم: ميكائيل عليه السلام، وهو موكَّل بالقَطْرِ والنَّباتِ[٦٩].

---

[٦٩] **في هذا الحديث أنَّ رسول الله ﷺ طلب من جبريل أن يكثر الزيارة له؛ لأنه ﷺ يحبُّ جبريل، فيؤخذ منه الحثُّ علىٰ محبَّة عباد الله الصالحين وزيارتهم، فطلب رسول الله ﷺ من جبريل الإكثار من الزيارة؛ ليكثر فرحُه وأُنسُه به ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ فهذا فيه أن الملائكة تحت تدبير الله ﷻ، وأنهم لا ينزلون إلا بأمره ﷻ، ولا يتنزَّلون بحسب رغبتهم هم، وإنما ينزلون إذا أمرهم الله بالنزول.**

وقوله: «**ومن ساداتهم: ميكائيل عليه السلام، وهو موكل بالقطر والنبات**» كان النبيُّ ﷺ إذا قام من الليل يستفتح، فيقول: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض ...**» إلخ[٢].

وخصَّ ﷺ هؤلاء الثلاثة؛ لأن جبرائيل موكَّل بالوحي الذي فيه حياة القلوب، وميكائيل موكَّل بالقَطْر الذي فيه حياة الأرض، وإسرافيل موكَّل بالنفخ في الصُّور الذي فيه حياة الناس يوم القيامة بعد الموت، هؤلاء الثلاثة هم أفضل =

---

(١) برقم (٢٢١٨ و٤٧٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

٦٦- وروى الإمامُ أحمد[١] عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ قال لجبرائيل: «**ما لي لمْ أرَ ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضَحِكَ ميكائيل منذ خُلقتِ النَّارُ**»[٧٠].

= الملائكة؛ لأن كلَّ واحد منهم موكَّل بالحياة؛ حياة القلوب، وحياة الأرض، وحياة الأبدان عند البعث من القبور.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فالذي ينفخ في الصُّور هو إسرافيل عليه السلام، ينفخ فيه نفخة الصعقة فيموت كلُّ مَن في السموات والأرض إلَّا من استثنىٰ الله تعالى، ثم ينفخ فيه ثانية فيَحيا كلُّ مَنْ مات ويقوم سويًّا، فهذا وجه كون الرسول ﷺ خصَّ هؤلاء الثلاثة في استفتاحه.

[٧٠] وهذا كما سبق في الحديث عن جبرائيل عليه السلام أنه كان يبكي فسأله النبيُّ ﷺ عن بكائه، فقال: «**وما لي لا أبكي، فوالله ما جَفَّتْ لي عين منذ خَلقَ الله النارَ**»[٢]. وهذا ميكائيل مثله، لا يستطيع أن يضحك منذ خُلقت النار من شدَّة خوفه منها، فالملائكة مع عبادتهم وقربهم ومكانتهم من الله تعالىٰ لم يأمنوا علىٰ أنفسهم من النار.

فهذا فيه الحثُّ علىٰ شدَّة الخوف من النار، وليس المراد هو مجرَّد الخوف من النار فقط، ولكن الخوف والعمل للنجاة منها، فالمطلوب هو الخوف مقرونًا مع عمل ما يُرضي الله، وتَرْك معصيته -جلَّ وعلا-، فالخوف دون العمل لا يُفيد =

---

(١) في «المسند» (١٣٣٤٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٢١) (٩١٥) من حديث أبي عمران الجوني بلاغًا.

ومن ساداتهم: إسرافيل عليه السلام، وهو أحدُ حَمَلة العرش، وهو الذي ينفخ في الصُّور[٧١].

شيئًا، والعمل دون الخوف لا يفيد شيئًا كذلك.

والمفيد هو الجمع بين الأمرين: العمل والخوف والرجاء، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]. يعني: يؤتون من الأعمال الصالحة العظيمة، وهم خائفون من ردها، ومن عذاب الله تعالى، ولا يغترُّون بأعمالهم، أو يُدلون بها علىٰ الله سبحانه وتعالى.

[٧١] الصُّور: قَرنٌ لا يعلم عِظَم خِلْقَتِه إلا الله تعالىٰ، وفيه أرواح بني آدم، فإذا نفخ فيه إسرافيل خرجت منه كلُّ روح، ودخلت في بدن صاحبها.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فتطير الأرواح، كلُّ روحٍ إلىٰ جسمها.

[تهيُّؤ مَلَك النَّفخ في الصُّور]

٦٧- روىٰ الترمذيُّ وحسَّنه[1]، والحاكم، عن أبي سعيد الخُدريِّ -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعمُ، وصاحب القَرْنِ قد التقَمَ القَرْنَ، وحنىٰ جبهته، وأَصغىٰ سَمْعه، يَنتَظِرُ متىٰ يؤمر فيَنْفُخ. قالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، علىٰ الله توكَّلنا»[٧٢].

---

[٧٢] هذا الحديث فيه ذكر خوف الرسول ﷺ مما أطلعه الله عليه من أنَّ مَلَك النَّفخ في الصُّور قد تهيَّأ لذلك منتظرًا للأمر، وهذا فيه دليل علىٰ قُرب قيام الساعة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقيام الساعة هولٌ عظيمٌ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

فكيف لا يخاف الإنسان من هذا الهول، ولا يستعدُّ له؟!

---

(١) برقم (٢٤٣١).

[إسرافيل من حملة العرش]

٦٨- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مَلكًا من حَملة العرش، يُقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش علىٰ كاهله، قد مَرَقَتْ قَدَماهُ في الأرض السابعةِ السُّفلىٰ، ومَرق رأسُه مِنَ السَّماء السابعةِ العُليا**». رواه أبو الشيخ، وأبو نعيم في «الحلية»(١)[٧٣].

٦٩- وروىٰ أبو الشيخ(٢)، عن الأوزاعي قال: «ليس أحدٌ مِن خَلق الله أحسنَ صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في التَّسبيحِ، قطع علىٰ أهل سبعِ سمواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم»[٧٤].

---

[٧٣] وهذا دليل آخر علىٰ عِظَمِ خِلْقة الملائكة، فهذا مَلَك من الملائكة قَدماه في الطبقة السُّفلىٰ من الأرض، ورأسه قد اخترق الطبقة العُليا من السماء السابعة، وهذا دليل علىٰ عِظَم خِلقتهم وهيئتهم.

[٧٤] هذا فيه أنَّ الله أكرم إسرافيل بِحُسْنِ الصَّوتِ، وأن الملائكة تُصغي لصوته، ويذهلون عن تَسبيحهم وتهليلهم إذا سمعوه.

---

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٩٧) (٢٨٨)، و(٣/ ٩٤٩) (٤٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦).

(٢) في «العظمة» (٣/ ٨٥٦) (٤٠٠).

ومِن ساداتِهم: مَلَكُ الموتِ عليه السلام، ولم يجئ مصرحًا باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة، وقد جاء في بعض الآثارِ تَسميتُه بعزرائيلَ، فالله أعلم. قاله الحافظ ابن كثير(١)[٧٥].

وقال(٢): إنهم بالنِّسبة إلىٰ ما هيَّأهم له أقسام:

- فمنهم: حملة العرش[٧٦].

---

[٧٥] تسمية مَلَك المَوْت هكذا جاءت في القرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ولكن لم يُسمَّ بعزرائيل، ولم يثبت له اسم معيَّن في القرآن، ولا في السُّنة، وإنما قال الله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ وجاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل، والله أعلم بصحة ذلك!

انتهىٰ المصنف الآن من بيان عِظَم خِلْقة الملائكة وعبادتهم، وخوفهم من الله -جلَّ وعلا-، وبيان كثرة عددهم، ثم شرع في بيان أعمالهم وأصنافهم، فكلُّ صنفٍ منهم له عمل وكَّله الله إليه ليقوم به.

[٧٦] من هؤلاء الملائكة مَنْ هم مُوكَّلون بحمل عرش الرَّحمن -تبارك وتعالىٰ-، وقد سبق بيان ذكرهم، ومنهم الذين هم حول العرش؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله:

---

(١) انظر: «تفسيره» (٣/ ٦٠٤)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٧).

(٢) يعني: الحافظ ابن كثير، انظر: «البداية والنهاية» له (١/ ٤٩).

- ومنهم: الكَروبيُّون الذين هم حول العرش، وهم مع حَمَلَة العرش أشرف الملائكة؛ وهم الملائكة المقربون، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢][٧٧].

- ومنهم: سُكَّان السَّموات السَّبع يَعمُرونها عبادةً دائمةً ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، كما قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] [٧٨].

- ومنهم: الذين يتعاقبون إلىٰ البيت المعمور[٧٩].

---

[٧٧] **ومن هؤلاء الملائكة الذين هم حول العرش الكَروبيُّون وهم من أفضل الملائكة؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾** [غافر: ٧]**، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾** [الزمر: ٧٥]**. فهؤلاء أقرب الملائكة إلىٰ الله عَجَلَّ .**

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]**. دلَّ علىٰ أن الملائكة منهم مَن هم مقرَّبون من الله عَجَلَّ ، وهم الذين حول العرش.**

[٧٨] **ومن هؤلاء الملائكة مَنْ يشتغل بالعبادة ليلًا ونهارًا في السموات السَّبع، كل سماء لها سكانها من الملائكة يَعْمُرونها بالعبادة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾**[فصلت: ٣٨] **.**

[٧٩] **كما سبق، فإنَّ البيت المعمور في السماء يتعاقب عليه الملائكة، فكلُّ يوم يأتيه عدد كبير منهم، ثم لا يرجعون إليه؛ لأن الله قسمهم في زيارة البيت.**

قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون إلىٰ البيت المعمور سكَّان السموات [٨٠].

- **ومنهم**: موكلون بالجِنانِ وإعداد الكرامات لأهلها، وتهيئة الضيافة لساكنيها؛ من ملابسَ ومآكلَ، ومشاربَ ومصاغ ومساكن، وغير ذلك، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطر علىٰ قلب بَشَر[٨١].

- **ومنهم**: الموكلون بالنَّار -أعاذنا الله منها- وهم الزَّبانية، ومقدَّموهم تسعةَ عشرَ، وخازنُها مالكٌ، وهو مقدَّم علىٰ الخَزنة، وهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١][٨٢].

---

[٨٠] يعني: هل هناك فرق بين سكَّان السموات وبين الذين يأتون إلىٰ البيت المعمور؟ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: «قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون» أي: لعلهم هم سكَّان السموات إذْ لا فرق بينهم، والله أعلم.

[٨١] أي: ومن الملائكة مَنْ هم وظيفتهم داخل الجنان، يُعِدُّون فيها مِن الكرامات التي يأمرهم الله بها؛ فيغرسون فيها مِن الأشجار، ويَبنون فيها مِن القصور وغيرها للمؤمنين، هذا دَأْبُهم، ورئيسهم رضوان كما جاء في الحديث[1].

[٨٢] ومِن هؤلاء الملائكة مَن هم موكلون بحراسة النار وإعداد العذاب فيها، ورئيسهم مالك كما في الآية التي ساقها المصنف، ومنهم الزَّبانية التسعة عشر =

---

(١) كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (٣/ ٣٣٥) (٣٦٩٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

....

=

المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

وقوله تعالىٰ علىٰ لسان المعذَّبين يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ قالوا للخَزَنَةِ، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، نادوا رئيس الخَزَنَةِ، فهم يطلبون الموتَ، ليستريحوا بزعمهم ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي: لا موت لكم، فهم مرَّة ينادون الخزنة، ومرَّة ينادون رئيسهم وهو مالك.

وأمَّا المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فهؤلاء مقدَّمو الخزنة؛ ومقدَّمهم جميعًا هو مالك، ولما سمع أبو جهل أن عدد الملائكة الذين علىٰ النار تسعة عشر، قال لقريش: أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾(١). أي: ليسوا من البشر، فهم ملائكة، ولا يعلم مدىٰ قوَّتهم وعظمتهم إلَّا الله تعالىٰ، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ابتلاء لهم، ولذلك فهم سخروا من هذا العدد، وأما أهل الإيمان فلا يصير عندهم تساؤل في هذا الأمر؛ لأن هذا كلام الله ﷻ، والملائكة لا يعلم عِظَم قوتهم وعددهم إلَّا الله ﷻ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فهؤلاء التسعة عشر لا يعلم قوَّتهم وبأسهم وشدَّتهم إلا الله ﷻ!

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٣١٢)، فيما أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

- ومنهم: الموكَّلون بحِفْظ بني آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

قال ابن عباس: «ملائكةٌ يحفظونه من بين يَدَيه ومن خَلْفِه، فإذا جاء أمرُ الله خَلَّوا عنه»[1][٨٣].

وقال مجاهدٌ: «ما من عبدٍ، إلا وملكٌ موكَّل بحفظِهِ؛ في نومه، ويقظتِهِ، من الجنِّ والإنس والهَوامِّ، فما منها شيءٌ يأتيه يُريدُه إلَّا قال له: وراءَك، إلَّا شيءٌ يأذنُ الله تعالىٰ فيه فيصيبه»[2][٨٤].

---

[٨٣] مِنَ الملائكة مَنْ هو موكَّل بحفظ بني آدم من الأخطار، يمشون معه، ويمنعونه من الوقوع فيها، وهذا من رحمة الله ﷻ، وإذا نام يحرسونه، قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمر الله ﷻ ورحمته بعبده، فإذا جاء أجلُه خلَّىٰ الله بينه وبين الأجل.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما من أنه: «إذا جاء أمر الله خَلَّوا عنه» وذلك لأنه انتهت مهمَّتهم، فهم كانوا يحفظونه حينما كان علىٰ قَيد الحياة، ولكن إذا حان وقت دُنوِّ أجلِه وانتهاء حياته فإنه تنتهي مهمَّتهم.

[٨٤] وهؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان من الجِنِّ والهوامِّ والدوابِّ والسِّباع والأخطار، إلَّا ما قدَّره الله تعالىٰ للعبد مما يُصيبه، فإنه يُصيبه بتقدير الله تعالىٰ له وبأمره.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠).

- ومنهم: المُوكَّلون بحفظ أعمال العباد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢][٨٥].

---

[٨٥] ومن هؤلاء الملائكة: الحفَظة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فهؤلاء هم الحَفَظة، يحفظون أعمالَ بني آدم، وما مِنْ أحدٍ من الناس إلَّا ومَلَك عن يمينه ومَلَك عن شماله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، هؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الأعمال، ويكتبونها.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. قوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الحفظَة.

[النهي عن التعرِّي ووجوب الاستحياء من الملائكة]

٧٠- روىٰ البزار، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التَّعرِّي، فاستَحيوا مِن ملائكةِ الله الذين معكم، الكرام الكاتبينَ، الذين لا يفارقونكم، إلا عند إحدىٰ ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء؛ فليستتر بثوبه، أو بجِذْم حائطٍ أو بغيره»(١).

قال الحافظ ابن كثير: ومعنىٰ «إكرامهم» أن يَستحي منهم، فلا يُملي عليهم الأعمال القبيحةَ التي يَكتبونها، فإن الله خلقهم كرامًا في خلقهم وأخلاقهم.

ثم قال -ما معناه-: إن مِن كرمهم: أنهم لا يدخلون بيتًا فيه كلبٌ، ولا صورةٌ، ولا جنبٌ، ولا تمثال، ولا يَصحبونَ رفقةً معهم كلب أو جَرَسٌ»(٢)[٨٦].

---

[٨٦] في هذا الحديث النَّهي عن التَّعرِّي حتىٰ وإن كان الإنسان خاليًا بنفسِه، ولا أحد يُشاهده، فإن الملائكة تشاهده ولهذا ينبغي الاستحياء منهم، كما ينبغي الاستتار منهم بجدار أو بثوب ونحوه إن أراد الاغتسال، ولا بأس والحالة هذه من أن يتعرَّىٰ؛ لكن يكون ذلك من وراء ساتر وليس في الفضاء دون ستر.

وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من أنهم: «لا يدخلون بيتًا فيه كلب، ولا صورة ...» إلخ. وذلك لأنهم يكرهون هذه الأشياء، فيبتعدون عن البيت الذي فيه كلب أو صورة.

=

---

(١) «كشف الأستار» (١/ ١٦٠) (٣١٧).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١/ ٥١) وانظر في هذا الباب: ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٥٦٦)، ومسلم (٢١١٣)، وأبو داود (٢٥٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[تعاقب الملائكة في البشر ليلاً ونهارًا]

٧١- وروىٰ مالكٌ والبخاريُّ ومسلم[١]، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين بَاتُوا فيكم، فيَسأَلُهم -وهو أعلمُ-: كيف تَركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلون».

٧٢- وفي روايةٍ[٢]: أن أبا هريرة قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨][٨٧].

=

وقد ابتُلي الناس الآن باقتناء الكلاب؛ لأنهم رأوا الكفَّار يقتنون الكلاب فتشبَّهوا بهم حتىٰ أدخلوها في السيارات معهم، وهذه الكلاب إذا كانت في البيت، فإنها تمنع دخول الملائكة، وكما ابتُلوا بتعليق الصور في بيوتهم، وهي كذلك تمنع دخول ملائكة الرَّحمة عليهم.

[٨٧] ما زال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسوق الأحاديث الواردة في أعمال الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، فمِن أعمال الملائكة حفظ أعمال بني آدم؛ لأن الله يرسلهم إلىٰ البشر في الأرض يكتبون ما يصدر من بني آدم من خيرٍ أو شرٍّ، من أعمال صالحة أو أعمال سيِّئة، أو أقوال، فهم يرصدون ويكتبون كل ما يصدر من أقوالٍ وأفعالٍ؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

---

(١) مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٠)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) أخرجها البخاري (٤٧٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

وهؤلاء يُقال لهم: الحَفَظة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

فالإنسان ليس مهملًا، وإنما هو تحت مراقبة دائمة من الله وملائكته، وأن أعماله وأقواله لا تضيع، ولا تذهب سُدًىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. فالإنسان ليس بمُهمَل، وإن أهمل نفسَه، ولهذا فإنه ينبغي له أن يستحضر هذا، ويستحضر كلَّ ما يصدر عنه ويُدرك بأنه سيُسجَّل وسيُحاسب عليه، فحينئذٍ سيكون له تخوف وتوقف عن كثير من الأقوال والأفعال.

وهذا الصنف من الملائكة الذين جاء ذكرهم في الحديث ينزلون من السماء إلىٰ الأرض حيث يسكن بنو آدم، وهم علىٰ قسمين: حفظة في النهار، وحفظة في الليل، فحفظة النهار ينزلون في صلاة الفجر، ويبقون مع الإنسان إلىٰ وقت صلاة العصر، ثم ينزل ملائكة الليل، ويحضرون صلاة العصر ويستمرون إلىٰ صلاة الفجر، فهذا معنىٰ قوله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**» حيث لا تمضي فترة من الوقت تخلو من هؤلاء الحَفَظة، فتجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار في صلاة الفجر ويحضرونها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. يعني: صلاة الفجر، فقوله تعالىٰ: ﴿مَشْهُودًا﴾ أي: محضورًا تحضره الملائكة.

وقد سمَّىٰ الله صلاة الفجر قرآنًا؛ لأنها تُطوَّل فيها القراءة فمن هنا يُستحب للإمام أن يُطيل القراءة في صلاة الفجر إطالةً لا تَشُقُّ علىٰ المأمومين؛ لأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، وكذلك في صلاة العصر تجتمع ملائكة الليل مع ملائكة النهار، هؤلاء يصعدون وهؤلاء ينزلون ويحضرون صلاة العصر؛ ولهذا صار لصلاتَي الفجر والعصر مِيزةٌ علىٰ غيرهما من الصلوات.
=

....

=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني: صلِّ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق: ٣٩]. المراد هو ذكر فضيلة هذين الصلاتين: صلاة الفجر، وصلاة العصر.

وقوله ﷺ: «**ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم**» هذا فيه دليل علىٰ إثبات العلوِّ لله تعالىٰ، فيصعد الملائكة الذين انتهت مهمَّتهم إلىٰ الله تعالىٰ.

وقوله: «**فيسألهم -وهو أعلم-**» أي: يسألهم ﷻ سؤال تقرير وشهادة، وإلَّا فهو ﷻ يعلم حالهم، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم «**كيف تركتم عبادي؟**» يسأل سبحانه الذين صعدوا إليه: «**كيف تركتم عبادي**» فهذا سؤال تقرير واستشهاد للملائكة علىٰ أعمال بني آدم.

وقوله: «**فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون**» صلاة العصر: «**وأتيناهم وهم يصلون**» صلاة الفجر، أو العكس «**وأتيناهم، وهم يصلون**» أي: صلاة العصر «**وتركناهم وهم يصلون**» أي: صلاة الفجر، فهذه شهادة من الملائكة للمسلمين عند الله ﷻ وهم في حال طاعةٍ؛ لتكون شهادتهم لهم بأحسن الشهادة، هؤلاء هم الملائكة الحَفظة، وهذا عملُهم، وهذه أوقات نزولهم وصعودهم.

[تجوُّل الملائكة على حِلَق الذِّكر والعلم]

٧٣- وروىٰ الإمام أحمد ومسلم[١] حديث: «ما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتَدارسونَه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغَشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عنده، ومَن بَطَّأ به عملُه لم يسرع به نَسَبه» [٨٨].

---

[٨٨] وهذا الحديث أيضًا في بيان صنفٍ من الملائكة، وهم الملائكة الذين يتجوَّلون يطلبون حِلَق الذِّكر، فمِن الملائكة مَنْ مُهمَّتُهم حضور دروس العلم، وحِلَق الذِّكر، فهذا فيه فضل طلبِ العلم والحثُّ عليه؛ لأن الملائكة تعتني بهذا، وتبحث عنه وتأتي إليه.

فقوله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله**» يعني: من المساجد، وهذا فيه أن تعليم العلم ينبغي أن يكون في المساجد؛ لأنه تحضره الملائكة، وكذا يحضره طلاب العلم والعوامُّ فيستفيدون من هذه الدروس، فهو بيت السَّكينة والرحمة وهو مأوىٰ الملائكة، بخلاف ما إذا ما أُقيم الدرس في غير المسجد، فإنه تَقِلُّ أهميته، ويفقد هذه الصِّفة، ويصبح مقصورًا علىٰ الحاضرين من الطلاب فقط.

فينبغي أن يُعلن العلم ولا يُخزَّن، ومحلُّ إعلانه يكون في المساجد، ولا يكون في المخيمات أو في محلات يجتمع فيها الطلاب والمشايخ، ولا يحضره غيرهم، فمثل هذا تَقِلُّ أهميته وفائدته، ويفقد هذه الميزة العظيمة، وهي حضور الملائكة. =

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٧٤٢٤)، ومسلم (٢٦٩٩).

....

=

وقوله ﷺ: «**يتلون كتاب الله**» أي: القرآن الكريم، ويدخل فيه السُّنة؛ لأن السُّنة من كتاب الله ﷻ، فيقرءون كتاب الله، ويتفقهون فيه ويتدارسونه فيما بينهم فيُعلِّم بعضهم بعضًا، فهذا فيه فضل حِلَق وتحفيظ القرآن في المساجد.

وهذه ظاهرة عظيمة عند المسلمين، و«**يتدارسونه**» فإن من تدارس القرآن تدارس معانيه وقراءة تفسيره، فيقرءون القرآن ويتأمَّلون معانيه ويتدبَّرونه؛ لأنه ليس المقصود قراءة القرآن أو حفظه فقط مع أهمية ذلك؛ لكن هذا لا يكفي، إذ لابدَّ من تدارس معانيه وفَهْم ما أراده الله -جلَّ وعلا- به، والاهتداء بهديه، وأما مجرد الحفظ له دون تدبُّر معانيه، وفهمها فهو عمل ناقص.

وقوله: «**إلَّا نزلت عليهم السكينة**» والسَّكينة شيء يجعله الله في القلوب، وهي الطمأنينة، وذهاب الوساوس، والانشغال القلبي، وهذا خاصٌّ بالمساجد، فالطمأنينة إنما تكون في المساجد التي هي بيوت الله ﷻ.

وقوله: «**وغَشيتهم الرحمة**» أي: غطَّتهم رحمةٌ من الله ﷻ، وهذه فائدة ثانية من فوائد الاجتماع في بيوت الله ﷻ؛ لأجل طلب العلم الشرعي.

وقوله: «**وحفَّتهم الملائكة**» وهذا هو محلُّ الشاهد؛ حيث إن الملائكة تحيط بهؤلاء المجتمعين في بيوت الله -جلَّ وعلا-، وتتحلَّق معهم، فما أعظم أن تُحيط ملائكة الرحمن، وتجلس في حِلَق الذِّكر بعدما ينزلون من السماء، ويبحثون في الأرض، فإذا وجدوا حِلَق الذِّكر قالوا: هلمُّوا إلىٰ بُغيتكم، فيجيئون فيَحفُّون بهم إلىٰ السماء الدُّنيا كما جاء في الحديث[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٧٤٢٤)، والبخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما أولئك الذين يلهون ويلعبون ويُغنُّون، فهؤلاء تحضرهم الشياطين وتشجِّعهم علىٰ هذا الشيء، وأمَّا الذين يُقبلون علىٰ كتاب الله تعالىٰ وعلىٰ سنة رسوله ﷺ بالحفظ والدِّراسة والتفقُّه فهؤلاء تحضرهم ملائكةُ الرحمن.

وقوله ﷺ: «**وذكرهم الله فيمَن عنده**» هذه أعظم فائدة ذُكرت في هذا الحديث، حيث إنه ﷻ يُثني عليهم في الملأ الأعلىٰ عند الملائكة، فهذه فضائل اجتمعت في حِلَق الذِّكر، وهي:

أولًا: نزول السكينة.

ثانيًا: غشيان الرحمة.

ثالثًا: حضور الملائكة.

رابعًا: وهي أعظم الفوائد، حيث إنه سبحانه يذكرهم في الملأ الأعلىٰ، فقوله: «**ذكرهم الله**» أي: أثنىٰ عليهم ومَدَحهم «**فيمن عنده**» يعني: من الملائكة المقرَّبين عنده ﷻ، وكفىٰ بهذا شرفًا وفضلًا لمجالس الذِّكر والعلم.

ثم قال ﷺ: «**ومن بطَّأ به عملُه، لم يُسرع به نَسَبه**» فالله -جلَّ وعلا- لا ينظر إلىٰ الأنساب، وإنما ينظر إلىٰ العمل، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. فالأنساب إنما هي من شأن الدُّنيا بين الناس؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]. فلا مانع من تعلُّم الأنساب ومعرفتها؛ ولكن دون الافتخار بها، والاقتصار عليها، فهي لا تكفي عند الله تعالىٰ، ولا وزن لها يوم القيامة، وإنما المقصود منها في الدُّنيا التعارفُ والتواصل بين الأقارب والأرحام والتعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، ولكن لا ينفع عند البارئ ﷻ إلا العمل.

=

[توقير الملائكة لطالب العلم]

٧٤- وفي «المسند» والسنن حديث: «إن الملائكة لَتضع أجنحتَها لطالب العلم؛ رضًا بما يصنعُ»(١). والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جدًّا [٨٩].

فقوله: **«من بطَّأ به عملُه»** يعني: تأخَّر عمله **«لم يسرع به نسبُه»** فانظر إلىٰ أبي لهب، وهو عمُّ رسول الله ﷺ ومِن صميم بني هاشم؛ ولكن لما لم يكن عنده عمل صالح لم ينفعه ذلك، وأنزل الله فيه قرآنًا يُتلىٰ في ذمه إلىٰ يوم القيامة، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]. أي: خاب وخسر، وهو عمُّ الرسول ﷺ، وله نسب شريف رفيع؛ ولكنه لم ينفعه، ولا ضرَّ بلالًا وسلمان أنهم ليسوا قَبليِّين، وليسوا من العرب، وأنهم أعاجم، فالأول من الحبشة والآخر من بلاد فارس؛ لكن الله -جلَّ وعلا- رفعهم بالعمل الصالح، ولا ضرَّهم أنهم ليس لهم نسب عربي وشريف؛ ولهذا قال ﷺ: **«مَنْ بطَّأ به عملُه، لم يُسرع به»** أي: لم يقدِّمه **«نَسَبُه»**.

[٨٩] وهذا كالحديث الذي قبلها فيه أنَّ الملائكة توقِّر وتحترم طالبَ العلم، ولهذا قال ﷺ: **«لَتضَعُ أجنحتها»** احترامًا لطالب العلم، وهذا يدلُّ علىٰ شرف طلب العلم الشرعي، فينبغي للناس احترام طالب العلم، كما تحترمه ملائكة الرَّحمن، وتتواضع له، ولكن كثيرًا من الناس -مع الأسف- يتنقَّصون طلبة العلم والعلماء، ويَحُطُّون من قدرهم ويصفونهم بالتغفيل وعدم فقه الواقع، وأنه ليس لهم هَمٌّ إلا دراسة الحيض والنِّفاس، فيسخرون منهم، ومن الأحكام الشرعية، وهذا دَيْدَن بعض الناس مع طلبة العلم والعلماء، وهو الاحتقارُ والازدراء =

---

(١) أحمد (١٨٠٨٩) من حديث صفوان بن عسَّال، وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه

....

من العلماء؛ بل يتجاوز إلىٰ احتقار أحكام العلم، فيسمُّونها الحيض والنفاس، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

فمثل هذا ونحوه إنما هو ردَّة عن دين الإسلام، فكل مَن يَحتقر العلم الذي أنزله الله، إنما هو مرتدٌّ عن دين الله، فالأمر جَدُّ خطير، فليس الأمر مجرَّد كلام وانتهىٰ، وإنما هذا الكلام ونحوه يرجع علىٰ قائله بالخسارة ولا يَضرُّ طلبة العلم والعلماء؛ بل يزيدهم رفعة عند الله سبحانه وتعالى.

والقصد من هذا: أنه ينبغي احترام طالب العلم؛ لأن الملائكة تحترمه فتضع أجنحتها له، وهذا فيه وصف الملائكة بأن لهم أجنحة، وهذا قد ذكره الله تعالىٰ في القرآن الكريم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]. لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، فلقد أعطاهم الله القدرة علىٰ الطيران والنزول والصعود.

وأما قول المؤلف رحمه الله: «والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جدًّا».

فقد أفاض رحمه الله في إيراد الأحاديث الواردة في ذكر الملائكة؛ لأن الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان السِّتة، فيجب معرفة هؤلاء الملائكة، والإيمان بهم إيمانًا مفصَّلًا، ولا يكفي الإيمان بهم إيمانًا مجملًا.

ولذلك أفاض الشيخ رحمه الله في إيراد الأحاديث المتضمنة لصفة الملائكة وأعمالهم، وأصنافهم من أجل اعتقاد ما جاء في الأحاديث التي اشتملت علىٰ كل هذه التفاصيل.

وهذا بخلاف قول الفلاسفة القائلين بأنَّ الملائكة عبارة عن الهواجس الكامنة في النفس البشرية، فإن كانت هذه الهواجس تعبِّر عن الخير فهي الملائكة،

....

=

وإن كانت هواجس شرٍّ فهي الشياطين، فليس في فكرهم أن الملائكة والشياطين مخلوقون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، وإنما يفسِّرون الملائكة بقوى الخير الكامنة في الإنسان، والشياطين بقوى الشرِّ، هذا مذهب الفلاسفة ورأيهم في الملائكة.

وأمَّا مشركو العرب فإنهم يقولون: بأن الملائكة إنما هم بنات الله! وأنه سبحانه تزوَّج من الجن -تعالىٰ الله عمَّا يقولون- فولدت له البنات، وهم الملائكة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. يعني: لهم الذُّكور.

وقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٧]. فهم يصفون الملائكة بأنهم بنات.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧-٥٩]. فهؤلاء يكرهون البنات، فمنهم مَنْ يُبقيها علىٰ ذلَّة واحتقار ويظلمها، ومنهم مَنْ يدفنها حيَّة، وهي الموءودة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يعني: يبقيها حيَّة مُهانة ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾. يعني: يدفنها وهي حيَّة ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ =

....

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢]. فهؤلاء لا يرضون البنات لأنفسهم، ويترفَّعون عنها وينسبونها لله ﷻ، وهذا تنقُّص له ﷻ، والشاهد من هذا كله هو قول بعض مشركي العرب في الملائكة بأنهم بنات الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وهناك صنفٌ آخر من مشركي العرب يعبدون الملائكة، ويدعونهم من دون الله ﷻ، ويَغْلُون فيهم، قال تعالىٰ في وصف هؤلاء وعاقبة أمرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤٠-٤١] .

فعبادتهم ليست عبادة للملائكة، وإنما هي عبادة للشياطين؛ لأن الشياطين هم الذين أمروهم بذلك، أمروهم أن يعبدوا الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم، وإنما يعبدون الشياطين؛ ولهذا قال تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

باب الوصية بكتاب الله ﷻ

وقول الله تعالىٰ: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] [٩٠].

---

[٩٠] في هذا الحثُّ علىٰ التمسُّك بكتاب الله -جل وعلا-، يُقال: أوصىٰ بكذا؛ أي: أمر وأكَّد بالشيء، والله تعالىٰ أوصىٰ بالتمسُّك بكتابه، والنبيُّ ﷺ أوصىٰ كذلك بالتمسُّك بكتاب الله تعالىٰ؛ لأنه لا نجاة من الضَّلال في الدُّنيا، ومن النار في الآخرة إلَّا بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا- واتِّباع الرسول ﷺ، فمن لم يتمسَّك بهما فإنه يكون ضالًّا في الدنيا علىٰ غير هدىٰ، ويكون في الآخرة من الخاسرين ومن أهل النار، فلا نجاة إلا بالتمسُّك بكتاب الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]. هذه وصيَّة الله تعالىٰ بالقرآن والسنة.

والآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاءت في سياق أول سورة الأعراف، من قوله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣]. فقوله: ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ هذا أمرٌ من الله -جلَّ وعلا-: ﴿ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وهما القرآن والسُّنة؛ لأن السُّنة منزَّلة من الله تعالىٰ، ولهذا قال سبحانه في حقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]. =

ثُمَّ لما أمر باتِّباع المنزَّل نهىٰ عن اتِّباع غيره فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: لا تتَّبعوا غيرَه من الأكابر والرؤساء، والرِّجال الذين تزعمون أنهم علماؤكم وأولياؤكم، فتطيعونهم وترفضون ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا من اتِّخاذ الأولياء.

فمن أطاع مخلوقًا في معصية الله، فقد اتَّخذه وليًّا من دون الله، فلا يُطاع العلماء، ولا أحدٌ من الناس إلَّا إذا أطاع الله ﷻ، ووافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أمَّا مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر، سواء كانت مخالفته عن تعمُّد وعناد أو كانت عن اجتهاد وأخطأ فيه، فلا يجوز تقليد الناس تقليدًا أعمىٰ من غير بصيرة، وإنما يجوز تقليد مَنْ تمسَّك بالكتاب والسُّنة وأصاب الحقَّ، وأما مَنْ خالف فإنه لا يُعتبر حتىٰ ولو كان مجتهدًا وأخطأ في اجتهاده.

وهذه قاعدة ينبغي أن يعرفها طالب العلم، إذ إن هناك مَنْ يتعصَّبون لمذاهبهم ومشايخهم ولرؤسائهم وقادتهم دون رجوع إلىٰ كتاب الله ﷻ.

والحق في ذلك، هو: أن تُوزَن كلُّ الأمور بميزان الكتاب والسُّنة، فما وافقهما وجب الأخذ به، وما خالفهما وجب رفضُه وعدمُ الالتفاتِ إليه، ولا يُعتبر هذا إهانةً للعالم إذا ما تُجنِّب خطؤه؛ بل إنَّ العلماء أنفسَهم يقولون: إذا وافَق قولُنا قولَ الرسول ﷺ فخُذوه، وإذا خالفه فاضربوا بقولنا عُرْض الحائط. كذا قال الشافعي، ومثله الإمام مالك وأحمد، ومن قبلهم الإمام أبو حنيفة -رحمهم الله جميعًا-.

فكلهم حذرونا من أخذِ أقوالهم كقضيَّة مسلَّمة؛ بل ينبغي أن تُعرض أقوالُهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، فإذا وافقت فبها ونِعْمَت وإنْ خالفت فإنَّنا نترحَّم عليهم ونعتذر لهم؛ ولكن لا نأخذ خطأهم، ولا يُعتبر هذا تنقُّصًا لهم -حاشىٰ وكلَّا-.

[الحثُّ على التمسُّك بالكتاب والسنة]

٧٥- عن زيد بنِ أرقم رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ خَطبَ فحَمِد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ، ألا أَيُّها الناسُ، فإنَّما أنا بشَرٌ، يوشِكُ أن يأتيَني رسولُ ربِّي؛ فأُجيب، وأَنَا تَاركٌ فيكم ثَقَلَين؛ أَوَّلُهما كتابُ الله، فيهِ الهُدَىٰ والنور، فخُذوا بكتاب الله، وتمسَّكوا به -فحَثَّ علىٰ كتاب الله، ورغَّب فيه-، ثم قال: وأهلُ بيتي».

وفي لفظٍ: «كتاب الله، هو حَبْل الله المَتينُ، من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة». رواه مسلم(١) [٩١].

---

[٩١] هذا الحديث الذي رواه مسلم فيه أنَّ النبيَّ ﷺ خطب أصحابه في موضع يُقال له: غدير خُمٍّ، **والغدير، هو**: مجتمع السَّيل من الوادي. **وخُم، قيل**: اسم رجل نُسب إليه الغدير. وقيل: اسم غَيضة ملتفَّة بالأشجار نُسب إليها الغدير، وهو قريب من الجُحفة. فلما رجع النبيُّ ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم من حجَّة الوداع ونزلوا علىٰ غدير خُم، خَطبهم ﷺ هذه الخطبة، فحمد الله وأثنىٰ عليه.

فقوله: **«فحمد الله، وأثنىٰ عليه»** فيه أنَّ الخطبة تُبدأ بحمد الله تعالىٰ، والثناء عليه، سواء كانت خطبة جمعة، أو عيد، أو استسقاء، أو تعليم، فكل الخطب تُستفتح بحمد الله، والثناء عليه، كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، ويدخل في هذا خطبة الدروس والمناسبات الأخرىٰ.

وقوله ﷺ: **«أمّا بعد»** هذه الجملة يؤتىٰ بها للانتقال من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر، فهي كلمة فَصْل بين كلامين.

=

(١) برقم (٢٤٠٨) (٣٦ و٣٧).

....

=

وقوله: «**إنِّي بَشَر**» فهو -عليه الصلاة والسلام- من بني آدم، ليس مَلَكًا من الملائكة، وليس له من الرُّبوبية شيء، ولهذا جاء في كتاب الله قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. أي: مخلوق مما يُخلق منه بنو آدم من أبٍ وأمٍّ.

وهذا بخلاف قول أهل الضَّلال والانحراف الذين يقولون: إن الرسول ﷺ مخلوق من نور، وبعضهم يقول: إنه خُلق -عليه الصلاة والسلام- قَبل آدم عليه السلام! وهذا ونحوه من الأقوال المنحرفة، إنما هو من الغُلوِّ المذموم؛ إذ كيف خُلق ﷺ قبل آدم عليه السلام، وهو من بني آدم؟! فالرَّسول ﷺ بَشَر وإنسان من بني آدم؛ فقوله ﷺ: «**فإنَّما أنا بشر**» فيه إبطال الغُلوِّ في حقِّه ﷺ، أو أن يُقال: إنه مخلوق من نور، أو قبل آدم، وقد دلَّ هذا الحديث علىٰ أنه ﷺ مخلوقٌ ممَّا خُلق منه بنو آدم والأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسَّلام-.

وفيه أنه ﷺ لا يُدعىٰ مِنْ دون الله، ولا يُستغاث به؛ لأنه بَشَر، وإنما الذي يُدعىٰ، ويُستغاث به هو الله -جلَّ وعلا-.

وقوله ﷺ: «**يُوشك أن يأتيَني رسولُ ربِّي**» أي: ملك الموتِ «**فأجيبَ**» وقد جاءه رسولُ ربِّه ومات -عليه الصلاة والسلام-؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فالرسول ﷺ بَشَر ومات كما يموت البشر، وفي هذا ردٌّ علىٰ الغُلاة الذين يقولون: إن الرسول ﷺ لم يمت وأنه حيٌّ! فإنه لو كان حيًّا لما دُفن في التراب، ولو كان حيًّا ﷺ لذهب إليه أصحابه رضي الله عنهم عند اختلافهم؛ ليفصل بينهم!

=

لكن أهل الباطل لا ينظرون إلىٰ ما تقتضيه العقولُ فضلًا عمَّا تقتضيه أدلَّة الشَّرع، فهم يركبون رءوسهم وأهواءهم، فالرَّسول -عليه الصلاة والسلام- بَشَر وهو ميِّت، وقد بلَّغ الرِّسالة وأدَّىٰ الأمانة، وأكمل الله به الدِّينَ، ثم بعد ذلك توفَّاه الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن شفقته ﷺ بأمته أنه أوصاهم بعد موته ولم يتركهم، وإنما أوصاهم بما يقودهم إلىٰ الجنة، وهذا من نصحه -عليه الصلاة والسلام- حيًّا وميتًا.

وقوله ﷺ: «**وأنا تاركٌ فيكم ثقلَين**» ثَقَلين مثنىٰ: ثَقَل، والمراد: القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وسمِّي القرآن ثقلًا وكذا السُّنة؛ لأنه يثقُل العمل بهما علىٰ أهل الكسل والخُمول، وقيل: سُمِّيا ثَقَلين لعِظَمهما وكبير شأنهما.

وقوله: «**وأوَّلهما كتابُ الله فيه الهدىٰ والنُّور**» وتدخل فيه السُّنة فهي من كتاب الله ﷻ، وهي الوحي الثاني، فالوصية بكتاب الله وصيَّةٌ بالسُّنة أيضًا؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

فالسنة من عند الله ﷻ، وهي وحيٌ أوحاه الله إلىٰ رسوله ﷺ، وقد أثنىٰ -عليه الصلاة والسلام- علىٰ كتاب الله ورغَّب في العمل به؛ لأنه هو طريق الهداية، وهو النور المبين، وهو الرُّوح، وهو الحقُّ والصِّراط المستقيم.

وقوله ﷺ: «**وأهلُ بيتي**» فقد أوصىٰ -عليه الصلاة والسلام- بأهل بيته، وأهل بيته ﷺ: هم قرابته، وزوجاته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

=

وفي خطاب أزواج النبيِّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٣]. يعني: الْبَثْنَ في بيوتكنَّ، ولا تكثرنَ الخروجَ، فهذا فيه أن الأفضل للمرأة أن تبقىٰ في بيتها، ولا تخرج إلا لما لابدَّ لها منه؛ لأنَّ الله أمر نساءَ الرَّسول ﷺ، وهنَّ أطهر نساءِ العالمين بالبقاء في البيوت؛ ودُعاةُ السفور والانحلال يقولون: إن المرأة محجوبة ومسجونة بين الجدران، لا يدرون أن هذا كرامة وحفظٌ لها.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فدلَّ علىٰ أنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ من أهل البيت، وكذلك قرابتُه -وهم بنو عمِّه من المؤمنين، بنو العباس وبنو أبي طالب: عليّ وجعفر وعقيل وأبناؤهم والحسن والحسين ابنا علي- هؤلاء هم أهل بيت الرَّسول ﷺ، فكلُّ مَنْ تحرُم عليه الصَّدقة هم أهل بيت الرسول ﷺ.

أوصىٰ بهم -عليه الصلاة والسلام- بالإحسان إليهم، ومحبَّتهم ومعرفة قَدْرِهم وعدم تنقُّصهم؛ لأن الإحسان إليهم وتوقيرهم توقيرٌ للرسول ﷺ، والنَّقص من قَدْرهم إنما هو تنقُّص للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام-، وإيذاؤهم إيذاءٌ له ﷺ.

قال ﷺ: **«يا أيُّها الناس، مَنْ آذىٰ العبَّاسَ فقد آذاني، إنما عَمُّ الرَّجلِ صِنوُ أبيه»**[1].

=

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥١٦)، والترمذي (٣٧٥٨) من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه.

= فلا شكَّ أنَّ آل البيت الطيبين الصالحين لهم فضلٌ وشرف وكرامة من أجل رسول الله ﷺ.

وفي هذا ردٌّ علىٰ طائفتين:

الأولىٰ: طائفة الرَّوافض الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت حتىٰ اعتقدوا أنَّ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم باطلة، وأن عليًّا هو أوْلَىٰ بالخلافة بعد النبي ﷺ، ولهذا فهم يُسمُّون عليًّا بالوصي؛ أي: وصيِّ النبي ﷺ، وهذا غُلوٌّ في أهل البيت وإهدار لفضل أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وإبطال لخلافتهم، وأنهم ظَلَمة مغتصبون للخلافة -بزعمهم-؛ بل يقولون: هم كَفَرة وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بهم -رضي الله تعالىٰ عنهم-.

وقد زاد الأمر في حبِّهم لآل البيت بزعمهم أنهم عبدوهم من دون الله، فلم يقتصر الأمر علىٰ اعتقاد أن الخلافة لهم بعد الرَّسول ﷺ، وإنما زاد الأمر إلىٰ أن عبدوهم مِنْ دون الله، وبَنَوا علىٰ قبورهم المشاهد وسمَّوها المقدَّسات وهم يَحجُّون إليها الآن، هؤلاء هم الرافضة الذين غَلَوا في حبِّ آل البيت، وخرجوا عن الحقِّ إلىٰ الكفر والشِّرك والضَّلال.

والثانية: هي طائفة النواصب، الذين يُبغضون آل البيت، ويتنقَّصُونهم ويَحطُّون من قَدْرهم، فهم علىٰ طَرَفي نقيض مع الروافض، فأولئك يَغلُون وهؤلاء يُفرِّطون في حقِّ أهل البيت، ويتنقَّصون من قَدْرهم ويذمُّونهم.

وأما أهل السنة والجماعة فهم توسَّطوا في أهل البيت، فعرفوا قَدْرَهم وأحبُّوهم وأكرموهم واحترموهم وحفظوا فيهم وصيَّة رسول الله ﷺ خلافًا للنواصب؛ لكنهم لم يَغلُوا فيهم مثل غُلوِّ الرَّوافض، ولم يَهينوهم ويُفرِّطوا في =

حقِّهم كتفريط النَّواصب الذين ناصَبوا العداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ.

وقد أوصىٰ بهم الرسول ﷺ، لهذا يجب العمل بوصيَّته -عليه الصلاة والسلام-، فمَن أهدر حقَّهم وتَنقَّصهم فقد خالف وصيَّته -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: وفي لفظٍ: «**كتابُ الله هو حَبْل الله المتين، مَنِ اتَّبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومَنْ تركه كان علىٰ الضلالة**» هذا تفسير لقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد فسَّر الحديث أن المراد: ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ هو القرآن، وأنَّ مَنِ اعتصم به، فإنه يَهتدي، ويُفلح ويَسعد في الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني: القرآن ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ يعني: لم تعمل بها، وليس معنىٰ النسيان أنه نسِيَ حفظها، وإنما نسي العمل بها ولو كان يقرؤها ويحفظها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

فالإنسان لو عمل بالقرآن، وإن لم يكن يَحفظْهُ فهو من أهل القرآن ومن المتمسِّكين به، فليست المسألة مسألة حفظه وحسب، وإنما المسألة هي مَدىٰ التمسُّك بالقرآن والعمل به؛ ولكن يُقال: إنَّ حِفظَ القرآنِ إنما هو وسيلة إلىٰ العمل به للوصول إلىٰ الهُدىٰ والابتعاد عن الضلالة؛ لأن فيه النجاة في الدُّنيا والآخرة، كما بيَّن ذلك ﷻ.

٧٦- وله(١) في حديث جابرٍ الطَّويلِ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال -في خُطبةِ يوم عرفةَ-: «وقد تَركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا إنِ اعتَصمتُم به؛ كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلونَ؟ قالوا: نَشهدُ أنَّك قد بلَّغت، وأدَّيتَ ونَصحتَ -قال بإصبَعِه السَّبابةِ يَرفعُها ويَنكُتُها إلىٰ النَّاسِ- اللَّهـمَّ اشهَدْ». ثلاث مرات[٩٢].

---

[٩٢] هذا الحديث جاء في سياق خطبته ﷺ يوم عرفة في حجَّة الوداع، وأنزل الله تعالىٰ عليه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فخطب ﷺ قبل صلاة الظُّهر في وادي عُرنةَ، وكان من جملة ما أوصىٰ به كتاب الله، فقال ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا إن اعتصمتم به: كتاب الله» وهو القرآن والسُّنة التي هي من كتاب الله؛ لأنها وحيٌّ منه ﷻ، فمَن تمسَّك بما جاء به الرَّسول ﷺ من القرآن والسُّنة فإنه لن يَضِلَّ في الدُّنيا ولن يشقىٰ في الآخرة؛ لأنه مشىٰ علىٰ الطريق الصحيح، وهو الصِّراط المستقيم، والحَبْل المتين، وحالُنا في هذه الدنيا في لُجَّةٍ وَغَرقٍ مليء بالضَّلالات والأهواء والشَّهوات، وليس لنا نجاة إلا من خلال هذا الحَبْل، فمَن تمسَّك به وعضَّ عليه بالنَّواجذ نجا من هذه الأخطار والضَّلالات، ومَنْ أطلق هذا الحَبْل هلك وغرق في هذه اللُّجج والبحار.

ثم إنه ﷺ بعدما أوصىٰ بكتاب الله في حجَّة الوداع التي وادَعَ فيها الناس، توفِّي بعدها -عليه الصلاة والسلام-، فهذه الخطبة التي خطبها ﷺ هي آخر خطبة خطبها مع خطبة غَدير خُمٍّ، وقد تشابَهت الخطبتان، ففي كلا الخطبتين =

---

(١) برقم (١٢١٨).

أوصىٰ -عليه الصلاة والسلام- بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-، والسِّرُّ في تكرار هذه الوصية -والله أعلم- أنه شعر ﷺ بقُرب أجله، فكرَّر الإيصاءَ بالتمسُّك بكتاب الله -جلَّ وعلا-، وهذا من شفقته -عليه الصلاة والسلام- بأُمَّته ونُصحه لها.

وقوله ﷺ: «**وأنتم تُسألون عنِّي**» هذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. فالله -جلَّ وعلا- يسألُ الأممَ يوم القيامة: هل بلَّغتكُم رُسلُكم؟ فأهلُ الإيمان يقولون: نعم بلَّغتنا، وأما أهل الكفر فيقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. فهم يجحدون، فقوله ﷺ: «**وأنتم تُسالون عني**» يعني: تسألون هل بلَّغتكم؟ ولهذا فقد أجابه الصحابة -رضوان الله عليهم-: «نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيتَ ونصحتَ».

وفي قوله: «قال بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلىٰ السماء» فيه إثبات عُلوِّ الله -جلَّ وعلا-، فَرفْعُ أصبعه -عليه الصلاة والسلام- إشارةً إلىٰ ربِّه، ففي هذا إثبات واضح لعلوه -جلَّ وعلا- علىٰ خَلقِهِ؛ لأنه ﷺ أشار إليه في العُلوِّ، فهذا من أدلَّة عُلوِّ الله علىٰ خَلْقه.

وقوله: «**يَنْكُتُها إلىٰ الناس**» يعني يُصوِّبها إلىٰ الحاضرين؛ ثم قال: «**اللهم اشهدْ**» ثلاث مرات، يعني: أنِّي بلَّغتُهم وأنَّهم أقرُّوا بالبلاغ، فاستشهد الله عليهم، لئلا يقول أحد: إنَّ الرسول ﷺ لم يُبلِّغ.

[النهي عن ترك العمل بكتاب الله تعالى]

٧٧- وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا إنَّها ستكونُ فتنةٌ. قلتُ: ما المَخرجُ منها يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله، فيه نَبأُ ما كان قَبلكم، وخبرُ ما بَعدكُم، وحكمُ ما بَينكُم، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، ما تَركَه مِنْ جَبَّار قَصمَه الله، ومَنِ ابتَغىٰ الهُدىٰ مِن غيرِه أضلَّهُ الله، وهو حَبْل الله المتينُ، وهو الذِّكر الحكيمُ، وهو الصِّراط المستقيمُ، هو الذي لا تَزيغُ به الأَهواءُ، ولا تَلتَبسُ به الألسنةُ، ولا تَشبعُ منه العلماءُ، ولا يَخلَق عن كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه، هو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذْ سَمعتْهُ حتىٰ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢]. مَنْ قال به صَدقَ، ومَنْ عَملَ به أُجِرَ، ومَنْ حَكم به عَدل، ومَنْ دَعَا إليه هُدِيَ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ». رواه الترمذي[1]، وقال: غريب[٩٣].

[٩٣] هذا الحديث من جملة الأحاديث التي ساقها المؤلِّف رحمه الله في الوصية بكتاب الله عز وجل؛ إذ سبقه أحاديث صحيحة في الوصية بكتاب الله عز وجل وذا من جملتها، وهذا قد رواه الترمذي وغيره[2]؛ ولكن الترمذي قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وهذا الحديث من أقسام الآحاد علىٰ اعتبار أن الحديث في الأصل ينقسم إلىٰ قسمين: حديث متواتر، وآخر آحاد.

(١) برقم (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٣١)، والبزار (٨٣٦).

....

=

والحديث المتواتر: ما يرويه جماعة عن جماعة يتعذَّر تواطؤهم علىٰ الكذب من بداية السَّند إلىٰ نهايته.

والحديث الآحاد: هو الذي لا يبلغ حدَّ التواتر، فلا يرويه جماعةٌ عن جماعة، وهو ثلاثة أقسام: المشهور، والعزيز، والغريب.

والمشهور: ما رواه ثلاثة فأكثر، إلَّا أنَّه لم يبلغ حدَّ التواتر.

والعزيز: ما رواه اثنان.

والغريب: ما تفرد به واحد، وحديث الباب من هذا القسم، فقد تفرَّد به واحد، والحديث ضعيفٌ؛ كما أشار إلىٰ ذلك الترمذي؛ لأنه من رواية الحارث الأعور عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والحارث الأعور متكلَّم فيه.

ورَفْعُه إلىٰ الرسول ﷺ خطأ، والصواب أن يكون من كلام علي رضي الله عنه[1]، فيكون من الموقوف، ومعناه صحيح تؤيِّده الأدلَّة الأخرىٰ.

قوله ﷺ: **«ألا إنها ستكون فتنةٌ»** هذا إخبار منه ﷺ عن وقوع الفتن، وقد بيَّن ذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، ومن ذلك قوله ﷺ: **«مَنْ يَعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا»**[2].

وفي مسلم وغيره[3]: **«بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبح الرَّجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، أو يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا»**. =

(١) انظر: «مسند البزار» (٣/ ٧١) عند الحديث نفسه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) مسلم (١١٨)، وأحمد في «المسند» (٨٠٣٠)، والترمذي (٢١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقوله ﷺ: «**ألا إنها ستكون فتنةٌ**» صحيح جاءت به الأحاديث الصحيحة.

والفِتن -جمع فتنة-، وهي: الابتلاء، والامتحان، والاختبار؛ ليظهر الصادقُ الإيمانِ المتمسِّك بدينه من المنافق؛ لأنه عند الفتن يتميَّز ويظهر الصادق من المنافق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]؛ أي: ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم والكاذبين في دعوىٰ الإيمان، فإن الكاذب والمنافق عند الفتن يتخلَّىٰ الواحد منهم عن دينه.

وأما الصادق فإنه يتمسَّك بدينه ويصبر علىٰ ما يُصيبه، وهذه علامة الصِّدق، بخلاف المنافق الذي ينسلخ من دينه؛ لأجل أن يسلم في دُنياه، فيبيع آخرته بدُنياه.

وقوله: «**ما المَخرج منها**» يعني: ما هو طريق السلامة من هذه الفتن؟

قوله: «**كتاب الله**» أي: القرآن، ويشمل هذا السُّنة النبوية الشريفة؛ لأنها مستمَدَّة من كتاب الله ﷻ، وقد قال ﷺ: «**عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين**»[١].

فكتاب الله يشمل القرآن والسُّنة.

وقوله: «**فيه نبأ ما كان قبلكم**» فإنَّ القرآن يحتوي أخبار الأمم الماضية.

والنبأ، هو: الخبر المهم، والمراد أنَّ القرآن فيه قصص الأنبياء والمرسلين، فهو يُخبر عمَّا جرىٰ ووقع في الماضي كأنه مشاهد من أجل أن يكون الناس علىٰ بيِّنة، وأنَّ هذا الابتلاء والامتحان الناتج عن الفتن ليس جديدًا، وإنما هو شيء جرىٰ علىٰ الأمم السابقة، فمنهم من هلك، ومنهم مَنْ نَجا.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

....

=

وقوله: «وخبر ما بعدَكُم» أي: القرآن، ويدخل في هذا السُّنة كذلك؛ إذ كلٌّ منهما يُخبر عن المستقبل، وما يُمكن أن يكون في آخر الزَّمان من الفتن، وما يمكن أن يكون بعد الموت من أحوال أهل القبور، وما بعد ذلك من البعث والنشور، وما يكون من الأهوال في القيامة، كلُّ هذا تحدَّث عنه القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة حتىٰ كأنه مشاهَد.

وقوله: «وحكم ما بينكم» أي: أنه في حال اختلافكم فإن القرآن يحكم فيما فيه تختلفون، فيعطي صاحب الحقِّ حقَّه، ويُنصف المظلوم من الظالم، هذا في الخصومات، وأمَّا في المقالات فإنه يبيِّن المقالة الصحيحة من المقالةِ الخاطئة؛ لأنه إذا ما رُجع إلىٰ القرآن فإنه يفصل بين الناس في الخصومات والمقالات وفي كلِّ شأنٍ من شئون حياتهم.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فالقرآن يحكم بين الناس، ولهذا أنزله الله، فلم ينزله سبحانه للتلاوة والتَّغنِّي به، وتجويده وتحسين الأصوات بقراءته فقط، أو للتلذُّذ بسماعه، فما أنزله من أجل هذا فقط؛ بل أنزله ليكون حكمًا بين الناس فيما يمكن أن يختلفوا فيه؛ وليكون المرجع إليه.

وقوله: «وهو الفصْل ليس بالهَزْل» وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]. والهَزْل ضد الفَصْل، فهو يفصل بين الحقِّ والباطل، والهَزْل: هو اللعب، والقرآن الكريم منزَّهٌ عن أن تكون هذه صفته.

وقوله: «مَنْ تركه مِنْ جبَّارٍ قَصمَه الله» أي: أعرَض عنه، ولم يلتفت إليه، فإنَّ الله يَقصِمُه، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ =

....

=

وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، وقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقوله: «**ومَنِ ابتغىٰ الهُدىٰ من غيره أضلَّه الله**» فمَن أراد الهدىٰ من غير كتاب الله فلن يصل إلىٰ طريق الهُدىٰ والصواب، فمَن يرجع إلىٰ المنطق والجدل وعلم الكلام، ويستدل بهذه الأمور علىٰ أنها قواعد عقلية يقينية، وأنَّ كتاب الله دلالته ظنِّية؛ لأنه دليل سمعي وليس عقليًّا، فمن كانت هذه طريقته، وهي طريقة المبتدعة الذي يستدلون بالمنطق وعلم الجدل والكلام، فلن يصل إلىٰ الهدىٰ والصواب، كيف لا وهم يؤوِّلون كلام الله حتىٰ يتفق مع منطقهم، وهذه هي طريقة أهل الضلال.

وأمَّا أهل الحقِّ فإنهم لا يَعْدِلونَ عن القرآن؛ لأنه هو دليلهم، ولا يعبئون بقواعد المنطق وعلم الكلام، ولا يلتفتون إليها؛ لأنَّ الله أغناهم عنها، فأهل السُّنة والجماعة يستدلون بالقرآن في أبواب العقائد والمعاملات والأحكام وفي كل شيء، ولا يلتفتون إلىٰ الجدل كأهل الضلال من: الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، الذين يستدلون بقواعد المنطق، ويتركون أدلة القرآن بحُجَّة أنها ظنِّية لا تفيد العلم اليقيني، وأما علم الجدل، وقواعد المنطق فهي أدلة عقلية تفيد اليقين عندهم!

وقوله: «**وهو حَبْل الله المتين**» ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران: ١٠٣] . وحَبْل الله، هو: القرآن الذي أنزله الله لهداية الخلق، فمَن تمسَّك بهذا الحبل نَجا، ومَنْ تركَه هلك.

=

....

=

وقوله: «وهو الذِّكر الحَكيم» هذا كما وصفه الله تعالىٰ، فقد وصفه بالذِّكر، وبالقرآن، وبالفرقان، وغير ذلك من أسماء القرآن وأوصافه.

وقوله: «وهو الصِّراط المستقيم» وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. والصراط: هو القرآن، فمَنْ سار علىٰ هُداه رَشَد، ومَنِ ابتعد عنه ضلَّ.

وقوله: «هو الذي لا تَزيغُ به الأهواء» فمن كان هواه تابعًا للقرآن فإنه لا يزيغ؛ بمعنىٰ: لا يضلُّ ولا يشقىٰ، ومَن كان هواه مخالفًا له، فإنه يزيغ ويضيع ويضلُّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: عن القرآن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]. فهؤلاء الذين زاغت بهم الأهواء يحسبون أنهم علىٰ الصواب مستمرُّون علىٰ ما هم عليه من الضلال، فلا يحصل عندهم شك فيما هم عليه، ولا يظنون إلَّا أنهم علىٰ الحقِّ والصَّواب!

وقوله: «ولا تَلتبسُ به الألسنةُ» أي: لا تُخطئ به ولا تختلط، فهو كما قال تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. يقرؤه العربي بوضوح وسهولة، حتىٰ إنَّ الأعجمي الذي لا يعرف اللغة العربية إذا تلا القرآن فإنه يقرؤه كما هو، لا يغيِّر منه حرفًا، وهو لا يعرف كلمة واحدة من كلمات اللغة العربية، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقوله: «ولا تَشبع منه العلماءُ» في التفقُّه في معانيه وتدبُّره، فلا أحد يُحيط بما في القرآن من الأسرار والأحكام والحِكَم مهما تأمَّل وتدبَّر، فكلُّ عالم يأخذ منه بقَدْر ما يستطيع، فلا أحد استطاع أن يحيط بكل ما في القرآن الكريم من المعاني =

والأسرار التي فيه؛ لأنه بحر؛ ولكن كلٌّ يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفَهْم، ويبقىٰ الكثير والكثير في هذا البحر الزاخر، المليء بالمعاني والأسرار المتنزَّلة من لَدُن حكيم عليم.

وقوله: «**ولا يَخلَقُ عن كثرة الرَّدِّ**». لأنَّ من إعجاز القرآن الكريم وعجائبه أنه لو كرَّر قارئه قراءته فإنه لا يسأم من قراءته، ولو سمعه السامع عدَّة مرَّات لَمَا سئم من سماعه، بخلاف الكلام الآخر الذي مصدره البشر فإنه لو كرِّر لَملَّ منه القارئ والسامع علىٰ السَّواء، بخلاف كلام الخالق الذي كلما كُرِّر زادت الرَّغبةُ فيه، والتلذُّذ بقراءته وسماعه، فإذا سمعه السامع أو قرأه القارئ فإنه يشعر وكأنه يقرؤه أو يسمعه لأوَّل مرة، وهذا من إعجاز كتاب الله -جلَّ وعلا- الذي أحكمَ نَظْمَهُ وأتقنَ بيانَه.

وقوله: «**ولا تنقضي عجائبه**» وهذا شبيهٌ بقوله: «**ولا تَشبع منه العلماءُ**». فعجائبه كثيرة من جوانبَ عديدة، فمنها ما يتعلَّق بالقصص، وفي الأخبار المستقبَلَة، ومنها ما يتعلَّق في الفقه الذي فيه، ومنها ما يتعلق بتراكيبه وألفاظه وأساليبه وبلاغته وفصاحته، فكلما استعرض القارئ قراءته تَبدَّت له عجائبه في جمال لغته وفي سَرْد قَصَصِه، وفي أساليب أوامره ونواهيه، وفي عَرْض أخباره وغير ذلك كثير مما هو كامنٌ بين دفَّتيه.

وقوله: «**وهو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذْ سمعتْهُ حتىٰ قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢]**».

وفي هذا قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا =

....

=

سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ والجنُّ خَلقٌ من خَلق الله من عالَم الغيب مكلَّفون ومأمورون ومنهيُّون مثل الإنسان، والنبيُّ ﷺ بُعث إلىٰ الجنِّ والإنس، وقد وَفَدَ علىٰ النبي ﷺ وَفدٌ من الجنِّ وطلبوا منه موعدًا فأعطاهم الموعدَ فكلَّموه ﷺ وكلَّمهم، وقد أثنتِ الجنُّ علىٰ هذا القرآن، وتعجَّبت منه، ودَعت قومها إلىٰ الإيمان به، وهذا من عجائب هذا القرآن.

وقوله: «**مَنْ قال به صدَقَ**» أي: بالقرآن فقد صَدق؛ لأن القرآن الكريم معصوم من الخطأ، فمَن اتَّبعه، وقال بما يدلُّ عليه فإنه يصدق في قوله واجتهاده وحُكمه.

وقوله: «**ومَنْ عَمِل به أُجِرَ**» أي: مَنِ امتثل بما جاء به القرآن الكريم من الطاعات والأعمال الصالحة، فإنَّ الله يُثيبه ويكتب له الأجر العظيم.

وقوله: «**ومَنْ حكم به عَدل**» أي: مَنْ جعله مرجعًا للحكم في الخصومات بين الناس والمنازعات فإنه يعدل، فيُعطي صاحبَ الحقِّ حقَّه، ويَمنع الظالمَ عن ظُلمه، وهذا هو العدل، وهذا إنما يكون في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

=

٧٨- وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه مرفوعًا: «مَا أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، ومَا حرَّم فهو حرامٌ، وما سَكتَ عنه فهو عافيةٌ، فاقبلُوا مِنَ الله عافيتَه، فإنَّ الله لم يكن ليَنسىٰ شيئًا، ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]». رواه البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني[1] [٩٤].

وقوله: «ومَنْ دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم» فمَن دعا إلىٰ كتاب الله فإنه يدعو إلىٰ هدًىٰ، وأما مَن دعا إلىٰ غيره فإنه يدعو إلىٰ ضلال، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال!

هذه هي أوصاف القرآن الكريم، وهي أوصاف صحيحة، وإن كان الحديث لم يثبت عن النبي ﷺ؛ لكن معانيه صحيحة مؤيَّدة بالأدلة الثابتة عنه ﷺ، وموافقة لما عليه الواقع قديمًا وحديثًا وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

[٩٤] وهذا كما في الحديث الصحيح: «إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ، وبينهما أمورٌ مُشتبهات لا يَعلمهنَّ كثيرٌ من الناس»[2]. وهذا الحديث كذلك فيه: أنَّ ما أحلَّه الله فهو الحلال، وما حرَّمه فهو الحرام، وما سكت عنه فهو عفوٌ؛ لأنَّ الله لم يسكت عنه نسيانًا، وإنما سكت عنه؛ لأنه عفا عنه رحمةً بعباده.

فالواجب من الإنسان أن يَقبل من الله عافيتَه، ويُحلَّ الحلالَ ويُحرِّمَ الحرامَ، وما سَكت عنه فهو معفوٌّ عنه، فلا يسأل عنه؛ لأن الحلالَ بيِّنٌ والحرامَ بيِّنٌ، وفي الرُّجوع إلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله يتبيَّن منهما الحلال والحرام.

---

(١) البزار كما في «كشف الأستار» (١٢٣ و٢٢٣١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢٠٩) (٢١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

[بيان أن الصِّراط هو الإسلام]

٧٩- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ضَربَ الله مَثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جَنبَتي الصِّراط سُوران، فيهما أبوابٌ مفتَّحةٌ، وعلىٰ الأبواب سُتورٌ مُرخاةٌ، وعند رأسِ الصِّراط داعٍ، يقول: استَقيموا علىٰ الصِّراط ولا تَعوَجُّوا، وفوق ذلك داعٍ يَدعو كلَّما هَمَّ عبدٌ أنْ يَفتحَ شيئًا مِنْ تلك الأبوابِ قال: وَيحك! لا تَفْتحْهُ فإنك إنْ تفتحْهُ تَلِجْهُ -ثمَّ فسَّره، فأَخبر-: أنَّ الصِّراط هو الإسلامُ، وأن الأبوابَ المُفتَّحة محارمُ الله، وأنَّ السُّتورَ المُرْخَاةَ حدودُ الله، وأنَّ الدَّاعيَ علىٰ رأسِ الصِّراط هو القرآنُ، وأنَّ الدَّاعي مِنْ فَوقِه هو واعظُ الله في قلبِ كلِّ مؤمن».

رواه رَزين، ورواه أحمد، والترمذي، عن النَّواس بن سمعان بنحوه[1][٩٥].

---

[٩٥] الصِّراط في اللغة، هو: الطريق، والمراد به هنا: الإسلام، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالإسلام هو الطريق الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، فمَنْ أراد الوصول إلىٰ مرضاة الله وجنَّته، لابُدَّ له من اتِّباع النهج الموصِل إليه، وهو الإسلام الذي هو صراط الله؛ ولكن من حكمة الله تعالىٰ أن جعل علىٰ جَنبَتي هذا الطريق أبوابًا يمينًا وشمالًا، وعلىٰ هذه الأبواب ستور مُرخاة، وهذه الأبواب إنما هي أبواب الفتن والشرور.

فمَن فتحها ووَلج فيها فقد خرج عن الطريق المستقيم، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن=

---

(١) رزين كما في «مشكاة المصابيح» (٨/ ٤١)، وأحمد في «المسند» (١٧٦٣٤)، والترمذي (٢٨٥٩).

[خطورة اتباع ما تشابه من القرآن]

٨٠- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تَلا رسولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقرأ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. قالت: قال: **فإذا رأيتُم الذين يتَّبعون ما تَشابَه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذَروهم**». متفق عليه[1][٩٦].

سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. **فهناك صراط مستقيم، وهناك سُبلٌ كثيرة وهي الأبواب التي علىٰ جنبتي هذا الصِّراط.**

فالواجب: هو السَّير علىٰ الصِّراط وعدم الالتفات إلىٰ هذه الأبواب، ولا كَشْف السُّتور التي عليها، والسُّتور هنا هي الحدود التي جعلها الله لرَدْع مَنْ يريد أن يدخل في هذه الأبواب؛ ولهذا قال في تفسيره لهذا الحديث: **«وأنَّ السُّتور المُرخاة حدودُ الله، وأنَّ الداعي علىٰ رأس الصِّراط هو القرآن، وأنَّ الداعي من فوقِه هو واعظُ الله في قلب كل مؤمن»** وكل ذلك واضح معناه.

[٩٦] هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه: أن الله ﷻ أنزل الكتابَ، وجعل منه آياتٍ محكمَاتٍ، وأُخر متشابهات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: انحراف ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ علىٰ قراءة من يعطف قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾. علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وعلىٰ قراءة أخرىٰ في الوقوف علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يكون ابتداءَ كلام.

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

....

ومعنىٰ الآية الكريمة واضح، حيث إن القرآن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات.

والمحكمات: هي التي لا يُحتاج في تفسيرها إلىٰ غيرها؛ لأنها واضحة في معانيها.

وأمَّا المتشابهات: فهي الآيات التي يُحتاج في تفسيرها إلىٰ إرجاعها إلىٰ غيرها مثل المطلَق، والمجمَل، والمنسوخ، فهذه الأنواع ونحوها لا يُستدلُّ بها حتىٰ يُراجع القسم الآخر من الآيات المحكمة، فيُقيَّد المطلَق، ويُبيَّن المجمَل، ويُنسخ المنسوخ، ويُعمل بالناسخ، وهذه طريقة الراسخين في العلم أنهم يردُّون المتشابه إلىٰ المُحكَم، ويجمعون بين الآيات والأحاديث بعضها مع بعض؛ لأن كلام الله يُفسِّر بعضُه بعضًا، وكذلك كلام الرَّسُول ﷺ يفسِّر بعضُه بعضًا.

وأمَّا أهل الزَّيغ فعلىٰ العكس، فيأخذون المتشابه ويتركون المُحكَم، ويستدلون به.

فبالنظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] فإنها تدلُّ علىٰ أنَّ القاتل كافر خارج من الملَّة وخالدٌ في النار، ولكن بردِّها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فإنها تفسِّرها، وتدلُّ علىٰ أن القتل ليس بكفر أكبر؛ ولكنه كفر أصغر؛ بدليل قوله ﷺ «لا تَرجعوا بَعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض»[1]؛ فقتْل المؤمن متعمدًا =

(١) أخرجه البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

كفرٌ، ولكنه كفرٌ أصغر، وليس بكفر مخرج من الملَّة، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]. فالخطاب في هذا إلىٰ المؤمنين بأن يُصلحوا بين إخوتهم من المؤمنين، فدلَّ علىٰ أنَّ القاتل لا يكفر، وإنما هو فاعل لكبيرة من كبائر الذُّنوب.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]. فلو أخذنا بهذه الآية لقلنا: إنَّ عدَّة الوفاة سنة؛ لأن هذا صريحُ الآية، ولكن بإرجاعها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فتكون هذه الآية ناسخة للآية الأخرىٰ، فنُسخت العِدَّة من سنة إلىٰ أربعة أشهر وعشرة أيام، فالمنسوخ لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ.

وأمَّا أهل الزَّيغ، فيأخذون بالمنسوخ بحجَّة أنها آية من كتاب الله، وأنَّه لا مانع من الاستدلال بكتاب الله! فأهل الزَّيغ يأخذون طرفًا من الأدلَّة، ويتركون الطرف الآخر.

والخوارج -وهم من أهل الزَّيغ- قد أخذوا آيات الوعيد وكفَّروا المسلمين، وتركوا آيات الوعد، ولو جمعوا بينهما كما فعل أهل السُّنة لاهتدوا.

والمُرجئة علىٰ العكس، فقد أخذوا آيات الوعد والرَّجاء، وتركوا آيات الوعيد فضلُّوا؛ فالخوارج ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف، وهؤلاء ضلُّوا؛ لأنهم أخذوا بطرف من النصُّوص.

وأما أهل السُّنة والجماعة، فجمعوا بين النُّصوص، وقالوا: كلٌّ من عند ربِّنا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذه هي طريقة الراسخين في العلم.

٨١- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا بيده ثم قال: هذا سبيلُ الله. ثم خَطَّ خُطوطًا عن يَمينِه وعن شِمالِه. وقال: هذه سُبلٌ على كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

رواه أحمد، والدارمي، والنسائي[1] [٩٧].

وأما أهل الزَّيف، فإنهم يأخذون طرفًا من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر الذي يُقيِّده ويُفسِّره أو ينسخه أو يُبيِّن مجمَله؛ ولذلك فإنه لا يجوز الاستدلال بالقرآن الكريم إلَّا لمن بلغ في العلم مرتبة تؤهِّله للاستدلال، وهم المجتهدون، أما المبتدئ في طلب العلم، فهذا لا يجوز له أن يستقلَّ بالفهم والرأي أو أن يُصدر الأحكام؛ لأنه لم يتمكَّن من طريقة الاستدلال، وفَهم الأدلة وربط بعضها ببعض.

فقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأمُّ: هي التي يَرجع إليها الشيء، فالمتشابهاتُ تُردُّ إلى الأُم، وهي المحكمات حتى تفسِّرها ولا تُقطع عنها.

وقوله ﷺ: «فاحذروهم» أي: لا تَغتَرُّوا بهم؛ لأنهم أهل زَيغ، ويُضلُّون عن سبيل الله، وما أكثرهم اليوم بسبب الجهل، وعدم التمكُّن من العلم، وبعضهم قد يكون عالمًا؛ ولكنه صاحب هوًى فيأخذ المتشابه؛ لأجل التلبيس على الناس.

[٩٧] حديثُ ابن مسعود هذا مثل حديثه الذي سلف قبل حديث عائشة السابق تمامًا، وفيه: أن النبي ﷺ أراد أن يُفسِّر هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أحمد (٤١٤٢)، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٤).

فأراد ﷺ أن يفسِّرها بضرب المَثَل الذي يوضِّحها، وذلك أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا علىٰ الأرض، ليس فيه انحراف، ثم خط خطوطًا أخرىٰ عن يمينه، وعن شماله، فقال عن الخط المستقيم: «**هذا سبيلُ الله**» يعني: صراطه المستقيم، وقال عن الخطوط التي عن يمينه وشماله: «**وهذه سُبلٌ علىٰ كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه**» وهي الانحرافات التي تُضِلُّ الناسَ، انحرافات في كلٍّ منها مذاهب فاسدة، ونِحَلٌ باطلة، وأقوالٌ كاذبة، هذه هي السُّبل، وصراطُ الله واحدٌ، والسُّبل كثيرة؛ لأن أهواءَ الناسِ وأقوالَهم كثيرةٌ، فإذا ما اتَّبع أحدٌ أقوالهم ضاع وضلَّ.

ومَن اتَّبع صراطَ الله اهتدىٰ دون أن يحصل عنده لبس؛ لأنه ليس عنده إلَّا طريق واحد، فمَن يسير في طريق واحد لابدَّ أنه سيستريح، ومَنْ أراد السَّير في طرق كثيرة، فإنه لا يدري في أي طريق يكون الصواب، وستلتبس عليه الطريق وبالتالي سيضيع بين هذه الطُّرق.

فمن رحمة الله وفضله علىٰ خلقه أنْ وحَّد لهم الطريق، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فمَن انحرف عن الصراط هلك في هذه السُّبل والطرق المليئة بالمقالات، والمذاهب والمتاهات؛ ولأجل تلاشي هذه الانحرافات -رحمةً بالخلق- جعل الله لهم القرآن والسُّنة، فإذا ما اشتبهت الأمور والمذاهب عليهم رجعوا إليهما؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

[النهي عن الأخذ من الكتب السابقة]

٨٢- وعن أبي هريرة ﵁ قال: «كان ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ يكتبون من التَّوراة، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: **إنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ، وأَضلَّ الضَّلالةِ قومٌ رَغِبوا عمَّا جاء به نَبيُّهم إلىٰ نبيٍّ غيرِ نَبيِّهم، وإلىٰ أُمَّةٍ غيرِ أُمَّتِهم**، ثم أنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١]». رواه الإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه(١)[٩٨].

---

[٩٨] **في هذا الحديث النَّهيُ عن أخذِ شيء من التوراة أو الإنجيل والكتب السابقة؛ لأنَّها نُسخت بالقرآن الكريم، والشيء إذا نُسخ فإنه لا يُعمل به، وإنما يُعمل بالناسخ، وهذه الشرائع إنما كانت لمَن قَبلنا وقد انتهت بشريعتنا.**

فشريعتنا هي الحاكمة، وهي المُهيمنة، ورسولنا ﷺ هو خاتم الرُّسل، وتجب طاعته علىٰ كلِّ مخلوقٍ من الجنِّ والإنس، ومن اليهود والنصارىٰ، ومن كلِّ أصحاب المِلَلِ والنِّحَل، فلا يجوز لأحد أن يقول مثلًا: أنا علىٰ شريعة موسىٰ، أو علىٰ دين المسيح، ولهذا قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسىٰ كان حيًّا ما وَسِعَه إلَّا أن يتَّبعَني»(٢). فكيف بغير موسىٰ؟!

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ =

---

(١) الإسماعيلي في «معجمه» (٣٨٤)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٢)، وعزاه للإسماعيلي، ولابن مردويه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﵁.

....

بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِي﴾ أي: عهدي ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. لقد أخذ الله تعالىٰ الميثاق علىٰ الرُّسل أنه إذا بُعث الرَّسول محمدﷺ أن يتَّبعوه، فإذا كان الرُّسل يجب عليهم اتِّباع نبيِّنا محمدﷺ، فكيف بغيرهم؟!

فهذا فيه ردٌّ علىٰ الذين يقولون الآن: إن اليهود علىٰ دين، والنصارىٰ علىٰ دين، والمسلمين علىٰ دين، وأن كلًّا من اليهود والنصارىٰ إنما يقصدون الوصول إلىٰ الله ﷻ، وأنَّ كلًّا من هذين الفريقين تابعٌ لرسولٍ من الرُّسل!

كيف يستقيم هذا مع أنه بعد بعثة الرسولﷺ لا أحدَ يُتبع إلا محمدًاﷺ؛ قال ﷺ: «**والذي نَفْسُ محمدٍ بيَدِه، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلَّا كان من أصحاب النَّارِ**»(١).

فبعدَ بعثة الرسول محمدﷺ لا ينبغي لدين أو مِلَّة أن تكون إلَّا ملَّة الإسلام، وتلك الشرائع السابقة قد انتهت ولا يجوز العمل بها بعد بعثتهﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ فالكتاب الذي هو القرآن كافٍ، فلا ينبغي الذهاب إلىٰ التوراة والإنجيل أو إلىٰ الزَّبور، كما لا يجوز الالتفات إلىٰ غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ قد انتهىٰ العملُ بها، فالذي أنزلها هو -جلَّ وعلا-، وهو الذي أنهىٰ العملَ بها، وأحال علىٰ القرآن، فلم يبق بعد بعثة النبيﷺ كتاب ولا دين إلَّا القرآن والإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٨٣- وعن عبد الله بن ثابت بن الحارثِ الأنصاري رضي الله عنه، قال: «دخل عمرُ رضي الله عنه على النبي ﷺ بكتابٍ فيه مواضعُ مِنَ التَّوراةِ، فقال: هذه أَصبْتُها مع رجلٍ من أهل الكتابِ أَعرضُها عليك، فتغيَّر وَجْهُ رسولِ الله ﷺ تَغيُّرًا شديدًا لم أرَ مثلَه قطُّ، فقال عبدُ الله بنُ الحارثِ لعمرَ رضي الله عنهما: أَمَا ترىٰ وَجْهَ رسولِ الله ﷺ؟! فقال عمرُ: رَضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وقال: **لو نَزل موسىٰ فاتَّبعتُموهُ وتَركتموني لضلَلْتُم، أنا حَظُّكم مِنَ النَّبيِّين، وأنتم حظِّي مِنَ الأُممِ**». رواه عبد الرزاق، وابن سعد، والحاكم في «الكنىٰ»[1] [٩٩].

=

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فأمَّا الذي لا يؤمن بحجَّة أن جميع الكتب السابقة صحيحة، وأنها كلَّها من عند الله، وأنَّ جميع الأديان باقية ولم تنسخ؛ فهو كافر وليس بمؤمن، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه المقالة التي يُردِّدونها الآن بأنه لا يجوز التحجُّر، وأن اليهود علىٰ حق والنصارىٰ كذلك، وأنهم أصحاب دين فلا مانع من التعاون والتآخي، ومن إقامة المؤتمرات والندوات لهذا الشأن؛ كلُّ هذا إنما هو من أجل أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، ولهذا ينبغي للمسلمين أن يتنبَّهوا لهذه المكيدة!

[٩٩] هذا الحديث فيه أنَّ رسول الله ﷺ استنكر علىٰ عمر رضي الله عنه لما رأىٰ معه شيئًا من الكتب السابقة، فظهر علىٰ وجهه ﷺ الاستنكار حتىٰ قيل لعمرَ أنه أخطأ وأغضب رسولَ الله ﷺ.

=

---

(١) عبد الرزاق في «المصنف» (٦/ ١١٣) (١٠١٦٤).

باب حقوق النبي ﷺ

وقولِ الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩]، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧] الآية[١٠٠].

فهذا فيه دليل أيضًا علىٰ أنه لا يجوز لنا العُدول عن القرآن إلىٰ الكتب السابقة؛ لأنها كتبٌ انتهت، والقرآن كافٍ وشاملٌ لِمَا فيها من الحقِّ، فلا يبقىٰ كتابان بأيدي المسلمين، وإنما هو كتاب واحد هو كتاب الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

[١٠٠] بعدما انتهىٰ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان التوحيد الذي هو رأس الإيمان، وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، وبيان أنَّ التوحيد هو حقُّ الله ﷻ علىٰ عباده، كما في حديث معاذ رضي الله عنه الذي فيه قوله ﷺ له: **«هل تدري ما حقُّ الله علىٰ عباده، وما حقُّ العباد علىٰ الله؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **فإنَّ حقَّ الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد علىٰ الله ألَّا يعذِّب مَنْ لا يُشرك به شيئًا»**. هذا هو حقُّ الله ﷻ علىٰ العباد أن يعبدوه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا ... بهوىٰ النُّفوسِ فذاك للشَّيطانِ

من غير إشراكٍ به شيئًا هما ... سَبَبا النَّجاةِ فحبَّذا السَّببانِ

لم يَنْجُ من غضب الإله وناره ... إلا الذي قامتْ به السَّبَبانِ

والناسُ بعدُ فمُشركٌ بإلهه ... أو ذو ابتداعٍ أو له الوصفانِ

هذا حقُّ الله ﷻ: عبادتُه بالأمر؛ يعني: بالشَّرع لا بهوىٰ النُّفوس كالبِدَع والمُحدَثات؛ لأنها كلَّها للشيطان، وإن كان صاحبُها يظنُّ أنه يتقرَّب بها إلىٰ الله؛ ولكن الله -جلَّ وعلا- لا يرضىٰ إلَّا بما شَرع؛ ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله:

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر لا ... بهوىٰ النُّفوسِ فذاك للشَّيطانِ

فلابدَّ من البراءة من الشِّرك، فلا تكفي عبادة الله وحدها؛ لأن المشركين يعبدون الله؛ ولكنهم يعبدون معه غيره، فعبادتهم لله باطلة؛ لأنهم لم يتركوا الشِّرك، فهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «ومن غير إشراكٍ به شيئًا» وقوله: «هما» أي: الإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ، ثم ذكر أنَّ الناس بعد ذلك منقسمون، فمنهم المشرك ومنهم المُبتَدع غير المشرك، ومنهم مَنْ جَمعَ الوصفين: الشرك والبدعة؛ ولهذا قال:

والنَّاسُ بعدُ فمُشركٌ بإلهِهِ ... أو ذو ابتدَاعٍ أَو لَهُ الوصفَانِ

فلم يَنجُ من الناس إلَّا من جمع بين الإخلاص وبين المتابعة للرَّسول ﷺ، وأمَّا بقيَّة الناس فلم يخرجوا عن بقية هذه الأقسام الثلاثة: إما مشركون، وإما مبتدعة، وإمَّا جامعون بين الوصفين: الشرك والابتداع في الدِّين، فينبغي التنبُّه لهذا، فهذا هو حقُّ الله ﷻ، وهو الحقُّ الأول.

والحقُّ الثاني: هو حقُّ الرَّسولﷺ، لكنه بعد حقِّ الله -جلَّ وعلا-، فلا يُخلط حقُّ الرَّسول مع حقِّ الله تعالىٰ، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

للَّـــه حـــقٌّ لا يكـــون لغيـــره ... ولعَـــبدِه حـــقٌّ همـــا حقَّـــانِ

لا تجعلـوا الحقَّـين حقًّـا واحـدًا ... مـــن غيـــر تمييـــز ولا فُـــرقانِ

فالله -جلَّ وعلا- له حقٌّ علىٰ حِدَة، والرَّسولﷺ له حقٌّ علىٰ حِدَة، فلا ينبغي خلطُ الحقَّين وجعلهما حقًّا واحدًا، فالرَّسولﷺ ليس له من العبادة شيء، وعليه فيجب معرفة ما هو حقُّ الرَّسولﷺ، من أجل عدم الخلط بين حقِّهﷺ وبين حقِّ الله تعالىٰ الذي سبق ذكره فيما سلف، وأما الرَّسولﷺ فله عدَّة حقوق ومن أهمها:

أولًا: الإيمان بهﷺ وبرسالته.

ثانيًا: محبَّتهﷺ أكثر من محبَّة النفس والمال والوالد والولد والناس أجمعين؛ لأنه هو الذي أنقذ الله به الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهو الذي هدىٰ الله به الخلق إلىٰ الإسلام، فتجب محبَّته أكثر من محبَّة المرءِ لنفسه وولده ووالديه كما سيأتي في الحديث.

ثالثًا: طاعتهﷺ، فمَن آمن به وأحبَّه، فإنه لابدَّ وأن يُطيعه فيما أمر، وفيما نهىٰ عنه فيجتنبه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]. فالطاعة والمتابعة لهﷺ من جملة حقوقه علىٰ الناس، وإلَّا فما فائدة الإيمان به، ومحبَّته إذا لم يُطَعﷺ ويُتَّبع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠].

فمهمَّة الرسولﷺ هي البلاغ، وأمَّا الهداية فهي بيد الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فيجب معرفة أن الهداية إنما هي بيد الله تعالىٰ، وليست بيد الرَّسولﷺ الذي لا يملك إلَّا البلاغ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ: ٤٨].

وأما هداية القلوب، فهي بيد الله ﷻ، وليست بيد الرسولﷺ، نقول هذا؛ لأنَّ بعض الناس يَغْلُو في حقِّ الرسولﷺ، ويجعله في مرتبة الألوهيَّة، وبينما البعض الآخر يَجفُو في حقِّ الرَّسولﷺ فلا يُطيعه في كثير من الأمور، وإنما يتَّبع نفسَه وهواه، فما وافق هواه فيما جاء به الرَّسولﷺ أخذه، وما خالف هواه راوغ لأجل التخلُّص منه.

وهذه طريقة أصحاب الأهواء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالرسولﷺ ويُحبُّونه، ولكنهم لا يتركون البِدَع والمُحدثات التي نهىٰ عنها الرَّسول ﷺ متناسين أو متجاهلين أن من حقِّهﷺ عليهم اجتناب ما نهىٰ عنه، واتِّباع ما أمر به، ومتجاهلين قولهﷺ: **«إيَّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة»**[1].

فالذين يُزاولون البدع قد نَقَصوا حقَّ الرَّسولﷺ، وإن كانوا يزعمون أنهم يُحبُّونه، فالمحبَّة تقتضي الاتِّباع؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تَعـصي الإلـهَ وأنـتَ تَـزعمُ حـبَّه   هـذا لعمـري فـي القيـاس شـنيعُ
لـو كـان حـبُّكَ صـادقًا لأَطعـتَه   إنَّ المُحـبَّ لمَـن يُحـبُّ مطـيعُ

فالاتِّباع من علامة محبَّة الله ورسوله، والمحبَّة الصادقة لا تكون مجرَّدة عن العمل الذي يعني اتِّباع ما أَمَرا به ونَهَيا عنه!

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

ذكر الله في هذه الآية ثلاثة حقوق:

١- حقّ الله -جلَّ وعلا-.

٢- حقّ الرسول ﷺ.

٣- حق ولاة أمور المسلمين.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سنَّته؛ وأما القرآن فهو كلام الله ﷻ، فطاعة ما جاء في القرآن طاعةٌ لله ﷻ، والسُّنة هي كلام الرسول ﷺ فطاعة ما جاءت به السُّنة الشريفة هي طاعةٌ للرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، و«من» التي في ﴿مِنكُمۡ﴾ تبعيضية، فيجب طاعة وليّ الأمر المسلم؛ لأن معنىٰ: ﴿مِنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، وأمَّا إذا كفر أو ارتدَّ فإنه لا يُطاع؛ ولكنه ما دام مسلمًا ولم يخرج من الإسلام؛ فتجب طاعتُه وإن عصىٰ وخالف، ما دامت مخالفته لم تصل إلىٰ حدِّ الكفر المخرج من الملة فإنه تَجبُ طاعتُه، وإن جارَ وإن ظلم وإن فجر فجورًا دون الكفر؛ لِمَا في طاعتهم من المصلحة واجتماع الكلمة، وحقن الدِّماء والمصالح الكثيرة التي من بينها دَفْع الظَّلَمةِ ونُصرة المظلومين.

....

=

إلَّا أن طاعة وُلاةِ الأمور مقيَّدة، وأمَّا طاعة الله تعالىٰ وطاعة الرسول ﷺ فهي طاعةٌ مطلقة؛ لأنَّ الله لا يأمر إلا بما هو حقٌّ؛ وكذلك الرسول ﷺ.

وأما وُلاة الأمور فإنهم قد يأمرون بمعصية فهم ليسوا بمعصومين؛ ولهذا قال ﷺ: «**إنما الطاعةُ في المعروف**»(١).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق**»(٢)، فإذا أمر الولاة بمعصية فلا طاعة لهم في هذا، ولكن ليس معنىٰ هذا أن تنعزل ولايتُهم، وإنما تبقىٰ؛ ولكن لا يُطاعون فيما أمروا من المعاصي، وإنما يُطاعون فيما لم يخالف كتابَ الله وسُنة رسوله ﷺ؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾.

قال المفسِّرون: المراد بهم الأمراءُ، **وقال آخرون**: المراد بهم العلماء.

والصواب: أن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ يشمل الأمراء والعلماء، فهؤلاء بسلطتهم، وهؤلاء بعلمهم، فالعلماء من وُلاة الأمور؛ لأنهم يتكلمون عن الله تعالىٰ وعن رسوله ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[النور: ٥٦]. فهو سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: صلُّوا؛ لأنه ليس المقصود صورة الصَّلاة، وإنما المقصود إقامة الصَّلاة؛ أي: أن تكون الصلاة قائمة، بمعنىٰ أنها صلاة موافقة للشرع تؤدَّىٰ في وقتها مع جماعة المسلمين، وبطهارة وخشوع كاملين وحضور بين يَدَي الله ﷻ، هذا المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إقامتها علىٰ الوجه المشروع من إكمال شروطها وأركانها وواجباتها =

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٥) من حديث علي رضي الله عنه.

....

=

ومتمِّماتها من السُّنن والمستحبَّات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزكاة قرينة الصَّلاة في كثير من الآيات، فالصَّلاة حقٌّ لله، والزَّكاة حقٌّ للفقراء والمساكين، قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات:١٩]. فهي حقٌّ للمساكين والفقراء والمصارف التي بيَّنها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النور: ٥٦]، وهذا الأمر الثالث، جاء بعد الأمر بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ وطاعته ﷺ تكون فيما أمر به، وفيما نهىٰ عنه، فلا يكفي أن يُقيمَ المسلم الصَّلاةَ وأن يؤتي الزَّكاة؛ بل لابدَّ له من طاعة الرَّسول ﷺ فيما أمر فيُفعل، وفيما نهىٰ عنه فيُجتَنب، ثم قال تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ لأنَّ الالتزام بهذه الأوامر الثلاثة يسبِّب الرحمة من الله تعالىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. هذا فيه ذكر حقِّ الله تعالىٰ، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه ذكر حقِّ الخَلْق من الفقراء والمساكين من المسلمين، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه ذكر حقِّ الرسول ﷺ، وهو الشاهد في هذه الآية.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]. فالمراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: من الأوامر، ومن الأموال أيضًا؛ لأن سبب نزول الآية كان في الفَيء، فما آتاكم الرسول ﷺ من المال فخذوه، وقوله: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ عن المعاصي والمخالفات.

فسبب نزول الآية في الفيء؛ ولكن لفظها عامٌّ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب؛ هكذا الأصل عند العلماء، أي: فما آتاكم الرَّسول ﷺ من الأموال ومن الأوامر فاقبلوه، وما نهاكم عنه من المخالفات فيجب عليكم اجتنابه. =

[الحثُّ على قتال المشركين حتى يكون الدين كلُّه لله]

٨٤- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فَعلُوا ذلك، عَصَمُوا مِنِّي دماءَهُم، وأموالَهُم، إلا بحَقِّها، وحسابهم علىٰ الله ﷻ » رواه مسلم[(1)][١٠١].

=

وفي هذه الآية إثبات العمل بالسُّنة النبوية، وفيها ردٌّ علىٰ القائلين بأنه لا ينبغي الأخذ إلا بالقرآن الكريم، والله -جلَّ وعلا- ردَّ عليهم بهذه الآية، بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ والسُّنة مما آتانا الرسول ﷺ.

فهذه الآية تعتبر أصلًا لكلِّ ما جاءت به السنة مما لم يَرِد له ذكرٌ في القرآن الكريم، وعلىٰ هذا الدَّرب والطريق الواضح مَنْ جاء بعد الصحابة من أئمة العلم والدين.

[١٠١] قوله ﷺ: **«أُمرتُ»** الذي أمره ﷺ هو الله -جلَّ وعلا-: **«أن أقاتل الناسَ حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله»** هذا فيه وجوب قتال المشركين حتىٰ يكون الدِّين كلُّه لله، ولا يبقىٰ شرك، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]. فقتال المشركين إنما هو لأجل شركهم وإزالته؛ لأن الخَلْق خُلقوا لعبادة الله -جلَّ وعلا-، فإذا عبدوا غيرَه وجب قتالهم بأمر الله -جلَّ وعلا-، فهو سبحانه لم يخلقهم ليعبدوا غيرَه؛ بل خلقهم ليعبدوه، فإذا خالفوا وعبدوا غيرَه فإنهم يُقاتَلون، ولا ينبغي تركُهم ينشرون الشِّرك في الأرض ويجبرون الناس عليه.

=

(١) برقم (٢١).

....

=

وفي الحديث ردٌّ علىٰ القائلين: إن الإسلام دينُ مسالَمةٍ وسلام وتسامح، وليس دينَ قتالٍ إلَّا في حَقِّ مَنِ اعتدىٰ علىٰ المسلمين، فإنه يُقاتَل مِنْ باب الدِّفاع! هذا كلام باطل؛ بل يجب قتالُ المشركين؛ لأجل شركهم وإزالتِه، وقَمْعِ المشركين، حتىٰ يكون الدِّين كلُّه لله، إذا كان عند المسلمين قوَّة واستطاعة، فلا ينبغي لهم أن يتركوا الجهاد؛ لأنه واجبٌ وفرض من فروض الإسلام.

وأما الدفاع، فكلُّ الخلق يدافعون عن أنفسهم، حتىٰ البهائم تدافع عن نفسها، فكلُّ مَنِ اعتُدي عليه، يُدافع عن نفسه، فهذا لا يحتاج إلىٰ أمر من الخالق -جلَّ وعلا-؛ لأنه أمرٌ فطريٌّ وغير خاصٍّ بالمسلمين، ولا بغيرهم، فلا يحتاج إلىٰ نزول آية، أو أمرٍ إلىٰ الرسول ﷺ وإلىٰ المؤمنين.

لكن الكلام هنا في هذا الحديث، إنما هو عن جهاد الكفار؛ لنشر الإسلام، وإزالة الشِّرك، وهذا من أعظم فرائض الإسلام، وقد جعله النبيُّ ﷺ ذِرْوَة سَنَام الإسلام[1]، فلا ينبغي الالتفات إلىٰ مقالة مَن يُهَوِّنون أمر الجهاد؛ لإرضاء الكفار بالقول لهم: إنما نحن إخوة في الإنسانية، ودينُنا دينُ مسالَمةٍ مع غير المسلمين، وليس في ديننا أن نُقاتلَ مَنْ هم علىٰ غَير ملَّتنا، ونحو ذلك من المقالات التي لم يأمرهم الله بها، فكل هذا الكلام وشِبهُه من باب تعطيل الجهاد الذي أمر الله به نبيَّه ﷺ والمسلمين، وهو جَحْدٌ لرُكنٍ من أركان الإسلام؛ لأن بعض العلماء عَدَّ الجهاد ركنًا من أركان الإسلام، فجعله الرُّكن السادس من أركان الإسلام. =

---

(١) انظر في هذا ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

....

=

وقوله ﷺ: «**حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله**» لم يقل ﷺ: حتىٰ يَكُفُّوا أذاهم؛ ليصبح الأمر مجرَّد دفاع عن النفس، وإنما قال ﷺ: «**حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلَّا الله**». فالغاية التي ينتهي عندها قتال الناس هي عند شهادتهم أن لا إله إلا الله.

وقوله ﷺ: «**ويؤمنوا بي**» يعني: يشهدوا أنَّ محمدًا رسولُ الله، فإذا أتوا بالشهادتين وَجَب الكفُّ عنهم، حتىٰ يتبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، فإذا تبيَّن فإنهم يُعتبرون مرتدِّين، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ كفَفْنَا عنهم، ووَكَلْنا سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ.

ولهذا لما لحق أسامة بن زيد مشركًا بالسيف، وأدركه وأراد قَتْلَه شهد الرجل أن لا إله إلا الله، فقتله أُسامةُ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ، أنكر علىٰ أسامة إنكارًا شديدًا، وقال: «**أَقَتَلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!** فقال أسامةُ: إنما قالها خوفًا من السِّلاح. فقال ﷺ: **أفلا شققتَ عن قلبه، حتىٰ تعلمَ أقالَها أم لا**»[1].

وفي رواية قال له ﷺ: «**فكيف تصنعُ بـ: (لا إله إلا الله) إذا جاءتْ يومَ القيامة؟**»[2].

وقوله ﷺ: «**فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها**». فقوله: «**إلا بحقها**» يعني: إلَّا إذا تبيَّن منهم ما يُناقض الشهادتين، كأنْ يجحدوا الزَّكاة، أو يُنكروا وجوبَ الصلاة، ولهذا لما امتنع طوائف من العرب عن دفع الزَّكاة بعد وفاة النبي ﷺ قاتلَهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: «والله، لأقاتلن مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال».

=

---

(١) انظر: البخاري (٤٢٦٩)، ومسلمًا (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجها مسلم (٩٧).

....

=

قال ﷺ ذلك بعدما قال له عمر ﷺ: «كيف تُقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: **«أُمرتُ أن أقاتلِ الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلَّا الله، فمن قالها عصم مني ماله ونفسَه إلَّا بحقِّه وحسابُه علىٰ الله؟** فقال ﷺ: إن الزَّكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدُّونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ مَنْعِها، فقال عمر ﷺ: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر ﷺ، فعرفت أنه الحقُّ»(١).

فكان في ذلك الخيرُ والمصلحةُ للإسلام والمسلمين؛ لأنه ﷺ لو تركهم علىٰ ما هم عليه لحصل في الإسلام نقصٌ كبير، ولتركت كل طائفة من الناس ركنًا من أركان الإسلام، فالحزم كان شيمة أبي بكر الصديق ﷺ في هذا الأمر الخطير، مستدلًّا بهذه الكلمة النبوية العظيمة **«إلا بحقِّها»** أي: حق لا إله إلا الله، والصلاة من حق لا إله إلا الله، وكذا الزكاة والصيام والحج. فليست «لا إله إلا الله» مجرَّد لفظ.

والتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة هو صميم لا إله إلا الله، فمَن كان يقولها وهو يشرك بالله فإنها لا تنفعه، ولا يُعصم دمُه ولا مالُه؛ بل يُقاتل ولو كان يقولها؛ لأن هذا من التناقض، فكيف يقولها ويدعو غير الله، كأن يقول مثلًا: يا علي، يا حسين، يا بدوي، فكلُّ هذا ونحوه من الشِّرك؛ لأنه قال: (لا إله إلا الله) ولم يعمل بمقتضاها، فيجب التفقُّه في مثل هذه الأمور والتنبُّه لها، فكل هذه الأمور ونحوها إنما هي من الشُّبهات التي يُوردها أهلُ الضلال، ولابُدَّ من الرَّدِّ عليها بكلام الرسول ﷺ.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: **«ويؤمنوا بي، وبما جئت به»** فهذا هو حقُّ الرسول ﷺ، وهو الإيمان به، وبما جاء به وتصديقه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤ و ٦٩٢٥)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[ذكر الخصال التي فيها حلاوة الإيمان]

٨٥- ولهما(١)، عن أنسٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُن فيه، وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أَنْ يَكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهُما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأَنْ يَكره أَنْ يعُودَ في الكفرِ بَعد إذ أنقذَه الله منه، كما يَكره أن يُقْذَف في النارِ»[١٠٢].

---

[١٠٢] في هذا الحديث ذُكِرت ثلاثُ خصال؛ مَنْ كانت فيه هذه الثلاث وَجد بهن حلاوة الإيمان، كما أخبر ﷺ، ويُفهم من هذا أنَّ الإيمان له طعم وموصوف بالحلاوة، فقد يكون المرء مسلمًا؛ ولكنه لا يجد طعم حلاوة الإيمان، ولا توجد حلاوة الإيمان إلا لمَنْ تلذَّذ بالعبادات وأحبَّها، وكَرِه المعاصي وأبغضها، كما يَكره أن يُقذف في النار.

فمَنْ كانت فيه هذه الصفات؛ وجد طعم حلاوة الإيمان، وقد بيَّنها ووضَّحها ﷺ فقال: «**أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهما**» يعني: مِنَ النفس، ومن الوالد والولد والأقارب والناس أجمعين، فلا يقدِّم علىٰ محبَّة الله -جلَّ وعلا-، ومحبَّة رسوله ﷺ شيئًا أبدًا، وإذا تعارض شيءٌ مع محبَّة الله تعالىٰ، ومحبَّة الرَّسولِ ﷺ فإنه يترك ويتخلَّىٰ عن هذا الشيء، فيترك الوطنَ والمال والولد والوالد أو أيَّ شيء آخر من أجل محبَّة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى =

---

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

....

سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]. فتقديم ما يحبُّه الله ورسوله على ما تُحبُّه النفس إنما هو علامة محبَّة الله ورسوله، وأمَّا إن كان العكس وذلك بتقديم ما تحبُّه النفس على ما يحبُّه الله ورسوله كان ذلك علامة من علامات الفسق.

وفي الحديث بيان أنه ينبغي أن تكون محبَّة الله تعالى أولًا وقبل كل شيء، وبعدها محبَّة الرسول ﷺ، لأن كثيرًا من المبتدعة لا يلهجون إلا بمحبة الرسول ﷺ؛ ولا يذكرون محبَّة الله تعالى، ولا تأتي لهم على لسان، مع أنَّ الأصل في هذا هو محبَّة الله تعالى، وفي الدرجة الثانية محبَّة الرسول ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**» فقدَّم الله تعالى أولًا ثم ذكر نفسه ﷺ.

وقوله ﷺ: «**وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله**» أي: بعد أن يكون الله تعالى ورسوله ﷺ أحبَّ إليه من كل شيء، ينبغي للمرءِ المسلم أن يُحبَّ ما يحبُّه الله تعالى من الأشخاص، وأن يترك ما يَكرهه الله تعالى من الأشخاص، فيُحبُّ ما يُحبُّه ويُبغض ما يبغضه الله تعالى؛ لأن هذا من علامة صدق محبَّة الله تعالى ومحبَّة رسوله ﷺ.

وقوله ﷺ: «**وأن يَكره أن يعود في الكفر ...**» إلخ. لأنَّ الله يكره الكفرَ والشِّركَ والمعاصي، فلا يجد المرء طعم الإيمان، إلا بعد أن يبغض هذه الأشياء، ولا يكفي منه أن يتجنَّبها فقط؛ بل لابدَّ أن يبغضها بقلبه؛ لأن بُغضَ هذه الأشياء لا يكون إلَّا عند مَنْ وَجد حلاوة الإيمان.

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**». وهذا فيه محبَّة الرسول ﷺ، وأنها تأتي بعد محبة الله تعالى مباشرة، وأنها مقدَّمة على كلِّ شيء.

٨٦- ولهما(١)، عنه مرفوعًا: «لا يُؤمن أحدُكم حتىٰ أَكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ: وَلدِه، ووالده، والناس أجمعين»[١٠٣].

---

[١٠٣] وهذا فيه أنَّ الإيمان لا يتحقَّق إلا إذا كان الرسولﷺ أحبَّ إلىٰ المرء المسلم من ولدِه، وأحبَّ إليه من والدِه ومِن جميع الناس، فإذا كان المرءُ كذلك فإنه يكون قد قدَّم علامةً علىٰ صدق محبَّته للرسولﷺ أكثرَ من محبَّته لوَلِده ووالدِه والناس أجمعين، هذه هي العلامة، ومنها تقديم ما أمر الله به الرَّسولﷺ وما نهىٰ عنه علىٰ ما يُمكن أن يأمر به الوالد والولد، أو ما يمكن أن يأمر به الناس، فيترك جميع ما يمكن أن يأمروا به، ويأخذ ما نهىٰ عنه الرسولﷺ، هذه علامة محبَّة الرسولﷺ، كما يُفهم ذلك من الحديث.

---

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

[الرد على من اكتفى بالقرآن دون السُّنة]

٨٧- وعنِ المقدامِ بن معديكربَ الكنديِّ ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «يُوشكُ الرجلُ متكئًا علىٰ أَريكَتِهِ يحدِّث بحَديثٍ من حديثي، فيقولُ: بَينَنا وبَينكُم كتاب الله ﷻ، فما وَجدنا فيه من حلال؛ استَحلَلْناه، وما وَجدْنا فيه من حرام حرَّمْناه! أَلا وإنَّ ما حرَّم رسولُ الله ﷺ مثلُ ما حرَّم الله» رواه الترمذي، وابن ماجه[1] [١٠٤].

---

[١٠٤] وهذا الحديث من معجزاته ﷺ حيث أخبر عن شيء سيحصل، وحصل كما أخبر به ﷺ أنه يأتي أناسٌ مُتْرَفون علىٰ أرائكهم لا يَجِدُّون في طلب العلم، وإذا ما ذُكر لهم حديثٌ عن الرَّسول ﷺ أخبر بأنه لا يعمل إلا بما في القرآن الكريم، فما كان فيه من حلال أو حرام أخذ به.

وأما أحاديث الرَّسول ﷺ فهي محلُّ شكٍّ عندهم من حيث أسانيدُها ورُواتُها ومتونُها، فهؤلاء لا يقبلون إلا ما جاء في القرآن الكريم، بحجَّة أنه متواتر، وأما السُّنة فأكثرها آحاد، وليست متواترة فيتركونها!! فهؤلاء ونحوهم يُسمَّون بالقرآنيِّين الذين يدَّعون العمل بالقرآن فقط، وهي فرقة معروفة في الهند وفي غيرها، ومثلهم الخوارج الذين يُنكرون السُّنة، ويدَّعون بأنهم لا يعملون إلا بما جاء في القرآن الكريم؛ لأنهم جهَّال بالسُّنة، ولهذا يُشكِّكون في أسانيد الأحاديث المتضمنة للسنة، فيطعنون في رُواتها وحفاظها.

ومِنْ هؤلاء مَنْ لا يُنكر جميعَ السُّنة وإنما يُنكر الآحاد من الأحاديث، ولا يقبل إلا المتواتر منها، بحجَّة أن الأحاديث الآحاد ظَنِّية، والمتواتر هو الذي يفيد العلم، =

---

(١) الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢).

....

=

والآحاد عندهم يُعمل به في مسائل الفقه، وأما في العقائد فلا يعملون بخبر الآحاد؛ بحجة إفادته للظنِّ والعقائد لا تُبنىٰ -بزعمهم- إلَّا علىٰ العلم، هكذا يقولون!! وهذا ما عليه المعتزلة، وما يسمَّىٰ في زماننا بالعقلانيين؛ ولذلك فهم يُنكرون صفات الله وأشياء كثيرة في العقيدة بحُجَّة أنها ما جاءت إلا برواية الآحاد!!

ونحن نقول: إن ما صح عن الرسول ﷺ سواء كان متواترًا أو كان آحادًا فهو يفيد العلم واليقين ويجب العمل به، والرَّسول ﷺ لم يكن يُرسل جماعات إلىٰ الأقطار، وإنما كان يرسل أفرادًا ويعمل وُلاته ﷺ وأمراؤه بخبر الرسول الذي أرسله الرسولُ مع واحد ﷺ، فبلَّغ عنه ﷺ ولم يكن يرفض أمراؤه هذا بحُجَّة أنه ﷺ لم يُرسل إليهم جماعة ليشهدوا أن الرسول ﷺ قال ما جاء به رُسُله وهم فُرادىٰ.

والصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون العصر إلىٰ بيت المقدس، لبقائهم علىٰ الأصل ولما نُسخت القِبْلة وحوِّلت صلىٰ الرسولُ ﷺ العصرَ في مسجده إلىٰ الكعبة، فخرج رجلٌ واحد من عنده ﷺ وأتىٰ إلىٰ أُناسٍ يصلُّون إلىٰ بيتِ المقدس صلاة العصر، فقال: إنَّ القبلة قد حوِّلت إلىٰ الكعبة؛ فاستداروا أمامهم نحو الكعبة[1]؛ فلم يقولوا: هذا خبرُ آحاد فلا نعمل به، ولذلك فإنه ما دام الخبر صحيحًا فلا مجال للتشكيك فيه، وإن كان خبرَ آحادٍ.

ثم إن القرآن الكريم يتضمن مُجملات لا يُفصِّلها إلا السُّنة النبوية، فنرىٰ أن القرآن الكريم قد أمر بالصلاة في كثير من الآيات؛ ولكنه لم يذكر منها عدد ركعاتِ أيِّ صلاة منها، في حين نجد هذا مذكورًا ومفصَّلًا في السُّنة النبوية، فسُنَّته ﷺ مُبيِّنة لِمَا =

---

(١) انظر: البخاري (٤٠ و٣٩٩)، ومسلمًا (٥٢٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

جاء مجملًا في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. فالسنة النبوية الشريفة مبيِّنة للقرآن، ومُقيِّدة لمُطلَقِه وهي دليل عليه ومفسِّرة له.

ومن ذلك أنَّ الله تعالىٰ ذكر في كتابه فَرضيَّة الزكاة؛ ولكننا لا نجد في القرآن الكريم -علىٰ كثرة الآيات التي تناولت هذه الفريضة- الأموال التي تجب فيها هذه الزكاة، فلم يُذكر في القرآن زكاة الإبل، والبقر، والغنم، أو زكاة الخارج من الأرض، ولا زكاة عروض التجارة.

فلا نجد في القرآن إلَّا الأمر بإيتاء الزكاة، ولا نجد فيه ذِكْر النِّصاب، لا نصاب الإبل والبقر ولا الذَّهب ولا الفضة، ولا غير ذلك مما نراه مبيَّنًا ومفصلًا في السُّنة النبوية الشريفة.

ففي قوله تعالىٰ مثلًا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. لم يُذكر في الآية أيُّ يد تُقطع؛ ولكن جاءت السُّنَّة الشَّريفة؛ فبيَّنت أنَّ اليد اليمنىٰ هي التي تُقطع؛ وبيَّنت كذلك حدَّ اليد التي تقطع، فبيَّنت أن الذي يُقطع من اليد هو من بداية مفصل الكَفِّ، ويُترك الذراع والعَضُد.

فلو اقتصرنا علىٰ ما جاء في القرآن؛ لبقيت الأحكام معطَّلة؛ لأنه لا يوجد ما يُفسِّرها، ولا ما يُوضِّحها ويُبيِّنها، كما هو موجود في السنة النبوية، سواء كانت متواترة أو آحادًا؛ إذ المتواتر من الأحاديث قليل قياسًا لمجموع السُّنة النبوية الشريفة التي أغلبها من الأحاديث الآحاد، فلو تركنا الآحاد لَما بَقي شيء يُذكر منها.

ولكن هؤلاء حالُهم كما جاء في الحديث جهلة خاملون لا يطلبون العلم من مظانِّه، ولا يتكلف أحدهم دراسة الأسانيد، وإنما هو متكئ علىٰ أريكته كما وصفه رسول اللهﷺ، وهذا كلُّه نتيجة البقاء علىٰ الجهل، وعدم السَّعي للتعلم.

وفي هذا خطر عظيم يُخشىٰ علىٰ الأمة منه، ومن هذه المقالات الفاسدة، والعلم لا يؤخذ من كل مَنِ ادَّعاه وإنما يؤخذ من العلماء الراسخين المعروفين الذين تلقَّوه عمَّن قبلهم، وإلَّا سنقع فيما أخبر عنه الرَّسولﷺ.

ففي الحديث الدَّعوة إلىٰ وجوب العمل بالسُّنة والتَّصديق بها، وأنَّ هذا من حقِّ الرسولﷺ علينا، وعدم الاكتفاء بما جاء في كتاب الله تعالىٰ الذي يدعو أصلًا إلىٰ أخذ ما جاء به الرسولﷺ، وإلا فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟! أوليس في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؟!

أوليس في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]؟!

والسنة النبوية وحيٌ من الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. ولهذا فإنَّ العلماء يُسمُّونها الوحي الثاني، والقرآن هو الوحي الأول.

باب تَحريضه ﷺ على لزوم السنة والترغيب في ذلك، وترك البدعِ، والتفرُّق والاختلاف، والتحذير من ذلك

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣] الآية [١٠٥].

---

[١٠٥] قوله: «باب تحريضه ﷺ علىٰ لزوم السُّنة» التحريض، معناه: الحثُّ علىٰ «لزوم السُّنة» أي: التمسُّك بطريقة النبي ﷺ، فالسُّنة يُراد بها الطريقة؛ أي: طريقة النبي ﷺ، ويُراد بها: ما ثبت عنه ﷺ من: أقوال، وأفعال، وتقريرات.

فمعنىٰ «لزوم السُّنة»؛ أي: التمسك بها؛ لأنها هي ضمان النجاة يوم القيامة، فمن ترك السُّنة هلك، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أي: قدوة حسنة.

وقال ﷺ: «**عليكم بسُنتي، وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديين**»[١].

وقال أيضًا ﷺ: «**إنِّي تاركٌ فيكم ما إن تَمسَّكتم به، لن تضلُّوا بعدي، كتاب الله وسُنَّتي**»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٤٢)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ و٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٤٥)(١٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

=

والمراد بكتاب الله: القرآن، والمراد بالسُّنة: ما كان عليه ﷺ من الطريقة، والأقوال، والأفعال، والتقريرات الواردة عنه ﷺ؛ لأن السنة تفسر القرآن، وتوضِّحه، وتدلُّ عليه، وهي الوحي الثاني، وهي الحكمة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فلا نجاةَ إلا بالتمسُّك بسُنة الرسول ﷺ، ولا شكَّ أن أصل سُنة الرسول هو التمسك بالقرآن الكريم؛ فقوله: «والسنة» أي: القرآن؛ لأن القرآن الكريم هو الأصل، فلا نجاة إلا بالتمسُّك بالسنة في كل وقت، وفي كل زمان.

فمَن حَادَ عن السنة وأخذ بغيرها؛ هلك، ومن أخذ بها وسار عليها؛ نجا، سواء كانت السنة في العقيدة، أو في العبادات، أو في المعاملات، أو في الآداب والأخلاق، فالسُّنة عامة وأوْلىٰ ذلك في العقيدة التي دعا إليها الرسول ﷺ، فقد كان أول ما دعا إليه النبي ﷺ كغيره من الأنبياء هو التوحيد، وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك يأتي العمل فيما دعوا إليه -عليهم الصلاة والسلام-.

وقوله: «وتَرْك البدعِ» فقد نهىٰ ﷺ عن المُحدَثات، والبدع؛ لأنها مخالفة للسُّنة النبوية الشريفة.

والبِدع -جمع بدعة-، وهي: كلُّ ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه. ويشمل البدعة في الاعتقاد، والبدعةَ في العبادة، وفي الأعمال.

قال ﷺ: **«مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

=

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعةٌ»(١).

فالواجبُ: أن تُعرض أقوالُ الناس والعلماء وأفعالهم وعباداتهم واجتهاداتهم علىٰ سنة الرسول ﷺ، فما وافق السنة فإنه يؤخذ به، وما خالفها فإنه يُترك ولا يعمل به، وإن استحسنه مَنِ استحسنه، واعتبره زيادة خير أو عبادةً، والحقيقة أن ما خالف السُّنة إنما هو شرٌّ وليس بخير؛ لأنه يُبعد عن الله ﷻ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. في هذه دليلٌ علىٰ وجوب التزام السُّنة النبوية، والاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

والأسوة: هي القدوة؛ والتأسِّي، معناه: الاقتداء، فالقدوة هو الرسول ﷺ، ومَنْ عداه فإنما يُقتدىٰ به، إذا وافق سُنَّته ﷺ، وأمَّا مَنْ خالفها فهو ليس قدوة؛ بل هو قدوة سيِّئة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. لقد ساق المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؛ لأنه جاء في ترجمة الباب النهي عن التفرُّق والاختلاف؛ والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ والدين واحد وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وما خالفه فليس بدين، وإن زعم أصحابه أنه من الدِّين، =

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

....

والتفرُّق يُحدث الشِّقاق والبغضاء وكثرةَ الأهواء، وقد يُحدثُ القتال وسفك الدماء، وقد يُخِلُّ بالأمن، فلابُدَّ من الاتِّفاق علىٰ ما جاء به الرَّسولﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فقد ذكر الله تعالىٰ عن أهل الكتاب أنهم لما تفرَّقوا هلكوا، فالتفرُّق لا خير فيه.

ومن المعلوم أن الناس يختلفون في الاجتهاد والآراء والفقه؛ ولكن الواجب عرض أقوالهم واجتهاداتهم وآرائهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ؛ ليجتمع المتفرِّقون؛ قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلىٰ كتاب الله، ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ في حياته -عليه الصلاة والسلام- يُردُّ إليه، وبعد موته إلىٰ سنته ﷺ؛ فالخلاف يُحسَم، والنزاع يُنهىٰ وذلك بالرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ.

وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يختلفون في بعض الأمور، ولكنهم كانوا يردُّون خلافهم إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ثم يتفقون، وهكذا كان مَنْ بَعدهم من أهل الإيمان والصِّدق، فقد كانوا إذا اختلفوا ردُّوا خلافهم إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ، فلم يكن أحدهم يتعصَّب لرأيه؛ لأن هذا لم يكن من شأنهم -رحمهم الله تعالىٰ-.

=

وقوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أي: شرع الله لكم ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو أول الرُّسل ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ هؤلاء خمسة رسل، وهم أُولو العزم الوارد ذكرهم في آية أخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل علىٰ القول المشهور ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ ودين الرُّسل واحد؛ لكن ذكر هؤلاء الرسل؛ لأنهم أولو العزم، وإلا فدينُ الرسل والأنبياء جميعهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم بحسب المصلحة، والحكمة التي يعلمها الله تعالىٰ؛ ولكن عبادة الله هي عبادته في كل وقت بما شرع، فإذا نُسخ فالعمل علىٰ الناسخ، ويُترك المنسوخ، والله -جلَّ وعلا- يشرع لكل أمة ما يُناسبها، ثم ينسخه بشريعة أخرىٰ تناسب الجيل الذي بعده.

وهكذا إلىٰ أن جاء محمد ﷺ فنسخ الله به الشرائع السابقة، وبقي دين الإسلام الذي جاء به -عليه الصلاة والسلام-، هذا في الفروع.

وأما الأصول فلا يقع فيها نسخٌ؛ فالتوحيد ليس فيه نسخ، وإنما النسخ يكون في الأحكام العملية كالبيع والشراء والأنكحة ونحو ذلك مما يجري فيه التغيير حسب حكمة الله -جلَّ وعلا-، بخلاف أصول الدِّين والعقيدة فلا نسخ في ذلك.

والشاهد في الآية الكريمة قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: أقيموا الدين علىٰ ما جاء من غير اختلاف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

٨٨- وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وَعظَنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً، ذَرفتْ منها العيونُ، ووَجِلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودع، فما تَعهدُه إلينا؟ فقال: **أُوصيكُم بتقوىٰ الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنَّه مَن يَعِشْ منكم فسَيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تَمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأمورِ، فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ**». رواه أبو داود، والترمذي وصحَّحه، وابن ماجه[(١)].

وفي رواية له[(٢)]: «**لقد تركتُكم علىٰ البيضاء، ليلُها كنهارِها، لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومَنْ يعِش منكم فسَيرىٰ اختلافًا كثيرًا**». ثم ذكره بمعناه[١٠٦].

---

[١٠٦] هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه أن رسول الله ﷺ وعظ أصحابه، وهذا من سُنَّته ﷺ أنه كان يَتخوَّلهم بالموعظة أحيانًا، فيؤخذ من هذا مشروعية الموعظة، وأنَّ العالم أو الواعظ أو إمام المسجد ينبغي له ألَّا يَغفُل عن جماعته من المسلمين؛ بل يعظهم أحيانًا، ولا يُطيل عليهم ويتركهم دون أن يُذكِّرهم بما فيه خيرُهم في الدُّنيا والآخرة.

وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يَعظ أصحابَه، فطلبوا منه أن يداوم علىٰ الموعظة، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا[(٣)].

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).

(٢) ابن ماجه برقم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١).

وفي الحديث أن الرسول ﷺ وعظ أصحابه في يوم من الأيام، وجاء في بعض الأحاديث أنَّ ذلك كان بعد صلاة الفجر[1].

وقوله: «**موعظة بليغة ذرفت منها العيون**» وذلك أنه ﷺ أُعطيَ جوامعَ الكَلِمِ، وفَصْلَ الخطاب، وكان ﷺ يختار الألفاظ المؤثِّرة في موعظته دون أن يستطرد بما لا فائدة فيه، وقوله: «**وَجِلَتْ منها القلوب**» يعني: بلغ تأثيرها إلىٰ القلوب والأفهام.

وقوله: «فقال رجل: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع» يعني: كان قد فَهِم هذا الرجل أن هذه الموعظة في آخر حياته ﷺ، فسأل رسولَ الله ﷺ بما فَهِم.

وقوله: «فما تعهد إلينا» يعني: أوصنا؛ لأنه من عادة العالم أو وليِّ الأمر أو الوالد أنه يُوصي عند نهاية حياته مَنْ خَلْفَه.

وقوله ﷺ: «**أُوصيكم بتقوىٰ الله**» وتقوىٰ الله: هي فِعْل أوامره وترْك نواهيه، وسمِّيت تقوىٰ؛ لأنها تقي من عذاب الله، والتقوىٰ كلمة عظيمة رتَّب الله -جلَّ وعلا- عليها خيرات كثيرة، ومعناها العمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، لرجاء ثواب الله، وترْك معصية الله، علىٰ نورٍ من الله؛ مخافة من عقاب الله، فقوله ﷺ: «**أوصيكم بتقوىٰ الله**» أي: فعل أوامره وتَرْك نواهيه؛ رجاءً وخوفًا.

وقوله ﷺ: «**والسَّمع والطاعة**» لوليِّ الأمر؛ لأنه بها يحصل اجتماع الكلمة، وتنتظم بها المصالح، وهي سببٌ للاتفاق، ومَنْجاةٌ من الاختلاف، فلا يحصل الاجتماع والاتفاق إلا بولي أمر يَسُوس الناس، ويُنفِّذ فيهم أوامر الله ﷻ، ويدفع عنهم =

---

(١) انظر: «مسند» الإمام أحمد (١٧١٤٥) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

....

الأذىٰ والعدوَّ، ويُقيم الحدودَ، ويمنع الظالم، ويردُّ الحقوق إلىٰ أصحابها، ولا يكون كلُّ هذا إلا بوجود وليِّ الأمر، ولا يكون وليُّ الأمر إلا بالسمع والطاعة؛ ولهذا قال -جلَّ وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «**وإن كان عبدًا حبشيًّا**» أي: لا تحتقروا وليَّ الأمر، ولا تُهوِّنوا من شأنه، ولا تَسبُّوه عند الناس إن كان ممن نَسَبُه وضيعٌ عندكم، فلا يُنظر إلىٰ نَسَبه وإنما يكون النَّظر في هذا إلىٰ المنصب، فالإنسان سواء كان حرًّا أو عبدًا فإنه إذا ما تولَّىٰ أمر المسلمين فإنه يُنظر إلىٰ منصبه فتَجِبُ طاعتُه، وتحرُم مخالفته.

وقوله ﷺ: «**فإنه مَنْ يَعِشْ منكم**» أي: مَنْ ستطول به الحياة، وهذا خبرٌ منه ﷺ «**فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**» وهذا أيضًا خبرٌ من باب التحذير، بأنه سيكون في ذلك الزمان اختلاف واسع عمَّا عليه الوضع الآن، وإذا ما حصل هذا الاختلاف فلا عاصم منه، ولا شيء يمكن أن يُنجي منه سوىٰ العودة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسنة نبيِّه ﷺ والتمسُّك بهما؛ ولهذا قال ﷺ: «**فعليكم بسُنَّتي**» فهي سبيل النجاة «**وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين مِن بعدي**» وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون المهديُّون، وعملهم حُجَّة وسُنَّة تُتَّبع؛ ولهذا قال ﷺ: «**فعليكم**» وهي كلمةُ حَثٍّ، معناها: الزموا سُنَّتي؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]. أي: الزموا أنفُسَكم.

وقوله ﷺ: «**تَمسَّكوا بها**» زيادة تأكيد لقوله: «**فعليكم**» وزاد تأكيدًا ﷺ وقال: «**عضُّوا عليها بالنواجذ**» والنواجذ: الأضراس، وهذا مثال للذي وقع في مصيبة أو مهلكة، أو كالغريق المُمْسك بالحَبْل الذي هو سبيل نجاته حال خوفه أن يفقد هذا الحَبْل فإنه يَعَضُّ عليه بأسنانه وأضراسه، إذ لو أفلت منه هذا الحبل =

لهلك، فلا نجاة له بعد الله إلا هذا الحبل، فهو من شدة خوفه وحرصه عليه، فإنه يعضُّ عليه بأضراسه ولم يكتف بأن يمسكه بيديه خوفًا من أن ينفلت منه؛ فقد شبَّه ﷺ الذي يقع في الفتن وحاجته للتمسُّك بالسُّنة كحاجة الغريق؛ لأن يتمسَّك بالحبل وإلا فإنه لن ينجو؛ وهذا تشبيه بليغ منه ﷺ.

ثم قال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور**» في هذا تحذير منه ﷺ من إحداث البدع، والبدعة: ما أُحدث في الدِّين مما ليس منه، وأمَّا ما أُحدث في أمور الدُّنيا من الصناعات والمخترعات فلا بأس به، ولا يُعدُّ من البدع، وإنما الكلام علىٰ ما أحدث في الدين مما ليس منه.

قوله: «**فإنَّ كل محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة**» في هذا ردٌّ علىٰ القائلين بأنَّ هناك بدعًا حسنة ومحدثات طيبة؛ لأنه ليس هناك بدعة حسنة، وإنما كلُّ البدع والمحدثات شرٌّ؛ لأن الله -جل وعلا- أكمل لنا الدِّين، وما توفي الرسول ﷺ إلا بعدما أكمل الله به الدين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلا حاجة إلىٰ إضافات واستحسانات يأتي بها الناس في أمور الدِّين، فيكفينا الدِّين الذي أكمله الله تعالىٰ، ولا حاجة لنا إلىٰ الزيادة.

وقوله ﷺ في الرواية الأخرىٰ: «**لقد تركتكم علىٰ البيضاء**» أي: الجادة الواضحة، وهي صراط الله -جل وعلا-، فمن سار عليه نجا، ومَنْ تركه هلك، فلا طريق إلىٰ الجنة إلا من خلال اتِّباع سُنَّة الرسول ﷺ، فمن تركها كان حالُه كحال الذي أضاع الطريق في مهلكة.

[هديه ﷺ خير الهدي]

٨٩- ولمسلم(١)، عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أمَا بعد؛ فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْي هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها، وكلَّ بِدْعةٍ ضلالة»[١٠٧].

ويدور علىٰ ألسنة بعض الناس قولهم: «تركتكم علىٰ المحجة البيضاء».
وكلمة «محجة» لم تثبت عن النبي ﷺ، وإنما الذي ثبت قوله ﷺ: «تركتكم علىٰ البيضاء» وهي الملَّة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشُّبه أصلًا، ولهذا جاء بعدها قوله ﷺ: «ليلها كنهارها» فصار حال إيراد الشُّبه عليها كحال كَشْفها عنها ودَفْعِها.

[١٠٧] كان ﷺ يقول في خُطَبه: «أما بعدُ» وهي كلمة يؤتىٰ بها للانتقال من كلام إلىٰ كلام آخر، فهي فاصلة بين كلامين، وقيل: هي فَصْل الخطاب الذي أُوتيه داود عليه السلام؛ قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. فكان ﷺ يحمد الله في خُطَبه ويُثني عليه ثم يقول: «أما بعد».

وقوله ﷺ: «فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله» أي: القرآن، والحديث معناه الكلام، والقرآن حديث؛ لأنه كلام الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. فالقرآن حديث؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فيسمَّىٰ حديثًا ويسمَّىٰ قرآنًا وكلامًا، وهو خيرُ الحديث، فلا شيء يوازي القرآن؛ لأنه كلام الله -جلَّ وعلا-، وهو أصدق الحديث.

---

(١) برقم (٨٦٧).

....

=

وقوله: «وخيرُ الهَدْي» أي: السُّنة التي تُتَّبع «هَدْي محمد ﷺ». وفي رواية: «أحسنُ الهدي هَدْي الأنبياء»[(١)]. ولكن المعروف، والمشهور: «خير الهَدي هديُ محمد».

وقوله: «شرَّ الأمور محدثاتها» لما ذكر ﷺ خير الأمور ذكر شرَّها، وهي المحدثات التي تُحدَث في الدِّين، وفي هذا ما يدلُّ على أنه لا يكفي من المرء أن يبيِّن للناس الحقَّ، ويترك بيان الباطل، كما يقول بعض الجُهَّال: علِّموا الناسَ التوحيد، ولا داعي لتعليمهم الشرك!

والصحيح في ذلك، هو: ذِكْر النقيض أيضًا؛ لأجل أن يجتنبوه، والرسول ﷺ ذكر الأمرين، فلمَّا ذكر الخير ذكر أيضًا الشرَّ؛ لأجل أن يحذره الناس، فلابدَّ من بيان الخير وبيان الشر، ولهذا نجد في كتب العقائد بيانًا للتوحيد وبيانًا للشرك، ونجد فيها بيانَ قول أهل السُّنة والجماعة، وبيان قول الطوائف الضالَّة من أجل الحذر منهم؛ ولهذا قال ﷺ: «وشرَّ الأمور محدثاتها» وهي البدع.

وقوله ﷺ: «وكل بدعة ضلالة» هذا زيادة توضيح منه ﷺ وفي هذا نَفيٌ وردٌّ لمن يقول بوجود بدعة حسنة، وكلمة «كل» فيها ردٌّ للقائلين بهذا القول، وجاء في بعض الروايات: «وكل ضلالةٍ في النار»[(٢)].

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٦٣) (١٣٢٣) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (١٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

[معصية الرسول ﷺ توجب دخول النار]

٩٠- وللبخاري(1)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ. قيل: وَمَنْ أبىٰ؟ قال: مَنْ أطاعني؛ دَخَلَ الجنةَ، وَمَنْ عصاني فقد أَبىٰ». [١٠٨].

---

[١٠٨] هذا الحديث فيه أنَّ مَنْ أطاع الرَّسول ﷺ دخل الجنَّة، فالذي يريد الجنة عليه بطاعة الرَّسول ﷺ، وقد بيَّن ﷺ كيف أن الإنسان يأبىٰ دخول الجنَّة، وذلك بعصيانه ومخالفة أمره ﷺ.

وفي هذا دليل علىٰ أنَّ طاعة الرسول ﷺ هي السبب لدخول الجنَّة، وأنَّ معصيته هي السبب للحرمان من الجنَّة، والدخول في النار؛ لأن طاعته ﷺ إنما هي طاعة الله -جلَّ وعلا-، وهو ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله به، فمَنْ فعل ما أمره به الرسول ﷺ، فإنما أطاع الله -جلَّ وعلا-، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(1) برقم (٧٢٨٠).

[سنة الرسول ﷺ هي السُّنة السمحة]

٩١- ولهما(١)، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «جَاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلىٰ أزواج النبي ﷺ، يَسألونَ عن عبادةِ النبي ﷺ، فلمَّا أُخْبروا بها، كَأَنَّهم تَقالُّوها؛ فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قَدْ غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر.

فقال أحدهم: أما أنا، فأُصلِّي الليل أبدًا. وقال الآخر: أنا أصومُ النهار، ولا أُفْطر. وقال الآخر: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أَتزوَّجُ أبدًا. فجاء النبي ﷺ إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أَمَا والله، إنِّي لأَخْشاكم لله، وَأَتقاكم له؛ لكني أصومُ وأفطرُ، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني»[١٠٩].

---

[١٠٩] في هذا الحديث بيانُ أنَّ سُنة الرسول ﷺ، هي السنة السمحة، والسهلة؛ التي ليس فيها تشدُّد ولا غُلوٌّ ولا تطرُّف، كما أنه ليس فيها تساهلٌ، فهي سنةٌ معتدلة، بعيدةً عن الإفراط والتفريط.

قوله: «جاء ثلاثةُ رهْطٍ» أي: من الصَّحابة؛ والرهطُ: من ثلاثة إلىٰ عشرة، «إلىٰ أزواج النبي ﷺ» وهذا من حرصهم رضي الله عنهم علىٰ الخير، وهم إنما أرادوا الرجوع إلىٰ سُنة النبي ﷺ ليبنوا عليها ما هم عليه من العبادة.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون فيرجع إلىٰ سُنة الرسول ﷺ دون أن يبتدع شيئًا من عنده، فهؤلاء رضي الله عنهم لم يعتمدوا علىٰ اجتهادهم، وإنما ذهبوا إلىٰ بيوت النبي ﷺ؛ لأنه هو القدوة، فسألوا عن عمله لأجل أن يقتدوا به. =

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) بنحوه.

....

فلما ذكرت لهم نساءُ النبيِّ ﷺ عبادته -عليه الصلاة والسلام- «كأنهم تقالُّوها» أي: رأىٰ كلٌّ منهم أنها قليلة، ثم إنهم اعتذروا لرسول الله ﷺ؛ بمعنىٰ أنهم قالوا: إن رسولَ الله ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ أي: إنه ﷺ ليس بحاجة إلىٰ زيادة عبادة، وأين نحن منه، وقد غفر الله له؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ومع أنه ﷺ مغفور له إلَّا أنه لم يترك العبادة؛ بل قام حتىٰ تفطرت قدماه من طول القيام، ولما قالت له عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ وذلك بعدما رأت أنه قد تفطرت قدماه ﷺ؛ من كثرة ما كان يقوم من الليل، قال: «**أفلا أُحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا**»[١]، فالرسول ﷺ كانت سنته الاعتدال، فكان يصوم ويفطر، ويصلي وينام، وكان يتزوَّج النساء، فلا يحرم نفسَه من الراحة، ولا من المتعة -عليه الصلاة والسلام-، وفي الوقت نفسه لم يكن ليترك العبادة؛ بل كان يعطيها حقَّها، فكان ﷺ يجمع بين هذا وهذا؛ فيُعطي نفسَه حقَّها من أمور الدُّنيا، ويُعطي العبادة حقَّها من أمور الدِّين.

وقوله: «كأنَّهم تقالُّوها» أي: استقلُّوها وعدُّوها قليلة؛ ولكنهم اعتبروا أن هناك فرقًا بينهم وبين الرسول ﷺ حيث غفر الله له ذنبه ما تقدَّم منه وما تأخر، وقالوا: نحن بحاجة إلىٰ الزيادة، وأين نحن من رسول الله ﷺ! هكذا اجتهدوا رضي الله عنهم، وقال كلٌّ منهم مقالته مبيِّنًا وذاكرًا ما عليه حاله من العبادة من قيام الليل، وصوم النهار، واعتزال النساء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧).

....

=

فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب، ثم قال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أَمَا والله إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منِّي**» فمَنْ مال إلىٰ التشدُّد وإلىٰ حرمان نفسه ممَّا أباح الله لها من الراحة والشهوة والاستجمام، وحمل نفسه علىٰ الجِدِّ أبدًا، فهو مخالفٌ لسُنَّة الرسول ﷺ.

ففي قوله ﷺ: «**فمَنْ رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**» دليل علىٰ تحريم التشدُّد والتنطُّع في العبادة، وتحريم الغُلوِّ والإفراط فيها.

وفيه أنَّ علىٰ الإنسان أن يعتدل، وأن يأخذ من الدِّين بقدْر ما يستطيع فلا أحد يستطيع أن يستكمل الدِّين كلَّه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه**»[١]. فلا أحد يستطيع أن يصل بنفسه إلىٰ درجة الكمال، ولهذا قال ﷺ: «**إن المُنْبتَّ لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ**»[٢].

والمُنبتُّ: هو الذي قُطع مركوبُه من شدَّة السير، مأخوذٌ من البَتِّ: وهو القَطْع؛ أي: صار منقطعًا لم يصل مقصوده، وفَقَد مركوبه الذي كان سيوصله لو رفق به، والراحلة هي النفس، فإذا شددتَ عليها قطعتك، فعلىٰ المرء أن يأخذ من الطاعات كقيام الليل والصيام وسائر العبادات دون تشديد علىٰ نفسه؛ لأنَّ الاعتدال هو الطريق الصحيح، وفي الحديث: «**أحبُّ العملِ إلىٰ الله أَدومه، وإن قلَّ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا]

٩٢- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بدأَ الإسلامُ غَريبًا، وسيعود غَريبًا كما بدأ؛ فطوبىٰ للغرباء» رواه مسلم(١)[١١٠].

ففي العمل القليل مع المداومة عليه خيرٌ كثير، بخلاف العمل الكثير المنقطع؛ فالوسط والاعتدال هو الخير وهو أضمنُ للاستمرار، وأما الفرائض فلابدَّ منها وهي ليس فيها تشدُّد، ولله الحمد.

[١١٠] قوله: «بدأ الإسلام» أي: في أول بعثة النبي ﷺ لما دعا الناس إلىٰ توحيد الله تعالىٰ ممتثلًا قول ربِّه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]. فاستجاب له ﷺ الأفرادُ علىٰ خوفٍ من الكفار؛ ولهذا قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا». والغريبُ: هو الإنسان الذي فارق وطنه وأهله، فسار في بلد غير بلده وبين أُناسٍ غير أهله وأقاربه، وقد قال النبيُّ ﷺ لابن عمر: «كُنْ في الدُّنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيل»(٢).

والإسلام أول ما بدأ كان أتباعُه قليلين، وهم غرباء في وسط المجتمع الكافر في مكَّة، ولما سأل عمرو بن عَبسة النبيَّ ﷺ مَنْ معك علىٰ هذا الأمر، قال ﷺ: «حرٌّ وعبدٌ»(٣). أي: أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، ثم ازداد عدد المسلمين الذين دخلوا في الإسلام في مكَّة، ومن مختلف القبائل، ثم إنه بعد الهجرة وتشريع الجهاد =

---

(١) برقم (١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

....

=

زادت أعدادهم، إلىٰ أن فتح الرَّسول ﷺ مكَّة فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم إنه بعد وفاته ﷺ وحصل ما حصل من ردَّة كثير من القبائل العربية وقف أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه الموقف الحازم، فجاهد المرتدِّين حتىٰ أخضعهم لحكم الإسلام.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتشرت الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، حتىٰ وصل الإسلام إلىٰ كثير من أصقاع الأرض وانتشر انتشارًا هائلًا، وبلغ الإسلام ما بلغ الليلُ والنهارُ؛ قال الله -جل وعلا-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. فظهر دين الله ﷻ علىٰ سائر الأديان، وكثُر أتباعُه.

وبعد ذلك جاءت خلافة بني أميَّة، وانتشر الإسلام، واتَّسعت الفتوحات، وامتدَّت حتىٰ خلافة بني العبَّاس، وتلا ذلك فتنة التتار وحصل فيها علىٰ المسلمين ما حصل، ثم ما زال الإسلام يَضعُف ويَقلُّ أهلُه إلىٰ أن يعود في آخر الزَّمان غريبًا كما بدأ فيكون عليه القلَّة من الناس، والمراد بالإسلام: الإسلام الحقيقي لا الإسلام المُدَّعىٰ الذي عليه كثيرٌ من الناس، ولكن العبرة بالإسلام الحقيقي، وهو الذي لا يكون عليه سوىٰ قلَّة من الناس الذين يكونون كالغُرباء.

ولهذا جاء أنَّ المسلمين بالنسبة للأمم الأخرىٰ غرباء، وأهل السنة والجماعة بالنسبة للفِرَق المخالفة التي تدَّعي الإسلام غُرباء كذلك، وسيئول الأمر إلىٰ ما أخبر عنه ﷺ فيعود الإسلام غريبًا وما عليه إلَّا القلَّة من الناس الذين يتمسَّكون به تمسُّكًا صحيحًا، فهناك مَنْ يدَّعي الإسلام؛ ولكنه ليس علىٰ حقيقة ما ادَّعاه، وإنما هي مجرَّد دعوىٰ لا وزن لها، وهناك مَنْ يدَّعِي الإسلام ويتشدَّد فيه حتىٰ يخرج منه ليصبح كالخوارج والغُلاة؛ لأنَّ الإسلام الحقيقي ليس فيه غلوٌّ ولا تشدُّد وهو =

....

الإسلام الصحيح، وهذا يَقِلُّ أصحابه في آخر الزَّمان حتىٰ يكون غريبًا.

ولابدَّ من وقوع ما أخبر بهﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ، وهذا خبرٌ منهﷺ، معناه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالإسلام عند حصول الغُربةِ، لئلا ينجرف الإنسان مع التيارات المختلفة والمنحرفة؛ بل يثبت علىٰ الإسلام مهما ناله وأصابَه من المضايقات والأذىٰ حتىٰ ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام وغيرهم من الكفَّار، حتىٰ يغدو غريبًا بين الناس.

وقد جاء في الحديث أنه يأتي زمان «**المتمسِّك بدينه كالقابض علىٰ الجمر، أو علىٰ خَبَطِ الشَّوكَةِ**»[1]. فما أحوج المسلم في ذلك الوقت إلىٰ الصبر، وإلَّا فإنه سينحرف، وقد سُئل ﷺ عن الغرباء؟ فقال: «**الذين يَصلحون إذا فَسد الناس**»[2].

وفي رواية: «**يُصلحون ما أفسدَ الناسُ**»[3].

فهؤلاء هم الغُرباء، يَصلُحون في أنفسهم، ويُصلحون ما أفسده الناس، ومَن يصبر علىٰ هذا إلَّا أهلُ الإيمان والثبات؟!

وكما أن الإسلام في غربته الأولىٰ نال أهلُه من الأذىٰ والمضايقات ما نالهم، فسينال المسلمين في آخر الزَّمان المتمسِّكين بالإسلام أشدُّ مما نال الأولين؛ لأنَّ الأولين فيهم رسول الله ﷺ؛ ولكن في آخر الزَّمان نجد أن المتمسِّك بالإسلام ليس له أعوانٌ ولا أنصار؛ بل هو واقع بين أعداء كثيرين، وقد يكون بعض =

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٩٠٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٩٠) من حديث عبد الرحمن بن سَنة رضي الله عنه.

(٣) هي عند الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه.

[علامة الإيمان حبُّ ما جاء به الرسولﷺ]

٩٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يكونَ هواه تَبعًا لِمَا جئتُ به». رواه البغوي في «شرح السنة»، وصححه النووي[1][١١١].

هؤلاء الأعداء من أهله أو حتىٰ من أولاده وإخوانه وجيرانه، فيحتاج المسلم المتمسِّك بدينه إلىٰ صَبر وثبات؛ ولهذا فإنه ﷺ قال: «**فطُوبىٰ للغرباء**» وذلك لموقفهم الثابت.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**طُوبىٰ للغرباء**» أي: إن لهؤلاء الغرباء الفرح والخير وقُرَّة العين، أو نِعْمَ ما لهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]. وقيل: «طوبىٰ»: شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام، تخرج منها حُلَل أهل الجنة. وقيل: الجنَّة تُسمىٰ طُوبىٰ فتكون هذه للغرباء في آخر الزمان، فلهم الجنَّة عوضًا عما فاتهم في الدُّنيا من الراحة والتلذُّذ بالعيش، فيُعوِّضهم الله نعيمًا لا ينفد.

فهذا حديث عظيمٌ يدل علىٰ هذه الأمور العظيمة، وفيه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالإسلام مهما وصل المسلمَ من الأذىٰ والمضايقات، فمن أراد الأجر؛ ليكون من أهل طوبىٰ فليصبر علىٰ ما هو عليه من الدِّين الصحيح ومن الحقِّ.

[١١١] قوله ﷺ: «**هواهُ**» يعني: رغبته ومَيْله ومحبَّته لما جاء به الرسول ﷺ، وإن خالف هواه وما تريده نفسُه، فإذا بلغ هذه المنزلة فصار يُحبُّ ما يحبُّه الرَّسول ﷺ، اعتُبر هذا علامة من علامات الإيمان.

---

(١) انظر: «شرح السنة» (١٠٤).

....

=

وهذا الحديث رواه البغوي في «شرح السنة» وهو كتاب جليل مطبوع في أربعة عشر مجلدًا، وهو مرجع من مراجع الإسلام، والبغوي: هو الإمام محيي السُّنة الحسين بن مسعود البغوي، له التفسير المشهور المسمىٰ «معالم التنزيل» وله «شرح السُّنة».

وقوله: «صححه النووي» أي: في «الأربعين النووية»، فقال: حديث صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح؛ وكتاب «الحجة» اسمه «الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة» وهو كتاب طُبع أخيرًا محققًا، للفقيه نصر المقدسي.

فالإمام النووي حكم بصحة إسناد هذا الحديث، بينما الحافظ ابن رجب في «شرح الأربعين» ضعَّف هذا الحديث، ولكنَّ الحديث له شواهد من القرآن الكريم.

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. فالآية واضحة في أن المسلم لا يكره حُكم الله تعالىٰ، وحكم رسوله ﷺ، ولو كان يخالف رغبته.

والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦].

[صفات الفرقة الناجية من النار]

٩٤- وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيأتينَّ علىٰ أُمَّتي كما أتىٰ علىٰ بني إسرائيلَ، حَذْوَ النعلِ بالنَّعلِ، حتىٰ إن كان فيهم مَن أتىٰ أمَّه علانية؛ لكان في أمتي من يصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيلَ افترقت علىٰ ثنتينِ وسبعين ملَّةً، وستفترقُ أمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي». رواه التِّرمذي(١)[١١٢].

فالآيات تشهد للحديث في أنه يجب علىٰ المسلم، أن يكون هواه تابعًا لِما جاء به الرسولﷺ، فإن كان هواه مخالفًا لِما جاء به الرسولﷺ فهو كافر؛ لأن من نواقض الإسلام بُغض الرسولﷺ، أو بُغض ما جاء به.

وأما إن كان لا يُبغض ما جاء به الرسول ﷺ؛ ولكنه يتكاسل ويتثاقل عن العمل بما جاء به الرَّسول ﷺ فهو ناقص الإيمان، ولا يكون مرتدًّا، فيكون قوله ﷺ: «لا يؤمن» يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل؛ أي: نفيٌ لكمال الإيمان، وأمَّا إن كان يبغض ما جاء به الرسولﷺ فهو نفيٌ للإيمان وأصل الإيمان.

[١١٢] هذا الحديثُ فيه فوائد عظيمة، فيه أن النبي ﷺ أخبر عن وقوع التشبُّه باليهود والنصارىٰ، وقد نُهينا عن التشبُّه بهم، فقالﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٢).

---

(١) برقم (٢٦٤١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

=

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الحديث أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كُفر المتشبِّه بهم»(١).

وذلك أن مَنْ تشبَّه بهم في الظاهر فهذا دليل علىٰ أنه يُحبُّهم في الباطن، إذ لو كان يُبغضهم في الباطن لما تشبَّه بهم، فلا يجوز التشبُّه بالكفار وبعباداتهم ودينهم، ولا في عاداتهم وتقاليدهم؛ لأن المسلمين أعزُّ الأمم فينبغي عليهم الاعتزاز بدينهم فلا يقلِّدون أحدًا إلا أهل الخير والدِّين والصلاح من المسلمين، ولا يُقلِّدون أهل الضلال والكفر والإلحاد؛ بل يترفَّعون عن ذلك ويستقلُّون بشخصيَّتهم وإن كان بعض مَنْ يتشبَّهون بالكفار يريد الرُّقي والكمال فيرىٰ أنهم متقدِّمون في الجانب الحضاري والتشبُّه بهم -في زعمه- رُقي، وهو في حقيقته ضلال.

فقد قال عمر بن الخطاب: «نحن أُمَّة أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العِزَّة بغيره أذلَّنا الله»(٢).

وقد أخبر الرَّسول ﷺ أنَّ التشبُّه سيكون «**حَذْوَ النَّعل بالنَّعل**» يعني: لا يُترك شيء من أفعالهم إلا ويفعله المتشبه بهم، حتىٰ يُصبح مثلهم كما يُشْبه النَّعلُ النَّعلَ الآخر سواء بسواء، فيقلِّدهم ويتشبَّه بهم في كلِّ شيء، وما يجري في وقتنا الحاضر يشهد لذلك، فقد أصبح تقليد الكفَّار والتشبُّه بهم منتشرًا حتىٰ في الأمور التافهة والحقيرة، فيتخذونها علىٰ أنها من الرُّقي والتقدم، وهم يعلمون أنها تافهة وحقيرة، =

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠) (٣٣٨٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠) (٢٠٧) من حديث طارق بن شهاب.

....

=

لا لشيء إلا لأن الكفَّار يفعلونها، فهذا مصداق قولهﷺ: «**حَذْوَ النَّعل بالنعل**».

وفي حديث: «**حتىٰ لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ تَبعتموهم**»(١).

بل هناك ما هو أشدُّ من ذلك؛ وهو قولهﷺ: «**إن كان منهم مَنْ أتىٰ أُمَّه علانيةً لكان في أمتي من يصنع ذلك**».

والتشبُّه بالكافر في وقتنا الحاضر علىٰ مصراعيه، وربما يبلغ إلىٰ الحدِّ الذي ذكره الرَّسولﷺ؛ فإذا كان الزِّنا محرمًا وهو من أشدِّ الكبائر؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فكيف إذا كان هذا في ذات محرم، فهو أشدُّ، وكيف إذا كان بالأم، فهو أشدُّ وأشنع؛ ولكن سيبلغ التشبُّه والتقليد للكفار لدرجة أنه إن كان فيهم مَنْ يزني بأُمِّه علانية فسيكون في هذه الأمة مَنْ يزني بأُمِّه، وهذا تحذير منهﷺ بألَّا نَنْساقَ وراء التشبُّه بالكفَّار.

وقولهﷺ: «**وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثنتين وسبعين مِلَّة**» فاليهود والنصارىٰ كذلك افترقوا في دينهم، فالنصارىٰ افترقت إلىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، واليهود افترقوا علىٰ ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وكلُّ هذا من باب التشبُّه باليهود والنصارىٰ، لمَّا افترقوا في دينهم تشبَّه بهم من هذه الأمة مَنْ تفرَّقوا في دينهم، مع أن الواجب هو أن يكون الدِّين واحدًا، لا اختلاف فيه ولا تفرُّق؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ [آل عمران: ١٠٥].

=

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدريرضي الله عنه.

....

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فالواجب علىٰ المسلمين هو اجتماع كلمتهم علىٰ الحق، وعلىٰ كتاب الله وسُنة رسولهﷺ وعلىٰ عدم التفرُّق والاختلاف، ولكن سيقع ما قضىٰ الله وقدَّر وأخبر عنه الرسولﷺ من أنَّ هذه الأُمة ستفترق، وقد افترقت علىٰ ثلاث وسبعين فرقة وأكثر.

وقولهﷺ: «**كلها في النار**» هذا وعيدٌ منهﷺ لهذه الفرق في أنه سيكون منهم مَنْ هو في النار لكفره، إذا بلغ التفرُّق درجة الكفر، ومنهم من يكون في النار لضلاله، وقد يدخل النار مَنْ لا يخلَّد فيها، بل يعذب فيها ثم يخرج منها، فهم كلُّهم متوعَّدون بالنار، إمَّا لكفرهم وإما لضلالهم.

وقولهﷺ: «**إلا واحدة**» أي: كلُّهم متوعَّدون بدخول النار إلَّا فرقة واحدة «قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**» فلا ينجو من النار إلَّا هذه الفرقة، ولذلك تُسمَّىٰ الفرقة الناجية، وهم أهل السُّنة والجماعة؛ فتسمَّىٰ بالناجية؛ لأنها نَجَتْ من النار بتمسُّكها بما كان عليه الرسولﷺ وأصحابُه، ولم يفترقوا ويختلفوا، قالﷺ: «**فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسَّكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1]، فلا ينجو من النار إلَّا مَنْ كان علىٰ ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه، وأمَّا مَنْ خالف وذهب مع الفرق فإنه معرَّض للوعيد بالنار.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢-٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

[أجر من دعا إلى هدًى]

٩٥- ولمسلم[(١)]، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، مرفوعًا: «مَنْ دعا إلىٰ هدًى، كان له مِنَ الأجرِ مثل أُجورِ مَنْ تبعَه، لا ينقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومَنْ دعَا إلىٰ ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثامِ مَن تبِعَه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١١٣].

=

ففي الحديث النهي عن التفرُّق والاختلاف؛ ولكن الاختلاف من طبيعة البشر، ولكن الله -جلَّ وعلا- جعل لهم مخرجًا من هذا الاختلاف وهو الرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالمخرج من الخلاف أو الاختلاف هو الرُّجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ.

وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٠]. فالمرجع الذي يُعرف به الحقُّ من الباطل مما اختلف فيه الناس هو كتاب الله تعالىٰ وسُنة رسوله ﷺ؛ لأن كلَّ فرقة ستدَّعي أنها علىٰ الحقِّ وغيرها علىٰ خطأ أو ضلال، ولكن الفصل هو الرجوع إلىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وإلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

[١١٣] في هذا الحديث أنَّ الدعوة إن كانت إلىٰ حقٍّ فهي مشروعة ومطلوبة؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[النحل: ١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ =

---

(١) برقم (٢٦٧٤).

....

ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فالدَّعوة إلىٰ الحق مطلوبة ومأمورٌ بها، وفيها فضل عظيم.

وقوله ﷺ: «**مَنْ دعا إلىٰ هدًىٰ**» أي: من كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ: «**كان له من الأجر مثلُ أجورِ مَنْ تَبِعَه**» أي: يناله أجرٌ عظيم؛ لأن كل مَنْ تبعه واقتدىٰ به وعمل بالهدىٰ، فإنَّ الداعي الأول له مثل أجور مَنْ تبِعَهُ إلىٰ يوم القيامة، فالرسول ﷺ له مثل أجور أُمَّتِه.

وكذلك أئمة الإسلام الذين دعوا إلىٰ الله تعالىٰ، وألَّفوا الكتب واهتدىٰ الناس بدعوتهم علىٰ اختلاف العصور لهم من الأجر مثل أجور مَنْ تبعهم إلىٰ يوم القيامة، وفي هذا فضلٌ عظيم، وخيرٌ كثير.

وقوله ﷺ: «**ومَنْ دعا إلىٰ ضلالة**» الضلالة ضد الهدىٰ؛ أي: دعا إلىٰ باطل وبدع ومحدثات وخرافات وإلىٰ شركيَّات «**كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل: ٢٥]. فدُعاة الضلال عليهم من الآثام مثل آثام مَنِ اقتدىٰ بهم، وعمل بالضلال تبعًا لهم، فيتحمَّلون ذلك ويجري عليهم الإثم حتىٰ وهم أموات.

وأمَّا دُعاة الحقِّ فيجري عليهم الأجر وهم أموات كما قال ﷺ: «**إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثةٍ، إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩٦- وله(١)، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ، قال: إنه أُبدِعَ بي، فاحمِلني فقال: ما عندي. فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أَدلُّه علىٰ مَنْ يَحمِلُه. فقال رسول الله ﷺ: مَن دلَّ علىٰ خير فلَهُ مثلُ أَجر فاعِلِه»[١١٤].

=

فيجري أجرُ العلم علىٰ صاحبه إلىٰ يوم القيامة، حتىٰ وهو ميت، وفي هذا خير كثير.

ففي الحديث فَضْلُ الدَّعوة إلىٰ الله ﷻ، وهي الدَّعوة إلىٰ الحقِّ، وفيه النهي والتحذير من الدعوة إلىٰ الضلال، وفيه أنَّ الدُّعاة ينقسمون إلىٰ قسمين: دُعاة هدًىٰ، ودعاة ضلال، وهذا واقع في حياة الناس اليوم، ودعاة الضلال في وقتنا الحاضر أكثر من دُعاة الهدىٰ، فلا يُغترُّ بهم.

[١١٤] وهذا الحديث كسابقه في بيان عِظَم أجرِ فِعْل الخير والدلالةِ عليه والدعوة إليه، وأنَّ أجرَه يكون مثل أجرِ فاعله.

وقوله: «أبدِعَ بي» أي: انقطعت راحلتي، أو هلكت دابَّتي، وهي مركوبي. فطلب من النبيِّ ﷺ أن يَحمله بأن يُعطيه دابةً يركبها ويحمل عليها، والنبيُّ ﷺ اعتذر إليه بقوله: «ما عندي» فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أدلُّه علىٰ مَنْ يَحملُه.

وقوله ﷺ: «مَنْ دلَّ علىٰ خيرٍ فلَه مثلُ أجرِ فاعلِه» والدلالة علىٰ الخير تشمل الخير المعنوي، وتشمل كذلك الدَّعوة إلىٰ الله ﷻ، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك مَنْ دلَّ أحدًا علىٰ آخر يُعينه، كمَن دلَّ محتاجًا علىٰ واحدٍ من المحسنين ليُعينه، فله من الأجر مثل أجر المُحسِن الذي حقَّق طلب هذا المحتاج. =

(١) مسلم برقم (١٨٩٣).

[أجر مَنْ أحيا سُنة من سننه ﷺ]

٩٧- وعن عَمرو بن عوف رضي الله عنه، مرفوعًا: «مَنْ أحيا سنةً مِن سُنَّتي قد أُميتَتْ بعدي؛ فإنَّ له من الأجرِ مثلَ مَنْ عَمِلَ بها من الناس لا يَنْقُص مِن أُجورِ الناس شيئًا، ومَن ابتدع بدعةً لا يَرضاها الله ورسوله، فإن عليه مثل إِثم مَنْ عَمِلَ بها من الناس لا ينقص من آثامِ الناس شيئًا». رواه الترمذي وحسَّنه، وابن ماجه وهذا لفظه[1][١١٥].

ففي الحديث الحثُّ على التعاون على البرِّ والتقوى، وفيه أنَّ مَنْ دلَّ على الخير كان له من الأجر مثل أجر فاعله، وهذا ترغيب للدلالة على الخير المعنوي والحسِّي.

[١١٥] قوله ﷺ: **«مَنْ أحيا سُنَّة من سُنَّتي قد أُميتَتْ»** المراد: مَنْ عَمِلَ بسُنَّةٍ من سُنن الرسول ﷺ بعد أن تُركتْ من الناس أو جهلوها ثم نشرها أحدُ الناس كان **«له من الأجر مثل مَنْ عَمل بها»** ففي هذا الحثُّ على إحياء السُّنَن التي قد نسيها الناسُ أو جهلوها.

وقوله ﷺ: **«ومَنِ ابتَدعَ بدعةَ ضلالةٍ لا تُرضي الله ورسولَه كان عليه مثل إثم مَنْ عمل بها»** هذا فيه أنَّ من أحيا أو ابتدع بدعة فعليه من الإثم مثل آثام مَنْ عمل هذه البدعة، وفي هذا أيضًا ردٌّ على مَنْ يُروِّجون للبدع من إحياء الموالد وزيارة آثار الصالحين والتبرك بها، فهؤلاء عليهم من الإثم مثل آثام مَنْ تبعهم.

---

(١) الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢١٠).

[أسباب الفتن]

٩٨- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: «كيف أنتم إذا لَبِسَتكُم فتنةٌ، يَرْبو فيها الصغير، ويَهرم فيها الكبير، وتُتَّخذ سنةٌ يجري الناسُ عليها، فإذا غُيِّر منها شيءٌ. قيل: تركت سنة، قيل:متىٰ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كَثر قُراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثُرت أموالكم، وقَلَّ أمناؤكم، والتمست الدُّنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين». رواه الدارمي[1] [١١٦].

---

[١١٦] **هذا أثرٌ عظيمٌ من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الصحابيِّ الجليل، قوله: «كيف أنتم» أي: كيف يكون حالكم؟ أو كيف تكونون؟**

وقوله: «إذا لبستكم» أي: خالطَتْكُم «فتنةٌ يربو عليها الصغير» يعني: ينشأ عليها الأطفال «ويَهرم عليها الكبير» أي: يكبرُ ولم تُغيَّر حتىٰ تستقر ويظنَّها الجهَّال سُنَّة.

وقوله: «فإذا غُيِّر منها شيء، قيل: تركتْ سُنة» أي: تُتخذ السنة بدعة، والبدعة تتخذ سنة، وسيكون هذا في آخر الزَّمان، فإذا ما دعا أحد الناس إلىٰ سُنَّة الرسول ﷺ قالوا: هذا مبتدع أو خارجي، أو وهابي، فيُلقِّبونه بألقاب شنيعة؛ لأنه خالف ما عليه الناسُ؛ علمًا بأن المطلوب هو الرجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ لا ما عليه الناس؛ فدلَّ علىٰ أن ما عليه الناس لا يُتخذ حجة ما دام مخالفًا لِمَا جاء في سُنَّة الرسول ﷺ وإن تطاوَل زمنُها أو توارثها الناس، فلا عبرة بها، فينبغي التفطُّن لهذا الأمر؛ لأنها إذا استقرت في عقول الناس ظنوها سُنة لدرجة أنهم يُدافعون عنها ويقولون: غُيِّرت السُّنة لجهلهم بذلك، فدلَّ هذا علىٰ أنه يجب المبادرة لإنكار=

---

[1] في «سُننه» (١/ ٧٥) (١٨٦).

البدع والمحدثات، ولا يجوز السُّكوت عنها؛ لأنه إذا سكت عنها توارثها الناسُ واحتجوا بها.

وقوله: «قالوا: ومتىٰ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟» هذه كنيته رضي الله عنه، واسمه عبد الله ابن مسعود بن غافل الهُذلي، من السابقين الأولين إلىٰ الإسلام.

وقوله: «إذا كثُر قُراؤكم وقلَّ فقهاؤكم» الفقه: هو الفهم في دين الله عز وجل، قال ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فلم يقل -جلَّ وعلا-، ليحفظوا أو ليقرءوا، وإنما قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾. فالمدار هنا علىٰ الفقه والفهم عن الله ورسوله.

وأما الذي يحفظ النصوص، ويقرؤها، ويكثر المطالعة في الكتب دون أن يفهمها، فهو من القراء وليس من الفقهاء، ومثل هذا يكثر في آخر الزمان، حيث يكثر القراء الذين يحفظون النصوص ويطِّلِعون علىٰ الكتب وليس عندهم فقه وفهم لما تدلُّ عليه، وهذا كما قال ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعُه من العباد؛ ولكن يُقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يَبْقَ عالم اتخذ الناسُ رءوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأضلُّوا**»(٢).

فدلَّ علىٰ أن فُقدان الفقهاء في المجتمع خطر عظيم، وأن وجود القراء لا يكفي ولا ينفع ولا يُسمن ولا يغني من جوع؛ بل يضر لأنهم يفتون بغير علم؛ ولهذا قال الله =

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

....

= تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. والأماني هي القراءة، فيقرءون كثيرًا؛ ولكنهم لا يفهمون.

فينبغي التفقُّه في كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ، وذلك بالتلقِّي عن أهل العلم والفقه في دين الله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. يعني: سافروا إلىٰ الرسول ﷺ وإلىٰ العلماء ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ لا أن يبقوا في بلادهم أو بواديهم يقرءون القرآن؛ لأن هذا لا يكفي؛ لأن العلم هو الفقه، وليس الحفظ فقط؛ ولكن الحفظ وسيلة إلىٰ الفقه.

والنبي ﷺ يقول: «**رُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ، وربَّ حامل فقه إلىٰ مَنْ هو أفقه منه**»[(١)]، ويقول ﷺ: «**رُبَّ مبلغٍ أوعىٰ من سامعٍ**»[(٢)]. فقد يسمع المرء ويحفظ دون وعي؛ ولكن ربما يُبلغ هذا إلىٰ إنسان فقيهٍ يعرف معناه.

فليس المدار علىٰ ما عليه الكثير من الشباب اليوم حيث عكفوا علىٰ قراءة الكتب، ثم تصدَّروا للشرح بعدما قرءوا، أو تعلَّم بعضهم علىٰ يد البعض الآخر، وتركوا العلماء، ففي هذا خطر شديد، وهو الذي حذَّر منه ابن مسعود رضي الله عنه؛ بل حذَّر منه الرسول ﷺ، فقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا كثُر قراؤكم» يدلُّ علىٰ أن كثرة القراءة والقراء لا تفيد شيئًا.

وقوله: «وقل فقهاؤكم» هذه هي الآفة، وهي قلة وجود الفقهاء أو انعدامهم. =

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٥٩٠)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

[ذكر ما يمكن أن يهدم الإسلام]

٩٩- وعن زياد بن حُدير رضي الله عنه قال: قال لي عمرُ رضي الله عنه: «هل تَعرفُ ما يَهدمُ الإسلام؟ قلت: لا. قال: يَهدِمُه زَلَّةُ العالم، وَجِدَالُ المُنافقِ بالكتاب، وحُكمُ الأئمةِ المضلِّين». رواه الدارمي أيضًا(١)[١١٧].

وقوله: «وكثرت أموالكم، وقل أُمناؤكم» حيث يفشو المال في آخر الزمان، وتُنزع الأمانة من قلوب الناس، فيكثر الخداع والغش والكذب في معاملاتهم.

وقوله: «والتُمست الدُّنيا بعمل الآخرة؛ وتفقِّه لغير الدِّين» هذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١٥]. يعني: يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ويتعلَّم العلم الشرعي؛ لأجل الوظيفة وحمل الشهادة لا رغبةً في العلم، ويكون النظر دائمًا للمستقبل الدُّنيوي لا الأخروي.

وهذا واضح من عمل بعض الناس اليوم حيث يطلبون الدُّنيا في أمور الآخرة إلا مَنْ رحم الله، فالواجب علىٰ المسلم أن يُخلص عمله لله تعالىٰ، وهذه الأحوال هي التي تكثُر فيها البدع والمنكرات؛ لأن كلَّ واحد منهمك في دُنياه.

[١١٧] هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أميرِ المؤمنين، وقد بيَّن ما يمكن أن يهدم الدِّين، ويسيء إلىٰ الإسلام وأهله.

فقوله: «زلة العالمِ» لأن العالِمَ إذا أخطأ وأفتىٰ بفتوىٰ خاطئة؛ اتَّخذها الناسُ علىٰ أنها فتوىٰ من عالم، وهذا مما يوجب علىٰ العالم الحذر من الإقدام علىٰ الفتوىٰ إلَّا إذا تثبت من دليلها من كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يتسرَّع في =

---

(١) في «سننه» (١/ ٨٢) (٩٩).

....

الفتوىٰ فيُفتي ويأخذها الناس علىٰ أنها صواب؛ لأنها من عالم، بخلاف فتوىٰ العوامِّ الذين لا عبرة بما يصدر منهم؛ لأن الناس يعرفون أنه لا يصلح للفتوىٰ، ولكن المشكلة أن يصدر الخطأ في الفتوىٰ من العالم المعروف بالعلم! وهذا مما يؤكِّد ويُوجب علىٰ العلماء أن يتأكَّدوا ويتحرَّوا ويتثبَّتوا في الفتوىٰ؛ لئلا يخطئوا فتصير فتواهم حجَّة للناس والعوامِّ فيأخذون بها، وهي خطأ.

وقوله: «وجدال المنافق بالكتاب» المنافق: هو الذي يُظهر الإسلام، ويُبطن الكفر، ويحفظ القرآن ويقرأ الكتب، ويتعلَّم حتىٰ يكون عليم اللسان لا عليم القلب، فتراه يُجادل بالكتاب والسُّنة؛ لأنه يحفظ النُّصوص ويغرِّر بالناس، كما يفعل بعض الكُتَّاب في وقتنا الحاضر الذين يلتمسون بعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث الشريفة للدلالة علىٰ مقالاتهم الضالَّة، وفي هذا خطر عظيم؛ لأنه إذا ما برز المنافقون في الكتابة والتأليف والخطب والمحاضرات والندوات، فستكون الأمةُ علىٰ خطر؛ لأن الناس لا يعلمون نفاقهم، ولا يعلمون أنهم لا يفهمون الكتاب والسنة، فإنهم إذا ما سمعوا الآية أو الحديث ربما يقتنعون بما صدر عن هؤلاء.

وقوله: «وحُكم الأئمة المضلِّين» والمراد بهم السلاطين المضلُّون الجبابرة الذين لا يريدون الحقَّ، فهم يهدمون الإسلام؛ لأن الناس يتبعونهم، إما خوفًا من سطوتهم، وإما رغبةً فيما عندهم من حُطام الدُّنيا، فأخطر ما يكون علىٰ المسلمين هؤلاء الأصناف الثلاثة، وقد قال ﷺ: **«إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلِّين»**[(١)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٣)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

[الدعوة إلى الاقتداء بالسَّلف الصالح]

١٠٠- وعن حذيفةَ ﵁ قال: «كلُّ عبادةٍ لا يتعبَّدُها أصحابُ رسولُ الله ﷺ فلا تَعبَّدوها، فإن الأوَّلَ لم يَدَعْ للآخِرِ مَقالًا، فاتقوا الله يا معشر القرَّاء، وخُذُوا طريق مَنْ كان قَبلكم». رواه أبو داود[1][١١٨].

---

[١١٨] هذا مرَّ نحوه في حديث عبد الله بن عمرو ﵁ والذي فيه قوله ﷺ: **«كلُّهم في النار إلا واحدة»** قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: **«ما أنا عليه وأصحابي»**[2]. وهنا يقول حذيفةُ ﵁: **كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها.**

فالصحابة هم القدوة بعد الرَّسول ﷺ؛ لأنهم تلاميذ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وأخذوا وتلقَّوا العلمَ عنه، وقد قال ﷺ: **«خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونَهُم»**[3]، فهم أفضل الأمة، وهم القدوة بعد الرسول ﷺ؛ لأنهم أُمناء علىٰ دين الله، فيؤخذ عنهم العلم والدِّين.

وقوله: «فإنَّ الأوَّلَ لم يَدَع للآخِر مقالًا» أول الأمة؛ وهم الصحابة والتابعون والقرون المفضَّلة لم يَدَعوا لمن جاء بعدهم مقالًا، فقد بيَّنوا الدِّين وبيَّنوا الحقَّ وقعَّدوا القواعد، فهذا فيه الترغيب بالتمسُّك بما كان عليه السلف الصالح، وفيه التحذير ممن جاء بعد القرون المفضلة؛ إلا مَنْ كان سائرًا علىٰ ما كان عليه السلف الصالح من الأئمة الهُداة.

---

(١) ليس عند أبي داود، وأخرجه بنحوه البخاري (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ﵁.

١٠١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مَنْ كان مُسْتنًّا فليستَنَّ بمِن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمَن عليه الفتنةُ، أولئك أصحابُ محمَّد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قُلوبًا، وأَعْمَقَها علمًا، وأَقلَّها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فَضلَهم، واتَّبعوهم علىٰ أثرِهم، وتمسَّكوا بما استطعتُم من أخلاقهم وسِيَرِهم، فإنهم كانوا علىٰ الهُدىٰ المستقيم». رواه رزين[1][١١٩].

=

وقوله: «فاتقوا الله، يا معشر القراء، وخذوا طريق مَن كان قبلكم» أي: اتبعوا سبيل العلماء، الذين يقرءون كتاب الله ويتَّبعون سُنَّة رسول الله ﷺ، ولا تُحدِثوا شيئًا من عندكم، أو تأخذوا عمَّن جاء بعد هؤلاء.

[١١٩] وهذا الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه الذي كانت كلماته كلها حكمة ونور، التي رسم فيها الطريق الصحيح التي من خلالها يصل المسلم إلىٰ السُّنة الصحيحة، دون انحراف أو اعوجاج عن الصراط المستقيم.

فقوله: «مَنْ كان مُستنًّا فليستنَّ بمن قد مات» لأن الميت قد انتهىٰ، ولا يُخشىٰ عليه من الفتنة، وأمَّا الحيُّ فإنه عرضة للفتن، فمن أراد الاقتداء فليقتدِ بالأئمَّة السابقين، وأمَّا بالنسبة لمَنْ جاء بعدهم، فإنه يؤخذ منهم ما وافَقَ الحقَّ، ويُترك ما خالفه.

وقوله: «أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل الأمة ..» وهذا مثل قول حذيفة الذي سبق في الأثر السابق، القائل فيه: «كلُّ عبادة لا يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ، فلا تعبَّدوها». لِمَا في الصحابة -رضوان الله عليهم- من الصفات التي لا توجد في غيرهم من هذه الأمة؛ لأنهم كانوا «أبرَّها قلوبًا، وأعمَقها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا» فقلوبهم رضي الله عنهم من أتقىٰ قلوب هذه الأمة، وعلمُهم راسخ وليس =

(١) كما في «مشكاة المصابيح» (١/ ٤٢).

[تحريم المجادلة في كتاب الله]

١٠٢- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: «سمع النبيُّ ﷺ قومًا يَتدارءونَ في القرآن، فقال: إنَّما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم بهذا، ضربوا كتابَ الله بعضه ببعض، وإنَّما نُزِّل كتابُ الله يصدِّقُ بعضُه بعضًا، فلا تُكذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتُم منه فقولوا، وما جَهِلتُم فَكِلُوه إلىٰ عالمِهِ». رواه أحمد، وابن ماجه[1] [١٢٠].

متذبذبًا، وإنما هو ثابتٌ علىٰ الكتاب والسُّنة، ولا يتكلَّفون الكلام وكثرته، وإنما يقتصر كلامهم علىٰ الإفادة.

ولهذا يقول ابن رجب: «كان المتقدِّمون أكثر علمًا، وأقلَّ كلامًا، والمتأخِّرون أكثر كلامًا وأقلَّ علمًا».

وقوله: «اختارهم الله لصحبة نبيِّهﷺ، ولإقامة دينه» لأنه سبحانه ما اختارهم إلَّا لعلمه بأنهم يصلحون لخلافة النبيﷺ لأمته.

وقوله: «فاعرفوا لهم فضلهم» فلا تتنقَّصوهم، أو تتكلَّموا فيهم كما يفعل المبتدعة، وأهل الضلال من الرافضة والمعتزلة وغيرهم، بخلاف أهل السُّنة الذين يقدِّرون الصحابة ويحترمونهم ويجلُّونهم ويترضَّون عنهم، ويقتدون بهم، ويثقون بهم تمام الثقة.

[١٢٠] إن القرآن كلام الله ﷻ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. وقد فُصِّلت آياته، ويصدِّق بعضُه بعضًا ويفسِّر بعضُه بعضًا.

---

(١) أحمد في «المسند» (٦٩٤٧)، وابن ماجه بمعناه (٨٥).

قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

فكلام الله -جلَّ وعلا- معصوم من الاختلاف، ومن أن يُناقض بعضُه بعضًا؛ بل يصدِّق بعضُه بعضًا، ويُفسِّر بعضُه بعضًا، وقد قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧].

فهناك آيات واضحة في نفسها، وهي المُحكمة، وهناك آيات يحتاج في تفسيرها لآيات أخرىٰ؛ لأنه لا يتَّضح المطلوب منها في نفسها؛ بل لابدَّ من ضمِّها إلىٰ الآيات المحكَمة لتفسِّرها.

فطريقة الراسخين في العلم أنهم يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض، فالمُطلق منه تقيِّده آيات أخرىٰ، والمُجمل توضِّحه آيات أخرىٰ، وهناك آيات منسوخة تنسخها آيات أخرىٰ، وهذا يحتاج إلىٰ معرفة بكتاب الله ﷻ، فلا يجوز للإنسان أن يَدْخُل في تفسير كتاب الله دون أن يكون عنده أصول يعرف بها كيف يفسِّر كلام الله، ولذلك وضع العلماء قواعد للتفسير تسمىٰ أصول التفسير، ولابدَّ لطالب العلم أن يعرف هذه القواعد وهذه الأصول.

وأما الذين في قلوبهم زيغ، وهدفهم التلبيس علىٰ الناس، وتشكيكهم في دينهم، فإنهم يأخذون المتشابه، ويستدلون به دون أن يردُّوه إلىٰ المُحكَم، وسيأتي في الحديث: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذروهم»[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

=

وهناك صنفٌ آخر ليس عندهم زيغ، وإنما عندهم جهل، فلا يُتقنون تفسير القرآن علىٰ الوجه المطلوب، فيأخذون الآيات المتشابهات دون أن يردُّوها إلىٰ المحكمة، ويستدلون بها لا عن زيغٍ؛ ولكن عن جهل، وهذا حرام ولا يجوز، والأول كفر؛ لأن الذي يقصد التلبيس فهو كافر.

وأما الذي حمله الجهلُ علىٰ هذا المدخل فهذا يعتبر ضالًّا، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ قال في القرآن بغير علمٍ؛ فليتبوَّأ مَقعدَه من النار**»[١]، وقال: «**مَن قال في كتاب الله** ﷻ **فقد أخطأ ولو أصاب**»[٢].

فكتابُ الله -جلَّ وعلا-؛ يُجلُّ ويُعظَّم، فلا ينبغي أن يدخل في تفسيره والاستدلال به إلا أهل العلم والرُّسوخ، قال تعالىٰ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ [آل عمران: ٧]. والأم هي التي يرجع إليها الشيء ﴿**وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ**﴾ والناس في ذلك قد انقسموا إلىٰ قسمين:

الأول: وهم أهل الزِّيغ الذين أخذوا المتشابه، وتركوا المُحكَم بقصد التضليل.

الثاني: وهم أهل الرسوخ في العلم، وهم الذين يردُّون المتشابه إلىٰ المحكم، ويقولون: كلٌّ من عند ربِّنا، المحكَم والمتشابه، فلا يأخذون طرفًا ويتركون الطرف الثاني؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضًا.

والنبيُّ ﷺ في هذا الحديث خرج علىٰ الصحابة، وهم يبحثون في بعض الآيات المشكِلَة، فوجَّههم ﷺ وقال: «**فلا تكذِّبوا بعضَه ببعض، فما عَلمتم منه فقولوا، وما جهِلتم فكِلُوه إلىٰ عالِمه**» لأن الذي لا يُحسن ولا يتقن فهم كلام الله =

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٦٩)، والترمذي (٢٩٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

....

=

لا يدخل في تفسيره، ويتقوَّل علىٰ الله بأنه أراد كذا وكذا، ففي هذا خطر عظيم عليه، وعلىٰ غيره، فإذا كان لا يعلم فليتوقَّف ويرُدَّ عِلْمَهُ إلىٰ عالِمه ﷻ.

والحاصل: أن كلام الله ﷻ لا يجوز الخوض فيه إلا بعلم وبصيرة وإلمام بقواعد وضوابط تفسيره.

وقوله: «يتدارءون في القرآن» أي: يتدافعون فيُبدي كلُّ واحد رأيه ويخطِّئ الآخر فيختلفون في تفسيره.

وقوله: «**إنما هلَكَ مَنْ كان قبلكم**» أي: من اليهود والنصارىٰ، فحرَّفوا التوراة والإنجيل وغيَّروا فيهما فهلكوا.

وقوله: «**ضربوا كتاب الله بعضه ببعض**» يعني: جعلوا بعضَه يُعارض بعضًا في حين أنه لا يتعارض أبدًا؛ ولكن هذا يحتاج إلىٰ علم وبصيرة؛ لئلا يقع هذا التعارض المزعوم.

وقوله: «**وإنما نزَّل كتابُ الله يُصدِّق بعضَه بعضًا..**» إلخ. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فالآيتان مختلفتان في الظاهر، فواحدة تُوجب العِدَّة سنة، والأخرىٰ توجب العدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام فالعدَّة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام.

وفي هذا يقول العلماء: إن آية الحول منسوخة بآية الأربعة أشهر وعشرة أيام، فالعدة للوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وأما المتاع للحول فهذا كان في أول الأمر ثم نُسخ، والقرآن يدخله النسخ. قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ=

﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. فلا تعارض بين الآيتين لأن العمل على الآية الأولى، وأما الثانية فهي منسوخة.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]. فهذه فيها الأمر بالوصية للوالدين، وهي منسوخة بآية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

وقال النبيُّ ﷺ «**إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث**»[١]. فلا يُجمع للوالدين بين الميراث والوصية، ومثل هذا الاستنباط والفهم يحتاج إلى علم وبصيرة، وأصول التفسير تُبيِّن هذه القواعد، وتوضِّحها، وكذلك سُنة الرسول ﷺ تُفسِّر القرآن وتوضِّحه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فلم تذكر الآية من أين تُقطع اليد، ولكنَّ الرسول ﷺ بيَّن أنها تُقطع من مَفصِل الكفِّ من الذِّراع، فقد بيَّنَتْهُ السنة العملية من الرسول ﷺ ثم لم تذكر الآية أيتهما تقطع اليمنى أم اليسرى، وقد جاء في قراءة: ﴿**فاقطعوا أيمانهما**﴾[٢]. فهذه القراءة تفسِّر المطلق، وهذا يحتاج إلى سعة علم وبصيرة.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) وبها قرأ ابن مسعود رضي الله عنه انظر: «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٤/ ٥٦٩).

باب التحريض على طَلَب العلم وكيفية الطَّلب

١٠٣- فيه حديث الصحيحين[(١)] -في فتنة القبر-: «أن المُنعَّم يقول: جاءنا بالبينات والهدىٰ؛ فآمنا وأجبنا واتَّبعنا، وأنَّ المُعذَّبَ يقول: سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقُلتُه» [١٢١].

=

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فلم يذكر في الآية عدد الركعات وهيئاتها، ولا عدد الصلوات، فلا نجد بيان هذا وتوضيحه إلا في السنة النبوية الشريفة، وقد بُيِّن في آيات أخرىٰ أوقات الصلوات، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨]. فيفسِّر القرآن بعضه بعضًا، والسنة كذلك تفسِّره.

ومن ذلك لا نجد مقادير الزكاة المستحقة من الأغنياء للفقراء، وما هي الأموال التي تجب فيها، ومتىٰ تَجِبُ، وكم النِّصاب، فهذا وغيره بينتهُ السنة النبوية الشريفة، فلابدَّ من التعقُّل في هذه الأمور، وتركها لأصحاب الرُّسوخ في العلم الذين يفسِّرون كلام الله بعضه ببعض أو بسُنَّة رسوله ﷺ القولية والعملية.

[١٢١] هذا الحديثُ فيه ذمُّ التقليد الأعمىٰ، وذلك أنَّ المعذَّب هو المقلِّد الذي يقول: «سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه» لأنه لا يؤمن به ولم يتعلَّم كتابَ الله =

---

(١) البخاري (٧٢٨٧)، ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

[فضيلة التفقُّه في الدِّين]

١٠٤- وفيهما[(١)]، عن معاوية رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدين»[١٢٢].

=

وسنة رسوله ﷺ، ولا حاول أن يتعلَّم أمورَ دينه؛ لأنه لا يهتم به، وإنما أخذ الدِّينَ بالتقليد فقط، وهذا مما ينبغي ألَّا يكون؛ لأنَّ الواجب على المسلم أن يتعلَّم أمور دينه، والعقيدة لا يجوز فيها التقليد مطلقًا.

فلابدَّ للإنسان من أن يتعلَّم عقيدته، إمَّا مجملةً، وإما مفصلة حسب الاستطاعة ولا يقلِّد أحدًا فيها، وهذا هو الذي يقول فيه المعذَّب: سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلتُه؛ بعدما يُجيب بـ: لا أدري إذا ما سئل عن ربِّه ودينه ونبيه؛ فالتقليد في العقيدة لا يجوز؛ ولابد من تعلُّمها وأقل الأحوال في ذلك أن يتعلَّم المختصرات في العقيدة المشتملة على أنواع التوحيد وأنواع الشِّرك، وما يتعلق بهما حتى يعبد الله على بصيرة.

ويتعلَّم معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويعرف مَنْ هو الرسول ﷺ، فيعرف اسمه، ونسبه، وموطنه، ومتى بُعث -عليه الصلاة والسلام-، ويعرف سيرته، وأين بُعث، وأين هاجر، فلابدَّ من معرفة ذلك.

وينبغي كذلك معرفة الدِّين، وأركان الإسلام الخمسة، ومعرفة ما هو الإسلام، وتعريفه وحقيقته ومعرفة الأركان الستة للإيمان.

[١٢٢] في هذا الحديث الوارد في الصحيحين، من حديث معاوية رضي الله عنه =

---

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

الحثُّ علىٰ التفقُّه في الدِّين، وأنه علىٰ الإنسان ألَّا يجهل أمور دينه؛ بل لابدَّ له من أن يتفقَّه في أمور دينه، والفقه معناه الفهم، والمراد به هنا فَهْم أمور دينه علىٰ وجهٍ يتمكَّن فيه من الإتيان به علىٰ الوجه المطلوب والمشروع، لا عن جهل وتقليد، وإنما عن علم وبصيرة.

فالفقه في الدِّين معناه: الفهم في الدِّين ومعرفته؛ وذلك بتعلُّمه، فمن اعتنىٰ بدينه وتعلَّمه كان ذلك دليلًا علىٰ أن الله أراد به خيرًا، ومن لم يتعلَّم ولم يتفقَّه أمور دينه كان ذلك دليلًا علىٰ أن الله أراد به شرًّا، فمنطوق الحديث أنَّ من علامة الخير هو تفقُّه الإنسان في دينه، ومن علامة الشرِّ أن يجهل الإنسان أمور دينه.

والفقه علىٰ قسمين:

الأول: فرض عين علىٰ كل مسلم.

والثاني: فرض كفاية.

فالذي هو فرضٌ علىٰ الأعيان، هو تعلُّم أركان الإسلام الخمسة: التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج، فيتفقَّه المسلم في هذه الأركان، ويعرف معناها لأجل أن يؤدِّيها علىٰ بصيرة، وهذا لا يُعذر أحدٌ بجهله، فإن جهله أحدٌ فهو علىٰ خطر عظيم، فتعلُّم الإنسان ما لا يستقيم دينه إلَّا به فهو فرضُ عين.

وأما ما زاد علىٰ ذلك من فقه المعاملات والمواريث والأنكحة والطلاق والقضاء فهو فرض كفاية إذا قام به مَن يكفي من الأمة سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركوه كلهم أَثِموا جميعًا؛ لأنه لابدَّ وأن يوجد هذا العلم حتىٰ يقوم العلماء في الحكم به بين الناس في معاملاتهم ومواريثهم وأنكحتهم وفي القضاء فيما بينهم.

١٠٥-وفيهما(١) عن أبي موسىٰ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ ما بعثني الله بِهِ من الهدىٰ والعلم، كمثل الغيثِ الكثيرِ، أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلَتِ الماء؛ فأنبَتتِ الكلأ والعُشبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسَكَتِ الماء، فنَفَع الله بها الناس، فشَربوا وسَقَوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرىٰ، إنما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً، ولا تُنبتُ كلأً، فذلَك مثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله، ونَفَعَه ما بَعثَني الله به، فعَلِمَ وعلَّم، ومثل مَنْ لم يَرفعْ بذلك رأسًا، ولم يَقبل هُدىٰ الله الذي أُرسلتُ به» [١٢٣].

---

[١٢٣] هذا الحديث متضمن للأمثلة النبوية؛ والله -جلَّ وعلا- يَضرب الأمثال للناس، وكذلك النبيُّ ﷺ يضرب الأمثال لتوضيح الأحكام وترسيخها في الأذهان، وهذا مثلٌ عظيم من الأمثال النبوية.

فقد شبَّه النبيُّ ﷺ العلمَ الذي جاء به من الكتاب والسُّنة بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض فأحياها، وكذلك العلم فإنه تحيا به القلوب، ثم قسَّم ﷺ الناس مع العلم إلىٰ ثلاثة أقسام كأقسام الأرض تمامًا، فالأرض إذا نزل عليها المطر تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يحفظ الماء في الخوابي والأتربة فيُنبت الكلأ والعشب.

فيجتمع فيه حفظ الماء والإنبات، فينتفع الناس بالسقي والري، وينتفعون بالعشب والكلأ، وهذا مثله كمثل الفقهاء المحدِّثين الذين حفظوا النُّصوص وتفقَّهُوا فيها، وبيَّنوا فقهها للناس فشرحوها ووضَّحوها، كالأرض التي جمعت الماء، وأنبتت الكلأ، فَحِفظُ العلماء للنصوص والأحاديث مَثله كمثل جمع الماء في الغدران وفي =

---

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

باطن الأرض، وتفقههم مثله كمثل إنبات الكلأ، فهؤلاء يُقال لهم: فقهاء الحديث، كالإمام أحمد، والشافعي، ومالك، والبخاري ونحوهم ممن جمع بين الحفظ والفهم الذي هو الفقه، وهؤلاء أفضل طبقات العلماء.

والقسم الثاني: هي الأرض الصُّلْبة التي لا تُنبت، ولا تُنتج؛ ولكنها مشتملةٌ علىٰ مخابي الماء التي ينتفع بها الناس، فيشربون منها، ومَثَل ذلك كمَثَل حُفَّاظ الحديث والنصوص الذين اعتنوا بأسانيدها وميَّزوا الصحيح منها من غيره، فاعتَنَوا بحفظ السُّنة دون أن يكون لديهم فقه بهذه النصوص.

فكما تنفع الأرض الجدباء التي تحتفظ بالماء الذي ينتفع به الناس، فكذلك ينفع هؤلاء الحفاظ الناسَ بما حفظوه لهم من النصوص التي نفع الله بها بسبب حفظهم لسُنة نبيهﷺ، وتدوينهم لها، فهؤلاء فيهم خير كثير لا يصل إلىٰ درجة الصنف الأول الذين جمعوا بين الحفظ والفقه.

والقسم الثالث: الأرض الجدباء التي لا تُمسك ماء، ولا تُنبت كلأً، وهذه مَثَلُها كمثل الذين لا يحفظون ولا يتفقَّهون، وهذا القسم هو شرُّ الأقسام، الذي لا يُستفاد منه بشيء كالأرض السَّبِخة التي لا تنتفع بالماء، ولا تُمسِكُه لينتفع به الناس، وكذا هذا النوع الثالث من الناس الذين ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهامٌ واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه فلا هم نفعوا أنفسهم، ولا غيرهم.

وفي هذا الحديث أنواعٌ من العلم منها ضربُ الأمثال، وفضل العلم والتعليم وشدَّة الحثِّ عليه وذم الإعراض عنه.

١٠٦- ولهما(١) عن عائشة رضي الله عنها، مرفوعًا: «إذا رأيتُم الذين يَتَّبعون ما تَشَابه منه، فأولئك الذين سَمَّىٰ الله؛ فاحذروهم» [١٢٤].

---

[١٢٤] هذا الحديث سبق ذكره في مسألة المتشابه من القرآن، وذكرنا أن المتشابه هو الذي لا يتَّضح معناه بنفسه، وإنما بإرجاعه إلىٰ غيره من النصوص، وهذا لا يُستدلُّ به منفردًا؛ بل يُرجع فيه إلىٰ المحكم فيُردُّ إليه ليُفسِّره.

فالراسخون في العلم يجمعون بين النصوص، فيردون المتشابه إلىٰ المحكم، وأما أهل الزَّيغ فيأخذون المتشابه، ويتركون المحكم؛ ولهذا قال ﷺ: «**إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّىٰ الله**» والمراد من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. يعني: تفسيره بمفرده، وهو لا يفسَّر إلَّا بردِّه إلىٰ المُحكَم، ولا يفسَّر بالرأي، هذا إذا أُريد بالتأويل: التفسير.

وأمَّا إذا أُريد بالتأويل ما تئول إليه هذه الأخبار في المستقبل فهذا لا يعلمه إلَّا الله، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. والمراد بتأويله هنا: مآلهُ، ويوسف عليه السلام لما رفع أبويه علىٰ العرش وخرُّوا له سجدًا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ﴾ وتأويلها: مآلها ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]. فالتأويل علىٰ قسمين:

الأول: تأويل يُراد به التفسير، وهذا يعرفه العلماء الراسخون في العلم.

الثاني: تأويل يراد به ما يئول إليه المغيَّب من الأخبار كأخبار الآخرة والجنة والنار، فهذه لا تُعلمُ حقيقته إلَّا إذا وقعت مستقبلًا، وهذا لا يعلمه إلا الله -جلَّ وعلا-.

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

[مَنْ هم حواريُّو الأنبياء]

١٠٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نبيٍّ بعثَه الله في أُمَّتِه قبلي إلَّا كان له مِنْ أُمَّتِه حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسُنَّتِه، ويقتدون بأمره، ثم إنَّها تَخلُفُ من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يَفعلون، ويَفعلونَ مَا لا يؤمرونَ، فمَن جاهدَهم بيده فهو مؤمنٌ، ومَنْ جاهَدَهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومَنْ جاهدَهم بقَلبه فهو مؤمنٌ، وليس وراءَ ذلك مِنَ الإيمان حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رواه مسلم(١)[١٢٥].

---

[١٢٥] في هذا الحديثُ بيانُ أن الأنبياء عليهم السلام يكون لهم أصحاب وحواريُّون؛ أي: أنصار ينصرونهم، ويأخذون عنهم العلم، ويتلقَّون عنهم الشريعة، ويعملون بها، وهؤلاء الذين أخذوا عن رسول الله ﷺ هم خير القرون، كما قال ﷺ: «خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢).

وذلك لأنهم تلقَّوا عنه ﷺ الكتابَ والسُّنة والشريعة فبلَّغوها بأمانة وعملوا بها، فهؤلاء الذين يكونون مع الأنبياء من الحواريِّين والأنصار وهم أفضل الأمم.

وقوله ﷺ: «تخلُفُ مِنْ بعدهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون» وهم المتأخِّرون الذين يخالف قولُهم فِعلَهم، فلا يعملون بما علموه من الحقِّ، وإنما يعملون أشياء لم يؤمروا بها، ويتعبَّدون بأشياء ابتدعوها من عند أنفسهم وبمحدثات أحدثوها، فيتركون السُّنن ويعملون بالبدع والمحدثات، وهذا شيء واقع، فنجد كثيرًا من هؤلاء الآن لا يلتفتون إلىٰ السنن وإنما يحرصون

---

(١) برقم (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

....

=

علىٰ العمل بالبدع، فلا يُبالون بالسُّنن والأوامر الإلهية وإنما يعبدون الله علىٰ حسب ما تستحسنه أهواؤهم وما يأمرهم به أكابرهم وقادتهم، فهم يفعلون ما لا يؤمرون.

وفي هذا بيان الفَرْق بين السَّلف والخَلَفِ، وهو أن السَّلف يتقيَّدون بأوامر الله وسنة رسوله ﷺ في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم فيتمثَّلون الكتاب والسنة ويتجنبون البدع والمحدثات، وأما الخلف فعلىٰ العكس من ذلك، فهم يتركون السُّنن ويعملون بالبدع والمحدثات.

وقوله ﷺ: **«فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن»** وهذا كقوله ﷺ: **«مَنْ رأىٰ منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»**[1]. فعلىٰ أصحاب السلطة مجاهدة هؤلاء المبتدعة، وأصحاب الضلال باليد، ومَنْعِهم من هذه الأمور، ومَنْ لم يكن عنده سلطة ولديه علم فإنه يجاهدهم باللسان، وذلك بالردِّ والتعقيب عليهم، وبيان الباطل الذي يعملون به، ومَنْ لم يكن عنده علم ولا سلطة، فإنه يكرههم بقلبه ويترك ما هم عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[النهي عن الأخذ من اليهود والنصارى]

١٠٨- وعن جابرٍ رضي الله عنه، أنَّ عمرَ رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، إنَّا نسمعُ أحاديث من يهود تُعْجِبُنا، أفترىٰ أن نكتب بعضها؟ فقال ﷺ: أَمُتَهوِّكون أنتم كما تَهوَّكت اليهود والنصارىٰ؟! لقد جئتُكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسىٰ حيًّا، ما وَسِعَه إلَّا اتِّباعي». رواه أحمد[1] [١٢٦].

---

[١٢٦] لقد قال ما قاله ﷺ في الحديث؛ لأن شريعته شريعة كاملة؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فهي شريعة كاملة وشاملة لمتطلبات الناس إلىٰ أن تقوم الساعةُ، وهي أيضًا شريعة ناسخة لما قبلها من الشرائع، فيجب العمل بالناسخ وتَرْكِ المنسوخ.

فلا يجوز لنا أن نأتي بشيء من التوراة أو من الإنجيل، وننشره بين الناس؛ لأن في شريعتنا ما يكفي الجن والإنس، ويكفي لجميع الأزمان إلىٰ أن تقوم الساعة.

فينبغي الاقتصار علىٰ سُنة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أنكر علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رأىٰ معه أوراقًا من التوراة، وقال له: «إنا نسمع أحاديث من يهود فتعجبنا، أفترىٰ أن نكتب بعضها؟ فقال ﷺ: «لو كان موسىٰ حيًّا، ما وسعه إلا اتِّباعي». وذلك لأن شريعة موسىٰ نُسخت، وأُمر الجميع باتِّباع الرسول ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ =

---

(١) في «المسند» برقم (١٥١٥٦).

[أقسام أمور الدِّين]

١٠٩- وعن أبي ثعلبة الخُشَني ﷺ، مرفوعًا: «**إنَّ الله فَرَضَ فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحَدَّ حُدودًا فلا تَعْتَدُوها، وحرَّم أشياءَ فلا تَنتَهِكوها، وسكتَ عن أشياءَ رحمةً لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**». حديثٌ حسنٌ، رواه الدارقطني وغيره[1][١٢٧].

عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يسمعُ بي يهودي، ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[2]. فالذي يبقىٰ علىٰ النصرانية بعد بعثة الرسول ﷺ، أو يبقىٰ علىٰ اليهودية إنما هو من أهل النار؛ لأنه ترك ما أمره الله به من اتِّباع هذا الرسول ﷺ.

[١٢٧] ذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ أمور الدِّين علىٰ أربعة أقسام:

الأول: الواجبات والفرائض، وهذا لا يجوز أن يُضيَّع شيء منها؛ بل يجب الإتيان بها.

والثاني: المحرمات التي حرَّمها الله، وهذه يجبُ تجنُّبها والابتعاد عنها، وعدم فِعْلِ شيء منها.

---

(١) الدارقطني (٤/ ١٩٣) (٤٢)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣/ ١٢) (١٢٥٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

=

الثالث: الحُدود، وهي المباحات التي أباحها الله وأحلَّها للناس، فلا ينبغي تعدِّي الحلال إلىٰ الحرام؛ قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحدود الله تُطلق، ويُراد بها المباحات، فيُقال: لا تعتدوها، وتطلق ويراد بها المحرمات فيقال: فلا تقربوها؛ يعني: ابتعدوا عنها وعن الوسائل الموصلة إليها، وأمَّا المباحات فلا تتعدُّوها إلىٰ الحرام.

الرابع: المسكوت عنه الذي لم يُفرض ولم يُحرَّم ولا يوجد دليل علىٰ إباحته، وسكت الله عنه فنسكتُ عنه، وهذا معفوٌّ عنه، فلا نبحث فيه من حيث هو حلال أم حرام، فلا دليل علىٰ تحريمه، ولا علىٰ إباحته، ولا علىٰ أنه واجب، فيَسَعُنا السكوت عنه؛ لأنه لو كان لنا به حاجة لبيَّنه الله لنا.

وفي هذا الحديث أنه يجب فِعْلُ الواجبات، وتركُ المحرَّمات والاقتصار علىٰ المباحات، والسكوت عن المسكوت عنه، ومثل هذا كان في وقت النبي ﷺ، ولهذا جاء في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

فهل هذا يعني ترك البحث عن المسكوت عنه في عهد الرسول ﷺ أم هو عامٌّ إلىٰ أن تقوم الساعة؟

الظاهر -والله أعلم-: أنه عامٌّ إلىٰ أن تقوم الساعة، فالمسكوت عنه الذي لا دليل علىٰ إيجابه، ولا علىٰ تحريمه، ولا علىٰ إباحته، فإننا نسكت عنه، كما سكت الله عنه، والله -جلَّ وعلا- لم يسكت عنه نسيانًا؛ لأن الله لا ينسىٰ، وإنما سكت عنه رحمةً بالعباد، ولهذا قال عنه ﷺ: «رحمة لكم غير نسيان». =

[النهي عن الاختلاف والتفرّق]

١١٠- وفي الصحيحين[(١)]، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما نَهيتُكُم عنه فاجتَنبوه، وما أمرتُكم به فائتوا منه ما استطعتم، فإنَّما هلكَ مَنْ كان قبلَكُم بكثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم»[١٢٨].

ومن هنا قال العلماء: سؤال أهل العلم علىٰ قسمين:

الأول: السؤال الذي القصد منه التعنُّت والمباهاة، وإظهار العلم مباهاة، وهذا لا يجوز، وهذا مثل أسئلة بني إسرائيل لأنبيائهم كما قال ﷺ: **«إنما أهلك مَنْ كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا نهيتُكُم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم»**[(٢)].

فالسؤال الذي يُقصد به التعنُّت، أو التنطُّع أمر مرفوضٌ ولا يجوز.

الثاني: السؤال الذي يُقصد منه معرفة الحكم الشرعي، فهو مأمورٌ به، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

[١٢٨] قوله ﷺ: **«ما نَهيتُكم عنه فاجتنبوه»** هذا كقوله ﷺ: **«إن الله حرَّم أشياء فلا تنتهكوها»**[(٣)]. فالحرام يُجتنب كلُّه، وأما المأمور به فيؤتىٰ منه بالمستطاع، ولهذا قال ﷺ **«ما أمرتُكم به فائتوا منه ما استطعتم»** بخلاف الحرام فإنه يُجتنب كلُّه، =

---

(١) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ٩٣) (٤٣)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٢) (١٢٥٠٩) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

وذلك لأنَّ اجتنابه سهلٌ.

ولكن قد يكون في المأمورات شيء لا يُستطاع، فقد لا يستطيع المريض أن يتوضَّأ فإنه يتيمَّم، ولا يستطيع أن يصلي قائمًا فيصلِّي جالسًا، فإن لم يستطع فإنه يصلِّي علىٰ جنب، فقد تأتي أحيانًا أحوالٌ لا يستطيع الإنسان فيها أن يُطبِّق الأمر تمامًا فإنه يفعل ما يستطيع منه، وهذا من تيسير الله ﷻ، فالأمر يؤتىٰ منه ما يستطاع؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأمَّا النهي فإنه سهل تجنُّبه؛ ولهذا قال ﷺ: «**وما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه**». أي: كله.

وأما قوله ﷺ: «**فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم**» هذا كحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه السابق في قوله ﷺ: «**وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**».

ويوضِّح ذلك أن الرسول ﷺ قال: «**أيها الناسُ، قد فَرض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا**. فقال رجلٌ: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتىٰ قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ **لو قلت: نعم؛ لوَجَبت ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتُكم، فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيء فدعوه**»[1].

ومثل ذلك ما ذكره الله عن بني إسرائيل حينما أمرهم الله علىٰ لسان نبيه موسىٰ عليه السلام بأنْ يذبحوا بقرة، فلو أنهم أخذوا أيَّ بقرةٍ وذبحوها لحصل المطلوب؛ ولكنهم قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

﴿وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٨-٧١].

شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، وهذا من سوء أدبهم مع الله ﷻ، ولو أنهم أخذوا أيَّ بقرة وذبحوها لحصل المطلوب! وهذا من تعنُّتات بني إسرائيل، وقد نُهينا أن نفعل مثل فعلهم مع نبينا -عليه الصلاة والسلام-، بل أُمرنا أن نتأدَّب معه، ونفعل ما أُمرنا به، أو نفعل ما نستطيع، وما نهانا عنه اجتنبناه، وما سكت عنه نسكت عنه، هذا هو الأدب مع النبوة.

[فضيلة طلب الحديث، والنصيحة للمسلمين]

١١١- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ الله عبدًا سَمِعَ مَقالتي فحفظها ووَعاها وأداها؛ فرُبَّ حامل فقهٍ غيرُ فقيهٍ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلىٰ مَنْ هو أفقَهُ منه: ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلب مسلم: إخلاصُ العمل لله، والنَّصيحةُ للمسلمين، ولُزومُ جماعتِهم، فإنَّ دَعوتَهم تُحيطُ مَن وَراءَهُم». رواه الشافعي، والبيهقي في «المدخل»، ورواه أحمد، وابن ماجه، والدارمي، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه[1].

١١٢- ورواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه[2] [١٢٩].

---

[١٢٩] هذا الحديث يشتمل علىٰ مسألتين:

الأولىٰ: طلب الحديث.

الثاني: النصيحة لله وللمسلمين.

أما الأولىٰ: ففي قوله ﷺ: **«نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها»** ففي هذا الحثُّ علىٰ العناية بسُنَّة الرسول ﷺ، فقوله ﷺ: **«مقالتي»** أي: حديثه ﷺ؛ لأنَّ أحاديث الرسول ﷺ هي الوحي الثاني بعد القرآن الكريم، فهي من عند الله عز وجل، والرسول ﷺ إنما هو مبلِّغ، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

=

---

(١) الشافعي في «مسنده» (١/ ٢٤٠) (١١٩٠)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٢٣)، والترمذي (٢٦٥٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٢٩)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، ولم يخرجه أحمد من حديث زيد.

ولهذا يقول العلماء: السنة هي الوحي الثاني، فهي في الدَّرجة الثانية بعد القرآن في الاحتجاج والعمل؛ ولابدَّ من العناية بها من خلال حفظ الأحاديث، كما جاءت عن الرَّسولﷺ بألفاظها من غير تغيير، والوعي الوارد في قولهﷺ: «**ووَعاها**» معناه الفقه فيها؛ فلا يكفي الحفظ وحده، وإنما الحفظ مع الفقه ومعرفة معانيها، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الفقه مع الحفظ؛ لينتفع المسلمون بسُنَّتِهﷺ.

ولا يكفي أن يحفظ المسلم الأحاديث ويفقه معناها؛ بل لابد وأن يُبلِّغها إلىٰ غيره، فينبغي علىٰ طالب العلم إذا عَلم شيئًا ألَّا يكتمه؛ بل يُبلِّغه إلىٰ غيره؛ لأن هذا العلم للأمة إلىٰ أن تقوم الساعة.

وقولهﷺ: «**فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيهٍ**» لأن حامل الفقه إذا بلَّغه إلىٰ غيره فربما يكون هذا المبلَّغ أعرف لمعناه وأفقَه.

وفي هذا بيان أنه لا ينبغي للمرء أن يُزكِّي نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. فقد يحفظ المرءُ الحديث ولا يتَّضح له معناه، فيُبلِّغه إلىٰ مَنْ هو أفقه منه، فيستنبط منه ما لا يفهمه الحامل له، فإذا بلَّغه برئت ذمَّتُه، وأوصل العلمَ إلىٰ غيره، فيحصل بذلك الخير الكثير.

فيتضح من المسألة الأولىٰ الحثُّ علىٰ حفظ الأحاديث النبوية والتفقُّه في معانيها وإبلاغها للغير من المسلمين.

فيه أيضًا النهي عن كتمان العلم، والنهي عن تزكية النفس وألَّا يرىٰ المرء نفسَه بأنه صار فقيهًا وأنه أفقه من غيره؛ بل هناك مَنْ هو أفقَهُ منه، وهذه سُنة الله في خلقه حيث إن الناس يتفاضلون فيما يُعطيهم الله ﷻ، فإذا خَفِيَ علىٰ أحدهم شيءٌ فهناك من المسلمين مَنْ لا يخفىٰ عليه هذا الشيء، إذا بلغه الحديث أو الخبر،

....

فلا ينبغي للمرء أن يقتصر علىٰ فهمه، أو أنْ يظنَّ أن هذا الحديث لا يُفهم معناه؛ لأن هناك مَنْ يفهم معناه.

المسألة الثانية: تتمثل في قوله ﷺ: «**ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم؛ إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تُحيطُ مَن وَرَاءَهُم**». فقوله ﷺ: «**ثلاث**» أي: ثلاث خصال «**لا يَغِلُّ**» من الغِلِّ، وهو: الحقد، «**عليهنَّ قلبُ مسلم**» بمعنىٰ أن هذه الثلاث خصال تطهِّر قلب المسلم من الغِل الذي هو الحقد والبُغض للمسلمين.

الخصلة الأولىٰ: «إخلاص العمل لله» وهي مما يطهِّر القلب من الحقد، ويجمع القلوب، فإنَّ القلوب إنما اجتمعت علىٰ التوحيد، فالله -جلَّ وعلا- ألَّف بين قلوب المسلمين بكلمة لا إله إلا الله، فلما صار المعبود واحدًا، تألَّفت قلوبهم، ولما كانوا يعبدون آلهة متفرِّقة تعادوا فيما بينهم؛ فالتوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله يوحِّد القلوب ويجمعها علىٰ معبود واحد، وعلىٰ عبادة واحدة؛ فيجب أن يكون العمل خالصًا لله خاليًا من الشِّرك، فلا يُعبد الله ويُعبد معه غيره، فيُذبح ويُنذر لغير الله، ولا تجوز الاستغاثة بالأموات والأولياء والصالحين؛ لأنَّ هذا لا يكون فيه إخلاص لله ﷻ، والله -جلَّ وعلا- لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه وصوابًا علىٰ سُنَّة رسوله ﷺ.

وأما ما كان فيه شركٌ فإنَّ الله لا يقبله، ولا يقبل من المشرك عبادة ولا عملًا، فيحبط عمل المشرك، ولا تبقىٰ له عبادة ولا أجرٌ عند الله ﷻ.

والخصلة الثانية: متمثلة في قوله ﷺ: «**النصيحة للمسلمين**» وتعني عدم الغش، والناصح ضد الغاشّ، فالمسلم لا يغش المسلمين في جميع تصرفاته معهم؛ =

....

وإنما تكون تصرُّفاته معهم علىٰ النصيحة وعدم الغشِّ في جميع الأمور، فلا يخدعهم ولا يغشُّهم في البيع والمعاملات، ولا في المشورة إذا استشاروه، ولا يرضىٰ لهم الخطأ وإنما يريد لهم الصواب؛ لأنه ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه**»[1]. فيكون مع المسلمين ناصحًا لهم في كلِّ الأمور، ولا يُكنُّ لهم الغدر والخيانة والغش والخديعة، فكما أنه لا يرضىٰ لنفسه بذلك، فإنه يجب ألَّا يرضاه لإخوانه المسلمين.

والخصلة الثالثة: متمثِّلة في قوله ﷺ: «**ولزوم جماعتهم**» وهذه خصلة عظيمة، ولذلك فإنه يجب لزوم جماعة المسلمين وعدم مخالفتهم والشُّذوذ عنهم، ولو برأي أو قول أو فعل، وكذلك لا يجوز الخروج علىٰ إمام المسلمين؛ لأن فيه خروجًا علىٰ جماعة المسلمين؛ ولأنه لا تكون جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، وعليه يجب عدم الذهاب مع الأحزاب والجماعات والمذاهب المختلفة، واتباع الأقوال الشاذة؛ بل يجب البقاء مع المسلمين وعلىٰ ما هم عليه في القول والعمل؛ لاسيما عند الفتن والاختلاف.

فإن النبي ﷺ لما أخبر عن الفتن التي تحدث قال له حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: **تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم**. قال: فإن لم يكن لهم جماعةٌ، ولا إمام؟ قال: **فاعتزل تلك الفِرقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

....

=

فعلىٰ المسلم: أن يتجنَّبَ الاختلاف والشِّقاق، ومخالفة المسلمين، ويلزم الجماعة؛ لأن هذا أنجىٰ وأسلم له، وأبعد له عن الفتن، وهذا نحتاجه في هذه الأيام وما بعدها، لكثرة الأهواء والآراء والدَّعوات المُضلِّلة، ولتسلُّط الأعداء وإثارة الشُّبهات والأحقاد، فعلىٰ المرء أن يلزم جماعة المسلمين وألَّا يفترق ويخالف جماعتهم.

وقوله ﷺ: «**فإنَّ دعوتَهم تُحيط مَنْ وراءَهم**» المراد بالدَّعوة هنا: الدَّعوة إلىٰ الإسلام، وأنه إذا اجتمع المسلمون، فإنَّ دعوتهم إلىٰ الإسلام «**تُحيط مَنْ وراءهم**». بمعنىٰ أنها تصل إلىٰ مَنْ سواهم من الخلق، وأنهم إذا اختلفوا فإنهم سيشتغلون بأنفسهم وستنقطع الدَّعوة التي أُمِروا بها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فنحن قد كُلِّفنا بدعوة البشرية، وهي مسئولية حمَّلنا الله إيَّاها؛ لأن الله اختار الرسول ﷺ من العرب، وأنزل القرآن بلغتهم، وأمرهم أن يدعوا الناس، فقال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥]. والبيِّنات جاءت من عند الله تعالىٰ، فيجب التمسُّك بها والاجتماع عليها، لتكون هي مصدر قولنا وفعلنا.

وأما الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فقد توعَّدهم الله بأن لهم عذابًا عظيمًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: أهل الكتاب، وسبب تفرقُّهم، وتركهم للبينات أنهم اتبعوا أهواءهم.

=

[أصل علوم الدِّين ثلاث]

١١٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**العلمُ ثلاثٌ: آيةٌ محكمةٌ، أو سنةٌ قائمةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ، وما كان سوىٰ ذلك، فَهو فَضلٌ**». رواه الدارمي وأبو داود[1][١٣٠].

= فالواجب هو اتِّباع الهدىٰ، وعدم اتِّباع الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦]. ولهذا ينبغي التمسُّك بالهدىٰ وهو الكتاب والسُّنة، ففيهما البيِّنات التي أنزلها الله علينا، فلا عُذر لنا والكتاب والسنة بين أيدينا، فلا ينبغي أن نختلف ونتبع أهواءنا وأقوالَ الناس والقادة والأئمة من أهل الضلال، ونترك حبل الله المتين الذي أُمرنا بالتمسُّك به، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[١٣٠] قوله ﷺ: «**العلمُ ثلاثٌ**» أي: أصل علوم الدِّين ومسائل الشرع التي تَهُمُّ المسلم في دينه ودُنياه.

وقوله: «**آيةٌ محكمة**» أي: من القرآن الكريم؛ والمُحكَم هو غير المنسوخ وغير المُتشابه، فالآية المحكمة هي غير المنسوخة، ولا المتشابهة، وهي الدليل الصريح التي يجب الأخذُ بها، وأمّا الاستدلال بالمتشابه فهي طريقة أهل الزَّيغ، ومن المعلوم أن الأخذ بالمنسوخ لا يجوز؛ لأنه لا يُعمل به، وإنما يعمل بالناسخ، ومَنْ عمل بالمنسوخ اعتُبر ضالًّا، والله -جلَّ وعلا- ينسخ ما يشاء لحكمة، فينبغي الأخذ =

---

(١) أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، ولم نقف عليه عند الدارمي.

....

بالناسخ وترك المنسوخ، والعمل بالمنسوخ ضلال، وهو عمل بغير دليل.

وقوله: «**سُنَّة قائمة**» أي: من سُنن الرسول ﷺ، والسُّنة تُطلق ويراد بها الطريقة التي عليها الرَّسولُ ﷺ، وتطلق على ما ثبت عن الرَّسول ﷺ من قولٍ، أو فِعْلٍ، أو تقرير، وهي الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، فيجب العمل بها بعد كتاب الله -جلَّ وعلا-.

وقوله: «**قائمة**» يعني: ثابتة، إسنادًا أو حكمًا بألَّا تكون منسوخة، وهي الدائمة المستمرة المتصل بها العمل.

وقوله: «**فريضة عادلة**» أي: في المواريث؛ لأن الله سبحانه وتعالى قسَّم المواريث في كتابه الكريم، وفي سُنَّة نبيِّه ﷺ وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يجوز التلاعب بالمواريث وحرمان الوارث وإعطاء غيره؛ لأن الله تعالى لما ذكر المواريث قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فسمَّاها حدودًا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤] فالمواريث من حدود الله عز وجل، فلا يجوز تعدِّيها، ولا التلاعب بها، وإنما يُعمل بها فيُعطىٰ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير.

وفي هذا الحثُّ علىٰ تعلُّم أحكام المواريث، وقد حثَّ ﷺ علىٰ تعلُّمه، وأخبر أنه أوَّل علم يُرفع من الأمة حتىٰ يتنازع الاثنان في فريضة فلا يجدان مَنْ يحكم بينهما.

[تحريم تفسير القرآن بالرأي]

١١٤- وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ في القرآن بِرَأيِهِ، فليتبوأ مَقعدَه مِنَ النار**». رواه الترمذي[١].

١١٥- وفي رواية: «**مَنْ قَالَ في القرآن بغيرِ عِلْمٍ، فليتبوَّأ مقعَدَه مِنَ النَّار**». رواه الترمذي[٢][١٣١].

فتعلُّم المواريث يؤدي إلىٰ وصول الحقوق إلىٰ أصحابها، وهو علمٌ عظيم؛ ولكنه يُنسىٰ كما في الحديث: «**تعلَّموا الفرائض، وعلِّموها، فإنه نصفُ العلم، وهو ينسىٰ، وهو أول شيء يُنزع من أُمَّتي**»[٣]. فهو علمٌ فيه صُعوبة ولابدَّ من المِران والصبر عليه، لئلا تضيع الحقوق والمواريث.

وقوله: «**وما سوىٰ ذلك فهو فَضْلٌ**» أي: وما سوىٰ هذه العلوم الثلاث فهو زيادة، وهي زيادة خير، وعلوم مكمِّلة لهذه الثلاث.

[١٣١] **في هذين الحديثين الوعيد الشديد علىٰ مَنْ فسَّر القرآن برأيه دون رجوع إلىٰ مصادر التفسير الصحيحة، ولهذا شدَّد** ﷺ **علىٰ مَنْ يفسِّر القرآن بغير علم**، وذكر أنه استوجب دخول النار، فقال: «**فليتبوَّأ مقعده من النار**» وجاء في رواية أنه قال: «**مَنْ قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[٤].

---

(١) برقم (٢٩٥١).

(٢) برقم (٢٩٥٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٧١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢) من حديث جندب رضي الله عنه.

....

=

والحديث ساقه ابن كثير في أول «تفسيره» وجوَّد إسناده[١].

ففي الحديثين الوعيد الشديد علىٰ مَنْ يفسِّر القرآن بغير علم أو برأيه؛ لأن القرآن يفسَّر بأربعة أشياء ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في أول «تفسيره»:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن كلام الله يفسِّر بعضُه بعضًا.

الثاني: تفسير القرآن بالسُّنة النبوية؛ لأنَّ الرسول ﷺ؛ مُبيِّن للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

الثالث: تفسير الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ لأنهم تلقَّوا عن الرسول ﷺ تفسير القرآن.

الرابع: تفسير التابعين؛ لأنهم أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله ﷺ.

وهناك طريقة خامسة لتفسير القرآن الكريم، وذلك باللغة العربية التي نزل بها، فأول ما يُبدأ به تفسير القرآن، هو تفسير بعضه ببعض، فإن لم يوجد فمن السُّنة، وإن لم يوجد في السنة فإنه يُفسَّر بتفسير الصحابة، فإن لم يوجد فبتفسير التابعين، فإن لم يوجد فإنه يرجع في ذلك إلىٰ اللغة العربية التي نزل بها.

فهذه هي مصادر التفسير، وليس هناك مصدر آخر غير هذه المصادر، وأما تفسير القرآن بالرأي، ففيه الوعيد الشديد..

ومن هنا نأخذ بأن الذين يفسِّرون القرآن الآن بآرائهم وبالفرضيات الحديثة وبالنظريات أو ما يسمىٰ بالإعجاز العلمي، إنما هم داخلون فيمَن قال في القرآن برأيه، فلا ينبغي أن تُجعل هذه الأمور تفسيرًا لكلام الله تعالىٰ؛ لأنها عمل بشريٌّ =

---

(١) انظر: «تفسيره» (١/ ٦).

[خطورة الإفتاء بغير علم]

١١٦- وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أُفْتِيَ بغير علمٍ، كان إثمُه علىٰ من أفتاه، ومَن أَشار علىٰ أخيه بأمر، يعلم أنَّ الرُّشدَ في غيره؛ فَقد خانَه». رواه أبو داود[1][١٣٢].

= يخطئ ويُصيب، وهذه النظريات تتغيَّر فقد تأتي نظريات أخرىٰ تغيِّرها فلا تُجعل تفسيرًا لكلام الله ﷻ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

[١٣٢] قوله ﷺ: «مَنْ أُفتي بغير علم» هو الجاهل الذي يسأل مَنْ يؤمِّل فيه العلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

فالمستفتي عمل بما أُمر به إذا تحرَّىٰ أعلمَ مَنْ يَجد وأتقاهم، وأمَّا إذا لم يكن قد تحرَّىٰ، وإنما بحث عمَّن يُرخِّص له ويبحث له عن المخارج فهذا ممن لم يسأل أهل الذِّكر، وإنما سأل أصحاب الهوىٰ والجهل، فصار بذلك من أصحاب الهوىٰ والجهل بخلاف الذي تحرَّىٰ أهل العلم وأفضل مَنْ يجدهم ليسألهم، وتكون المسئولية حينئذ علىٰ المفتي إذا أفتاه بغير علم أو بهوًىٰ.

ولهذا قال ﷺ: «كان إثْمُه علىٰ مَنْ أفتاه» فالمستفتي لم يُقصِّر بعد أن بحث في الناس واختار منْ يرىٰ أنه الأحسن، فهو بَذَل وُسْعَه في تحرِّي المفتي الذي يبيِّن له الحقَّ فيجب علىٰ المفتي حينئذ أن يُفتيه بعلم، وإذا لم يكن عنده علم في المسألة فإنه يجب عليه أن يتوقَّف ويقول: الله أعلم، أو اذهب إلىٰ غيري، بخلاف ما لو تسرَّع وأفتىٰ بغير علم، فإنه يكون الإثم حينئذٍ عليه. =

---

(١) برقم (٣٦٥٧).

ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يُجيب في المسائل التي يُسأل عنها، ولم يكن نزل عليه الوحي بعدُ، وإنما كان ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي والعلم من الله -جلَّ وعلا-، فكيف بغيره؟

وقد جاء إلىٰ الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة- رجلٌ من بعيد، وسأل عن أربعين مسألة، فأفتاه في أربع مسائل، وقال في ستٍّ وثلاثين: لا أدري، فقال الرَّجل: «جئتك من بعيد أسألك وتقول: لا أدري؟! فقال له: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري!».

ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ترك العالم لا أدري أُصيبت مقاتله»[1].

فعلىٰ المرء أن يتوقَّف عن المسألة التي لا يعلمها، ولو كان من أكثر أهل بلده علمًا، أو يُحيلَ السائلَ إلىٰ مَنْ هو أعلم منه، فإنه لو فعل ذلك دلَّ هذا علىٰ فَضْله لا علىٰ نَقْصِه، وقد كان العلماء وإلىٰ وقت قريب إذا لم يكن عندهم جواب قالوا: لا ندري، ولا يعتبرون هذا نقصًا، وإنما يعتبرونه من خوف الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي هذا الحديث بيان شدَّة خطر الفتوىٰ، وأنه يجب علىٰ المفتي أن يتثبَّت، ولا يفتي إلا بما ظهر له من الحكم الشرعي، فإن كان عنده علمٌ قال به، وإلا اعتذر عن الإجابة خوف الوقوع في الإثم، وهذا ما كان يفعله سَلفُنا الصالح بخلاف ما نشاهده في وقتنا الحاضر الذي كثُر فيه الجهل، وكثُر المفتون والمفتونون الذين يفتنون الناس، وكثُر المُتعالِمون لقلَّة الورع والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلىٰ مَنْ سُئل وليس عنده معرفة بالجواب، أن يقول: لا أدري؛ فهذا هو المَخرج له أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٢٧٥).

١١٧- وعن معاوية ﷺ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ نَهَىٰ عن الأُغْلوطات». رواه أبو داود أيضًا [(١)]. [١٣٣].

=

وقوله: «**ومَنْ أشار علىٰ أخيه بأمرٍ يعلم أنَّ الرُّشد في غيره فقد خانه**» المشورة نوع من الاستفتاء إلَّا أن المشورة في الاستفتاء تكون في مسائل الشرع، وأما المشورة المذكورة هنا فتكون في أمور التجربة والأمور غير الشرعية.

فالواجب علىٰ مَنِ استُشير: أن يدلَّ من استشاره علىٰ ما يراه خيرًا له، فإن دلَّه علىٰ غير ما يراه خيرًا فقد خانه؛ لأن المستشير كان قد ائتمنه علىٰ أن يدلَّه علىٰ ما يراه، فإذا دلَّه علىٰ غير ما يراه كانت هذه خيانة من المستشار، فالواجب علىٰ المستشار أن يُبدي المشورة الصحيحة.

[١٣٣] قوله: «**الأُغلوطات**» جمع أُغلوطة، وهي: المسائل التي يقصد بها غلط العلماء والمسئولين ليَزِلُّوا فيحصل بذلك شرٌّ وفتنة؛ وهذا لا يجوز، وقد نهىٰ النبيُّ ﷺ عن كثرة السؤال، وقال: «**إنما أهلك الذين مِن قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم**»[(٢)]. فلا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا بقدر ما يحتاج، وأن يترك الأسئلة التي لا يكون بحاجة إليها، ومن باب أَوْلىٰ الأسئلة التي لا يقصد بها الاستفادة، وإنما يقصد بها تغليط العالم، أو تغليط المعلِّم، وهذا أمرٌ لا يجوز.

ولا شكَّ أن العالم مهما بلغ من العلم فربما يغلط؛ لأنه لا يعلم كلَّ شيء، وقد يُفاجأ بسؤال وليس عنده له جواب، فإن أجاب بخطأ أُشْكِل، وإن قال: لا أدري، قد لا يحتمل بعض الناس قوله: لا أدري.

=

---

(١) برقم (٣٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[فضيلة طلب العلم]

١١٨- وعن كثير بن قيسٍ قال: «كُنتُ جالسًا مع أبي الدَّرداء -في مسجدِ دمشق- فجاء رجلٌ، فقال: يا أبا الدَّرداء، إني جئْتُكَ مِنْ مدينة الرَّسول ﷺ؛ لحديثٍ بَلَغَني عنك أنك تُحدِّثُه عن رسول الله ﷺ، ما جئتك لحاجة، قال: فإنِّي سَمْعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **مَنْ سَلَكَ طريقًا يطلب فيه علمًا، سَلَكَ اللهُ به طريقًا إلىٰ الجنَّةِ، وإِنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها رِضًا لطالب العلم، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له مَنْ في السَّموات، ومَنْ في الأرضِ، والحِيتانُ في جَوفِ الماءِ، وإنَّ فَضْلَ العالِمِ علىٰ العابِدِ كَفَضْلِ القَمرِ ليلةَ البَدْر علىٰ سائرِ الكواكب، وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّمَا ورَّثُوا العلمَ، فمَنْ أخذَه، أخذَ بحظٍّ وافِرٍ**». رواه أحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه[1] [١٣٤].

فالواجب علىٰ السائلين: أن يتأدَّبوا في السؤال، فيسألوا بقدر ما يحتاجون، وأن يقصدوا بسؤالهم التعلُّم، لا إظهار فهمهم، أو تغليط المسئول، فإنَّ هذا قد نهىٰ عنه الرسول ﷺ.

[١٣٤] هذا حديثٌ مشهور قد شرحه العلَّامة الإمام ابن رجب الحنبلي في رسالة مستقلَّة، اسمها: «شرح حديث أبي الدرداء»، وأبو الدرداء من أجِلَّةِ صحابة رسول الله ﷺ وعلمائهم، وقد ذهب ﵁ إلىٰ الشام لنشر العلم وتعليم الناس. =

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧١٥)، والدارمي (١/ ١١٠) (٣٤٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)،وابن ماجه (٢٢٣).

قوله: «إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ» فيه فضل الرِّحلة في طلب العلم، ولقاء العلماء مهما كانوا بعيدين، وأنَّ السَّفر وتحمُّل المشاقِّ لأجل طلب العلم ليس بكثير علىٰ هذا المطلب العظيم.

وهذا الرجل الذي سأل أبا الدرداء رضي الله عنه كان قد سافر من المدينة إلىٰ الشام، ومِنَ الصحابة مَن سافر من المدينة إلىٰ مصر لطلب حديث واحد، فقد كانوا رضي الله عنهم يرحلون لطلب العلم، ففي هذا فضل الرِّحلة لطلب العلم.

قوله ﷺ: «**مَنْ سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة**».

أي: إنَّ مَشْيَ طالب العلم وسفرَه يؤدِّي إلىٰ الحق؛ لأنه يطلب العلم، وسلوك الطريق يشمل الطريق الحسِّي للسفر، ويشمل أيضًا الطريق المعنوي لحفظ الأدلَّة والتفقُّه فيها والجلوس بين يدي العلماء، فكل هذا من باب سلوك الطريق لطلب العلم، وإن كان في البلد الواحد فالطريق يشمل الطريق الحسِّي، وهو السفر، ويشمل الطريق المعنوي الذي هو طلب التحصيل والتعب في فَهْم العلم وتلقِّيه والسهر عليه وغير ذلك من المشاقِّ، ومَنْ عمل ذلك فإن الله -جلَّ وعلا- يُسهِّل طريقه إلىٰ الجنة؛ لأن الوصول إلىٰ الجنَّةِ إنما يحصل بالعلم النافع والعمل الصالح.

وفي الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ العلم يؤخذ بالتَّلقي؛ لا مِنَ الكُتب، ولا من نَقْل فلان أو فلان، فبما أن الأصل موجود فإنه ينبغي الذهاب إليه لتلقِّي العلم عنه.

وقوله: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**» أي: إنَّ الملائكة لتتواضع لطالب العلم توقيرًا لعلمه، وتُجِلُّه وتقدِّره، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[الإسراء: ٢٤].

....

=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].
أي: تواضع لهم وقدِّرهم، ولهذا ينبغي تقدير طالب العلم، وأهل العلم الشرعي، وعدم ازدرائهم، أو اتهامهم بالغفلة؛ لأنهم تركوا ما يحتاجونه من أمور الصناعات والحِرَف والمهارات.

فهؤلاء يعظِّمون أمر الدُّنيا علىٰ أمر الآخرة، وهناك فريق آخر من المتصوِّفة الذين يُزهِّدون الناس في طلب العلم، ويقولون: المطلوب هو العمل والعبادة والذِّكر، وهؤلاء أشدُّ خطرًا من الصِّنف الأوَّل، ويتحصَّل من هذا فريقان:

فريق المُنحلِّين والزنادقة، وفرق أصحاب الضَّلال من المتصوِّفة.

وقوله: «**وإن العالِم؛ ليستغفر له مَنْ في السموات والأرض، والحيتان في جوف الماء**» يستغفرون له؛ لأنه إذا نَشَرَ العلمَ أصلح الله به الأرضَ ودرَّت الخيراتُ والبركات والأمطار فتشبع البهائم والحيتان في البحر والمخلوقات جميعًا من الطير وغيرها، فكلُّ هذا يحصل ببركة نشرِ العلم والدِّين في الأرض، فيأتي لهذه الحيوانات رزقها فتستغفر لهؤلاء الذين كانوا سببًا في حصول الخير لها.

وقوله: «**وإن فَضْلَ العالِم علىٰ العابد كفَضْل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب**» هذا فيه فضل الاشتغال بالعلم علىٰ الاشتغال بالعبادة.

وفي هذا أيضًا ردٌّ علىٰ المتصوِّفة القائلين: إن الاشتغال بالعبادة أفضل من الاشتغال في تحصيل العلم؛ ولكن يتَّضح فضْل العلم علىٰ العبادة من حيث إنَّ نفع العلم يتعدَّىٰ إلىٰ كافةِ الخلق، فالعالم مثل القمر ليلة البدر الذي يُضيء الكون فيُساعد المسافرين، ويطرد الظُّلمة عن الناس.

=

....

=

وأما الكوكب فإنه يُضيء لنفسه فعمله قاصر علىٰ نفسه، وكذلك العابد الذي نفعُ عبادته قاصرٌ عليه، بخلاف العالِم الذي نفعُه يكون له ولغيره، ولهذا شُبِّه بالقمر، وهذا وجه المشابهة في تمثيل الرسول ﷺ للعالم بالقمر ليلة البدر التي هي ليلة التمام علىٰ الكوكب الذي إنما ضوؤه حَولَه فقط، ولا يتعدَّاه.

وقوله: «**وإن العلماء وَرثةُ الأنبياء**» هذا شرفٌ لهم؛ لأن العلماء ورثوا الرسول ﷺ، والرسول ﷺ لم يورِّث الدُّنيا ولا الأموال؛ لأن هذا عَرَضٌ فانٍ وزائل، وإنما ورَّث الأنبياء العلم، الذي يبقىٰ ويدوم، ويدلُّ علىٰ الجنة وعلىٰ السعادة، وهذا هو الميراث الصحيح، فالعالم وإن كان فقيرًا فهو عنده خيرٌ كثير أفضل من التاجر الذي يملك المليارات وليس عنده علم، ولا مقارنة بينهما؛ لأن التاجر الذي عنده الأموال سيتركها أو ربما تَتْلَف ثم إنه سيُحاسب عليها يوم القيامة.

وأما العالم، وإن لم يكن عنده شيء من متاع الدُّنيا الزائل إلا أنه عنده خير الدُّنيا والآخرة وهو العلم الذي نَفَعَه ونفع غيره، والرسول ﷺ لم يكن يدَّخر شيئًا من الدُّنيا لنفسه، وإنما كان يعيش عيشة الفقراء، وربما يربط الحجر علىٰ بطنه من الجوع وإذا جاء شيء من الأموال أنفقه في سبيل الله.

وقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديّ بثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعيالِه[1]، ولو شاء لملك الدُّنيا بأسرها، ولكنه -عليه الصلاة والسلام- إنما أراد الآخرة، وما عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

=

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[الحكمة ضالَّة المؤمن]

١١٩- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، مرفوعًا: «الكلمةُ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمن؛ فحَيثُ وجَدها فهو أَحقُّ بها». رواه الترمذي وقال: غريبٌ، وابن ماجه[1] [١٣٥].

=

وقوله: «وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا» قوله: «دينارًا» يعني: من الذَّهب، و«درهمًا» من الفضة، فلم يورِّثوا فضَّةً ولا ذهبًا.

وقوله: «وإنما ورَّثوا العلم، فمَنْ أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ» يعني: مَنْ أخذ من ميراث النبوَّة فإنما أخذ الكثير الذي لا يعلم كثرته إلا الله تعالى، وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه مرَّ علىٰ الناس وهم يتبايعون في سوق المدينة، فقال: ما أعجزَكُم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذلك ميراثُ رسول الله ﷺ يقسَّم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سِراعًا إلىٰ المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجدَ، فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئًا يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلىٰ، رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة رضي الله عنه: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ[2].

[١٣٥] قوله ﷺ: «الكلمة الحكمة» أي: ذات الحكمة المشتملة عليها، وهي الفقه في الدِّين، فينبغي أخذُ العلم أينما وُجِد، ولو كان مَنْ يؤخذ عنه قليل الشأن، والمكانة عند الناس.

=

(١) الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١١٤) (١٤٢٩).

وقوله: «**ضالَّة المؤمن**» الضالَّة: هي المال الضائع، والمراد: مَطلوبُه «**فهو أحقُّ بها**» أي: بقبولها؛ يعني: أن المؤمن يطلب الحكمة فإذا وجدها «**فهو أحقُّ بها**» أي: بالعمل بها واتِّباعها، وقيل: المعنىٰ أن الحكمة ربما صدرت ممن ليس بأهلٍ لها ثم وقعت إلىٰ أهلها فهو أحق بها من قائلها من غير التفاتٍ إلىٰ قلَّة شأن من وجدها عنده؛ والرسول ﷺ قَبِلَ من اليهود عندما قال له أحدهم: نِعْم الأمة أمَّتُك لولا أنهم يَعْدِلون! قال: «**كيف يعدلون؟**، قال: يقولون: ما شاء الله وشئت. قال: **إنَّه ليقول قولًا، قولوا: ما شاء الله ثم شئت**».

وقال أيضًا: «نِعْم الأُمَّة أُمَّتُك لولا أنهم يُشركون. قال: **ما يقولون؟** قال: يقولون: بحقِّ فلان، وحياة فلانٍ، قال النبيُّ ﷺ **مَنْ كان حالفًا فلا يَحلِفْ إلَّا بالله**»[1]. فقد أخذ ﷺ الحقَّ وإن كان الذي جاء به يهوديٌّ! فاللائق بحالِ المؤمنِ أن يكون مطلوبُه الحقَّ أينما وحيثما وجده، وأن يكون نظره إلىٰ القول لا إلىٰ القائل.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٠٣) (١٠٤٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

[صفة الفقيه الناجح]

١٢٠- وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: «إنَّ الفقيهَ حقَّ الفقيه مَنْ لم يُقنِّط الناسَ مِن رحمةِ الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يُؤمِّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره، إنه لا خير في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلمٍ لا فَهْمَ فيهِ، ولا قراءة لا تَدبُّرَ فيها». رواه الدارمي[1][١٣٦].

---

[١٣٦] قوله: «إنَّ الفقيهَ مَنْ لم يُقنِّطِ الناسَ» إن الفقيه حقَّ الفقيه مَنْ لم يُدخل اليأس إلىٰ نفوس الناس من رحمة الله، وهو أيضًا مَنْ «لم يُرخِّص لهم في معاصي الله» بحيث لا يُسهِّل للناس المنكرات، ويفتح لهم باب الرَّجاء علىٰ الرغم من كثرة معاصيهم واستغراقهم فيها، فالفقيه هو الذي يسلك الطريق الوسط في فتاويه بحيث لا يُدخل اليأس من رحمة الله إلىٰ قلوب الناس ونفوسهم، ولا يُسهِّل للناس ارتكاب المعاصي ويفتح لهم باب الرَّجاء، ويمثِّل الطرف الأول الخوارج الذين كفَّروا المسلمين وقتلوهم واستحلُّوا دماءهم، ويمثِّل الطرف الثاني المرجئة الذين يقولون: الإيمان في القلب، وافعل ما شئت من المعاصي والسيئات.

ففي هذا الحديث الردُّ علىٰ المتساهلين، والردُّ كذلك علىٰ المتشدِّدين، وأن المطلوب الوسط والاعتدال.

وقوله: «ولم يؤمِّنهم من عذاب الله» كالمرجئة الذينٰ يقولون: يكفي الإيمان بالقلب، ولو فعل العبد ما فعل، وقال ما قال من الكفر والشرك، فما دام القلب مؤمنًا فالعبد من أهل الجنة! =

---

(١) في «سننه» (١/ ١٠١) (٢٩٧).

١٢١- وعن الحَسنِ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ جاءَهُ الموتُ وهو يَطْلبُ العلمَ ليحيي به الإسلام، فَبَينهُ وبين النَّبيِّين درجةٌ واحدةٌ في الجنة». رواه الدارمي[(١)][١٣٧].

وقوله: «ولم يَدَعِ القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره» هذا هو الفقيه الذي يعتمد في أقواله علىٰ القرآن الكريم، ولا يعتمد علىٰ الآراء، وأقوال الناس، وعلىٰ قواعد المنطق وعلم الكلام، وإنما يعتمد علىٰ كلام الله ﷻ .

وقوله: «إنه لا خير في عبادةٍ لا عِلم فيها» لأن العبادة من غير علم ضلالٌ؛ وكذلك لا خيرَ في علم لا عبادة معه، وهي طريقة المغضوب عليهم.

وقوله: «ولا عِلْمٍ لا فَهْمَ فيه، ولا قراءةٍ لا تدبُّر فيها»؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. فينبغي تفهُّم معاني القرآن، وطَلَب تفسيره، فلا تنفع القراءة المجرَّدة عن الفهم والتفكُّر والتدبر؛ لأن القصدَ العملُ بالقرآن وهذا لا يكون إلا بفهم معانيه.

[١٣٧] في هذا الأثر فضل طلب العلم، وأنَّ الإنسان إذا مات وهو يطلب العلم فإنه يلحق بالنبيِّين، إلا أنه لا يكون في درجتهم؛ لأنَّ النبيين لا يلحقهم أحد في درجتهم وإنما يكون في الدَّرجة التي تليهم.

وفي هذا فضل طلب العلم، والاستمرار عليه إلىٰ الموت، وعدم الاكتفاء بما تمَّ تحصيله، وإنما المرغوب فيه هو الاستمرار فيه حتىٰ يأتيه الموت؛ لأن العلم ليس له نهاية ولا حد، قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] . ومن قال: أنا عالم؛ فهو جاهل، وطلب العلم ينبغي ألا ينقطع؛ لأنه عبادة.

---

(١) في «سننه» (١/ ١١٢) (٣٤٥).

باب قَبْض العلم

١٢٢- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فشَخص ببصَرِه إلىٰ السَّماء، ثم قال: هذا أوان يُختَلسُ فيه العلمُ مِنَ الناسِ؛ حتَّىٰ لا يَقْدِرُوا منه علىٰ شيء». رواه الترمذي[1][١٣٨].

---

[١٣٨] لا شك أنَّ قيام الدِّين والحياة والعمل الصالح إنما هو بالعلم النافع، فالعلم النافع والعمل الصالح قرينان، فإذا ذهب أحدُهما لم ينفع الآخَرُ، فإذا ذهب العلمُ لم ينفع العمل؛ لأنه يكون علىٰ جهل وعلىٰ غير هدًىٰ وأصبح من البدع والمحدثات والضلال، وإذا ذهب العملُ وبقي العلمُ، فإنه يصبح لا فائدة من هذا العلم؛ لأن ثمرة العلم العملُ، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣].

فالهدىٰ هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح، فالرسول ﷺ جاء بالأمرين مقترنين لا يغني أحدهما عن الآخر، والنبيُّ ﷺ أخبرَ في هذا الحديث عن المستقبل، وهذا مما أطلعه الله عليه ليُخبر به الناسَ، وإلَّا فإنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله -جلَّ وعلا-، ولكن الله يُطلع رسله علىٰ أشياء من الغيب؛ لأجل تنبيه الناس وللدلالة علىٰ صدق رسالتهم.

فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ، حيث أخبر بأنَّ العلم سيُقبض في آخر الزمان، وليس معنىٰ هذا أن يُرفع العلم نفسُه؛ بل إن كتاب الله تعالىٰ يبقىٰ والسنة كذلك تبقىٰ، والكتب تبقىٰ أيضًا بين أيدي الناس، ولكن يُقبض العلم بموت العلماء؛=

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

[النهي عن تلاوة القرآن دون تدارسه والعمل به]

١٢٣- وعن زياد بن لبيد ﵁ قال: «ذَكر النبي ﷺ شيئًا، فقال: **ذلك عند ذهاب أوانِ العلم**. قلتُ: يا رسول الله، كيف يذهبُ العلمُ، ونحن نقرأُ القرآنَ، ونُقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة. قال: **ثَكِلَتْك أُمُّك يا زيادُ، إن كنت لأراكَ مِنَ أَفْقَهِ رجلٍ في المدينةِ، أوليس هذه اليهودُ والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل، لا يعملون بشيء مما فيهما؟**». رواه أحمد، وابن ماجه[1][١٣٩].

= لأن العلم لابد له من حَمَلة يُبيِّنونه ويوضِّحونه للناس، فإذا قُبض العلماء الذين يُبيِّنون للناس ويعلِّمونهم ويفقِّهونهم، فحينئذٍ يُقبض العلم بقبْضِ أهله، فهذا خبرٌ معناه التحذير من أن يتساهل الناس في طلب العلم، وإنما ينبغي لهم الحرص عليه لأجل أن يبقىٰ ببقاء العلماء ويستمر، وأمَّا إذا أعرضوا عنه، وتساهلوا فيه فإنه حينئذٍ يُقبض.

[١٣٩] هذا الحديثُ يبيِّن أيضًا كيف يُقبض العلم، وأنه يُقبض أولًا بقبض العلماء، وثانيًا بتَرْك العمل، فإذا تَرك الناسُ العملَ قُبض العلم؛ لأن العلم إنما يكبرُ ويَزيد ويُبارك فيه مع العمل به، وليس بمجرَّد حفظه دون العمل به؛ ولأنه إذا ذهب أحدهما ذهب الآخر، وهذا ما وضَّحه النبيُّ ﷺ لزيادٍ ﵁ في هذا الحديث، فإنَّ زيادًا قال للنبيِّ ﷺ: «**كيف يذهبُ العلمُ، ونحن نقرأ القرآن ونقرئُهُ أبناءنا، ويقرئُهُ أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة**». =

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨).

فقد ظنَّ ﵁ أن قراءة القرآن وتدارسَه وحفظه يُبقي العلمَ، ولم يكن يعلم أنَّ العلم لا يبقىٰ إذا لم يكن يُرافقه العمل، فتذهب بركته ونوره وزيادته بترك العمل به.

ثم ضرب ﷺ مثلًا ببني إسرائيل الذين عندهم علم من التوراة والإنجيل، فيتعلَّمون ويعلِّمون منهما ولكنهم لا يعملون بهما، فرحل عنهم العلمُ؛ لأن العلم لا يقتصر بقاؤه علىٰ وجوده في الذاكرة، وإنما بقاؤه يكون من خلال العمل به، ولذلك هو نزل، وهو وسيلة والعمل به غاية، وهو المطلوب فإذا ذهبت الغاية لم تنفع الوسيلة.

وقوله ﷺ: «**ثَكِلَتْكُ أمُّك يا زياد**» الأصل في الثَّكَل أنه فُقْدان الحبيب، وأكثر ما يُستعمل في فُقدان المرأة زوجها أو ابنها، فالأصل في معنىٰ «**ثكلتك أمك**»: فقدتك، ولكنها تُقال ولا يُراد معناها الحقيقي، وذلك عند التنبيه إلىٰ أمر كان ينبغي أن يُنتَبه له ويُعرف، ولهذا لم يكن الرسول ﷺ يريد معناها الأصلي، وإنما هو لفظ صار يجري علىٰ اللسان من غير قصدٍ لمعناه، ويتبيَّن من هذا الحديث أنَّ العِلْم يُفقد بأحد أمرين أو بهما معًا:

الأول: فَقْد العلماء الذين يُبيِّنونه ويوضحونه ويفسِّرونه للناس، ويبقىٰ الجهَّال الذين لا يعرفون معاني العلم، فيتكلَّمون بجهل لا فائدة منه، وهم أشبه بالقُرَّاء كما جاء في قول ابن مسعود: «إذا كثُر قراؤكم، وقلَّ فقهاؤكم»[1].

الثاني: فَقْدُ العملِ به، فلا يبقىٰ للعلم فائدة حينئذٍ، وإنما يكون لمجرَّد الاستعراض والتباهي به؛ ولأجل الرياء والسُّمعة.

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٧٥) (١٨٥).

[الحثُّ على طلب العلم قبل قبضه]

١٢٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «عليكم بالعلم قبلَ أن يُقبضَ، وقَبضُه ذهابُ أَهْلِه، عليكم بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متىٰ يُفتقرُ إليه، أو يُفتقَرُ إلىٰ ما عنده، وستجدون أقوامًا يزعمون أنَّهم يَدعون إلىٰ كتاب الله، وقد نَبَذُوه وَرَاءَ ظُهورهم، عليكم بالعلم، وإيَّاكم والبدَعَ والتَّنطُّعَ والتَّعمُّقَ، وعليكم بالعَتيقِ». رواه الدارمي بنحوه(١)[١٤٠].

---

[١٤٠] قوله: «عليكم بالعمل قَبل أن يُقبض» أي: تعلَّموا من العلماء إذا ما وُجدوا بينكم، فاحمِلوا العلم عنهم؛ لأنَّ العلم إنما يؤخذ من العلماء ومن أهله الحاملين له، ولا يؤخذ من الكتب أو من الجهَّال والمتعالمين.

وقد حثَّ رضي الله عنه على الاقتداء بالأقدمين، فقال: «وعليكم بالعتيق» يعني: بالقديم؛ لأنه كلما ارتفع الزمان، وقَرُب من زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه ومن التابعين، فإنه يكون أقرب إلىٰ الصِّحة والثُّبوت وعدم وجود الدَّخيل فيه، فعِلمُ السَّلف لا شكَّ أنه هو العلم الصافي، وأمَّا علم الخَلَف فقد دَخَله ما دَخَله، فمنه ما هو صحيح ومنه ما هو غير ذلك؛ لأنه بعد القرون الثلاثة المفضَّلة دخلت الأهواء عند بعض المسلمين، وانتشرت الفِرَق بخلاف وقت القرون المفضَّلة التي كان العلم فيها صافيًا لا دَخِيل فيه؛ لأنهم كانوا حرَّاسًا وأمناء عليه.

فكلَّما تقادم القولُ كان أقربَ إلىٰ الصواب، هذا معنىٰ كلام ابن مسعود رضي الله عنه، فحَثَّ أولًا علىٰ طلب العلم من أهله.

---

(١) في «سننه» (١/ ٦٦) (١٤٣).

وثانيًا: علىٰ أخذ العلم القديم؛ لأنه أقربُ إلىٰ الصواب وإلىٰ عهد الرَّسول ﷺ وللإمام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة جيدة في بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف؛ لأنه وُجد من أهل الضلال مَنْ يفضِّل علم الخلف علىٰ علم السَّلف مدَّعين أنَّ علم الخلف أكثر فهمًا، وأنَّ السلف مجرَّد عُبَّاد؛ لأن الجهاد كان يشغلهم عن العلم، وغير ذلك من الأمور التي تُزهِّد في علم السلف الذين يتَّهمونهم بأنهم لم يكونوا يستعملون العقل بخلاف الخلف الذين أخضعوا علومهم للعقل والفِكْر، وغير ذلك من الشُّبهات التي أثاروها.

وقد ردَّ عليهم ابن رجب في رسالته هذه فأجاد وأفاد، وبيَّن فضل علم السَّلف علىٰ الخلف، وفنَّد مزاعم من يقول: إن علم السلف أسلم وعلم الخلف أعلم وأحكم، وقد كذبوا في هذا؛ لأن السلامة لا تكون إلا مع العلم والحكمة.

وقوله: «وإيَّاكم والبِدَع والتنطُّعَ والتعمُّقَ» وفي هذا نهي عن اتِّباع الأمور المحدَثة وعن كثرة التشقيقات والجدليات والافتراضات وكثرة الكلام؛ لأن العلم ليس بكثرة الكلام، وإنما العلم بالتأصيل، ولذلك كان عِلمُ السَّلف أقل كلامًا، وأكثر فائدة، وأقلَّ لفظًا وأكثر معنًىٰ.

ومما ذكره الحافظ ابن رجب أن السَّلف كانوا أقلَّ كلامًا؛ ولكنهم كانوا أغزر علمًا وفائدة، والخلفُ علىٰ العكس فكانوا أكثر كلامًا وأقلَّ فائدة.

ومما يُفهم أيضًا من كلام ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دعوتُه إلىٰ تحصيل العلم من أصوله؛ لأنه سيُحتاج إليه، وسيَحتاج الناسُ إلىٰ العلماء، فيكون عند مَنْ حصَّله أهليَّة لحَلِّ ما يَعرِضُ من المشكلات، فمَنْ لم يكن عنده أهليَّة وجاءته مشكلة أو معضلة تحيَّر وإن ادَّعىٰ العلم والمعرفة، بخلاف أهل العلم الصحيح الذي يتصدون

١٢٥- وفي الصحيحين(١) عن ابنِ عمرٍو، مرفوعًا: «إنَّ الله لا يَقبضُ العلمَ انتزاعًا يَنتزعُه من العباد؛ ولكن يَقبضُ العلمَ بموتِ العلماءِ، حتىٰ إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذ النَّاس رءوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأَفتَوا بغير علمٍ فضَلُّوا وأَضلُّوا»[١٤١].

=

للمُلمات الصعبة، فالعلم ليس بالدَّعوىٰ، وإنما هو حقيقة، ولسان حال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: عليكم بالاستعداد من خلال التسلُّح بالعلم؛ لأنه إذا ما حصلت مشكلة يكون حلها سهلًا، إما مشكلة عامّة، وإما مشكلة فردية.

[١٤١] بيَّن النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بأيِّ شيء يُمكن أن يُقبض العلم، ولا يعني قَبضُ العلم رفعه كلِّه بحيث لا يبقىٰ في الأرض العلم، وإنما يبقىٰ موجودًا في الكتب وصدور الحُفَّاظ، وإنما المراد بقَبْضِ العلم هنا: قَبضُ أهله وهم العلماء فيتَّخذ الناس رءوسًا جُهَّالًا يحكمون بجهالاتهم فيَضلُّون ويُضلُّون، فإذا ذهب العلماء بعد قبض أرواحهم حلَّ محلَّهم المُتعالِمُون الجهَّال، فتُعرض عليهم المشكلات والمسائل فيفتون بغير علم، وهذا ما سبق في كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حثِّه للاستعداد بالتسلُّح بالعلم.

وقوله ﷺ «**فضلُّوا**» لأنهم أَفتوا بغير علم «**وأضلُّوا**» غيرَهم، فتحصل منهم جريمتان في أنفسهم وفي غيرهم، فلا تجوز الفتوىٰ بغير علم، ولا التخرُّص أو الاعتماد علىٰ الظنِّ، والله -جلَّ وعلا- أنزل الكتاب والسُّنة وسيأتي زمانٌ يُفقد فيه الذين يُفْتُون علىٰ ضوئهما، ولا يبقىٰ إلَّا القرَّاء والرُّءوس الجهَّال في القضاء والمناصب التي يعتلونها والتي يُظنَّ بسببها أنهم من أهل العلم، إلَّا أنهم يفتون بغير =

(١) البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

١٢٦- وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أن يأتي علىٰ الناس زمانٌ، لا يبقىٰ مِنَ الإسلام إلا اسمُه، ولا يَبْقىٰ من القرآن إلَّا رَسْمُه، مساجدُهم عامرةٌ وهي خرابٌ من الهُدىٰ، علماؤهم شَرُّ مَنْ تحت أَديم السَّماءِ، مِنْ عندهم تَخْرجُ الفتنةُ، وفيهم تَعودُ». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[1] [١٤٢].

=

علم، ولهذا يُروىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا»[2]. يعني: تعلَّموا قبل أن تتولَّوا المناصب والمراتب.

[١٤٢] قوله ﷺ: **«يُوشك أن يأتي علىٰ الناس زمان»** يوشك: من أفعال الشروع، يعني: يَقرُب أن يأتي علىٰ الناس وقت **«لا يبقىٰ من الإسلام إلا اسمه»** وهذا واقع في زماننا؛ لأن الذين ينتسبون للإسلام كثير؛ ولكن الإسلام الصحيح غريب كما قال ﷺ: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»**[3].

فالذين يدَّعون الإسلام كثير، ولكنهم ليس عندهم من الإسلام معرفة ولا بصيرة إلَّا مجرَّد الانتساب، فكثير منهم يعبدون غير الله عز وجل، فيَدْعون الأولياء والصالحين، ويبنون المشاهد علىٰ القبور، حتىٰ جعلوا أوثانًا تُعبد من دون الله، ومنهم مَنْ يعبد الله بالبدع والمحدثات، ويترك السُّنن، فتراهم يُقيمون الموالد والاحتفالات ويُسمُّونها بالمناسبات الدِّينية.

ومن هؤلاء مَنْ يأكل الرِّبا، ويتعاملون بالقمار والميسر ولا يُبالون بالحلال والحرام، وإنما يُجارون الكفَّار ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله وهم يدَّعون الإسلام،

=

---

(١) «شعب الإيمان» (٢/ ٣١١) (١٩٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢٨٤) (٢٦١١٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيتعاملون بغير معاملة الإسلام.

ومنهم مَنْ هو ليس علىٰ الإسلام أصلًا؛ بل هو مشرك وخارج عن الدِّين بشركه، ومنهم من هو مسلم ولكنه ضعيف الإيمان وعمله غير صحيح يقوم علىٰ البدع والمحدثات، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(١).
والأدهىٰ مِنْ ذلك -بعد الشِّرك- الذين لا يصلُّون ويقولون: إنَّ الدين ليس بالصلاة، والحقيقة أن تَرْك الصلاة كفر مُخرجٌ من الملة.

ثم إننا لو دقَّقنا النظر في كثيرٍ من الناس في عالمنا الإسلامي -إلا مَنْ رحم الله- لوجدناهم من هذه الأصناف، فلم يَبْقَ إذن من الإسلام إلا اسْمُه.

وقوله: «**ومِنَ القرآن إلَّا رسْمُه**» علىٰ الرَّغم من وجود القرآن في المصاحف، ولم يُغيَّر منه شيء، فهو باقٍ كما أُنزل علىٰ محمد ﷺ فرسمُه موجود، ولكن معرفته والعمل به مفقود، وليس المراد من وجود القرآن حفظُه أو تلاوته أو تجويده، وإنما المراد تدبُّره والعمل بما فيه، فإذا ذهب التدبُّر والعمل به، لم يَبْق إلا وجود المصاحف، وهذا لا يُجدي شيئًا، كوجود السلاح مع الإنسان الذي لا يُحسن استعماله، فإذا غدا عليه عدوٌّ لا يستخدمه، وهذا لا يُفيد شيئًا، وهذا يُشبه وجود القرآن عند مَنْ لا يعملون بما فيه، ولا يفقهون معانيه.

وقوله: «**مساجدهم عامرة، وهي خراب من الهُدىٰ**» وهذه صفة أخرىٰ من صفات هؤلاء الناس، فهم يبنون المساجد ويزخرفونها، ولكنها خالية من ذِكْر الله، ولا يُدرَّس فيها العلم؛ بل ليس فيها صلاة؛ لأن بعض المساجد مغلقة ولا يصلَّىٰ =

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

=

فيها، فالمساجد خَرِبَت من الهدىٰ، ولكنها عامرة بالبنيان، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]. هذه هي عمارة المساجد.

وقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

هكذا تكون المساجد عامرة، وإن كان عمارها المادي من أي شيء؛ لأنها إن كانت عامرة بالهدىٰ والنور وذِكر الله فهي معمورة، فقد كان مسجد الرسول ﷺ قائمًا علىٰ جذوع النخل، وعلىٰ الجريد، وكان المطر إذا نزل ينزل إلىٰ داخل المسجد، فيسجد الرسول ﷺ وأصحابُه علىٰ الطِّين، ولم يكن للمسجد أبواب ولا مصابيح، وكانت الكلاب تدخل فيه.

وكان -مع ذلك كلِّه- منارة الدُّنيا، وهو الذي شَعَّ منه النُّورُ في العالم، وهو الذي خرج منه المجاهدون والأبطال، وخرج منه العلماء والأحبار، فالعِبْرة ليست في نوع البُنيان وضخامته، وإنما العبرة بما يحصل في هذه المساجد من العبادة والتعليم.

وقوله: «**علماؤهم شرُّ مَنْ تحت أديم السَّماء**» لأنهم لا يقولون كلمة الحقِّ، ويتابعون هوىٰ الناس، فيفتونهم بما يصلح لهم ولا يُغضِبون المسئولين، ويتلمَّسون لهم الرُّخصَ، بحُجَّة التوسعة لهم وللناس، فلا يفتونهم بالحقِّ والعلم الصحيح، فهم شرُّ مَنْ تحت أديم السماء، وإن كانوا علماء.

=

....

وقد شبَّه الله مثل هؤلاء بالحمير والكلاب، قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. هؤلاء هم شر مَن تحت أديم السماء.

وقوله: «**مِنْ عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود**» لأنهم يفتنون الناس بأعمالهم وأقوالهم فيصرفونهم عن دينهم، يفتونهم بأن الدُّعاء لغير الله هو من الدِّين وهو الذي عليه المسلمون، وينسون قول الرسول ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[١]. وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنِّي أنهاكم عن ذلك**»[٢].

وعلماء الضلال أشدُّ خطرًا علىٰ المسلمين؛ لأن الناس يقتدون بهم، وقد سمعنا مَنْ يقول: لو كان دعاء الحسن والحسين والبدوي شركًا لما سكت العلماء علىٰ ذلك، فصار العوام وكثير من الناس في ذمَّة هؤلاء العلماء الضالِّين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

باب التَّشديد في طلب العلم للمِراء والجدال

١٢٧- عن كعب بن مالك ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ ليُجاريَ به العلماءَ، أو ليُماريَ به السُّفهاء، أو يصرفَ به وجوَه الناسِ إليه أدخلَه الله النارَ». رواه الترمذي[١] [١٤٣].

---

[١٤٣] قوله: «باب: التشديد في طلب العلم للمراء والجدال» التشديد يعني: التحذير من طلب العلم لا لأجل العمل، وإنما لأجل «المراء»، وهو الشَّك، فإنَّ كل واحد من المتحاجِّين يَشُكُّ فيما يقوله الآخر ويُشكِّكُه، لِمَا في ذلك من حُبِّ الظهور «والجدال» أي: الدُّخول في المناظرات والمناكفات لإظهار العلم أمام الناس.

فمن ساءت نيَّته في طلب العلم صار من أهل النار، ومن ذلك الذين يتعلَّمون العلم من أجل أن يُجاروا العلماء.

فقوله: «مَنْ طَلَبَ العلمَ» أي: ليس لوجه الله، وإنما «ليجاري به العلماء» أي: يجري معهم في المناظرة والجدال؛ ليظهر علمه في الناس رياءً وسمعةً «أو ليُماري به السُّفهاء» أي: ليُجادل به الجهَّال، أو لأجل أن «يصرف وجوهَ الناس إليه» ليُعظِّموه ويقدِّروه ويُجلُّوه ليقولوا: هو عالم؛ فإذا كان هذا هو قصد طالبِ العلم، فإنه من أهل النار، ولهذا قال ﷺ: «أدخله الله النار» لأن العلم لم ينزَّل لذلك، وإنما نُزِّل للعمل الصالح والإخلاص لوجه الله والتواضع ونفع الناس.

---

(١) برقم (٢٦٥٤).

[الجدلُ سبب الضَّلال]

١٢٨- وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، مرفوعًا: «ما ضَلَّ قومٌ بَعد هدًى كانوا عليه، إلَّا أُوتوا الجَدَل، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]». رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه(١)[١٤٤].

---

[١٤٤] في هذا الحديث بيان أنَّ الناس إذا تركوا العمل بالعلم، ولم يعملوا بالسُّنة، فإنَّهم يُبتَلَون بالضدِّ، وهو الجَدَل الذي هو بَدَل العلم النافع، فمَن تَرك سبيل الهُدىٰ وركب سُنن الضلالة، ولم تَمشِ أحواله إلَّا بالجدل، أي: بالخصومة بالباطل، ليُروِّج للمذاهب الكاسدة والعقائد الفاسدة لا المناظرة لإظهار الحقِّ واستعلام ما ليس معلومًا عنده أو تعليم غيره ما عنده ابتلاه الله بالجَدَل، ومن ترك السُّنة ابتُلي بالبدعة والمحدثات عقوبة له.

فالواجب علىٰ المسلمين عمومًا وطلبة العلم خصوصًا العمل بالعلم والإخلاص لله عز وجل، والحذر من البِدَع والمحدثات، وإلَّا فإنَّ الله سيُعاقبهم، فيُبدلهم الجَدَل بدل العلم، والجَدَل لا فائدة فيه، فليس من سماته إلا المغالطات والمُهاترات ومحبة الغَلَبة والظُّهور علىٰ الخصم، فهذه عقوبة، وإذا تركوا السُّنة ابتُلوا بإحياء البِدَع والمُحدَثات كما هو واقع ومشاهد.

ولمَّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩]. =

---

(١) الإمام أحمد (٢٢١٦٤)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨).

[أبغض الرِّجال إلى الله]

١٢٩- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبغَضَ الرِّجال إلىٰ الله الألَدُّ الخَصِمُ». متفق عليه[1][١٤٥].

قال المشركون: أَكُلُّ مَنْ عُبد دونَ الله في جهنم مع مَنْ عَبدَه؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارىٰ تعبد المسيح عيسىٰ بن مريم!! فأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾[2] [الزخرف: ٥٨]. هم يعرفون أن قولهم هذا باطل، وإنما قصدهم الجدال، ودفع الحقِّ فقط، فهم يعرفون أن عيسىٰ بن مريم رسول الله، وأنه ينهىٰ عن عبادته، ولا يرضىٰ بالشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. أي: أصحاب خصومة يريدون التغلُّب بالباطل، فهذا دليل علىٰ أنَّ مَنْ ترك الحق فإنه يُبتلىٰ بالجَدَل، فهؤلاء لمَّا تركوا ما جاء به الرسول ﷺ من إخلاص التوحيد ابتلاهم الله بالجَدَل.

ولكن الله تعالىٰ قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ومِنْ أوْلىٰ هؤلاء عيسىٰ بن مريم عليه السلام، فقد سبقت له الحسنىٰ؛ لأنه رسول الله، فالله -جلَّ وعلا- ردَّ عليهم بهذا الردِّ.

[١٤٥] في هذا الحديث النهي عن الجَدَل والخصومات، وأنه ينبغي علىٰ المسلم إرادة الحقِّ، لا التغلُّب بحُجَّته، وإن كانت باطلة كما هو حال أهل الضلال. =

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» الطبري (٩/ ٩٠).

[النهي عن طلب العلم للمراء ونحوه]

١٣٠- وعن أبي وائلٍ، عن عبد الله ﷺ قال: «مَنْ طلبَ العلمَ لأربعٍ دخَلَ النارَ -أو نحوَ هذه الكلمة-: ليُباهي به العلماءَ، أو ليُماريَ به السُّفهاءَ، أو ليصرِفَ به وجوهَ الناس إليه، أو ليَأْخُذَ به مِنَ الأُمراء». رواه الدارمي(١)[١٤٦].

قولهﷺ: «**الأَلَدُّ**» أي: شديد الخصومة بالباطل.

وقوله: «**الخَصِمُ**» أي: الحاذق بالخصومة؛ والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حقٍّ أو إثبات باطل.

والله -جلَّ وعلا- يُبغض الألدَّ الخصم؛ لأنه ليس قصده الحقَّ، وإنما حبُّ ظهور الحُجَّة بالخصومة ولو بالباطل؛ ولأنَّ كثرة المخاصمة تُفضي غالبًا إلىٰ ما يُذَمُّ صاحبُه، لأنَّ أكثر المخاصمة تكون في باطل من أحد الطرفين، ولهذا جاء النهي عنها.

[١٤٦] قوله: «لِيُباهي به العلماءَ، أو ليُماري به السُّفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه» سبق الكلام عليها في حديث كعب بن مالك ﷺ في أول الباب.

وقوله: «أو ليأخذ به مِن الأمراء» أي: يطلب العلم الشرعي ليحصل به من فُتات الدُّنيا، أو لأجل أن يقدِّره الأمراء ويعطوه المالَ، فإذا كان هذا قَصدَه فهو في النار؛ لأن العلم عبادة، والعبادة إنما ينبغي أن يُطلب بها ثواب الآخرة، لا طَمع الدُّنيا.

---

(١) في «سننه» (١/ ١١٥) (٣٦٧).

[صفة العلماء المتَّقين]

١٣١- وعنِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال -لقوم سمعهم يتمارون في الدِّين-: «أَمَا عَلمتُم أنَّ لله عبادًا أسكتَتْهُم خَشيةُ الله من غير صَمَمٍ ولا بَكَم؟ وإنَّهم لَهُم العلماءُ والفصحاءُ، والطُّلَقاءُ، والنُّبلاءُ؛ العلماءُ بأيَّام الله، غيرَ أنَّهم إذا تذكَّروا عظمة الله طاشَتْ عُقولُهم، وانكَسرت قُلوبُهم، وانقطعتْ ألسِنَتُهم، حتَّىٰ إذا استَفاقوا مِنْ ذلك تَسارعوا إلىٰ الله بالأعمال الزاكية، يعدُّون أنفُسَهم مع المُفرِّطينَ، وإنَّهم لأكياسٌ أقوياءُ، ومع الضَّالينَ والخَطَّائينَ، وإنَّهم لأبرارٌ بُرَآءُ، ألا إنَّهم لا يستكثِرون له الكثيرَ، ولا يَرضَون له بالقليلِ، ولا يُدِلُّون عليه بأعمالِهم، حيثما لَقيتَهُم مُهتمُّون مُشفقونَ، وَجِلون خائفون». رواه أبو نعيم(1)[١٤٧] .

---

[١٤٧] هذا كلام عظيم من ابن عباس رضي الله عنهما يَصِفُ فيه العلماءَ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون.

قوله: «أسكَتَتْهُم خشية الله من غير صَمَمٍ ولا بكم» لأن العلم قسمان:

الأول: علمٌ علىٰ اللسان فقط، وهذا يكون مع المنافق ومع مَنْ يريد الدُّنيا أو مَنْ يريد الجدال والخصومة، وهذا علمٌ لا ينفع بل يَضُرُّ، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ أمَّتِي كلُّ منافقٍ عليمِ اللسانِ»(2) .

والثاني: علم القلب، وهو العلم النافع، وهو الذي ترافِقُه الخشية من الله عز وجل ، الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. =

---

(١) في «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٥) (١٣١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

....

=

فإذا أُعطيَ الإنسانُ علمَ اللسانِ، وعلمَ القلب والخشية كان عالمًا، وأمَّا إذا أُعطيَ علمَ اللسانِ، ولم يُعطَ علم الخشيةِ كان خاسرًا، ولن ينفعه علمُه، وإنما يكون حجَّةً عليه يوم القيامة.

وقوله: «**يعدُّون أنفسَهم مع المفرِّطين**» أي: لا يستكثرون أعمالهم ولو كانت كثيرة، وإنما يستقلُّونها؛ لأنَّ حقَّ الله أعظم، ولا مقارنة بين أعمال العباد وبين حقِّ الله تعالىٰ عليهم، فنِعَمه تعالىٰ كثيرة ولن يؤدِّي حقَّها العبادُ مهما كانت أعمالهم كبيرة، وهو في جانب حقِّ الله قليل؛ ولذلك فإن من صفة هؤلاء العلماء الأتقياء أنهم لا يفتخرون بأعمالهم علىٰ الناس ولا بعلمهم؛ بل يعتبرون أنفسهم من أقلِّ الناس عملًا، وأدناهم منزلة، فلا يترفَّعون عليهم، وإنما يتواضعون لله ﷻ؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما سمعت هذه الآيات: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: **لا يا ابنة أبي بكر** -أو: **يا ابنة الصديق- ولكنَّه الرَّجلُ يصوم ويصلِّي ويتصدَّق ويخاف ألَّا يُقبل منه**»[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٤).

١٣٢- قال الحسنُ -وسمع قومًا يتجادلونَ-: «هؤلاء قومٌ مَلُّوا العبادةَ، وخَفَّ عليهم القولُ، وقَلَّ وَرَعُهم فتكلَّموا»[1][١٤٨].

---

[١٤٨] قوله: «ملُّوا العبادة» ولذلك اشتغلوا بالجدل والمناقشات، فلمَّا تركوا العبادة انصرفوا إلىٰ الجَدَل.

قوله: «خفَّ عليهم القولُ» أي: يستمرُّون في حلقات الجدال، ولا يَمَلُّون منه، حتىٰ أصبح أهون عليهم من أيِّ شيء آخر، بخلاف العبادة التي يَمَلُّون منها.

وقوله: «وقلَّ ورعُهم فتكلَّموا» بسبب اشتغالهم بالجدل والكلام لم يَبق عندهم ورع، ولو كان عندهم ورع لعلموا أنَّ الله سيُسجِّل عليهم كلامهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فلو تذكَّروا هذا لقلَّلوا من الكلام إلا في طاعته ﷻ.

ويدخل في هذا الأمر الذين يُصْدِرون الأحكام الشرعية ويُفْتون الناس دون علم أو تثبُّت لقلَّة ورعهم، إذ لو كان عندهم ورع لمَا تساهلوا في الفتوىٰ والتحليل والتحريم، الذي هو من أشدِّ ما يترتب علىٰ قلَّة الورع.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).

التجوُّز في القول وتَركِ التكلُّف والتنطُّع

١٣٣- وعن أبي أُمامةَ ﷺ، مرفوعًا: «الحياءُ والعِيُّ شُعبتانِ مِن الإيمانِ، والبَذاءُ والبَيانُ شُعبتانِ مِنَ النِّفاقِ». رواه الترمذي[1][١٤٩].

---

[١٤٩] قوله: **«التجوُّز في القول»** يعني: الاختصار، والمراد الكلام بقَدْر الحاجة وعدم الزيادة في الكلام بشيء لا يحتاج إليه؛ لأن هذا يُثقل السامع ويتسبَّب له بالملل وربما يُنسي المستمعين معنىٰ الكلام الذي يقصده المتكلِّمُ، فالإطالة في الكلام تسبِّب في إضاعة المعنىٰ، بخلاف قلَّة الكلام والاختصار التي يتَّضح فيها المعنىٰ، ولهذا كان كلام النبي ﷺ مختصرًا ووجيزًا ومعدود الكلمات، ولم يكن ﷺ يتكلم لأكثر من الحاجة، ولهذا كانت خُطبُه وأحاديثُه ﷺ تُحفظ؛ لأنها من جوامع الكلم كما قال ﷺ: **«أُوتيت جَوامع الكَلِم»**[2].

وقوله: «وترك التكلف والتنطع» التكلف: هو إظهار البلاغة والفصاحة، والتنطُّع: هو التَّعمُّق والغُلوُّ في الكلام والتوسُّع فيه، وهذا حاصل عند بعض المتحدثين والخطباء في وقتنا الحاضر، مع أن الأصل في المتكلمين والخطباء أن يؤدُّوا الكلام بأسلوب واضح وعبارات واضحة والابتعاد عن العبارات الغريبة والأساليب المعقَّدة، لإرادة إظهار الشخصية والفصاحة، فينبغي اختيار الألفاظ =

---

(١) برقم (٢٠٢٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩٧)، وبنحوه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الواضحة التي لا لَبْسَ فيها، وعدم التَّعمُّق بالألفاظ الغامضة والغريبة بحيث يصعب علىٰ السامع فَهمُها، وهكذا كان النبيُّ ﷺ.

قوله ﷺ: «**الحَياءُ والعِيُّ**» الحياء: خُلقٌ يمنع الإنسان مما يُستحيا من قوله أو ظهوره، ومما لا يليق، هذا هو الحياء المحمود، وهو من الإيمان كما قال ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[1]. والمطلوب هو الحياء الذي يكفُّ صاحبَه عما لا يليق، وهو الذي يكون من الإيمان.

وأما الحياءُ الذي يمنع صاحبه من التعلم والسؤال عما يحتاج إليه، ومن التعليم والدَّعوة إلىٰ الله ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو حياءٌ مذموم، وهو خجل لا حياء، وهو غير مطلوب، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فالحياء الذي يمنع من الحقِّ هو حياء مذموم وليس هو الممدوح.

وقول: «**العِيّ**» يعني: قلة الكلام، لا العجز عن الكلام، فيكون هذا شاهدًا للباب، فينبغي الاقتصار علىٰ ما يُحتاج إليه من الكلام، وعدم الزِّيادة فيه شيئًا لا يُحتاج إليه، وهذا من الإيمان أيضًا، وإنَّ صاحبه يكون متَّصفًا بالإيمان، فإن كان يريد المدح والثناء فهو من النِّفاق، لكن إذا كان يريد بيان الحقِّ لا المدح والثناء فهو من الإيمان؛ فقلَّة الكلام والاقتصار علىٰ ما يُحتاج إليه إنما هو من الإيمان، بخلاف كثرة الكلام التي هي من النِّفاق؛ لأن الغالب علىٰ صاحبه حُبُّ الظُّهور والمدح.

(١) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[بيان فضيلة حُسن الخلق]

١٣٤- وعن أبي ثَعلبةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحبَّكمُ إليَّ، وأَقْرَبَكُمْ منِّي يَوْمَ القيامةِ أحاسِنكُمْ أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكُم إليَّ وأبعدَكُم منِّي مَساوِئكُم أخلاقًا؛ الثَّرثارونَ، المُتشدِّقونَ، المُتفَيهقُونَ». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[1].

١٣٥- وللترمذي نحوه، عن جابر رضي الله عنه[2][١٥٠].

=

وقوله: «والبَذاء والبيان» البذاء: هو مقابل الحياء، وهو من البذاءة التي هي الإساءة والفُحْش وهو من خصال المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

و«البيان»: هو كثرة الكلام والتَّعمُّق في النُّطق والتَّفاصُح، وإظهار التقدُّم فيه علىٰ الناس، وكأنَّه نوع من العُجب والكِبرِ؛ ولكن سيأتي أن مِنَ البيان ما هو ممدوح، وهو البيان الذي يُظهر الحقَّ، ويوضِّحه للناس، بخلاف البيان الذي يحمل صاحبه علىٰ حبِّ المراء الذي هو من النِّفاق.

فقوله: «البذاء» يُقابل قوله: «الحياء» وقوله: «البيان» يُقابل «العيّ». فالمراد بالبيان هنا: كثرة الكلام دون فائدة.

[١٥٠] في أول الحديث الحثُّ علىٰ حسن الخُلقِ، وقوله ﷺ: «أحاسِنكُم» جمع حَسَن؛ أي: حَسَن الخُلُق هو الذي يُحبُّه الرسول ﷺ، ويكون منزله يوم القيامة قريبًا من منزل الرسول ﷺ، وحُسن الخُلق مِيزة عظيمة امتنَّ الله بها علىٰ مَنْ يشاء=

(١) «شعب الإيمان» (٤/ ٢٥٠) (٤٩٦٩).

(٢) برقم (٢٠١٨).

مِن عباده؛ ولهذا مدح الله تعالىٰ نبيَّهﷺ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد كانﷺ حسن الخُلقِ وأكملَ الناسِ خُلقًا، وهو يُحبُّ محاسِنَ الأخلاق.

ففي هذا الحثُّ علىٰ حُسن الخُلق، وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالىٰ وأوليائه، وهو نعمة من الله يُعطيها لمن يشاء، ولهذا ينبغي للعبد أن يُحسِّن أخلاقه ويربي نفسه علىٰ ذلك ويعودها علىٰ حُسن الخلق، وإن كان أصل حُسن الخُلق من الله تعالىٰ، وعلىٰ العبد أن يتسبَّب في هذا فيتواضع ويبذل المعروف وأن يخالط الناس بالجميل والبِشْر.

وقوله: «**وأبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّي مساوئكُم أخلاقًا**» أي: إن أصحاب الأخلاق السيئة هم أبغضهم إليه ﷺ في الدُّنيا وأبعدهم عنه يوم القيامة، وهم «**الثَّرْثارون**» وهم الذين يُكثرون الكلامَ تكلُّفًا وخروجًا عن الحقِّ «**والمتشدِّقون**» وهم المتوسِّعون في الكلام من غير احترازٍ واحتياط.

ومما يُروىٰ عن علي بن أبي طالب ﵁ قوله:

وَزِنِ الكلامَ إذا نَطَقْتَ ولا تكُنْ ... ثَرْثارةً في كلِّ نادٍ تَخطُبُ

واحفَظْ لسانكَ واحتَرِزْ من لَفظِهِ ... فالمرءُ يسلمُ باللِّسانِ ويَعطَبُ

والمتشدِّق في الأصل: هو الذي يملأ شِدقَه وفمَه تعاظُمًا وإعجابًا بنفسه، وكذلك «**المتفيهقون**» هم الذين يتوسَّعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم تكبُّرًا، وهي صفات ذميمة، والشاهد في الحديث آخره في قولهﷺ: «**الثرثارون المتشدِّقون المتفيهقون**».

[ذمُّ المدَّاحين غيرهم بما ليس فيهم]

١٣٦- وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتىٰ يَخرجَ قومٌ يأكلونَ بألسنتهم، كما تأكلُ البقَرُ بألسنَتها». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[1][١٥١].

---

[١٥١] في هذا الحديث ذمٌّ للذين يمدحون الناس بما ليس فيهم من أجل الحصول علىٰ عطائهم، فيأكل بلسانه، فيستعمل لسانه لأجل الأكل، فهو يمدح الناس ويُكثر الثناء عليهم لأجل هذا لاسيما الأمراء والملوك، فهذه صفة ذميمة؛ لأن طلب الرزق لا يكون بهذه الطريقة، وإنما يكون بالطريقة المشروعة وليس بالنِّفاق والتَّملُّق وكثرة المدائح.

وقوله ﷺ: «كما تأكل البَقر بأَلسنتها» هذا تمثيل يُقصد منه الذَّم، ووجه الشَّبه بينهما أن هؤلاء القوم يتخذون ألسنتهم ذريعةً إلىٰ مأكلهم كما تأخذ البقر بألسنتها؛ لأنهم لا يهتدون مِنَ المأكل كما أنَّ البقرة لا تتمكَّن من الاحتشاش إلا بلسانها، والآخرُ أنهم لا يميِّزون بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام كما لا تميِّز البقرةُ في رَعْيها بين رَطِب ويابس وحلو ومُرٍّ؛ بل تَلُفُّ الكُلَّ، وفي هذا تمثيل ذمٍّ لمن جعل لسانه سببًا لأكله وتكسُّبه كما تفعل البقرة باحتشاشها الأكل بلسانها، وخصَّ البقرة بالذِّكر؛ لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها وهي تجمع بلسانها.

=

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١٥٩٧)، وليس هذا الحديث عند أبي داود، ولا الترمذي، ولعل المصنِّف ﵀ أشار إلىٰ حديث عبد الله بن عمرو التالي.

١٣٧- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «إنَّ الله يُبغض البليغَ مِن الرِّجالِ، الذي يتخلَّل بلسانِه، كما تَتخلَّلُ البقرةُ بلسانها». رواه الترمذي، وأبو داود(١)[١٥٢].

١٣٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعلَّمَ صَرْفَ الكلامِ؛ ليَسبيَ به قلوبَ الرِّجال، أو الناس، لم يَقبلِ الله منه يومَ القيامةِ صَرْفًا ولا عدلًا». رواه أبو داود(٢)[١٥٣].

---

[١٥٢] وهذا الحديث مثل الذي قبله في ذمِّ المتكلِّف في الكلام، دون تمييز بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام.

وقوله: «يُبغض البليغَ من الرِّجال» البليغ، هو: الذي يُنمِّق الكلام، والمبالغ في فصاحته وبلاغته بالمدح والثناء طمعًا في الحصول علىٰ المكاسب والتأكُّل بذلك، فهذا مبغوضٌ ومذموم، بخلاف البلاغة الخِلْقية التي هي غير مذمومة.

وكما في الحديث السابق، فقد شبَّهﷺ هذا الصِّنف من الناس الذين يتشدَّقون ويتكلَّفون بالكلام والفصاحة بالحيوان، والحقُّ أن الإنسان كرَّمه الله؛ ولكن هذا الصِّنف من الناس لم يكرِّم نفسه فصار مثل البقرة البهيمة التي «تتخلَّل» أي: تَلُفُّ الكلأ بلسانها لفًّا، ووجه الشَّبه في ذلك إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلُّم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل!

[١٥٣] قولهﷺ: «مَنْ تعلم صرْفَ الكلام» يعني: تحسين الكلام وتنميقَه، وما يتكلَّفه الإنسان من الزِّيادة فيه وراء الحاجة، ولهذا سُمِّي الفَضْل أو الزائد من=

---

(١) أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣).

(٢) برقم (٥٠٠٦).

[صفة كلام الرسول ﷺ]

١٣٩- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانَ كلامُ رسول الله ﷺ فَصْلًا يَفْهَمه كلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»(١).

وقالت: «كان يُحدِّثنا حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه»(٢).

وقالت: «إنه لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردِكُم»(٣) روى أبو داود بعضه[١٥٤].

النَّقدين صَرْفًا.

وقوله: **«ليسبيَ قلوب الرِّجَال أو الناس»** أي: ليستميلهم، وفي هذا وعيد شديد، حيث إن الله يوم القيامة لا يقبل منه **«صرفًا»** والصَّرف هو الفريضة أو التوبة، **«ولا عَدْلًا»** أي: ولا نافلة، حيث لا يقبل الله منه نافلةً، ولا فريضة، وهذا وعيد شديد بحقِّ مَنْ يتعلَّم البلاغة والخطابة والشعر من أجل أن يتأكَّل بلسانه.

وأما مَنْ تعلَّم البلاغة من أجل أن يُحسن الخطاب فيما ينفع ويُفيد، واستمالة قلوب الناس إلىٰ الخير فهذا أمرٌ طيب؛ لأن حُسن الكلام يستميل الناس، فإن كانت الاستمالة لأجل الدِّين فهو أمرٌ مرغوب فيه، بخلاف استمالتهم؛ لأجل الدُّنيا الذي جاء فيه الوعيد الشديد.

[١٥٤] قولها: **«فَصْلًا يَفهمُه كلُّ مَنْ يسمعُه»** أي: كان كلامه ﷺ بيِّنًا واضحًا، لكونه مأمورًا بالبلاغ المبين، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق:١٣]. =

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠٧٧)، وأبو داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

....

=

أي: بين الحقِّ والباطل، فهو واضح ليس فيه غموضٌ ولا التباسٌ، هكذا كان كلام الرَّسُول ﷺ، فلم يكن يتكلَّف الألفاظ الغريبة، وإنما يختار الألفاظ التي يفهمها السامعون من العوامِّ والمتعلِّمين، وهذا هو المقصود، إفهامُ السامعين باختيار الألفاظ الواضحة البيِّنة في خطبة الجمعة والمحاضرات ومحادثة الناس، مع الابتعاد عن الألفاظ التي لا يفهمها إلَّا القليل من الناس.

ففي هذا الحديث الحثُّ علىٰ اختيار الألفاظ والأساليب التي يفهمها المخاطَبون، ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتُحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله»[1].

فينبغي للمتحدث والخطيب أن يختار الألفاظ الواضحة والبيِّنة التي لا لَبْسَ فيها؛ ليأخذ عنه المستمع ويحفظ، وأن يختار من الأدلَّة المحكَمة الواضحة، وعدم الإتيان بالأدلَّة المتشابهة بحيث تلتبس وتشتبه علىٰ الناس، وأن يراعي مستوىٰ الحاضرين إن كانوا عوامَّ فيُخاطبهم بما يفهمون، وإن كانوا متعلِّمين فيُخاطبهم خطابَ العلماء، وإن كانوا مختلطين من العلماء والعوام فيأتي بالألفاظ والأساليب التي تَصلُح للجميع.

وقولها: «كان يُحدِّثنا حديثًا لو عَدَّه العادُّ لأحصاهُ» أي: لو أراد المستمع عدَّ كلماته أو حروفه؛ لأمكن ذلك بسهولة، فقد كان ﷺ يُقلِّل الكلام مع جزالته، وهذا بخلاف ما هو عليه بعض الخطباء في وقتنا الحاضر الذين يبالغون في إطالة خُطبهم، والتي غالبًا لا يستفيد منها الحاضرون، بل علىٰ العكس يتذمَّرون منها ويصفونها بالمُمِلَّة.

=

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

[الترغيب في قلَّة الكلام]

١٤٠- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتُم العبدَ يُعطىٰ زُهدًا في الدُّنيا، وقلَّةَ منْطقٍ فاقتَربوا منه، فإنَّه يُلقَّىٰ الحِكمةَ». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[(١)] [١٥٥].

وقولها: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» أي: لم يكن ﷺ يُتابع الحديث استعجالًا، وإنما كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح علىٰ سبيل التأنِّي، لئلا يلتبسَ علىٰ المستمع، وقد كان من صفات خطابه ﷺ الترسُّل في الكلام، فلا يُسرع بحيث يَفوتُ علىٰ السامع، مع اختيار الألفاظ الفَصْل الواضحة التي لا تحتاج لأن يُسأل عن معناها، مع التمهُّل في إلقاء الخطاب لوصول الفائدة إلىٰ المستمعين.

ولذلك فإنَّ الخُطبَ المرويَّة عن الرسول ﷺ إذا قرأها القارئ لوجدها لا تتجاوز النصف صفحة أو أقلَّ، ولكنها لو شُرحت لبلغت المجلَّدات؛ لأنها من جوامع الكَلِم، فليس الشأن في كثرة الكلام وإنما في الإفادة التي تتأتَّىٰ من هذه الخُطَب ولو كانت قليلة، وقد عوَّد الخُطباء في وقتنا الحاضر الناسَ علىٰ التَّطويل في الخطابة، وهذا علىٰ خلاف ما نراه من خُطَب القدماء -وهي مدوَّنة- التي لو رجعنا إليها لوجدنا أن الطويل منها لا تبلغ النصف صفحة، ومثال ذلك خُطب المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

[١٥٥] وفي هذا الحديث الترغيب في قلَّة الكلام، فالذي لا يتعلَّق قلبُه في الدُّنيا وبجمع المال، وإنما بالعمل الصالح، فإنه لا يأخذ من الدُّنيا إلا بقدر ما يُعينه =

---

(١) «شُعب الإيمان» (٤/ ٢٥٤) (٤٩٨٥).

....

علىٰ العيش؛ لأنه ليس الزُّهد في تَرْك الدُّنيا، وإنما في تَرْك ما لا يُحتاج إليه، فمَنْ اجتمعت فيه الصفتان: الزُّهد في الدُّنيا مع قلَّة الكلام فارغبوا فيه وفي مجالسته؛ لأنَّه «يُلقَّىٰ الحكمة» من قِبَل الله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: **«يُعطىٰ زهدًا»** أي: مِن الله -جل وعلا- **«في الدُّنيا»** أي: استصغارًا لشأنها وأهلها.

قوله: **«وقِلَّة منطقٍ»** أي: قليل من الكلام في غير إطالةٍ إلَّا بقدْر الحاجة.

وقوله: **«فاقتربوا منه فإنه يُلقَّىٰ الحكمة»** أي: فارغبوا فيه والزَموه؛ لأنه لم يُحرم الإصابة في القول، ولا رؤية الأشياء في غير موضعها، وإنما يضع الأشياء كما هي فإنه ينظر بنور الله، ومَنْ كان هذا وَصفُه أصاب في منطقه؛ والحكمة هي: الفقه في أمور الدِّين والدنيا.

قال تعالىٰ: **﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** [البقرة: ٢٦٩]. وتُطلق الحكمة ويُراد بها وضعُ الشيء في موضعه، وتُطلق ويراد بها: الفقه في الدِّين، قال تعالىٰ: **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾** [الجمعة: ٢]. قيل: الحكمة هي السُّنة. وقيل: الحكمة هي الفقه في الدين، ولا تعارض بين المعنيين؛ لأنَّ السنة هي الفقه في الدِّين.

١٤١- وعن بُريدةَ رضي الله عنه قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ مِنَ البيان سِحْرًا، وإنَّ مِنَ العلمِ جَهْلًا، وإنَّ مِنَ الشِّعر حِكَمًا، وإنَّ مِنَ القَوْلِ عِيالًا»[1][١٥٦].

---

[١٥٦] قوله ﷺ: **«إن من البيان سِحرًا» البيان، هو:** البلاغة والفصاحة في القول، والسحر في الأصل: الصَّرف، وسُمِّي السِّحر سحرًا؛ لأنه يصرف قلوب الحاضرين، ويجذب الأسماع ويُغيِّر الأشياء، فالبليغ يستطيع أن يصوِّر الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا ببلاغته، وكذلك السِّحر يُغيِّر الحقائق، والبلاغة نوع من السِّحر من خلال تغيير الحقائق بتمويه اللفظ عن تدبُّر المعنىٰ؛ ولذلك سمِّي سحرًا، وهو سحر كلامي يسحر الناس ويستميلهم، ولهذا يقول الشاعر:

فـي زُخـرفِ القـولِ تـزيينٌ لـباطِلِهِ ... والحـقُّ قـد يَعتَـريه سُـوءُ تَعبيـرِ

تقـولُ هـذا مُجَـاجُ الـنَّحلِ تَمدَحُـهُ ... وإنْ تـشأ قلـتَ ذا قَـيءُ الزَّنابيـرِ

مَـدْحًا وَذَمًّـا وَمَـا جَـاوزتَ وَصـفَهُمَا ... حُـسنُ البَيَانِ يُرِي الظَّلْمَـاءَ كَالـنُّورِ

فالبليغ يستطيع أن يغيِّر الأشياء عن حقائقها ببلاغته، هذا معنىٰ **«إن من البيان لسحرًا»**.

وقد قال بعض العلماء: إنَّ هذا من باب الذَّمِّ للبلاغة، ويكون المقصود من هذا منع الناس من الإعجاب والاغترار بأصحاب البلاغة.

ففي هذا الحديث الحثُّ علىٰ أن يكون الاهتمام والإعجاب والاستقباح إلىٰ جانب المعنىٰ، والبعض الآخر يقول: هذا من المدح للبلاغة، والصواب أن البلاغة لا تُمدح ولا تُذمُّ لذاتها، وإنما تُمدح أو تُذمُّ لِمَا تُستعمل فيه، فإن استُعملت =

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠١٢).

=

لبيان الحقِّ فهذا محمود، وإن استعملت لنُصرة الباطل فهذا مذموم، ولذلك كان من الخطباء والشعراء من اتَّخذهم الرَّسول ﷺ، فقد اتَّخذ من الخطباء مَنْ يَخطب عند الوفود، واتَّخذ من الشُّعراء كحسَّان بن ثابت وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، فقد اتَّخذ من شعرهم نُصرةً للدَّعوة.

وقوله: «**وإنَّ من العلم جهْلًا**» لكونه مذمومًا والجهلُ به خيرٌ منه؛ والمراد من العلوم ما لا يحتاج إليه فيشتغل به عن تعلُّم ما يحتاج في دينه، ويكون فيما إذا دخل العالِم فيما لم يبلغْهُ علمُه فإنه ينقلب إلىٰ جهل، فعلىٰ العالم أن يتوقَّف عند علمه، ولا يتكلَّف ما لا يعلمه، فإن تكلَّف ما لا يعلمه صار جهلًا.

وقوله: «**وإن من الشِّعر حِكمًا**» الشِّعر معروف أنه من أنواع الكلام علىٰ اعتبار أن الكلام ينقسم إلىٰ قسمين: نثر وشعر، والشعر إن استُعمل في نُصرة الحقِّ فهو محمود، كالدَّعوة إلىٰ الله والرَّد علىٰ الباطل، كشعر حسَّان بن ثابت رضي الله عنه، وأما الذي يستعمل شعره في الباطل والمجون والغزل والعشق، أو لمدح الخمر والمعاصي؛ فهو مذموم، فالشِّعر منه ما هو ممدوح وفيه حِكْمة، ولذلك نجد بعض الشعراء ينطق بالحكمة في شعره كالمتنبي، وكعب بن زهير، وزهير بن أبي سُلمىٰ، فالشعر كغيره من الكلام محمود ومذموم، والشعر هو ديوان العرب تُؤخذ اللغة منه، وخصوصًا شعر الجاهلية وصدر الإسلام، فتؤخذ الشواهد منه علىٰ أنه حُجَّة في اللغة العربية، وتؤخذ منه الحِكَم والأمثال والمواعظ فلا يُزهد فيه كلِّه ولا يُحمد كلُّه.

وقوله: «**وإن منَ القول عِيالًا**» العايل: هو الذي يمشي علىٰ غير طريق كالضال والضائع، وهو خطاب مَنْ لا يُصغي لك، وعَرْضُك حديثك علىٰ مَنْ لا يُريده وليس من شأنه، فينبغي عدم خطاب من لا يصغي إليك؛ لأنه من العِيَال؛ أي: من الضَّياع. =

١٤٢- وعن عمرو بن العاصِ رضي الله عنه، أنه قال يومًا -وقام رجلٌ فأكثرَ القول- فقال عمرو: «لو قَصدَ في قوله؛ لكان خيرًا له، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **لقد رأيتُ -أو: أُمرتُ- أنْ أتجوَّزَ في القول، فإنَّ الجوازَ هو خيرٌ**». رواهما أبو داود[1].

آخره، والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا [١٥٧].

---

[١٥٧] **في هذا الحديث أنه تكلَّم رجلٌ عند عمرو بن العاص** رضي الله عنه، **وكان أميرًا علىٰ مصر في زمن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، **فأكثر الرَّجل الذي تكلَّم القولَ، فانتقده عمرٌو** رضي الله عنه، **فقال: لو قَصَدَ في قوله؛ وذكر الحديث عن رسول الله** صلى الله عليه وسلم.

قوله صلى الله عليه وسلم: «**لقد رأيت -أو: أُمرتُ- أن أتجوَّز في القول**» أي: علمت -أو: أمرتُ- شكٌّ من الراوي «**أن أتجوَّز في القول**» أي: أختصر فيه، وأُخفِّف عن السامع، وهذا من صفة كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كما سبق بيان ذلك.

وقوله: «**فإن التجوُّز فيه خيرٌ**» وهو الاقتصار علىٰ قدر الكفاية؛ لأنه يحصل فيه المقصود دون تكلُّف، ودون إتعاب للسامع.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**فيه خيرٌ**» دليل علىٰ أنَّ عدم التجوُّز فيه شرٌّ، وأن أمرَه يئول إلىٰ أمور مذمومة، وفيه خلطٌ للمعنىٰ المراد، فهذا الاختصار من أعظم آداب الكلام.

فعلىٰ المرء ألَّا يتكلم إلا بقدر الحاجة، ولا يتكلَّم إلا إذا كان للكلام مناسبة، وإلا يكون «**مِنَ القول عيالًا**» كما في الحديث السابق، فيضيع الكلام، ولا يُستفاد منه.

وأكثر مَنْ يُطالَب بذلك: الذين يتحدَّثون علىٰ المنابر، وفي الندوات، وفي=

---

(١) برقم (٥٠٠٨).

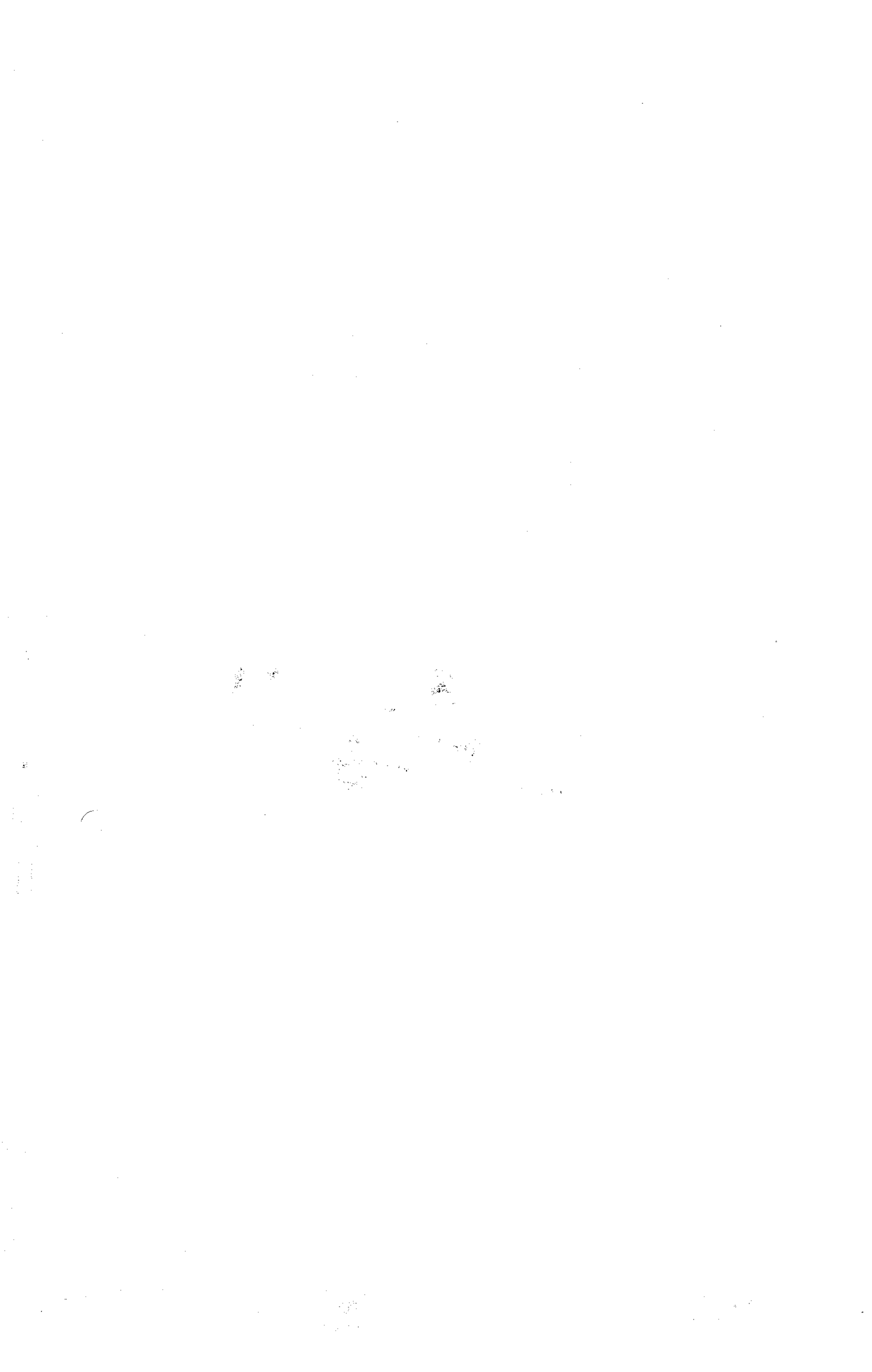
....

الدروس؛ فينبغي اقتصارهم في الكلام بقدر ما يفيد السامعين، ويتناسب مع مستواهم.

انتهىٰ شرحنا علىٰ كتاب «أصول الإيمان»

والحمد لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات


الفهرس



فهرس الموضوعات



سلسلة شرح الرسائل

شرح رسالة فضل الإسلام

شرح
معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها
عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد

الطبعة الأولى لـ :



١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢١٠٨٩ / ٢٠١٠ م



٦ شارع عزيز فانوس منشية التحرير جسر السويس - القاهرة

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس : ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال : ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال : ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

WWW. DarAlemamAhmad.Com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبِهِ نَستعينُ

بابُ فَضْلِ الإسلام [١]

---

[١] الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد»، وكتاب «أصول الإيمان»، وكتاب «فضل الإسلام»، وكتاب «الكبائر» درج علىٰ ما درج عليه المحدِّثون، في أنه في هذه الكتب يأتي بالتراجم ويسوق بعدها الآيات والأحاديث، فهو يأتي بالترجمة التي تتضمن ما تفيده النصوص التي يسوقها بعدها، وهذه طريقة المحدِّثين؛ كالإمام البخاري وغيره، فهو لا يأتي بكلام من عنده، وإنما يأتي بما دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، لا كما يقوله أعداؤه إنه أتىٰ بمذهب خامس يسمونه المذهب الوهابي؛ تنفيرًا عنه، وعن دعوته.

وقد كان عالم من علماء الهند، كلما فرغ من درسه رفع يديه، وجعل يدعو علىٰ الشيخ محمد بن عبد الوهاب فسمعه بعض الناصحين فجاء علىٰ مؤلف الشيخ «كتاب التوحيد» ونزع غلافه الذي فيه اسم الشيخ، وقدمه إليه يسأله: مَنْ هو مؤلف هذا الكتاب؟ فتأمله ذلك العالم وجاء من الغد وقال للرجل الذي قدمه إليه: هذا من مؤلفات الإمام البخاري، فردَّ الرجل غلافه عليه، وقال له: هذا هو ابن عبد الوهاب الذي تدعو عليه، فندم العالم، وجعل يدعو للشيخ محمد بعد كل درس.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][٢].

وهو في هذا الكتاب بيَّن أولًا أصول الإيمان، ثم فضل الإسلام، وذلك لأن الدين يتكون من ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الإسلام.

المرتبة الثانية: الإيمان.

المرتبة الثالثة: الإحسان.

كما جاء في حديث أبي هريرة، قال: «كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: **الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث.** قال: ما الإسلام؟ قال: **الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.** قال: ما الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...**». إلىٰ آخر الحديث(١).

فهذه مراتب الدين؛ المرتبة الأولىٰ: الإسلام، ثم فوقها: الإيمان، ثم فوقها: الإحسان، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُبيِّن الإسلام والإيمان في هذا الكتاب «أصول الإيمان».

والباب الأول من أبواب هذا الكتاب، هو: «باب فضل الإسلام» ثم أتبعه بأبواب أخرىٰ، مثل: باب وجوب الإسلام، وباب تفسير الإسلام وما يخرج من الإسلام... إلخ.

[٢] لما كان النبي ﷺ واقفًا في عرفة في حجة الوداع، نزلت عليه هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ﴾ الآية، وهي من آخر ما نزل علىٰ الرسول ﷺ من القرآن الكريم، أو هي آخر ما نزل؛ لأنه عاش بعدها مدة يسيرة، بعد أن رجع إلىٰ المدينة بعد الحج.

فدلَّ هذا علىٰ أن الرسول ﷺ ما توفي حتىٰ أكمل الله به الدين، وفي هذا ردٌّ علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨ و ٩ و ١٠).

المبتدعة الذين يُحدِثون أشياء وينسبونها إلىٰ الدين وهي ليست منه، فأيما إنسان يأتي بزيادة في الدين فهي مردودة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(١).

وفيه ردٌّ علىٰ الذين ينتقصون الإسلام، ويقولون: إنه لا يصلح لكل زمان ومكان، مثل ما ينادي به الآن الذين يقولون: إن الإسلام لأجيالٍ مَضَتْ، ولفترة مضت، فلا يصلح لآخر الزمان، مع أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يدل علىٰ أنه صالح لكل زمان ومكان، وإذا قَصُرَت أفهام بعض الناس عن فهم الإسلام، فالعيب ليس في الإسلام، إنما العيب في فهمهم له: وإلا فالدين كامل وشامل لمصالح العباد إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بهذا الدين، فهذا الدين هو أعظم نعمة أنعم الله بها علىٰ البشرية، لكن مَنْ قَبِلَ هذه النعمة استفاد منها، ومَنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فإثمه وضرره عليه؛ لأنه هو الذي رفض هذه النعمة.

ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ الإسلام: هو الدين الذي قال الله فيه أوَّل هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فالله سبحانه أكملهُ ورضيهُ لنفسه، ورضيه لعباده، ولا يرضىٰ دينًا سواه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فسائر الأديان بعد مجيء دين محمد كالنصرانية واليهودية كلها باطلة لا يرضاها الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ففي هاتين الآيتين ردٌّ علىٰ الذين يقولون من أهل زماننا: إن الأديان الثلاثة؛ اليهودية، والنصرانية، والإسلام، كلها حق، وكلها توصل إلىٰ الله، فهذا كذب وافتراء،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقولهُ تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٤][٣].

فليس هناك دين حق بعد مجيء هذا الدين إلا الإسلام، فبعد بعثة الرسول ﷺ ومجيء الإسلام نُسِخَتِ اليهودية والنصرانية، فسائر الأديان إما محرَّف ومبدَّل، وإما منسوخ ومنتهٍ أجله.

فلم يبق دين يرضاه الله إلا الإسلام، فمن أراد دخول الجنة؛ فليتمسك بهذا الإسلام، ومَنْ أراد دينًا غيره فليس له إلا النار، لأنه رَفَضَ دين الله الذي رضيه الله ﷻ لعباده.

فاليهودية غير المحرفة التي هي دين موسىٰ عليه السلام كانت في وقتها دينًا صحيحًا مقبولًا، وكذلك النصرانية غير المحرفة؛ لكن بعد مجيء الإسلام نُسخت، ولم يبق إلا الإسلام، والواجب اتباع ما أمر الله به في كل زمان وفي كل مكان، وقد أمر الله باتباع الإسلام: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

[٣] الآية الأولىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين، والآية الثانية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب للمشركين، ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع البشرية ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ فهذا هو دين الرسول ﷺ عبادة الله، وترك عبادة ما سواه، ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ عند نهاية آجالكم، وينقلكم من هذه الدار إلىٰ دار الجزاء، فالله هو المستحق للعبادة؛ لأنه إليه المرجع والمصير، أما هذه الأصنام فليس لها من الأمر شيء، لا تحيي ولا تميت ولا تجازي أحدًا؛ لأنها مخلوقات لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، فكيف تملك لغيرها؟!

هذا من العجائب واستخفاف العقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨][٤].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر: ١٤]. فهذا مخاطبة للعقول.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ فالعبادة حق لله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالرسول ﷺ مأمور، وهو يمتثل أمر الله ﷻ، ويبلغه للناس.

ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٥-١٠٩]. آيات عظيمة، فيها مفاصلة بين الحق والباطل، ليس فيها لبس ولا غموض، الرسول ﷺ يعبد الله، وهؤلاء يعبدون غير الله؛ بل يعبدون مخلوقات ليس بيدها شيء، ولا تملك شيئًا، فهذه مفاصلة بين التوحيد والشرك، الرسول ﷺ ما جاء بشيء جديد، ولا دعا إلىٰ عبادة نفسه، وإنما دعا إلىٰ عبادة الله ﷻ.

إذن؛ فالإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ هو أن يُعبَد الله وتُترك عبادة ما سواه.

[٤] الآية الأولىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنين، والآية الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ خطابٌ للمشركين والوَثَنيين، وهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطابٌ لأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أجر الإيمان بالرسل السابقين، وأجر الإيمان بمحمد ﷺ، فالمؤمن من أهل الكتاب يؤتى أجرَهُ مرتين، أجر الإيمان بالكتاب السابق، وأجر الإيمان بالكتاب المتأخر، وهذا فضل عظيم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ نورَ البصيرة ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ تُميِّزون به بين الحقِّ والباطل، والهُدىٰ والضلالِ، لأن هذا الدين نورٌ، فالقرآنُ نورٌ، والسُّنةُ نورٌ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. فالذي يمشي علىٰ هدي القرآن يمشي علىٰ النور، والذي يمشي علىٰ غير هدي القرآن يمشي في ظلمةٍ وضلالٍ -والعياذُ بالله- وإن زُيِّن وزُخرِف له ما هو عليه، فهو باطلٌ وضلالٌ، والإيمانُ بالرسولِ ﷺ سببٌ لهذا النور الحقيقي الذي يسيرُ عليه الإنسان.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مزايا عظيمة يُرغِّبُ فيها أهلَ الكتاب في أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي جاء بما جاءَ به إخوانُهُ النبيون، ودعا إلىٰ ما دَعَوا إليه، وهو إخلاصُ العبادةِ لله ﷻ، وتَرْكُ عبادةِ ما سواه، فكان من العجيب أن يعصوه ويخالفوه، مع أنه ما جاءَ بشيءٍ يخالفُ ما عليه أنبياؤهم ورسُلُهم، فدلَّ علىٰ أن الإسلامَ هو الإيمانُ بهذا الرسولِ ﷺ بعد بعثته، وأن من لم يؤمن بهذا الرسولِ فليس علىٰ الإسلام، وإنما هو علىٰ الكُفر.

ودلَّتْ هذه الآية علىٰ فضل مؤمني أهلِ الكتاب الذين مَنَّ الله عليهم فقبلوا الحقَّ، وأنَّ الله سيُعطيهم الأجرَ مرَّتين، ويُعطيهم مزايا عظيمةً.

وفي الصَّحيح، عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مثلُكُم، ومثَلُ أَهلِ الكِتَابينِ كَمثَلِ رجُلٍ استأجرَ أجرَاءَ، فقالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِن غُدوَة إلىٰ نِصفِ النهار علىٰ قِيرَاطٍ؟ فعَمِلتِ اليهودُ. ثم قال: مَنْ يعملُ لي من نصفِ النهارِ إلىٰ صلاةِ العصرِ علىٰ قيراطٍ؟ فعَمِلتِ النَّصارىٰ. ثم قالَ: مَنْ يَعملُ لِي مِنْ صلاةِ العصرِ إلىٰ أن تغيبَ الشمسُ علىٰ قِيراطينِ؟ فأنتمْ هُمْ. فغضِبَ اليهودُ والنصارىٰ، فقالوا: مَا لنا أكثرَ عملًا، وأقلَّ أجرًا؟ قال: هل نَقَصْتُكُمْ من حقِّكُمْ شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فذلكَ فضلي أُوتِيه من أشاءُ»[1] [٥].

وفيهِ أيضًا، عَنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أضلَّ الله عَنِ الجُمُعةِ مَنْ كان قَبْلَنا، فكانَ لليهودِ يَومُ السَّبتِ، وللنصارىٰ يومُ الأحدِ، فجاءَ الله بِنَا فَهَدانا ليومِ الجُمُعةِ، وكذلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يومَ القيامَةِ، نَحنُ الآخِرونَ مِنْ أهلِ الدُّنيا، والأوَّلُونَ

[٥] هذا الحديثُ فيه فضلُ الإسلام، وأنَّ أهلَهُ أعظمُ أجرًا عند الله عَزَّ وَجَلَّ من أهل الأديان السابقة، وهذا مثلٌ ضربَهُ النبيُّ ﷺ يوضحُ ذلك.

«فذلكَ فَضْلِي أُوتيهِ مَن أشاءُ» لا حَجْرَ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيم، لكنه لا يظلمُ أحدًا، ولا يبخسُهُ من حقِّهِ شيئًا؛ لأن الله حكمٌ عادلٌ، يجازي علىٰ العملِ الصالح، ويزيدُ، وهذه الزيادةُ فضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].
فهذا فضلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا اعتراضَ علىٰ الله في تفضيله هذه الأمة علىٰ غيرها من الأمم؛ لأنه أعلمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمواقع فضله، ومَنْ يستحق الفضلَ، وأعلمُ بخلقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالجزاءُ علىٰ العملِ عدلٌ، والزيادةُ علىٰ الجزاءِ فضلٌ.

وهذا الحديث فيه فضلُ الإسلام علىٰ غيره من الأديان.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٨).

يومَ القِيامةِ»[(1)][٦].

[٦] وهذا أيضًا فيه فضلُ الإسلام، وأنَّ أهلَهُ أفضلُ الأممِ يومَ القيامةِ، والنبيُّ ﷺ وضَّح ذلك بيوم الجمعةِ، فالله -جلَّ وعلا- جعل للأمم يومًا من الأُسبوعِ يتفرَّغُونَ فيه للعِبادةِ، فاليهودُ اختاروا يومَ السبت، وقالوا: إنه اليوم الذي استراح الله فيه -بزعمهم- بعدما تعبَ من خَلْقِ السموات والأرض، حيث خلقها في ستةِ أيامٍ، بدايتها يومُ الأحد، ونهايتها يومُ الجمعة، قالوا: ويوم السبت تفرَّغ الله فيه واستراح، فاعتبروه يومًا لعبادتهم، وقد كذبوا علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. أي: من تعب، وفي هذا ردٌّ علىٰ زعمهم الباطل؛ بأنَّ الله استراحَ يوم السبت.

أما النصارىٰ، فاختاروا يومَ الأحدِ، قالوا: لأنَّهُ اليومُ الذي ابتدأ الله -جلَّ وعلا- فيه الخَلْق، فهو اليومُ الأولُ من الأيام الستةِ، فاختاروه لهذا السبب.

وأمَّا هذه الأمةُ، فالله -جلَّ وعلا- هو الذي اختار لها يومَ الجمعة؛ لأنه أفضلُ الأيام، فيه تكامل الخَلْق، وفيه خُلق آدم عليه السلام، وفيه أُخرِجَ مِنَ الجنة، وفيه تقوم الساعة، فهو يوم عظيم، فاختارَهُ الله لهذه الأمةِ.

فاليهود والنصارىٰ حَسَدوا المسلمين علىٰ هذا، ولم يحسدُوهم علىٰ شيء مثلما حسدُوهم علىٰ يوم الجمعة الذي اختص الله به المسلمين، وأضلَّ عنه اليهود والنصارىٰ.

فهذا فيه فضلُ هذه الأُمةِ، وفيه فضلُ يوم الجمعة، وأنَّ الله تعالىٰ اختارَ لهم يومَ الجمعة لعلمِه تبارك وتعالى أنَّ هذا اليومَ هو أفضلُ الأيام.

(١) أخرجه مسلم (٨٥٦).

وفيهِ تَعْلِيقًا، عنِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّهُ قالَ: «أحبُّ الدِّينِ إلىٰ الله: **الحَنِيفيَّةُ السَّمْحَةُ**»[1] انتهىٰ[٧].

---

[٧] قوله: «وفيه» أي: في «صحيح البخاري»، «تعليقًا» المعلَّق: هو الذي يذكره البخاري بدون سند، وهو علىٰ قسمين: معلَّقٌ: مجزومٌ به، أي: علىٰ سبيل الجزم، ومُعلَّقٌ غيرُ مجزوم به، وقد حَصَرَ الإمامُ ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعلقات التي في «البخاري» وذكر أسانيدها في كتاب اسماه: «تغليق التعليق» أي: ذكر الأسانيد التي علَّقها البخاريُّ ولم يذكرها.

«**عن النبي ﷺ أنه قال**» هذا من التعليق المجزوم به.

«**الحنيفية السَّمحة**» الحنيفيةُ يعني: ملَّةَ إبراهيم، والسمحة يعني: السهلة. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحنيفُ، هو: المُقبلُ علىٰ الله، المُعرضُ عمَّا سواهُ، فإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مُقْبلًا علىٰ الله، مُعرضًا عمَّا سِواهُ من الخَلْقِ.

والحَنِيفيَّةُ: ملَّةُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي ملَّةُ محمدٍ ﷺ.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

اليهود ادَّعَوا أن إبراهيم يهوديٌّ، مع أن التوراةَ ما أُنزلتْ إلا من بعدِهِ، فقد أُنزلتْ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبَيْنَهُ وبينَ إبراهيمَ مدةٌ طويلةٌ.

وكذلك النصارىٰ، قالوا: إن إبراهيمَ كان نصرانيًّا، وما جاءتَ اليهودية والنصرانية إلا من بعده، فالله تَعَالَىٰ ردَّ عليهم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدين يُسْرٌ، قبل الحديث رقم (٣٩).

وعَنْ أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه قال: «عليكُمْ بالسَّبيلِ والسُّنَّةِ، فإنَّهُ ليسَ مِنْ عَبدٍ علىٰ سَبيلٍ وسُنةٍ، ذَكَرَ الله ففاضَتْ عَيناهُ مِنْ خَشْيةِ الله فَتَمَسَّهُ النَّارُ، ولَيسَ مِنْ عبدٍ علىٰ سَبيلٍ وسُنَّةٍ، ذَكَرَ الرَّحمنَ فاقْشَعرَّ جِلدُهُ من مَخافةِ الله، إلَّا كان كَمَثَلِ شَجَرةٍ يَبسَ وَرَقُها إلا تحاتَّتْ عنهُ ذُنوبُهُ، كما تَحاتَّ عن هذِه الشجرةِ ورَقُها، وإنَّ اقتصادًا في سُنَّة خيرٌ من اجتهادٍ فِي خلافِ سبيلِ الله وسُنَّتِهِ، فانظرُوا أعمالَكُم، فإن كانتِ اجتهادًا أو اقتِصَادًا أنْ تكونَ علىٰ منهاجِ الأنبياءِ وسُنَّتهم»(1)[٨].

حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

فالحَنيفيَّةُ مِلَّةُ إبراهيم -عليه الصلاةُ والسلام-، وهي أحبُّ الأديان إلىٰ الله، فدلَّ علىٰ أنَّ الإسلامَ، هو أحبُّ الأديان إلىٰ الله تعالى.

[٨] هذا الأثرُ عن أُبي بن كعب في فضل الإسلام.

يقول: إنَّ الإنسانَ إذا كان علىٰ سبيلٍ صحيح وعلىٰ سُنَّةٍ ثابتة عن النبي ﷺ، فهذا إذا بكىٰ من خشية الله فإنها لا تمسُّهُ النار؛ لأنه خشي الله تعالى وهو علىٰ سبيلٍ وسُنَّةٍ؛ أي: علىٰ طريقٍ صحيحٍ.

أما لو خشي الله، وهو علىٰ غير سُنَّةٍ؛ أي: علىٰ بدعةٍ، فهذا لا ينفعُهُ بكاؤُه ولا خشوعُه ولا خشيتُه، وكثيرٌ من النصارىٰ يبكونَ، ويخشعونَ لكنهم علىٰ غيرِ هُدًىٰ؛ بل علىٰ ضلالٍ، وكثيرٌ من القُبوريِّين والمُبتدعةِ يبكونَ بكاءً شديدًا، ولكن لا يُؤجَرون علىٰ هذا البُكاءِ، ولا يَنفعُهم عند الله؛ لأنَّهم ليسوا علىٰ سُنة، فليستِ العبرةُ أن يبكيَ الإنسانُ ويخشَعَ، وإنما العِبرةُ بما هو عليه.

ثم قال أُبي بن كعب في آخر الكلمة: «إن اقتصادًا في سُنةٍ؛ خيرٌ من اجتهادٍ في خلاف سبيل الله وسُنَّتِه». هذا كلام عظيم، فالعملُ اليسيرُ وهو علىٰ سُنَّةٍ فيه خيرٌ كثيرٌ أما الاجتهادُ الكثير وهو علىٰ بدعة، فهذا لا ينفع صاحبَهُ، ولو اجتهد الليلَ والنهارَ؛ لأنه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٣).

وعَنْ أَبِي الدَّرداءِ ﷺ، قال: «يا حَبَّذا نومُ الأكياسِ وإفطارُهم، كيف يَعيبُونَ سَهَرَ الحَمْقَىٰ وصَومَهم؟ مثقال ذرةٍ من برٍّ مع تقوَىٰ، ويقينٍ، أعظمُ وأفضلُ وأرجحُ من عِبادةِ المغْتَرِّين»[1][٩].

علىٰ غير طريق السنة، فليستِ العِبرَةُ بكثرة العمل، ولا بكثرةِ البُكاءِ، وإنما العبرةُ في الطريق الذي عليه الإنسان، العبرةُ باتباع الكتاب والسُّنَّةِ ولو كان العملُ قليلًا، فهذا يكون علىٰ خيرٍ كثير وعلىٰ سبيلِ نجاةٍ، وبكاؤُهُ وخشوعُهُ وخشيتُه تكون نجاةً له من النار.

[٩] أثرُ أبي الدَّرداءِ يُشبه أثر أُبي بن كعب في معناه تمامًا، أن صاحبَ العقيدةِ الصحيحةِ، وإن كان نائمًا، فهو خيرٌ من صاحب العقيدةِ الفاسدةِ وإن كان قائمًا يصلِّي النافلة، وصاحب السُّنَّةِ في نومِهِ وفي إفطارِهِ هو علىٰ خير، وصاحب البدعةِ في سَهَرِهِ وفي صومِهِ هو علىٰ شرٍّ؛ لأنه يَسيرُ علىٰ غير هدىٰ.

❀❀❀

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).

باب الدخول في الإسلام

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩][١٠].

---

[١٠] قال ﷺ: «**باب الدخولُ في الإسلام**»، لما ذكَرَ فضلَ الإسلام ذكَرَ الترغيبَ في الدُّخولِ فيه، فالإسلامُ الذي هذه مزاياهُ وهذه فضائلُهُ لا يليقُ بعاقلٍ أن يرفضَهُ وألَّا يدخلَ فيه إذا كان يريدُ النجاةَ لنفسه.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فالذين يقولون: إنهم علىٰ دينٍ وإنهم يعرفونَ الله، ويعبدون الله، من اليهود والنصارىٰ، ويأبونَ الدخولَ في الإسلام، ليسوا علىٰ دين؛ لأنهم علىٰ دينٍ منسوخٍ انتهىٰ العملُ به، فلا يفيدُهم شيئًا، لا يفيدُهم إلا الدخولُ في الإسلام، فقد قال ﷺ: «**والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسلتُ به إلا كانَ مِنْ أصحابِ النار**»(١).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**كُلُّ أمتي يدخلون الجنَّةَ إلا مَنْ أبَىٰ.** قالوا: ومَنْ يأبىٰ يا رسول الله؟ قال: **من أطاعني دخل الجنةَ، ومن عصاني فقد أبَىٰ**»(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ أما غيرُه فليس دِينًا عند الله؛ لأنه

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال مجاهدٌ: «السُّبُل: البِدَع والشُّبهات»[١١].

بعد مجيء الإسلام لم يبق دينٌ يقبلُهُ الله ﷻ من عبادِهِ؛ لأن الإنسان عبدٌ، والعبدُ يطيعُ ربه ﷻ فيما أمَرَهُ به، والله أمرَكَ أن تدخل في الإسلام، فيجبُ عليك الدخولُ في الإسلام طاعةً لله ﷻ ؛ لأن الواجبَ اتباعُ الأمر لا اتباع الهوىٰ.

فهذا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه عندما قَبّل الحجرَ الأسود قال: «والله، إني لأعلمُ أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله يقبِّلُكَ ما قبَّلتُكَ»[1].

فتقبيل الحجر ليس عبادةً للحجر، وإنما هو عبادةٌ لله تعالىٰ، والطوافُ بالكعبة ليس عبادةً للكعبة، وإنما هو امتثالٌ لأمر الله ﷻ وعبادة له، فالشأنُ يدورُ مع أمرِ الله وشرعِهِ، ولا اعتراضَ علىٰ ذلك، فقد اعترضَ إبليسُ علىٰ أمر الله، فكان مصيرُه الطردَ والإبعادَ واللعنةَ والغضبَ، والعياذُ بالله.

[١١] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الصراطُ: هو الطريق، والمراد به هنا: الإسلام، فهو صراطُ الله ﷻ ، وهو مستقيمٌ ليس فيه اعوجاجٌ ولا انحراف، وإنما هو معتدلٌ، لا إفراطَ ولا تفريط.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ لا تتبعوا دِينًا غيرَ هذا الدِّين، ولا تتبعوا سُنَّةً غيرَ سنةِ الرسولِ ﷺ، فإن هذا صراطي، وهو سبيلي.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تأمَّلْ، سبيلُ الله واحدة، وصراطٌ واحد، وأما غيرُ سبيل الله فهي سُبُلٌ كثيرةٌ، حبُّ الأهواء، وحبُّ الشهواتِ، كلٌّ له طريق، كلٌّ له سبيل، كلٌّ له مذهب، والنهايةُ الخسارة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أما مَنْ سارَ علىٰ هذا الطريق الواحد، فإنه ينجو عند الله ﷻ، فهذا فيه الأمر بسلوك سبيل الله، وتَرْكِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠) من حديث عبد الله بن عمر.

وَعَنْ عائشةَ ﵂، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قالَ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**». أخرجاه، وفي لفظٍ: «**مَنْ عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(١)[١٢].

وللبُخاريِّ(٢)، عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كُلُّ أُمتِي يَدخُلونَ الجَنَّةَ إلَّا مَنْ أَبَىٰ. قيل: مَنْ يأبَىٰ؟ قال: مَن أطاعَني دَخَلَ الجنَّةَ، ومَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»[١٣].

ما سواهُ من النِّحَلِ والبِدَعِ والمذاهبِ والفِرَقِ، فكلُّها تؤدي إلىٰ الهلاكِ.

قال مجاهد: «السُّبُل: البِدَع والشُّبهات». البدع والشبهات هي من السُّبُل التي تتفرقُ بأصحابها ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. وهذا من تمام العقوبة، أن الإنسان يفرحُ بالباطلِ، فإذا فرحَ بالباطل فلن يتركه.

أما الذي يسيرُ علىٰ باطل ولم يفرح به، فهذا ربَّما يبحثُ عن الحق ويهتدي إليه؛ لكن إذا سارَ مُقتنعًا وفرح بالباطل فهذا لا يهتدي أبدًا.

[١٢] «مَنْ أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليسَ منه فهو رَدٌّ». يعني: مردودًا عليه، لا يُقبَلُ عندَ الله، وقوله: «من أحدثَ في أمرنا». أي: أضافَ إلىٰ الدين إضافةً جديدةً لم يأتِ بها الرسولُ ﷺ، وقال: إن هذا خيرٌ، نقول له: بل هذا باطلٌ؛ لأن الدين كامل، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فلا تُقبلُ في الإسلام الإضافاتُ والزيادات والاستحسانات؛ لأن الدين توقيفي، إذَنْ البدعُ كلُّها ليست من الإسلام، وإن كان أصحابُها يتقربون بها إلىٰ الله، ويظنُّون أنَّ فيها أجرًا، لكنها ليس فيها أجرٌ ولا تُقرِّبُ من الله، بل تُبعِدُ عن الله ﷻ.

[١٣] وهذا فيه الحثُّ علىٰ الدخولِ في الإسلام، فالذي يريدُ الجنةَ يدخل في الإسلام، والذي لا يريدُ الجنةَ لا يدخل في الإسلام، بأن يتبع المذاهبَ الأخرىٰ والأديان

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، واللفظ الأخير هو لفظ مسلم.

(٢) برقم (٧٢٨٠).

وفي الصَّحيح، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ**». رواه البخاري(١).

قال ابن تيمية: «قوله: (**سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ**): يَنْدرجُ فيها كُلُّ جاهليَّةٍ مُطْلَقَةٍ، أو مُقَيَّدَةٍ، أي: في شخصٍ دونَ شخصٍ، كتابيَّةٍ، أو وثنيَّةٍ، أو غيرِهما من كلِّ مخالفٍ لما جاءَ به المرسلون»[١٤].

الأخرىٰ، ومآلُهُ إلىٰ النار، فليس للجنةِ طريقٌ إلا الإسلام الذي جاء به هذا الرسول ﷺ.

ومعلوم أن الذي يتمسكُ بالإسلام يلقىٰ أذىٰ ومشقة من الناس؛ لكن عليه أن يصبر، وخصوصًا في آخر الزمان إذا كثرت الفتن، فالمتمسكُ بالدين يكون كالقابضِ علىٰ الجمر، لشدة ما يلقَىٰ في سبيل ذلك من المشقة والأذىٰ.

أما البِدع فليس فيها تعب؛ لأنها توافق الأهواء والشهوات؛ ولأن الناس لا يعترضون عليه، وصاحبها ولو تعِبَ فإنه يتلذَّذُ؛ لأن الشيطانَ يزيِّنُ له هذا الشيء؛ لكن مآلها إلىٰ النار.

[١٤] قوله: «**أبغض الناسِ**» فيه إثبات البُغْض لله ﷻ، فهو -جلَّ وعلا- يُبغِضُ أهلَ الشَّرِّ وأهلَ الكفر، ويحبُّ أهلَ الخير وأهلَ الإيمان.

«**مُلحدٌ في الحرم**» الإلحادُ، هو: المَيلُ، والمرادُ به الميلُ عن طاعة الله إلىٰ معصيته، والإلحاد محرمٌ في كلِّ وقت، وفي كل مكان؛ ولكن الإلحادَ في الحَرَم أشدُّ، فهو حَرَمُ الله ﷻ، الذي أمر الله ﷻ أن يُحترَم، وأن يؤمَّنَ الناسُ فيه، ولا يُعتدَىٰ علىٰ أحد، حتىٰ الطيور والصَّيد لا تُنفَّر، وحتىٰ الخلا الذي هو العُشبُ لا يُقطعُ، وكذلك الشجر لا يُقطَعُ في الحرم، فكيف بدماءِ الآدميين والاعتداء عليهم؟!

---

(١) برقم (٦٨٨٢).

....

وأشدُّ من ذلك الشِّركُ في الحرم، ودعاءُ غيرِ الله ﷻ، والبدعُ والمحدَثاتُ في الحرم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. فمجرَّدُ الإرادة لو نوىٰ في قلبه أنه يريدُ أن يُنفِّذَ شيئًا في الحرم، فإنَّ الله يُذيقُهُ العذابَ الأليم، حتىٰ ولو ما نَفَّذَ، فكيف إذا نفَّذَ؟! فالأمرُ أشدُّ، والعياذ بالله؛ لأن الحرمَ أمرُهُ عظيم.

والمرادُ بالحرم: ما كان داخلَ الأميال المحيطة بمكةَ من جميعِ الجوانب، وهو الذي لا يُنَفَّرُ صيدُه، ولا يُختَلىٰ خلاؤه، ولا تُلتقَطُ لُقَطَتُهُ إلا لمُنْشِدٍ، ولا يُعتَدَىٰ فيه علىٰ أحد؛ لا في عِرْضِهِ، ولا في دَمِهِ، ولا في مالِهِ؛ لأن من دخَلَهُ كان آمنًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

كان الناس في الجاهلية -وهم أهلُ شرٍّ وأهلُ قتالٍ وغاراتٍ ونهبٍ وسلبٍ- كانوا إذا دخلوا الحرمَ أمِنُوا، حتىٰ إنَّ أحدَهم كان يلقىٰ قاتلَ أبيه فلا يُهيِّجُهُ حتىٰ يخرج من الحرم، هذا وهم أهل جاهلية، فكيف بأهل الإسلام؟! فمن اعتدىٰ في الحرم، فإن الله -جلَّ وعلا- توعَّدَه بالعذاب الأليم.

«**ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهلية**» وهذا هو محلُّ الشاهد، فالذي يأتي بعادات الجاهلية، ويجعلها من الإسلام، هذا يبغضه الله أشدَّ البغض.

والمراد بالجاهلية: ما قبل الإسلام، وهو زمن الفترة من الرسل. سُمِّي بالجاهلية؛ لأنه ليس فيه كتاب ولا رسول.

«**ومُطَّلِبُ دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه**» هذه هي الجريمةُ الثالثةُ التي يُبغِضُ الله أصحابَها، وهي جريمة الاعتداء علىٰ الأبرياء، الذين يعتدون علىٰ الأبرياء ليقتلوهم، سواء كان هؤلاء الأبرياء مسلمين، أو مَعَاهَدِينَ من الذين عَصَمَ الله دماءَهم، فمن أراد أن يقتلَ معصومَ الدم الذي أَمَّنَهُ الإسلام وأعطاه الأمان واعتدىٰ

....

عليه، فإن الله يُبغِضُه أشدَّ البغض، وعقوبته عند الله أشد؛ لأن الله حرَّم قتل الأنفس بغير حق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعاهدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة**»[١]. فالدمُ المعصوم لا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وهذا من أكبر الجرائم.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

قوله: «**قال ابن تيمية ...**» يعني: شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر سُنَّةَ الجاهلية، فبيَّن أنَّ هذا عامٌّ في الجاهليةِ العامةِ والجاهلية الفردية؛ لأن الجاهليةَ قد تكون في مجتمعٍ وقبيلةٍ، وقد تكونُ في فردٍ من الأفراد، فلما عيَّرَ رجلٌ من الصحابةِ رجلًا آخر منهم بسوادِهِ، وأنه ابنُ سوداء أو ابن مملوكةٍ، فقال له: يا ابنَ السوداء، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «**عيَّرتَهُ بأُمِّهِ؟! إنَّكَ امرؤٌ فيك جاهليةٌ**»[٢].

مع أنَّ هذا الرجل الذي قال ذلك، هو أبو ذر من أفاضل الصحابة؛ لكن لما قال هذه الكلمة عدَّها النبيُّ ﷺ من أُمور الجاهلية؛ لأنَّ المسلمين إخوة: «**لَا فضلَ لعربيٍّ علىٰ أعجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأحمرَ علىٰ أسودَ، ولا أسودَ علىٰ أحمرَ إلا بالتقوىٰ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩) من حديث أبي نضرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

وفي الصَّحِيح، عن حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»(١)[١٥].

وعَن مُحمدِ بنِ وضَّاح: أنَّه كان يدخلُ المسجِدَ فيقفُ علىٰ الحِلَق، فيقول: .. فذكَرهُ، وقال: أنبأنا ابن عيينَةَ، عَن مُجالدٍ، عن الشعبيِّ، عن مسروقٍ، قال: قال عبدُ الله -يعني: ابن مسعودٍ- ﷺ: «ليسَ عَامٌ، إلا والذي بعدَهُ أشرُّ منه، لا أقول: عام أمطَرُ من عامٍ، ولا عامٌ أخصبُ من عامٍ، ولا أميرٌ خيرٌ من أميرٍ؛ لكن ذَهابُ علمائِكُم وخيارِكُم،

«قوله: سنة الجاهلية: يندرجُ فيها كلُّ جاهليَّةٍ مطلَقَةٍ أو مُقيَّدة» مطلقة، يعني: عامة في قبيلة أو في بلد، أو مقيدة بشخص.

«كتابية، أو وثنية، أو غيرهما» هذا تفسيرٌ للجاهلية، أنها كلُّ ما عليه الكفارُ قبل البعثة، سواءٌ كانوا من اليهود، أو من النصارىٰ، أو من المجوس، أو من الوثنيِّين.

[١٥] هذا الأثرُ، عن حذيفةَ بن اليمانِ ﷺ، أنه كان يدخل المسجد، ويقفُ علىٰ حِلَقِ التدريس؛ أي: علىٰ الذين يتعلمون القرآن في المسجد، فيقول لهم: «إن استقمتُم سَبَقْتُم سَبْقًا بعيدًا». أي: إن استقمتُم علىٰ القرآن الذي تدرسونه بالعمل به؛ لأنَّ المقصودَ هو التمسُّك بالقرآن والعملُ به، أما الذي يقرأُ القرآنَ ولكنَّهُ لا يتخلَّقُ به، فهذا قد انحرفَ عن القرآن، فالقرآنُ هو الصراطُ المستقيمُ الذي من تمسَّكَ به نجا، ومن حادَ عنهُ هلَكَ وضَلَّ.

وهذا الأثرُ فيه التذكيرُ من حُذيفةَ ﷺ للقراء أنهم لا يقتصرون في قراءة القرآن علىٰ جَودةِ التلاوةِ وحُسْنِ الصوت دون نظَرٍ إلىٰ تدبره، والعمل به، والتخلُّقِ بأخلاقِهِ، فمن فعل ذلك لا يُعتبر من أهل القرآن.

أما الذي يتخلقُ بالقرآن ويتأدَّبُ بآدابه فهو من أهل القرآن، ولو كان عاميًّا لا يقرأ القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٢).

ثم يَحدُثُ أقوامٌ، يَقِيسُونَ الأمورَ بآرائِهِمْ فَيُهْدَمُ الإسلامُ، ويَنْثَلِمُ»(١)[١٦].

---

[١٦] «**محمدُ بن وضَّاحَ**» من العلماء الذين صنَّفُوا في بيان البدع، فله كتاب مطبوع، اسمه: «البدع والنهي عنها».

وهذا الأثر عن ابن مسعود ﷺ، من رواية محمد بن وضَّاح، أنه أخبرَ أن الناسَ لا يزالونَ في نقصٍ، كلُّ عامٍ يكون أنقصَ من الذي قبله، وهذا كما جاء في حديث أنس لما جاءوا يشكون إليه الحجاجَ، وما يلقون من الظلم، قال: «**اصبروا، فإنه لا يأتي عامٌ إلا والذي بعدَهُ شرٌّ منه.** سمعتُه من نبيكمﷺ»(٢). فكلما تأخَّر الوقت زاد الشَّرُّ، وهذا يقتضي أن يكون الإنسان علىٰ حذر من الفتن والشرور.

ثم أخبرَ في آخر الأثر أنه إذا مات العلماءُ والأخيار، يأتي من بعدهم أناسٌ جُهَّالٌ يحكِّمون عقولَهم ومقاييسَهم؛ لأنه ليس عندهم علمٌ، وهذا يضلِّلُ الأُمة ويسببُ هلاكَها؛ لأن هؤلاء الجهال لا يُحسنون الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ هما الأساسُ في التشريع.

وكما جاءَ في الحديث: «**إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ من العباد؛ ولكن يَقْبِضَ العلمَ بقَبْضِ العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناسُ رءوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغيرِ علم فضلُّوا وأضلُّوا**»(٣).

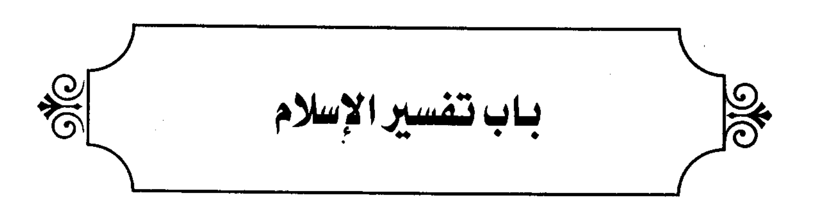
فوجود العلماء علامةُ خير، وفقدانُهم علامةُ شَرٍّ، ووجودُ أُناسٍ في هذا الزمان يزهِّدون بالعلماء، ويُحقِّرونهم، ويتكلمون في أعراضهم؛ هذا من علامات الساعة، ومن علامات النقص من الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢١٠)، وعزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٨٣) للبيهقي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.



باب تفسير الإسلام

وقول الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] الآية. [١٧].

---

[١٧] «باب تفسير الإسلام» بعدما أوردَ الأبوابَ السابقة في الحثِّ علىٰ الإسلام، والدخولِ فيه، والتمسُّكِ به، أراد أن يبيِّن ما هو الإسلام؛ لأن كونك تمدح الشيءَ، ولا تُبينُه لا يحصل المقصودُ، فلابدَّ أن يُبيِّن ما هو الإسلام؛ لكيلا يدَّعي أحدٌ أنَّ ما هو عليه هو الإسلام، وهو مخالف للإسلام.

فكلُّ الفِرَق تدعي كلُّ واحدة منها أنها علىٰ الإسلام، وأن غيرها ليس هو علىٰ الإسلام، ولو تركنا الأمر لهؤلاء؛ لهلكت الأمة، لكن من فَضْلِ الله سبحانه أن جعل الإسلام واضحًا بيِّنًا، فليس الإسلام بالدعوىٰ، والانتماءِ والانتساب؛ ولكن المسلم من تمسَّك بالإسلام الحقيقي، فلابدَّ أن تعرفَ الإسلام مما جاء في كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، لا من غيرهما.

«وقول الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ الآية»؛ أي: النصارىٰ، وهذا فيه بيانٌ لمعنىٰ الإسلام، أنه إسلامُ الوَجْهِ لله، وإخلاصُ النِّيةِ له سبحانه، والبراءةُ من الشرك.

أما مَنْ كان عنده شيءٌ من الشرك، كدعوةِ الأمواتِ والقبورِ، ويقول: أنا مسلم! فهذا ليس بمسلم؛ لأنه ما أسلم وجهه لله؛ بل أسلم وجهَهُ لغير الله، يدعو غيرَ لله، يذبحُ لغير الله، ينذرُ لغير الله ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]. فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هذا التوحيد، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ؛ لأن متابعة الرسول ﷺ بها يتحقق الإسلام، فالإسلام، هو: الإخلاصُ لله، والمتابعةُ للرسول ﷺ.

وَفِي الصَّحِيحِ، عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»(١)[١٨].

[١٨] ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديثَ عن رسول الله ﷺ لأنه يفسر فيه الإسلام بأنه الإتيان بهذه الأركان الخمسة.

«**الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله**» وليس معنىٰ ذلك التلفظ فقط، لا؛ بل باللفظ، وبالنيَّةِ، وبالعمل، فلابد من التلفظ بالشهادة، ومن العلمِ بمعناها والعمل بمقتضاها، حتىٰ تكون شهادة صحيحة، فشهادة أن لا إله إلا الله، تعني: الإخلاصَ لله، وتركَ الشرك، وشهادةُ أنَّ محمدًا رسول الله، تعني: المتابعة للرسول ﷺ، وتركَ البدع والمحدثات، فالرسولُ ﷺ هو القدوةُ، فلا يُتبعُ غيرُه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أما المنافقون فهم يشهدون أن محمدًا رسولُ الله بألسنتهم؛ لكن يكفرون به في قلوبهم وأفعالهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢]. أيمانهم يعني: الشهادة، فسماها يمينًا، ﴿جُنَّةً﴾ أي: سُترة يتستَّرون بها، وهم لا يؤمنون بأنه رسولُ الله في قلوبهم، وإن كانوا يتلفَّظون بذلك في ألسنتهم، فدلَّ علىٰ أن المطلوب ليس هو اللفظ فقط؛ بل اللفظ والاعتقاد والعمل.

«**وتقيم الصلاة**» الصلاةُ، هي الركنُ الثاني من أركان الإسلام، فالذي يشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله؛ لكن لا يُقيمُ الصلاةَ؛ بل هو تاركٌ لها متعمدًا، فهذا ليس بمسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) ضمن حديث جبريل في الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وفيه، عن أبي هريرةَ ﵁ مَرفوعًا: «المُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١)[١٩].

«وتؤتي الزكاة» كذلك لابدَّ مع الصلاةِ من أداءِ الزَّكاةِ؛ لأن الزكاةَ قرينةُ الصلاة، فمن فرَّق بين الصلاةِ والزكاة، أي: أنه يصلي؛ لكنه لا يؤدي الزكاة، هذا أيضًا ليس بمسلم، فقد قاتَلَ أبو بكر الصديق ﵁ مانعي الزكاة، وقال: «والله لأُقاتلنَّ مَن فَرَّق بين الصلاةِ والزَّكاة»(٢).

«وتصوم رمضان» هذا هو الركن الرابع، وهو صيام شهر رمضان، فالذي يترك الصيام، ويقول: إنه ليس بلازم، فهذا ليس بمسلم.

«وتحج البيت إن استطعتَ إليه سبيلًا» فمن كان عنده استطاعة للحج ولم يحجَّ، ويقول: إنه ليس بلازم، فهذا يكفر، ولهذا قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. أما إذا اعترفَ بوجوب الحج، ولكنه لم يحج تكاسلًا، فهذا يُلزِمُهُ وليُّ الأمر بالحج.

[١٩] أي: ليس الإسلامُ مقصورًا على هذه الأركان، بل هذه الأركان هي الأساسات، فالإسلامُ هو كلُّ الطاعات التي أمَرَ الله بها، أو أمَرَ بها رسولُه ﷺ، وهذه الأوامرُ منها ما هو واجبٌ، ومنها ما هو مستحبٌّ.

فكلُّها من الإسلام، منها ما يزول الإسلامُ بتركه، ومنها ما لا يزول الإسلام بتركه، وإنما ينقص، يعني: منها ما يُكمِّلُ الإسلامَ الكمالَ الواجب، ومنها ما يكمِّلُ الإسلام الكمالَ المستحبَّ.

---

(١) حديث أبي هريرة ليس في الصحيح، وإنما أخرجه أحمد (٨٩٣١)، والترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٨/ ١٠٤-١٠٥) بإسناد قوي، أما حديث الصحيح، فهو عن عبد الله بن عمرو بن العاص عند البخاري (١٠)، ومسلم (٤١)، وعن جابر بن عبد الله عند مسلم (٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة.

وعن بَهزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّهِ، أنه سَأَلَ رسولَ الله ﷺ عن الإسلام، فقال: «**أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ، وَأَنْ تُولِيَ وَجْهَكَ إِلَىٰ اللهِ، وَأَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ**» رواه أحمد(١)[٢٠].

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، عَنْ رَجُلٍ من أهلِ الشَّام، عن أبيه: «أَنَّه سَأَلَ رسُولَ الله ﷺ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ، **أَنْ تُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلَّهِ** ﷻ، **وَيَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ**. قَالَ: أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **الإِيمَانُ**. قَالَ: وَمَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ**»(٢)[٢١].

فالواجبات من الطاعات، تكمِّلُ الإسلام الكمال الواجب، والمستحبَّات تكمِّل الإسلام الكمال المستحب، ولهذا قال: «**المسلمُ مَنْ سَلِم المسلمونَ من لسانه ويده**». فالذي يكفُّ أذاهُ عن الناس فهو مسلم كامل الإسلام، أما الذي يؤذي الناس بلسانه أو بيده، لا نقولُ إنه كافر، ولكنه مسلمٌ ناقص الإسلام.

[٢٠] هذا معقولٌ من قوله ﷺ: «**الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وتقيم الصلاة**» فذكر هنا أهمَّ أركان الإسلام، وهي الشهادتان وإقامُ الصلاة.

وكما جاء في حديث معاذِ بن جبَل لما بعثه النبيُّ ﷺ إلىٰ اليمن، قال له: «**فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فإنْ هم أجابوكَ لذلك فأعلِمهُم أنَّ الله افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أجابوكَ لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم وتُردُّ في فقرائهم**»(٣). فذكر أهم أركان الإسلام الخمسة، وهي هذه الثلاثة.

[٢١] قوله: «**أن تُسلمَ قلبَك لله**» هذا كما في الآية: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾،

---

(١) في «مسنده» برقم (٢٠٠٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٠٢٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٠٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث عبد الله بن عباس.

....

وكما في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١١٢]. وهذا فيه إخلاصُ العبادة لله، وتركُ عبادةِ ما سِواهُ، وهذا هو أساس الإسلام.

«**ويسلم المسلمونَ من لسانِك ويدكَ**» كما مرَّ في الحديث: «**المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويده**».

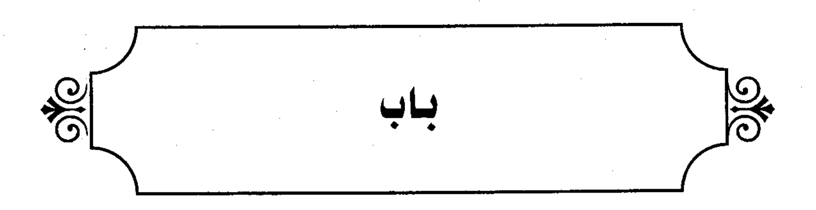
«**قال: أيُّ الإسلام أفضلُ؟ قال: الإيمانُ**». لأن الرسولَ ﷺ في حديث جبريل جعل الإيمانَ فوقَ الإسلام، وأخصَّ.

«**قال: وما الإيمانُ؟ قال: أن تؤمن بالله...**». الحديث، وهذه كما في حديث جبريل المتقدم تسمىٰ أركانَ الإيمان، فكما أن الإسلام له أركان، فكذلك الإيمان له أركان، والإيمانُ أوسعُ من الإسلام، والإيمان له مكمِّلاتٌ واجبةٌ ومستحبَّةٌ، ولهذا قال ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ -أو: بضْعٌ وستون- شعبةً، أعلاها: قولُ لا إله إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[1].

فالطاعاتُ كلها من الإيمان، القوليةُ منها والفعلية، وليس الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، -كما يقول المرجئة-، بل الإيمانُ: نطقٌ باللسانِ، وتصديقٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ.

٭٭٭

(١) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) بتمامه، من حديث أبي هريرة.



باب

قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥][٢٢].

---

[٢٢] هذا البابُ فيه بيانُ أن الإسلامَ هو الدينُ الوحيدُ الذي لا يقبلُ الله من أحدٍ سواه.

والإسلام، هو: ما جاء به الرسُلُ -عليهم الصلاةُ والسلام-، في كلِّ وقت بحَسَبِهِ، لكن لما بُعِثَ محمدٌ ﷺ صار الإسلام هو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ.

فالإسلامُ، معناهُ: الانقيادُ لله بالطاعةِ، والبراءَةُ من الشركِ، وعبادتِهِ حسبَ ما شُرِع في كلِّ وقت، أما بعد بعثة محمدﷺ فإنه صار الإسلامُ هو ما جاء به محمدﷺ، ولا يسعُ أحدًا أن يخرج عن طاعتهﷺ، حتىٰ الأنبياء السابقون، لو وُجد أحدٌ منهم بعد بعثة محمدﷺ فإنه لا يسعُهُ أن يخرجَ عن طاعةِ محمدٍﷺ، ولهذا قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ يعني: محمداًﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

فبعد بعثة محمدﷺ انتهت الأديانُ السابقة، وانتهىٰ العملُ بها، ووجبَ العملُ بما جاءَ به محمدﷺ؛ لأن الأمرَ لله -جلَّ وعلا-، وليس الأمر لشخص معيَّن، ولا للأهواء والشهوات والرغبات، فالله أمركم وأمرَ الأنبياءَ كلَّهم أن يُطيعوا محمداًﷺ إذا بُعث، حتىٰ عيسىٰ عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان فإنه سيتبع محمداًﷺ، ويحكم بشريعة محمدﷺ؛

وَعَن أَبي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَجِيءُ الأَعْمَالُ، يَوْمَ القِيَامَةِ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خَيْرٍ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ، الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الأَعْمَالُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بِكَ اليَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي. قَالَ اللهُ تعالىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]» رواه أحمد [(١)].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ ﵂، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ

ولهذا قال ﷺ: «لو كان أخي موسىٰ حيًّا بين أظْهُرِكم، ما حَلَّ له إلَّا أن يَتْبَعني» [(٢)].

فالذين يدَّعون في هذا الزمان أن اليهوديةَ والنصرانيةَ والإسلامَ كلها أديانٌ صحيحة، ويُنكرون علينا تكفيرَ اليهود والنصارىٰ؛ لأنهم عندهم علىٰ أديانٍ صحيحة، ويتبعون الأنبياء، هؤلاء نقولُ لهم: كذبتُم، هم الآن لا يتبعون الأنبياء، فلو كانوا يتبعونَ الأنبياء لاتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأن الذي يكفُر بمحمدٍ ﷺ فإنه كافرٌ بجميع الأنبياء، ولم يَبْقَ معه دينٌ، وليس تابعًا لأحدٍ من الأنبياء.

فاليهود الآن ليسوا أتباعًا لموسىٰ، ولا النصارىٰ أتباعًا لعيسىٰ؛ لأنَّ فترةَ الأنبياء انتهت ببعثة محمدٍ ﷺ، فالذي يبقىٰ علىٰ اليهودية أو النصرانية فإنه كافر؛ لأنه عصىٰ موسىٰ، وعصىٰ عيسىٰ، وعصىٰ محمدًا -عليهم الصلاة والسلام-، ولا يمكن أن يكون علىٰ الحق؛ لأن موسىٰ وعيسىٰ يأمرانه باتباع محمدﷺ، ولم يفعل.

---

(١) في «مسنده» برقم (٨٧٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤٦٣١)

عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» رواه أحمد(١)[٢٣].

[٢٣]حديثُ أبي هريرةَ، واضحٌ بأنه لا يُحتسبُ عند الله يومَ القيامةِ إلا الإسلامُ، وما عداهُ من الأديانِ، فهو باطلٌ مردودٌ، ولا ينفعُ أصحابَهُ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالذين ماتوا قبل بعثة محمد ﷺ وهم يتبعونَ أنبياءهم، فهم علىٰ الإسلام، لكن بعد بعثِ محمد ﷺ فليس الإسلامُ إلا ما جاء به ﷺ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

وكذلك حديث عائشة: «من عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» فإنه يبيِّنُ أنه لا دِينَ إلا ما جاء به الرسولُ ﷺ وأنَّ من عَمِلَ عملًا مخالفًا للنبي ﷺ أو لم يأتِ به النبيُّ ﷺ فهو مردودٌ، فالذي يعملُ علىٰ اليهوديةِ، أو يعملُ علىٰ النصرانيةِ، أو يُحْدِثُ أشياءَ وبدعًا من عنده ويعملُ بها علىٰ أنها قرباتٌ وطاعات، دون دليل من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ فهو مردودٌ علىٰ صاحبه كائنًا مَنْ كان، يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو مبتدعًا مسلمًا.

فالإسلامُ، فقط هو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فدل علىٰ أن الذين لا يتبعون محمدًا ﷺ لا يفلحون أبدًا، وأنهم خاسِرون.

(١) في «مسنده» برقم (٢٥٤٧٢)، وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وقد سلف هذا الحديث في باب وجوب الإسلام.

باب: وجوب الاستغناء بمتابعته ﷺ عن كلِّ ما سواهُ

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] [٢٤].

روىٰ النَّسائيُّ، وغيرُهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «أَنَّهُ رَأىٰ في يَدِ عُمَر بن الخطَّابِ ورقةً مِنَ التَّوراةِ، فقال: **أَمُتَهوِّكُون يا ابن الخطَّابِ؟ لَقَدْ جِئْتُكُم بها بَيضاءَ نَقِيَّةً، لو كانَ مُوسىٰ حيًّا واتَّبعتُمُوهُ وتَركتُموني ضلَلْتُم**».

وفي رواية: «**لو كان مُوسَىٰ حيًّا ما وَسِعَهُ إلا اتِّباعِي**. فقال عُمرُ: رَضِيتُ بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمد نَبِيًّا»[1] [٢٥].

---

[٢٤] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن والسنة، والخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وهذا فيه أن القرآنَ كلامُ الله منزَّلٌ، وليس مخلوقًا كما تقولُه الجهميَّةُ، فهو لم يقل: ما خلقنا لك الكتابَ، بل قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن.

﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فالله -جلَّ وعلا- بيَّن فيه الدِّين الذي يقبلُهُ من عبادِه، ولا يقبل منهم سواه، كما أنه بيَّن فيه أيضًا الدِّين الذي لا يقبله ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]. فهو هدىٰ ورحمة للمؤمنين، أما الذين لا يؤمنون فليس هو رحمة لهم، وإنما هو حجةٌ عليهم.

[٢٥] يقول ﷺ لأمته: لو كان موسىٰ عليه السلام حيًّا واتبعتموه، مع أنه رسول الله وكليمه؛

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله، و(١٨٣٣٥) من حديث عبد الله بن ثابت، وفيه تمام تخريجه.

....

لكن فترته انتهت -عليه الصلاة والسلام- فلو اتبعتموه بعد بعثة محمدﷺ لضللتم، سبحان الله! يضلُّون وهم متبعون رسولًا! نعم؛ لأن هذا الرسول قد انتهت فترته، وجاءت فترة رسول آخر، وهو محمدٌﷺ.

والإنسان يدور مع أمر الله ﷻ حيثما كان، فالله ﷻ نسخ الشرائع السابقة بشريعة محمدﷺ، فيجب العمل بالناسخ، ولا يجوز العمل بالمنسوخ، فلو أن واحدًا الآن صلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس، وقال: بيت المقدس قبلة، والكعبة قبلة، وكلها مساجد، فإننا نقول له: صلاتك هذه باطلة لا تصح؛ لأن استقبال بيت المقدس نُسِخَ وأُمرتَ باستقبال الكعبة، فعليك أن تدور مع أمر الله، ولا تدر مع هواك، فإن الشيء إذا نُسخ لا يجوز العمل به.

وكذلك بقيةُ الدِّين، فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا أعمل بالتوراة، مع أن التوراة نسخت، وقد حُرِّفت؛ لكن لو قُدِّر أنه ليس فيها تحريفٌ، فلا يجوز العمل بها؛ لأنها منسوخة، فالتوراة إما محرَّفة، وإما منسوخة، فلا يجوز العمل بها، وكذلك الإنجيل، إما محرَّف وإما منسوخ، ولم يبقَ إلا العمل بالقرآن الذي جاء به محمدﷺ، والدين لله وما هو بالأهواء، والشهوات، والرغبات.

نعم، «**لو كان موسىٰ حيًّا**» وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو كليمُ الله، لو كان حيًّا وقتَ بعثة محمدﷺ ما وَسِعَه إلا اتباع الرسول، ولا يبقىٰ علىٰ شريعته؛ لأنها نُسخت وانتهت، والأمر لله -جلَّ وعلا-: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

«**فقال عمر: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍﷺ نبيًّا**» هذا هو الواجب؛ أن الإنسان إذا تَبيَّن له الحقُّ ألَّا يجادلَ فيه، ولا يُماطل، فهذا عمر رضي الله عنه كان يدور مع الحق، فهو ظن أن هذه الورقة من التوراة فيها حقٌّ فأعجبته؛ ولكن لما بيَّن له الرسولﷺ

....

هذا البيان اقتنع فقال: «رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا». هذا هو الواجب، أن الإنسان إذا تبيَّن له الحق يجب عليه المبادرةُ إلىٰ قَبُوله، فإن تأخَّر عن قبوله فحَرِيٌّ أن يزيغ قلبه ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. فهذا فيه بطلان اتباع غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها منسوخة بالقرآن.

❊ ❊ ❊

باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] [٢٦].

---

[٢٦] هذا الباب فيه أن هناك من يتسمَّىٰ بالإسلام؛ ولكنه يخرج منه بسبب أنه يرتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فيظن أنه مسلم، وهو غير مسلم.

مثال ذلك: الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلِّي ويصوم، هذا مسلم؛ لكنه إذا دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو ذبح لغير الله، فقد أشرك بالله، وخرج من الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، هذا هو الإسلام.

فإذا عَمِلَ عملًا، أو قال قولًا، أو اعتقد اعتقادًا يخالف الإسلام، فإنه لا يكون مسلمًا، ولو كان ينتسب إلىٰ الإسلام، وما أكثر ما يحصل هذا، وهذا مما يجب علىٰ المسلم أن يحذره، وأن يتعلم ما هو الإسلام الصحيح، وما هي مبطلات الإسلام ونواقضه، حتىٰ يتجنبها.

أما إذا كان يجهل هذا، فإنه قد يقع فيه، ويخرج من الإسلام وهو لا يشعر، يقول الله -جلَّ وعلا-: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. ما هي ملَّة أبينا إبراهيم؟ هي التوحيد، والإخلاص لله ﷻ، والبراءة من الشرك وأهله، هذه ملة أبينا إبراهيم، وما خالفها فإنه كفر وشرك بالله ﷻ.

عن الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ، اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالجِهَادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ خالَفَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَلَّىٰ وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّىٰ وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَىٰ اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**». رواه أحمد، والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ(١) [٢٧].

هذه دعوة الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم، يدعون إلىٰ الانقياد بالعبادة وترك عبادة ما سواه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

[٢٧] هذا الحديثُ فيه أن النبي ﷺ، قال: «**آمركم بخمسٍ**»:

الأولىٰ: السمع والطاعة لولي أمر المسلمين؛ لأنه لا يستقيم الأمر إلا بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين، فالمسلمون لا يصلح أن يبقوا متفرقين مختلفين، لابد أن يجتمعوا، ويتوحَّدُوا، ولا يجتمعون إلا علىٰ إمام، أو ولي أمر؛ ولا تحصل الإمامة وولاية الأمر إلَّا بالسمع والطاعة؛ لكن في غير المعصية، كما قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق**»(٢).

فيجب السمع والطاعة لولي الأمر، وإلا لا يتم اجتماع المسلمين، ولا تتوحد كلمتهم، ولا يكون لهم جماعة ينضوون تحتها، فالذي لا يسمع لولي الأمر، ولا يطيع، هذا ليس من الجماعة، هذا خرج من الجماعة، ومَن خرج من الجماعة، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، هذا وعيدٌ شديدٌ.

---

(١) أحمد (٢٢٩١٠)، والترمذي (٢٨٦٣).

(٢) رواه أحمد (٣٨٨٩).

الأمر ليس بالهيِّن، أن ينعزل الإنسان عن المسلمين، ويتخلف عن المسلمين باجتهاده ورأيه، فلابد من الاجتماع من أجل أن تتوحَّد كلمةُ المسلمين، وتتم مصالحهم، ويقوم أمرهم.

الثانية: الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، فالله -جلَّ وعلا- أمر بالدعوة أولًا، دعوة الكفار والمشركين إلىٰ الإسلام؛ لأنه هو دين الله ﷻ، وما عداه فهو باطل، فلابد من الدعوة إلىٰ هذا الدين، ثم مَن استجاب، وقَبِلَ الدعوةَ فالحمد لله، ومَنْ أبىٰ فلابد من الجهاد -وهو القتال- لإعلاء كلمة الله ﷻ، ومحو الشرك من الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فلا ينبغي أن يكون الدين بعضه لله، وبعضه لغير الله؛ لأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميتُ المدبِّر، فهو المستحق للعبادة، ولا دينَ إلا دين الله -جلَّ وعلا-. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي: انقاد ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣]. فجميع المخلوقات منقادةٌ لله؛ إما طوعًا باتباع الشرع وطاعة الرسل، وهؤلاء هم المسلمون في كل زمان ومكان أو كرهًا؛ أي: ينقاد كرهًا لقدر الله وقضائه، فإن قدر الله وقضاءه يقعان علىٰ الكفار والمسلمين، ويخضع العبد الكافر لله كرهًا لا طوعًا.

فالدينُ، هو دين الله -جلَّ وعلا- لا دين سواه، ولا يقبل الله من أحدٍ سواه يوم القيامة، وما دام الأمر كذلك فلا مجال لبقاء دين غير دين الإسلام، فلابد من الجهاد لتوحيد العبادة لله ﷻ التي خلق الله الخلق من أجلها، وأرسل الرسل لبيانها، وأمر العباد بها.

....

الجهاد في سبيل الله هو القتال؛ أي: قتال المشركين إذا أبوا أن يقبلوا الإسلام، والجهاد فرض على المسلمين حسب الاستطاعة، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالجهاد فرضٌ؛ ولكن علىٰ حسب الاستطاعة، فإذا كان عند المسلمين قوة وقدرة علىٰ تكوين الجيوش، وغزو الكفار، فإنه يجب عليهم ذلك، ولابد من وجود الجهاد، فوجوده فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وبقي في حق البقية سُنَّة من أفضل العبادات، وإذا لم يقم به من يكفي أثم الجميع.

فالجهاد فرض كفاية لابد منه.

أما إذا كان المسلمون ليس عندهم استطاعة، فإنهم ينتظرون إلىٰ أن يصبح عندهم قوة، فالنبيﷺ مكث في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة مقتصرًا علىٰ الدعوة إلىٰ الله ﷻ، ولم يؤمر بالجهاد؛ لأن المسلمين لا يقدرون في تلك الفترة علىٰ الجهاد، ولما هاجرﷺ إلىٰ المدينة، وصار له أنصار وأعوان فرض الله عليهم الجهاد؛ لأنهم صاروا يقدرون عليه، هذه هي المسألة الثانية.

الثالثة: الهجرة، والهجرة مأخوذة من الهَجْر: وهو الترك، ترك الشيء، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. والرجز: هو الأصنام، وهجرها: تركها؛ هذا في اللغة.

وأما في الشرع فالهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام فرارًا بالدين، فالمسلم لا يبقىٰ مع الكفار، وهو يقدر علىٰ الهجرة إلىٰ بلاد المسلمين؛ لأنه إذا بقي عند الكفار فإنهم يؤثِّرون عليه فيتأثر بهم، أو يمنعونه من عبادة الله ﷻ، ويجبرونه علىٰ الكفر، فلابد من الهجرة عند القدرة.

....

والله توعَّد الذين لم يهاجروا وهم يقدرون على الهجرة شُحًّا بوطنهم أو بأموالهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾. أي: إذا كنتم مستضعفين في هذه الأرض لا تقدرون على إظهار دينكم، فلماذا لم تنتقلوا إلى أرضٍ تكونون أقوياء فيها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾. بدلًا من أن يكون مُضيَّقًا عليه في هذه البقعة، فإنه يجد أرضًا واسعة ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:٩٧-١٠٠]. فإذا مات وهو في الطريق، فقد كتب الله له أجر الهجرة، وهذا فضل عظيم.

والحاصل: أن الهجرة لابد منها وهي قرينة الجهاد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢]. فالهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وفيها فضل عظيم.

الرابعة: الجماعة، وهي أن تلزم جماعة المسلمين، ولا تشذ عنهم؛ لأن الجماعة عصمة؛ ولأن كونك مع الجماعة فيه قوة وعصمة لك.

أما كونك تنعزل، فهذا فيه خطر عليك، وعلى دينك، فكن مع جماعة المسلمين، ومع إمام المسلمين، ولا تشذ عنهم.

أما الذي يخرج عن الجماعة، وعن السمع والطاعة، فهذا قد خلع رِبْقَة الإسلام من عنقه كما في الحديث، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ فارَقَ الجماعةَ شِبرًا فماتَ؛ فمِيتةٌ جاهليةٌ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس.

فيجب علىٰ المسلم أن يكون مع المسلمين، ولا يشذ عنهم، أن يكون معهم ببدنه، ويكون معهم برأيه وقوله وفعله، أما أن يكون معهم ببدنه؛ ولكنه يخالفهم في رأيه بأن يكون له رأي آخر، فهذا لا يجوز.

وأشدُّ من ذلك إذا حمل السلاح علىٰ المسلمين، فإنه إذا حمل السلاح فقد نقض البيعة، وخرج عن جماعة المسلمين؛ أي: صار من الخوارج، فيجب قتاله والأخذ علىٰ يده، أما إذا رأىٰ رأي الخوارج وصوَّبه؛ لكنه لم يحمل السلاح، فهذا يُكف عنه؛ ولكنه يعتبر من الخوارج.

«فإنه مَنْ فارقَ الجماعةَ قِيدَ شِبرٍ فقد خَلَعَ ربْقَةَ الإسلام من عُنُقه، إلا أن يرجع» أي: إلا أن يتوب إلىٰ الله، هذا فتحُ مجال لمن سوَّلت له نفسه، أو زيَّن له دعاةُ الضلال الخروجَ عن الجماعة، فالله جعل له فرصةَ أن يتوبَ ويرجعَ، ومَن تَابَ؛ تَابَ الله عليهِ.

الخامسة: **«ومَنْ دعا بدعوىٰ الجاهلية، فإنه من جُثا جهنم»** الواجب علىٰ المسلم أن يتبرأ من أمور الجاهلية، ولا يتشبه بأهل الجاهلية؛ لأن الجاهلية كفر وضلال فلا يتخلَّق بأخلاق أهل الجاهلية.

والجاهلية، هي: ما كان قبل بعثة النبيﷺ، فمن حملته النخوة والعصبية علىٰ مفارقة الجماعة، فهو علىٰ خصلة من خصال الجاهلية، هذه هي الجاهلية.

ثم لما بُعث رسول اللهﷺ زالت الجاهلية العامة، وجاء العلم والقرآن والسنة، فزالت الجاهلية العامة، ولله الحمد.

لكن قد يبقىٰ هناك جاهليات في بعض الأشخاص، أو في بعض البلدان، أو في بعض القبائل، فالجاهلية العامة زالت بالإسلام -ولله الحمد- ولهذا قالﷺ: **«أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب،**

....

والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت»[1].

فمن فعل شيئًا من هذه الخصال، فقد فعل شيئًا من الجاهلية؛ أي: يكون فيه جاهلية.

ولما عيَّر أحد الصحابة أخًا له بأُمه، فقال له: يا ابن السوداء، قال له رسول الله ﷺ: **«أعيَّرتَه بأُمِّه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية»**[2]. يعني: فيك صفة من صفات الجاهلية.

فالفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت، هذه كلها من أمور الجاهلية، فيجب علىٰ المسلمين أن يتركوها.

وكذلك العصبية القبلية، أن يتعصب الإنسان لقبيلته، فالمسلمون كالجسد الواحد، ليس هناك فرق بين مسلم وآخر، ولا يتميَّز بعضهم عن بعض بنسب ولا بحسب، كلهم مسلمون، وهم يدٌ واحدة، وبنيان واحد، وحسبهم واحد، فلا يتعصب أحدٌ لقبيلته، أو لرئيسه، أو لشيخه، هذه من أمور الجاهلية.

أما المؤمن، فإنه يرجع إلىٰ الحق مهما كان، ويقبل الحق مع مَنْ كان وينقاد له، سواء كان الحق مع رئيسه، أو مع قبيلته، أو جماعته، أو مع غيرهم من المسلمين.

وفي إحدىٰ الغزوات تشاجر شخص من الأنصار مع شخص من المهاجرين، فاقتَتَلا -يعني: تضاربا-، فقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار. فسمع النبي ﷺ ذلك، فقال: **«أبدعوىٰ الجاهلية، وأنا بين أظهُرِكم، دعوها فإنها مُنتنة»**[3].

فلا يجوز للإنسان أن يتعصب لقبيلته، أو يحتمي بقبيلته خاصة؛ بل يحتمي

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

....

بالمسلمين عمومًا، فالنبيﷺ عدَّ هذه الدعوىٰ من أمر الجاهلية، والله -جلَّ وعلا- يقول لنساء الرسولﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ويقول -جل وعلا-: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]. حمية الجاهلية، وتبرج الجاهلية، ودعوىٰ الجاهلية، والقومية العربية، وحكم الجاهلية، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. كلها مرفوضة.

نحن مسلمون أعزَّنا الله بالإسلام، كما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «نحن أمةٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلَّنا الله». فالعزة إنما هي بالإسلام ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

هذه هي أمور الجاهلية، فالواجب رفضها وتركها والابتعاد عنها، والشيخ -كما تعلمون- له رسالة، اسمها: «مسائل الجاهلية» ذكر فيها عدةَ أمور من أمور الجاهلية للتحذير منها، ففيها أكثر من مائة مسألةٍ أو أكثر من مائة وعشرين مسألةً كلها من مسائل الجاهلية، يجب علىٰ المسلم أن يتجنبها، ويتجنب غيرها من أمور الجاهلية.

قال: «**ومَنْ دعا بدعوىٰ الجاهلية، فإنه من جُثا جهنم**».

هذا وعيد شديد؛ لأنه يكون من أهل النار بسبب أنه دعا بدعوىٰ الجاهلية، والواجب أن المسلم يدعو بالإسلام، لا بدعوىٰ الجاهلية.

«فقال رجلٌ: يا رسول الله، وإنْ صلىٰ وصام. قال: **وإن صلَّىٰ وصام، فادعُوا بدعوىٰ الله الذي سمَّاكم المسلمين، والمؤمنين عبادَ الله**».

يعني: يكون من جُثا جهنم، وإن صلَّىٰ وصام؛ أي: يُعذَّب بهذه الخصلة، والمؤمن قد يُعذَّب في النار، وإن لم يكفر، فإنه قد يُعذَّب بكبيرة في النار، ويخرَج منها بعد ذلك.

وفي الصحيح: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَمَاتَ؛ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»(١)[٢٨].

وفيه: «أَبِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»(٢)[٢٩].

وقال أبو العباس: «كلُّ ما خرجَ عن دعوىٰ الإسلامِ، والقرآنِ من نَسَبٍ أو بَلَدٍ أو جِنسٍ، أو مذهبٍ أو طريقةٍ فهو من عزاء الجاهلية»[٣٠].

---

[٢٨] هذا أيضًا في الحث علىٰ لزوم الجماعة، «**مَن فارق الجماعة قيد شبر**». أي: ولو قليلًا، أو أدنىٰ مفارقة للجماعة، مات علىٰ هذا ولم يتب، وهذا فيه فتح مجال لمن ابتُلي بشيء من الشذوذات والمخالفات بأن يتوب قبل الموت، أما إذا مات قبل أن يتوب فإنه يموت ميتة جاهلية، يعني: يموت ومعه خصلة من خصال الجاهلية.

[٢٩] هذا في القصة التي ذُكرت سابقًا في إحدىٰ الغزوات، لما اقتتل شابان، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، وكلٌّ منهما دعا جماعته، فالمهاجريُّ دعا المهاجرين، والأنصاري دعا الأنصار، وهذا من دعوىٰ الجاهلية، وهؤلاء مسلمون لا يجوز أن يدعوا بدعوىٰ الجاهلية.

[٣٠] **قال أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **-مُبيِّنًا ما هي الجاهلية-:** «الجاهلية: كلُّ ما خرج عن الإسلام والقرآن». فالواجب علىٰ المسلم أن ينتسب إلىٰ الإسلام والقرآن، ولا ينتسب إلىٰ القبيلة أو البلد من باب الحمية والافتخار، فلا يجوز أن يعتزَّ بالقبيلة، بل يعتزَّ بالإسلام، ولا يعتز بالبلد، فبلاد المسلمين كلها سواء، لا مزية لبعضها علىٰ بعض، إلا ما ميزها الله عن غيرها كمكة والمدينة.

أما بقية بلاد المسلمين فكلها سواء، سواء كانت في المشرق أو في المغرب، وكذلك لا يعتدُّ المسلم بالنسب أو بالبلد أو بالجنس، فيقول: أنا عربي، وأنت أعجمي،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بل لما اختَصَمَ مُهاجريٌّ وأنصاريٌّ، فقال المهاجريُّ: يا للمُهاجرين. وقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. قال ﷺ: «**أَبِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**». وغَضِبَ لذلك غَضَبًا شديدًا [٣١].

هذا لا يجوز، ما دام الآخر مسلمًا فهو أخوك ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]. عرب وعجم، جنٌّ وإنس، كلهم إخوة بالإيمان والإسلام.

«**أو مذهب**» من مذاهب العلماء، كالحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والظاهري وغيرها، لا يجوز أن نتعصب لها، إنما نأخذ بالدليل، ما وافق الدليل أخذنا به، سواء كان قول إمامنا أو قول غيره، وكل العلماء أئمة -ولله الحمد- كل علماء أهل السنة أئمة، فأبو حنيفة إمام لنا، والشافعي ومالك وأحمد أئمة لنا، لا نتفرق: أنا حنفي وأنت حنبلي، وكذا وكذا، نحن نتبع الدليل، إذا لاح لنا الدليل سواء كان مع إمامي أو إمامك فهو المتَّبع، ولا نتعصب لرأي إمام أو مذهب إمام، بل نتمسَّك بالحق.

«**أو طريقة**» من طرق الصوفية، فالصوفية لهم طرق، كل طائفة لها طريقة ولها شيخ، وهم يتعصبون لهذه الأشياء، كالنقشبندي، التيجاني، البرهاني، القادري، إلىٰ غير ذلك، لهم طرق كثيرة، والإسلام ليس فيه انقسامات، الإسلام هو إسلام واحد، والمسلمون إخوة، ليس هناك نقشبندي وقادري وبرهاني وغير ذلك، كل هذه من كيد الشيطان للمسلمين، الواجب علىٰ المسلمين أن يكونوا جماعةً واحدةً وأن يعملوا بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وبما عليه سلفهم الصالح.

«**فهو من عزاء الجاهلية**» كل هذه الأمور يقول شيخ الإسلام إنها من عزاء الجاهلية، و«من تعزّىٰ بعزاء الجاهلية، فأعِضُّوه بِهَنِ أبيه، ولا تَكْنُوا»[1].

[٣١] مع أن لفظ المهاجرين لفظ شرعي، ولفظ الأنصار لفظ شرعي أيضًا، لكن

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٣٦) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه.

....

لا يجوز أن نتعزَّىٰ بالأنصار والمهاجرين، فالمهاجرون والأنصار إخوة، وهم جماعة واحدة، لا نفرِّق بينهم فننتسب لبعضهم ونترك الآخر، كلهم إخواننا.

ﮋ ❁ ❁ ❁ ﮊ

باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] [٣٢].

---

[٣٢] «**باب الدخول في الإسلام كله**» بمعنىٰ: أنك تقبل الإسلام كله، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]؛ أي: في الإسلام، اقبلوه كله، ولا تأخذوا بعضه وتتركوا البعض الآخر، فإن مَن فعل ذلك فإنه كافر بالإسلام.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

الذي يؤمن ببعض الرسل أو ببعض الكتاب أو ببعض الإسلام ويكفر بالبعض الآخر، فهو كافر بالجميع: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالواجب علىٰ المسلم أن يقبل الإسلام كله، فيعمل بما يستطيع منه؛ لكن يؤمن به كله، أما أن يؤمن ببعض ويكفر بالبعض الآخر فهذا لا يجوز ولا يكفي، أو أن يأخذ من الإسلام ما وافق هواه، وما خالف هواه تركه، فهذا أيضًا لا يجوز ولا يكفي، فيجب أن يُقبل الإسلام جميعه، ويؤمن بالإسلام كله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] [٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] [٣٤].

«وقول الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾» كافة، يعني: جميع الإسلام، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه حسب هواك ورغبتك، أو تأخذ الذي يُرضيك، الإسلام كله وحدة متكاملة.

[٣٣] من الدخول في الإسلام كافة تحكيمُ الشريعة، فهذه من أمور الإسلام، فالذي يدَّعي أنه مسلم، ولكنه يعزل الشريعة عن الحكم، ويحكِّم القوانين، فهذا ليس مسلمًا.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ قال: يزعمون، والزعم أكذب الحديث، فدلَّ علىٰ أن دعواهم ليست صحيحةً ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]. فلابد من الحكم بما أنزل الله، أما الذي يُقصي الحكم بما أنزل الله نهائيًّا، ويجعل محل ذلك القوانين، هذا ليس بمسلم ولو كان يزعم أنه مسلم، وهذا في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ انظر: «يريدون» وهو عبارة عن نية في القلب فقط، فكيف إذا نفَّذ، فالأمر أشد، إذا نوىٰ بقلبه فهو ليس بمؤمن، فكيف إذا نفَّذ.

[٣٤] هذا فيه النهي عن التفرق في الدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٩]. أي: أحزابًا وجماعاتٍ؛ هذا ذم وتحذير فالمسلمون جماعة واحدة وحزب واحد، هم حزب الله وجند الله، فلا ينقسمون إلىٰ أحزاب وجماعات، وكلٌّ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]: «تَبْيَضُّ وجوهُ أهلِ السنَّةِ والائتلاف، وتَسْودُّ وجوهُ أهلِ البدَعِ والاختلاف» [٣٥].

يدعو إلىٰ حزبه أو إلىٰ جماعته، ويضلل الآخرين وينتقص الآخرين، هذا لا يجوز بين المسلمين، هذا من أمور الجاهلية، المسلمون يدٌ واحدةٌ وجماعة واحدة وحزبٌ واحدٌ، وإذا اختلفوا يرجعون إلىٰ الكتاب والسنة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فالواجب علىٰ المسلمين أن يكونوا جماعة واحدة وحزبًا واحدًا، وإذا اختلفوا يتحاكمون إلىٰ كتاب الله وسنة رسولهﷺ، فلا يقول كل واحد منهم: نبقىٰ علىٰ ما نحن عليه، ولا نرجع عما نحن عليه، هذا من أمور الجاهلية.

وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ هذه براءة، برّأ الله رسولَهﷺ من الذين فرّقوا دينهم، وكانوا شيعًا، يعني: جماعات، فالمسلمون جماعة واحدة لا انقسام ولا تفرُّق، والنزاع والخلاف سيحصل، ولكن يُحسم بالتحاكم إلىٰ كتاب الله وسنة رسولهﷺ، فمن كان معه الصواب رجعنا إليه، ومن كان علىٰ خطأ يرجع عن خطئه، ولا يتعصب لرأيه أو حزبه أو جماعته، هذا شأن المسلمين.

[٣٥] هذه الآية بعد قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾. ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ حبل الله: هو القرآن، والإسلام، والرسول ﷺ، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ إلىٰ جماعات وأحزاب، نهىٰ عن التفرُّق.

عن عَبدِ الله بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ليأْتِينَّ على أُمتِي مَا أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حتىٰ إنْ كان منهم مَن أتىٰ أُمَّه علانيةً؛ كان في أمتي مَن يصنعُ ذلك، وإن بني إسرائيلَ تفرَّقَتْ علىٰ ثِنْتَيْنِ وسبعين مِلَّة، -وتمام الحديث- وتفترقُ هذه الأمةُ علىٰ ثلاثٍ وسبعين ملَّةً كلهم في النارِ إلا ملَّةً واحدةً.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾، نهىٰ عن التفرق في أول الآيات.

ثم قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، ثم نهىٰ عن التشبُّه بالأمم السابقة الذين تفرقوا في دينهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ اختلفوا وتفرقوا، وعندهم الوحي المنزَّل، ولم يتحاكموا إليه؛ بل كلٌّ يتعصَّب لرأيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الذين اختلفوا وتفرقوا وتركوا ما أنزل الله، لم يرجعوا لحَسْم الخلاف إلىٰ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، بل كلٌّ بقي علىٰ مذهبه، وتركوا الكتاب المنزَّل، واكتفوا بمناهجهم ومذاهبهم وأقوالهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف». هذا مآلهم يوم القيامة، فالذين يبقون علىٰ اختلافهم ويتعصبون لآرائهم تسودُّ وجوههم يوم القيامة، والذين اجتمعوا علىٰ الحق، وحسموا نزاعهم بالدليل، هؤلاء تبيضُّ وجوههم يوم القيامة.

قالوا: ومَن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأَصْحَابِي**». رواه الترمذي(١)[٣٦].

---

[٣٦] هذا تحذير من هذا الذي سيقع في آخر الزمان، تحذير للأمة، وهذا من حرصه ﷺ علىٰ أمته، وشَفَقَته عليهم؛ أنه أخبرهم عمَّا سيحصل، وبيَّن لهم كيف النجاة منه.

فبنو إسرائيل تفرَّقوا واختلفوا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

هذا في بني إسرائيل، فما دام أن هذا حدث في بني إسرائيل، فسيحدثُ في هذه الأمة عند مَن يقلِّدهم، وقد حدث؛ لكن عند حدوثه يجب علىٰ المسلم ألا يتعصب وإنما يحرص علىٰ الدليل، واتباع الكتاب والسنة؛ حتىٰ ينجو من هذه الفتنة، وهذا الشر، وهذا الاختلاف.

فهذا خبر معناه التحذير، وهو من معجزاته ﷺ؛ أخبر أنه سيوجد مَن يتشبَّه باليهود والنصارىٰ حتىٰ في أتفه الأشياء، أو أقبحها وأشنعها، حتىٰ لو كان في اليهود والنصارىٰ مَن يأتي أُمَّه؛ يعني: يُجامع أمه، لوُجِدَ في هذه الأمة من يفعل ذلك تقليدًا لهم؛ لأنه يعتبر ما هم عليه هو الكمال، ولو كان أقبح الأشياء وأشنعها، فالزنا عمومًا فاحشة وساء سبيلًا، والزنا بالأم أقبح أنواع الزنا، ولو فعله الكفار صار عند بعض مستحسنًا.

وفي الحديث الآخر: «**حتىٰ لو دخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه**»(٢). هذا فيه التحذير من التشبُّه باليهود والنصارىٰ، وأنه خطر عظيم علىٰ المسلمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال: حديث حسن غريب، ويشهد له حديث معاوية عند أحمد (١٦٩٣٧)، وأبي داود (٤٥٩٧)، وسنده حسن، وحديث أنس بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وسنده جيد، وحديث عوف بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، فالحديث صحيح بمجموع هذه الطرق.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

فليتأمَّل المؤمنُ؛ الذي يرجو لِقاءَ الله، كلامَ الصادقِ المصدوقِ، في هذا المقام، خصوصًا قوله: «**ما أنا عليه وَأَصْحَابِي**» [٣٧].

«**وإن بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثِنتَين وسبعين مِلَّةً، وتفترقُ أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملةً، كلهم في النارِ إلا ملة واحدة**. قالوا: من هي يا رسولَ الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**» أخبرﷺ أن في هذه الأمة مَن يتشبَّه باليهود والنصارىٰ، وأن اليهود والنصارىٰ افترقوا، فاليهود افترقوا علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، والنصارىٰ علىٰ ثنتين وسبعين، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة تقليدًا لهم، وكلها في النار إلا واحدة، وهي التي بقيت علىٰ ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه.

فلا نجاة من النار إلا باتباع الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، ومَنْ لم يكن كذلك، فهو في النار، إما لكفره، وإما لضلاله، فليست كلُّ الفرق كافرةً، بعضها كافر، وبعضها دون الكفر؛ لكنها كلها متوعَّدة بالنار؛ لكفرها أو لضلالها.

[٣٧] ليتأمل المسلم الناصح لنفسه، كلامَ الصادق المصدوق، وهو الرسولﷺ، فهو الصادق فيما أخبر به، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]. المصدوق، أي: المصدَّق من الله تعالىٰ، فالله هو الذي أخبره بذلك، فهو صادق وهو مصدوق؛ صادق فيما أخبر به، ومصدوق فيما أُخبر به من قِبَلِ الله -عليه الصلاة والسلام-.

وليتأمَّل المسلم اللبيب العاقل هذا الأمر، وأنه لابد أن يحدث، ولا نجاة منه إلا بما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه.

وهذا يستدعي منَّا أن نتعلَّم ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه، أما أن كُلًّا يدَّعي أنه علىٰ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وهو جاهل بما كان عليه الرسول وأصحابه، أو يدري؛ ولكنه تعمَّد الخطأ، فهذا لا يصح أبدًا ولا يجوز، فلابد أن نتعلَّم ونعرف ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه، حتىٰ نتمسَّكَ به، ولا نلتفت إلىٰ سواه.

يا لهذه المَوعِظَةِ لو وافَقَت من القُلوبِ حياةً [٣٨].

---

[٣٨] هذه موعظة الرسولﷺ، لو وافقت من القلوب حياة لكان للقلوب معها شأنٌ بالاعتبار والامتثال والحرص علىٰ معرفة الحق والعمل به، وألَّا يكون الإنسان إمَّعةً يكون مع الناس أينما كانوا؛ بل يكون مع الحق دائمًا وأبدًا، ولو خالفه الناس، ولا يقلِّد بغير هُدىٰ تقليدَ الأعمىٰ، عليه أن يعرف الحق أولًا، ثم يعمل به ويدعو إليه، هذا هو الواجب علىٰ كل مسلم.

أما أن تقول: «دعوا الناس علىٰ ما هم عليه»؛ عملًا بمقولة: «حرية الرأي»، «الرأي والرأي الآخر»، «لا تحجروا علىٰ الناس، وتضيقوا عليهم». هذا كلام باطل، هذا كلام أهل الضلال -والعياذ بالله- هذا مخالف لقول الرسولﷺ.

فالواجب؛ أن ندعو الناس إلىٰ الصواب وإلىٰ الحق، ولا نقرهم علىٰ ضلالهم، ولا علىٰ ما هم عليه، ونقول: حرية الرأي، ليس هناك شيء اسمه حرية رأي، وإنما الواجب اتباع الكتاب والسنة، لو كان هناك حرية رأي لم نحتج إلىٰ الرسل، ولا إلىٰ الكتب؛ بل كلٌّ يتبع رأيه وعقله.

فالرأي إذا خالف الوحي يجب أن يُترك، أما إذا وافق الوحي فالحمد لله.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو كان الدين بالرأي؛ لكان أسفلُ الخفِّ أولىٰ بالمسح من أعلاه، وقد رأيت النبي ﷺ يمسح علىٰ أعلىٰ الخفِّ»(١). فالدين ليس بالرأي، وإنما بالاتباع.

يقول سهل بن حنيف رضي الله عنه: «يا أيها الناس، اتَّهموا رأيكم علىٰ دينكم، فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أردَّ أمرَ رسول اللهﷺ لرددتُه»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢-١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨١ و٧٣٠٨)، ومسلم (١٧٨٥).

ورواه أيضًا من حديث أبي هريرةَ، وصحَّحه؛ ولكن ليس فيه ذِكر النار[1]، وهو في حديث معاويةَ عند أحمد، وأبي داود، وفيه: «**أنه سيخرجُ في أُمتي قومٌ؛ تَتَجَارىٰ بهِم تلك الأهواء، كما يتجارىٰ الكَلَبُ بصاحبه، فلا يبقىٰ منه عِرْقٌ، ولا مِفْصَلٌ إلا دَخَلَه**»[2].

وقد تقدَّم قولُه: «**ومُبْتَغٍ فِي الإسلامِ سُنَّةَ الجاهلية**» [٣٩].

وهذا في قصة الحديبية، لما تمَّ الصلح بين النبيﷺ والمشركين، وكان من بنوده: «أن مَنْ جاء من الكفار إلىٰ المسلمين مسلمًا يردُّه المسلمون إليهم، ومن ذهب من المسلمين إلىٰ الكفار لا يردُّونه». فشقَّ هذا علىٰ سهل؛ لأنه لا يعرف العواقب، والنبيﷺ يقول: «**مَنْ ذهب منا إليهم فلا خير فيه**» يعني: من ذهب من المسلمين إلىٰ الكفار لا خير فيه فلا يرجع، ومن جاء من المشركين إلىٰ المسلمين، وردُّوه فسيجعل الله له فرَجًا ومخرجًا، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ثم بعد ذلك تبيَّن الحق، وأن هذا الصلح في غاية المصلحة للمسلمين؛ لأنه كفَّ أذىٰ الكفار عن المسلمين، وسمحوا للمسلمين بالهجرة، وكثر المهاجرون، ووضعت الحرب أوزارها، وصار المسلمون يدعون إلىٰ الله ﷻ، لا يعترضهم أحد، فسمَّاه الله فتحًا مبينًا، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. هذا هو صلح الحديبية.

[٣٩] الله -جلَّ وعلا- نهىٰ عن اتِّباع الأهواء، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالذي يبلغه الحق، ولا يقبله يكون متبعًا لهواه، ويُعاقب بأن الله يختم علىٰ قلبه، فلا يقبل الحق بعد ذلك -والعياذ بالله- عقوبةً له، فاتباع الهوىٰ شر.

---

(١) الترمذي (٢٦٤٠).

(٢) أحمد (١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٧).

....

والواجب على المسلم أن يتبع الحق، سواء وافق هواه أو خالفه، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فاتباع الهوى شر.

وفي آخر الزمان تكثر الأهواء في الناس، وتتجارى بهم -بمعنى أنها تدخل في عروقهم- كما يتجارى الكَلَبُ -وهو مرضٌ يصيب الإنسان من عضَّة الكلب المصاب بالسُّعار- بصاحبه، إذا عضَّ الكلب الإنسان، فإن ريقه يدخل في جسم الإنسان، وفي عروقه وفي جسمه كله، ويتجارى في جسمه كله، والأهواء تتجارى في الناس مثل داء الكَلَب.

❊❊❊

باب ما جاء
أن البِدْعةَ أشدُّ من الكبائر[٤٠]

[٤٠] **البدعة، لغة:** هي الشيء المُحدَث على غير مثالٍ سابقٍ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. أي: أن الله -جلَّ وعلا- خلق السموات والأرض وأوجدهما من عَدَمٍ. فالبدعة هي الشيء المحدَث، هذا في اللغة.

وأما البدعة في الشرع: فهي إحداثُ شيءٍ في الدِّين ليس له أصلٌ من كتاب الله، ولا من سنة رسولهﷺ.

كإحداث عبادة ليس لها أصل؛ لأن العبادات توقيفية؛ فلابد لها من دليل من كتاب الله وسنة رسولهﷺ، وما ليس عليه دليل، فإنه بدعة مذمومة مردودة؛ لأن الله أكملَ هذا الدين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣]. فأخبر سبحانه أنه أكملَ الدينَ قبل وفاة النبيﷺ.

فما تُوفِّي رسول اللهﷺ إلا وقد أكمل الله الدِّينَ للأمة، فأي شيء بعد ذلك يُحدَث فإنه مردود، كما قالﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(١). وفي رواية: «**من عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(٢). مردودٌ عليه، فمن أحدث في أمر النبيﷺ، أو عمل عملًا ليس عليه أمر الرسولﷺ، فإنه لا يقبل عند الله، وهو مردودٌ علىٰ صاحبه، وإن كان صاحبه حسن النية، ويريد الأجر، فهذا لا يسوغ البدعة، ولو حَسُن قَصْدُ صاحبها، أو نوىٰ بها التقرُّب إلىٰ الله، وقال: هذه زيادة خير، نقول له: هذه زيادة شر، وليست خيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)(١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (١٧١٨) (١٨).

الكبائر، هي: الذنوب الكبار؛ لأن الذنوبُ تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر.

فالكبائر ضابطُها: كلُّ معصية أوجَبَ الله عليها حدًّا في الدنيا، كحد الزنا، وحد السرقة، والقِصاص، وحدُّ الشُّرب، هذه كبائر، يعني: ما عليه حدٌّ في الدنيا يقام علىٰ من ارتكبه، فهو من الكبائر، أو ما عليه وعيدٌ في الآخرة، كالتوعد بالنار علىٰ من فعل كذا، أو باللعنة أو بالغضب، هذا ضابط الكبيرة، ما رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة، أو خُتِمَ بغضبٍ أو لعنةٍ، أو تبرَّأ الرسولُ ﷺ من فاعله، مثل: ليس منا من فعل كذا.

أما ما جاء النهي عنه، ولم يُرتَّب عليه شيء من ذلك، وإنما هو نهي فقط، فهذه ذنوب صغائر.

وأكبر الكبائر الشركُ بالله ﷻ؛ لأن الله أخبر أنه لا يغفر لصاحبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الكبائر التي دون الشرك هذه تحت المشيئة: إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذَّبه بها، قال تعالىٰ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ومرتكبُ الكبيرة دون الشرك لا يكفرُ عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكون ناقصَ الإيمان فيكون فاسقًا، أما الخوارج والمعتزلة فيرون أن مرتكب الكبيرة خارج من الإسلام، والجهمية والمرجئة لا تضر عندهم المعاصي.

فالخوارج يُكفِّرون صاحبها، ويُخلِّدونه في النار، والمعتزلة يقولون: هو في المنزلة بين المنزلتين، لا هو بمسلم ولا بكافر، فإن مات ولم يتب فهو مخلَّد في النار، كما تقوله الخوارج.

والمرجئة، يقولون:الإيمان بالقلب، ولا تضر معه معصية.

أما أهل السنة والجماعة، فيقولون: مرتكبُ الكبيرة التي دون الشرك ناقص الإيمان، وهو تحت المشيئة، ليس بكافر؛ ولكنه ناقص الإيمان، أو فاسق، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ لكنه لا يخرج من الإسلام، وهو متعرِّض للوعيد الذي توعَّد الله به.

لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨][٤١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤][٤٢].

فالبدعة أشدُّ من الكبائر من وجه أن البدعة إحداثٌ في الدين لم يشرعه الله، فصاحبها يظن أنها من الدين، أما مرتكب الكبيرة فلا يدَّعي أن ما فعله من الدين، بل يعترف أنه عاصٍ وأنه مخالف؛ ولكن قادَتْه الشهوةُ فوقع في المعصية، ولا يدَّعي أن هذا دين، بخلاف المبتدع فهو يظنُّ أن هذا من الدين؛ فلذلك صارت البدعةُ أشدَّ من الكبيرة.

وكذلك صاحب الكبيرة يعرف أنه مخطئ، ويُريد أن يتوب، بخلاف صاحب البدعة، فإنه لا يعترف أنه مخطئ؛ بل يرىٰ أنه مُصيب، وأن عمله هذا صحيح، ولذلك قلَّ أن يتوب المبتدع؛ لأنه يرىٰ أنه علىٰ حق، بخلاف العاصي وإن كان مرتكبًا لكبيرة فإنه يرىٰ أنه مخطئ ويخاف من العقوبة، وكثيرًا ما يتوب أصحاب الكبائر، هذا وجه كوْن البدعة أشد من الكبيرة.

[٤١] البدعة قد تكون شركًا، وقد تكون دون ذلك، وهي أقسام، منها: بدعة شركية تُخرج من الدين؛ كدعاء غير الله، والاستغاثة بالأموات، والذبح للقبور، فهذه بدعة شركية لا يغفرها الله إلا بالتوبة، فإذا مات الإنسان عليها فهو مخلَّد في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ والشركُ ابتداعٌ؛ لأن الله -جلَّ وعلا- خلق الخلق لعبادته، فإذا عبدوا معه غيره فقد أحدثوا في دين الله ما ليس منه، وهذا أعظم البدع، فالشرك أعظم البدع -والعياذ بالله- لأنه شرعُ دينٍ لم يأذن به الله، ولا يرضىٰ به.

[٤٢] ومن وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة: أن المبتدع يفتري علىٰ الله الكذبَ، ويقول: هذا شرع، هذا دين، وهذا فيه أجرٌ وثواب، فهو يفتري علىٰ الله الكذب، بخلاف العاصي، فإنه لا يدَّعي أن هذا دين؛ لأنه يعرف أنه عاصٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] [٤٣].

أما المبتدع فهو يفتري علىٰ الله الكذب، حيث يقول: إن هذا من الدِّين، وإن هذا يقرِّب من الله ﷻ، ثم إن العاصي لا يُقتدىٰ به، بل الناس يذمُّونه، بخلاف المبتدع، فإنه يقتدي به الناس ويتعبَّدون ببدعته، فهو شرٌّ من مرتكب الكبيرة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]؛ لأنهم يتبعونه خصوصًا إذا كان له نصيبٌ من العلم، أو عنده عبادة وتُقىٰ وورع.

فالناس يغترُّون به، ويقتدون به في بِدَعِه، بخلاف الزاني، وشارب الخمر، فهذه كبائر، والناس لا يقتدون بفاعلها؛ بل يمقتونه ويذمُّونه، فهذا أيضًا من وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة.

[٤٣] وكذلك المبتدع يتحمَّل وِزْرَه، ووِزْرَ من اقتدىٰ به يوم القيامة؛ لأنه قدوة يَقتدي به الناس، يظنون أنه علىٰ حقٍّ، وأن فِعلَه عملٌ طيبٌ، خصوصًا إذا كان يدعو إلىٰ البدعة ويُحسِّنها، فإنه يتحمَّل وِزْرَه ووزرَ مَن اقتدىٰ به واتبعه، وهذا خطر عظيم، وهو خطر البِدَع والمُحدثات، وكم من بدعة انتشرت في الناس وتوارثوها جيلًا بعد جيل بسبب المُبتدع الأول الذي اخترعها، فيكون عليه نصيبٌ من آثام كلِّ مَن اتبعه؛ أي: عليه مثل أوزارهم، فالمبتدعة يحملون أوزارهم كاملةً يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون، نسأل الله العافية.

فهذا فيه التحذير من البدع، وأنه يلحق صاحبَها إثمٌ كبير أكبر من إثمه في نفسه؛ بل كلُّ مَنْ عمل بهذه البدعة، فإنه يلحق صاحبَها الأولَ إثمُ من عمل بها، ولهذا جاء في الحديث: «**ما قُتلت نفسٌ ظلمًا إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (١٦٧٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي الصَّحيح أنهﷺ قال في الخوارج: «أينَما لَقِيتُموهم فاقتُلُوهم»(١) [٤٤].

لأنه أول مَن سَنَّ القتل؛ لأنه قتل أخاه ظلمًا وعدوانًا، فهو أول من سنَّ القتل، لذلك كلُّ من قتل نفسًا بغير حق يلحق ابنَ آدم الأول كِفلٌ؛ أي: نصيب كبير من دمها، والعياذ بالله.

[٤٤] ومن البدع المستقبحة بدعةُ الخوارج، والخوارج، هم: الذين يخرجون علىٰ ولاة أمور المسلمين، فيخلعون السمع والطاعة، ويخرجون عليهم بالسيف، ويكفِّرون المسلمين بالكبائر التي دون الشرك هؤلاء هم الخوارج.

وقد أمر النبي ﷺ بقتلهم لكفِّ شرِّهم والقضاءِ علىٰ بدعتهم؛ لأن السنة والشريعة يحثان علىٰ السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين؛ لِمَا يترتب علىٰ ذلك من المصالح العظيمة، واجتماع الكلمة، وحَقْن الدماء، والحكم بالشريعة، وإقامة الحدود والجهاد، وغير ذلك من المصالح العظيمة، فإذا انتَقَضَ الأمرُ ضاعت هذه المصالح، وانتشرت الفوضىٰ، وسُفِكت الدماءُ، ونُهبت الأموالُ، وانتهكت الأعراضُ، وعُطِّلت الحدودُ، إلىٰ غير ذلك من الأمور، فالاجتماع والسمع والطاعة لولاة أمور المسلمين فرضٌ علىٰ المسلمين من أجل قيام مصالح الدنيا ومصالح الدين.

أما من خرج عن هذا فقد ابتدع في دين الله ما ليس منه، وإن كانوا يظنون أنهم يُنكرون المنكر، ويجاهدون في سبيل الله، فإنهم في الحقيقة مبتدعةٌ وخارجون عن شرع الله ﷻ، والذي ارتكبوه من المنكر أشدُّ من المنكر الذي يزعمون أن وليَّ الأمر فعله، أو الذي وقع منه بالفعل، فإنه حتىٰ لو كان فعله فالخروج عليه أشدُّ مفسدةً من مفسدة ترك الإنكار عليه علانية، فيجب السمعُ والطاعةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٧)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأول بذرة الخوارج كانت في عهد النبي ﷺ حينما قال ذو الخُوَيصِرة للرسول ﷺ: «اعدِل، فإنك لم تعدل. فقال الرسول ﷺ: **ويلك، ومَنْ يعدل إذا لم أعدل. فلما ذهب الرجل، قال: يخرجُ من ضِئْضِئِ هذا، قومٌ تَحقِرون صلاتَكم إلىٰ صلاتهم، وعبادَتَكم إلىٰ عبادتهم، يَمرُقُون من الدِّين كما يمرقُ السَّهمُ من الرميَّة، فأينما لَقِيتُموهم فاقتُلوهم**»[1].

وفي رواية: «**لئن أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قَتْلَ عادٍ**»[2]. عادٌ: الأمة المعروفة وهم قوم هود، وقد قتلهم الله شرَّ قِتْلة، بأن سلَّط عليهم الرِّيحَ العقيم ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. تنزِعُ الناس؛ أي: تحمل الناس إلىٰ عنان السماء، ثم تنكسهم علىٰ رءوسهم، فتندقُّ أعناقهم، ولكِبَرِ أجسامهم كأنهم أعجاز نخل؛ أي: جذوع النخل المجتث؛ لأن لهم أجسادًا كبيرة طويلة.

فالخوارج أمر النبي ﷺ بإيقاع العقوبة الرادعة عليهم كعقوبة قوم عاد، لشرِّهم وفسادهم، ونشرهم الشرَّ بسبب مذهبهم وخروجهم، فهم فئة ضالَّة وفيها خطرٌ علىٰ الأُمة، وليس الخطر علىٰ وُلاة الأمور فقط؛ بل علىٰ الأمة عمومًا، ولذلك يجب علىٰ وليِّ أمر المسلمين وعلىٰ المسلمين معه أن يقتلوهم، كفًّا لشرهم، ولذلك قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، وقتل منهم مَقْتَلةً عظيمةً في النَّهروان، نصره الله عليهم، وخفض شوكتهم، وما زال ولاةُ الأمور والمسلمون يقاتلونهم كلَّما خرج منهم طائفة، وفي الحديث: «**كلما ظهر منهم قرنٌ قُطِعَ**»[3].

والحمد لله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وفيه أنهﷺ: «نَهَىٰ عن قَتْلِ أُمراءِ الجَوْرِ ما صَلَّوْا»[٤٥].

فهم فئة خطيرة علىٰ المسلمين، مذهبهم أنهم يرون خَلْعَ السمع والطاعة، والخروجَ علىٰ وليِّ الأمر بالسلاح، وتكفير ولي الأمر، وتكفير المسلمين، ويستحلُّون دماءهم.

وفي الحديث: **«أنهم يَقتُلون أهلَ الإسلام، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثان»**[١].

هذا تاريخُ الخوارج، لم يُذكر أنهم قاتلوا الكفار أبدًا، وإنما يقتلون المسلمين، ويستحلُّون دماءهم وأموالهم، نسأل الله العافية.

[٤٥] قوله: «**وفيه**» أي: في الصحيح، وهذا في «صحيح مسلم»[٢]: أن النبيﷺ نهىٰ عن قتل أُمراء الجَوْر؛ يعني: الأمراء العصاة؛ الذين يجورون في الحكم، ويظلمون الناس، ولو كانوا فسَّاقًا، فإنها لا تنخلع طاعتهم، وفسقهم ضررُه عليهم.

وأما فعل الخروج فضرره علىٰ المسلمين، وهذا من ارتكاب أخفِّ المفسدتين؛ لدفع أعلاهما، لا شكَّ أن المعصية ضررٌ، ولكن الخروج علىٰ ولي الأمر من أجلها وشق عصا الطاعة فيه ضرر أكثر.

وفي قوله: «ما صلَّوْا» هذا دليل علىٰ مكانة الصلاة في الإسلام، وأن من ترك الصلاة فقد كفر، بخلاف الذين يقولون: الدين ليس هو الصلاة، وأن الإنسان مسلم، ولو لم يصلِّ.

فالرسولﷺ منع من القتل، ومنع من الخروج علىٰ ولي الأمر ما دام يصلي، وإن كان عنده مخالفات ومعاص دون الكفر؛ فإنه يُصبَرُ عليه لما في ذلك من المصلحة العظيمة التي تربو علىٰ مفسدة معصيته في نفسه، فإن معصيته ضررها قاصر عليه هو، أما شقُّ عصا الطاعة والخروجُ فضرره علىٰ الإسلام والمسلمين.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (١٨٥٥).

وعن جَرِيرِ بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رجلًا تصدَّق بصدقةٍ، ثم تَتابعَ الناسُ، فقال ﷺ: **مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً، فله أجْرُهَا وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بها من بَعْدِه، من غَيْرِ أن يَنقُصَ من أُجُورِهم شيءٌ، ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها من غير أن يَنْقُصَ من أوزارِهم شيءٌ**» رواه مسلم[1] [٤٦].

والحديث أصله أن النبي ﷺ قال: «**خيارُ أئمتكم الذين تحبُّونهم ويُحبُّونكم، وتُصلُّون عليهم، ويُصلُّون عليكم، وشرارُ أئمتكم الذين تُبغضُونهم ويُبغضُونكم، وتلعَنُونهم ويَلعَنُونكم**. قيل: يا رسول الله، ألا نُنابِذُهم. قال: **لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**»[2].

[٤٦] سبب هذا الحديث أنه جاء قومٌ من مُضَر إلىٰ النبي ﷺ بَدَا عليهم الفقرُ والحاجة، وملابسهم رثة، فَرَقَّ النبيُّ ﷺ لهم؛ لأنه كان -عليه الصلاة والسلام- نبيَّ الرحمة، فلما رأىٰ حالهم وبؤسهم وفقرهم رقَّ لهم ﷺ، فنادىٰ بالصلاة، ثم اجتمع الناسُ، ثم خَطَبَ ﷺ وحثَّ علىٰ الصدقة، ورغَّب فيها، فجعل الناس يتصدقون، هذا يتصدق بالقبضة من الطعام، وهذا يتصدق بكذا وكذا.

حتىٰ جاء رجلٌ معه صُرَّة من الذهب، كادت يده أن تعجِزَ عنها ووضعها بين يدي الرسول ﷺ، فتهلَّلَ وجه الرسول ﷺ وسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، وتتابع الناسُ لما رأوا هذا الرجل فنشطوا علىٰ الصدقة، وتتابعوا عليها، حتىٰ اجتمع شيءٌ كثيرٌ من الصدقات عند الرسول ﷺ، فقال: «**مَن سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها**» لأن هذا الرجل سنَّ سنة حسنة واقتدىٰ به الناس وتصدقوا.

ومعنىٰ «**سَنَّ في الإسلام سُنةً حسنة**» يعني: أَحيا سنةً، لأن الصدقة سُنَّة، فهذا الرجل أحياها، وأتىٰ بمالٍ كثير، فتشجَّع الناسُ وتتابعوا للصدقة فكان هو السبب في

---

(١) برقم (١٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

وله من حديثِ أبي هريرة ﷺ، ولفظُه: «مَن دَعَا إلىٰ هُدًىٰ، ثم قال: مَن دَعَا إلىٰ ضَلَالةٍ»(١)[٤٧].

هذا، فله أجرُها وأجر من عمل بها، وهذا عامٌّ.

وأما سبب الحديث فهو هذه القصة؛ لكن العِبْرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الحديث عامٌّ في كل من فعل خيرًا، واقتدىٰ به الناسُ في ذلك الخير، أيًّا كان هذا الخير إذا اقتدىٰ الناس به فيه، أصبح قُدْوةً حسنة، فله أجرُ عمله، وأجر من اقتدىٰ به.

«**ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئة**» هذه هي البِدْعة، أي: أحدثَ بدعةً ليس لها أصل «**فعليه وِزرُها ووزرُ من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيء**» فهذا فيه التحذيرُ من البدع، وفيه الحث علىٰ إحياء السُّنن؛ لأن الرسول ﷺ أثنىٰ علىٰ هذا الذي أحيا هذه السُّنة.

وفيه التحذير من إحياء البدع، وإحداث البدع، وأن شرها لا يقتصر علىٰ من فعلها؛ بل يذهب قسطٌ منه إلىٰ من أحدث هذه البدعة، طال الزمنُ أم قَصُر، فهذا فيه التحذير من البدع، وأنها سنن سيئة، والمراد بالسُّنة في اللغة: الطريقة.

[٤٧] في هذا الحديث أن: «**مَن دعا إلىٰ هُدىٰ كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه لا ينقصُ من أجورِهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا ينقص من آثامِهم شيئًا**».

هذا فيه فضلُ الدعوة إلىٰ الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الأجر لمن فعل ذلك، أنه يحصل له أجره، ويحصل له مثل أجور من اقتَدَوْا به، وساروا علىٰ منهجه إلىٰ يوم القيامة، فالله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]. فالدعوة إلىٰ الله فضلُها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

....

عظيم وخيرها كثير، وهي سُنَّة الرسولﷺ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما الذي يدعو إلىٰ الضلال والبدع والمحدثات كالذي يدعو إلىٰ عبادة القبور والأضرحة فإنه يدعو إلىٰ ما يخالف الدِّين، مثلما هو حاصلٌ الآن من الترغيب في البدع والمعاصي والمخالفات، فمن فعل ذلك فعليه إثمه، وإثمُ من اقتدىٰ به وسَلَك منهجه إلىٰ يوم القيامة.

وهذا فيه التحذيرُ من دعاة الضلال، ويدخل في هذا الدعاةُ إلىٰ البِدْعة؛ لأن البدعة ضلالةٌ كما قال النبيﷺ: «**فإن كلَّ مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1].

فالذي يدعو إلىٰ البِدَع، يدعو إلىٰ الضَّلال، ويكون عليه إثمُه، وإثمُ من اقتدىٰ به.

ﮋ ❁ ❁ ❁ ﮊ

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

باب ما جاء في أن الله احتَجَز التوبة عن صاحب البدعة [٤٨]

هذا مرويٌّ من حديث أنس، ومن مراسيل الحسن [٤٩].

وذكر ابن وَضَّاح، عن أيوب قال: «كان عندنا رجلٌ يَرَىٰ رأيًا فتركه، فأتيتُ محمدَ بنَ سِيرين، فقلت: أَشَعرتَ أن فلانًا تركَ رأيَه؟ قال: انظر إلىٰ ماذا يَتَحوَّلُ، إن آخر

---

[٤٨] هذا في بيان الوجوه التي تكون فيها البدعةُ شرًّا من الكبيرة، فمن الوجوه: أن صاحبها لا يُوفَّق للتوبة، ويُصرُّ علىٰ بدعته، هذا هو الغالب؛ لأنه يَرَىٰ أنه علىٰ حق، وأنه مصيبٌ، وأن ما عمله من الدِّين، وأنه خيرٌ، فلا يُفكِّر أن يترك البدعة، بخلاف العاصي، فإنه يعرف أنه مخطئٌ وأنه مخالفٌ، ويخاف من الله ويتوقع العقوبة، فلذلك سَرَعانَ ما يتوب العاصي ويخجل، بخلاف المبتدع فإنه لا تظهر عليه الندامة؛ ولكنه مسرورٌ ببدعته، ويدعو إليها، فهذا من مساوئ البدع: أن صاحبها يقعُ فيها، ويدعو إليها، ومن مساوئ البدع: أن صاحبها لا يوفَّق للتوبة بخلاف مرتكب الكبيرة فإنه كثيرًا ما يوفق للتوبة.

[٤٩] يعني هذا الأثر: «إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة» هذا مرويٌّ عن الرسول ﷺ مرفوعًا[١]، ومرسلًا عن الحسن.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٣٨).

الحديثِ أشدُّ عليهم من أولِهِ. «يَمرُقُونَ منَ الإسلامِ، ثم لا يَعودُون إليه»[1] [٥٠].

وسُئل أحمدُ بن حَنبلٍ عن معنىٰ ذلك فقال: «لا يُوَفَّقُ للتوبة» [٥١].

---

[٥٠] هذا رجلٌ كان علىٰ بدعة الخوارج فتركها، فسُرَّ الذي رآه وفرح، وذهب لمحمد بن سِيرين وهو من أئمة التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبَشَّره أن فلانًا تحول عن رأيه، فما سُرَّ ابنُ سيرين بذلك، بل قال له: انظر إلىٰ ماذا يتحوَّل؛ لأنه ليس بتاركٍ البدعةَ إلىٰ السنة؛ ولكن إلىٰ بدعة ثانية، هذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لماذا؟ لأن الرسول ﷺ، قال: «**يمرقونَ من الدِّين، ثم لا يعودُون إليه**».

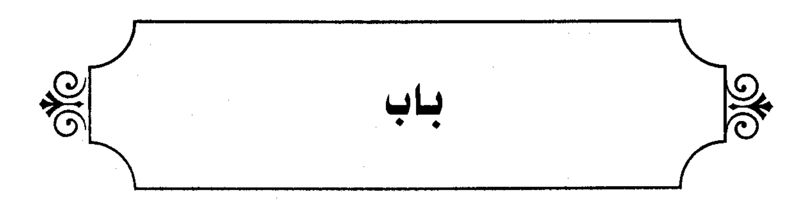
فابن سيرين لم يتوقع منه التوبةَ من البدعة؛ ولكن توقع منه أن يخرج من بدعته إلىٰ بدعةٍ شرٍّ منها، لقوله ﷺ: «**يمرُقون من الدِّين، ثم لا يَعودُون إليه**» وهذا هو الغالبُ عليه، وهذا مشاهد في خوارج اليوم لو تنذرهم ليلًا ونهارًا، وتحذِّرهم وتنذرهم ما تحوَّلوا عن بدعتهم أبدًا، هذا شيء مُشاهَد؛ لأنهم يرون أنهم علىٰ حق، وعلىٰ صواب، ويُزيِّن لهم الشيطان هذا، ولا يَرَوْنَ أنهم إلا علىٰ حق، فالإنسان إذا لم يعترف بالخطأ، فإنه يُبتلَىٰ بما هو أشد.

وهذا شأن المبتدعة، وهذا من فقه الإمام محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يتوقع أن الخارجي يتوب من البدعة؛ لكن توقع منه أن يذهب إلىٰ بدعة أشد، وذلك أخذًا من قول الرسول ﷺ: «**يمرقون من الدين، ثم لا يعودون إليه**» فالرسول لا ينطق عن الهوىٰ، ولابد أن يقع ما أخبر به ﷺ.

[٥١] سُئل عن قوله ﷺ: «**يمرقون من الدِّين، ثم لا يعودون إليه**» يعني: لا يُوفَّقون للتوبة؛ لأن التوبة هي الرجوع، يُقال: تاب إذا رَجَعَ، تاب أو أناب: إذا رجع عن خطئه، فهم لا يتوبون.

---

(١) أخرج الحديث بنحوه البخاري (٧٥٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (١٠٦٧) من حديث أبي ذر.



باب

قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧] [٥٢].

---

[٥٢] أهل الكتاب: هم اليهود والنصارىٰ، لما دعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام، وقال: إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض، قالوا: لا نتبعك نحن علىٰ دين إبراهيم، فالله -جلَّ وعلا- ردَّ عليهم، وقال: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٦٨].

ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[آل عمران: ٦٥]؛ يعني: أن كلًّا منكم يدَّعي أن إبراهيم علىٰ دينه، فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، والنصارىٰ تقول: إن إبراهيم كان نصرانيًّا، يا سبحان الله! التوراة والإنجيل متىٰ أُنزلت، لم تنزل إلا بعد إبراهيم بمدة طويلة، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، هذا يكذبه الواقع: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

هذا لا يقوله عاقل، أن المتقدم يتبع المتأخر، بل العكس هو الصحيح: المتأخر يتبع المتقدم، فليس إبراهيم بيهودي؛ لأن التوراة ما أُنزلت إلا بعده، ولا بنصراني، فالإنجيل نزل بعده علىٰ عيسىٰ عليه السلام، فهذا من العبث بالعقول، والتضليل المكشوف.

وقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠] [٥٣].

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. أي: مُخلِصًا لله ﷻ في العبادة ﴿مُّسْلِمًا﴾ يعني موحِّدًا، فالإسلام هو التوحيد وهو دينُ جميع الأنبياء، وهو إفرادُ الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، وإن اختلفت شرائعهم، فكل شريعة كانت لحاجة تلك الأمة، حسبَ مصلحتها.

فالإسلام هو: عبادة الله وحده لا شريك له، بما شرعه في كل وقت بحَسَبِه، فالذين آمنوا بالتوراة وعملوا بها في وقت العمل بها كانوا مسلمين، والذين آمنوا بالإنجيل وعملوا به في وقت العمل به كانوا مسلمين، والذين آمنوا بالقرآن وعملوا به في وقته هم مسلمون؛ لأن الجميع موحِّدون، فالتوحيد هو دين جميع الرسل، والإسلام هو دين جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

[٥٣] قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ يعني: من يتركها، فالرغبةُ عن الشيء: تركُه، أما الرغبة في الشيء: فإنها طَلَبُه.

وملة إبراهيم هي التوحيد والإخلاص لله ﷻ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

والسفه، هو: الخِفَّة في العقل، فهو سفيه في نفسه، وهو يزعم أنه عاقل، وأنه حكيم، ومدركٌ للأمور؛ ولكنه في الحقيقة سفيه، فالذي يترك مِلَّة إبراهيم سفيهٌ ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ يعني: اخترنا إبراهيم ﷺ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أخلص دينَه لله ﷻ، وترك عبادة الأوثان والأصنام، وكسَّرها وحطَّمها، وتبرَّأ من أهلها، وحصل له ما حصل من الإيذاء علىٰ ذلك ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أسلم: يعني انْقَدْ لرب العالمين ﷻ، ولا تنقد لغيره.

وفيه، حديثُ الخَوارِجِ، قد تَقدَّم [٥٤].

وفيه، أنهﷺ قال: «**إن آلَ أبي فُلانٍ، لَيسُوا لي بأولياءَ، إنَّما أوليائي المُتَّقُونَ**»[١] [٥٥].

---

[٥٤] أي: في هذا الباب الحديث الذي في أول الباب الذي قبله: «**يَمرُقونُ من الدِّين، كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة، ثم لا يَعُودون إليه**» هذه بدعة الخوارج.

[٥٥] «**ليسوا لي بأولياءَ**» من الوَلاية، وهي المحبة، أما الوِلاية -بالكسر-، فهي: المُلْكَ والسُّلطة، فالرسولُﷺ يتبرأ ممن ليس علىٰ دين التوحيد، ولو كان من أقاربه في النسب، فإنه لا يحبه، وليسوا له بأولياء، يعني: لا يحبُّهم ما داموا علىٰ غير دينهﷺ، ولكن أولياء الرسول هم المتقون، سواء كانوا من أقاربه أو من غيرهم.

فسلمانُ الفارسيُّ، وبلال بن رَبَاح الحبَشيُّ، وصُهيبٌ الرُّومي، هؤلاء ليسوا من أقاربه، وإنما هم من الموالي، ومع هذا صاروا أقربَ الناس إلىٰ الرسولﷺ، وأحبَّهم إليه؛ لأنهم مؤمنون، بينما أبو لهبٍ عدوٌّ لهﷺ، وهو عمُّه أخو أبيه، ومع هذا فقد تبرَّأ منهﷺ، فليست المسألة مسألةَ قرابة، ولا شرفَ للقرابة من الرسولﷺ بدون الدِّين.

أما إذا كان علىٰ دين الرسولﷺ فله شرفُ القرابة وشرفُ الدين، فيجتمع له الشَّرَفان، أما إذا لم يكن عنده دين، فلا تنفعه صلة القرابة أبدًا مع مخالفة الدِّين، ولهذا تبرَّأﷺ من آل أبي فلانٍ فقال: «**ليسوا لي بأولياء**» فإن أولياءَهُ المتَّقُون، من أيِّ جنسٍ كانوا.

فهذا فيه البراءة من المشركين، ولو كانوا من قرابة الرسولﷺ، وفي الحديث: «**مَنْ بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفيه عندهما: «**إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيه أيضًا، عن أنسٍ أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ له أنَّ بعضَ الصحابةِ، قال: «أمَّا أنا فلا آكلُ اللحمَ. وقالَ آخرُ: أمَّا أنا فأَقُومُ، ولا أنامُ. وقال آخرُ: أمَّا أنا فلا أَتزوَّجُ النساء. وقالَ آخَرُ: أمَّا أنا فأَصومُ ولا أُفطِرُ. فقال ﷺ: **لكنَّني أَقومُ وأنامُ، وأَصومُ وأُفطِرُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ، وآكُلُ اللحمَ، فمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فليس مِنِّي**»(١) [٥٦].

---

[٥٦] هذا الحديثُ في الصحيح، هؤلاء جماعة من الصحابة يَرغَبُون في الخير والعبادة والطاعة، فجاءوا يسألون عن عبادة الرسول ﷺ؛ لأجل أن يَقتَدُوا به، فلما أُخبروا عن عبادته ﷺ فكأنهم تَقالُّوها، ثم قالوا: الرسول ﷺ ليس مِثلَنا، فالرسولُ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فهو ليس بحاجة إلىٰ العبادة.

فلما بلغ ذلك الرسولَ ﷺ غضب واشتدَّ غضبُه، وقال: «**ما بالُ أقوام يقولون: كذا وكذا، أمَا إني أخْوَفُكم لله، وأتقاكم له، وإني أصلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطر، وأتزوَّجُ النساء، وآكلُ اللحمَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي، فليس مني**».

فهذا فيه التحذير من الغلوِّ في العبادة، وهو الزيادة والتشديد علىٰ النفس، فالدِّين وسطٌ -ولله الحمد- واعتدال، فلا تَشُقَّ علىٰ نفسك وتُحمِّلْهَا ما لا تطيق، والرسول ﷺ حذَّر من الغلوِّ في أحاديث كثيرة، وهي الزيادة في العبادة؛ بل عليك أن تَرفُق بنفسك، والإنسان إذا اقتصد في العبادة، وتوسَّط فيها، فإنه يداوم عليها.

أمَّا إذا اشتدَّ في العبادة، فإنه يَمَلُّ ويتركها، هذا شيء معروف، قال ﷺ «**إن المُنبَتَّ لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقَىٰ**»(٢).

والإنسانُ بشرٌ لا يتحمل، فإذا شدَّد علىٰ نفسه لم يستطع، وفي النهاية يترك العمل،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٣/ ١٨ و١٩) من حديثي جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص.

....

وهذا مشاهد معروف، فهناك أناسٌ رأيناهم يتشدَّدون ثم في النهاية انحلُّوا من الدين، كان هؤلاء عُرِفَ عنهم التشدُّدُ والغلوُّ، وفي النهاية أصبحوا منحرفين عن الدين، هذه آفة الغلو -والعياذ بالله-.

أما الاعتدالُ والتوسطُ، فهذا سبيلٌ إلىٰ الاستمرار والثبات، وهذه هي سنةُ الرسولﷺ، وهذا فيه الحثُّ علىٰ الاقتصاد في العبادة، والاقتداء بالرسولﷺ، وترك الغلوِّ والتشدُّدِ؛ لأن هذا بِدْعة مخالفة لسُنَّة الرسولﷺ.

وقوله: «**مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي، فليس منِّي**» هذا كقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ**﴾ [البقرة:١٣٠]. وقد تبرَّأَ الرسول ﷺ منه، فهذا فيه التحذير من بدعة الغلوِّ وبدعة التشدُّد، والحث علىٰ الاعتدال والتوسط في الأمور كلِّها، والدين وسطٌ ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام:١٥٣]. هذا هو السبيل الصحيح، وهو طريقة الرسولﷺ، فلا يتقالُّ الإنسانُ المسلم عملَ الرسول ﷺ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- هو القُدْوة ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهذا ليس تساهلًا ولا غلوًّا، ولكنه توسط، لا إفراط ولا تفريط، ودين الله بين الغالي والجافي، الغالي المتشدِّد، والجافي المنحلِّ الذي يقول: إن الدين ليس بالصلاة والعبادة، الدين بالقَلْب، ويترك الأعمال، هذا جافٍ، وكذلك الذي يتشدد في العبادات ويشقُّ علىٰ نفسه، فهو غالٍ، والدين هو الوسط والاعتدال، قال الله ﷻ: ﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟**﴾ [هود: ١١٢]. الطغيان هنا التشدد والغلو، -والعياذ بالله-.

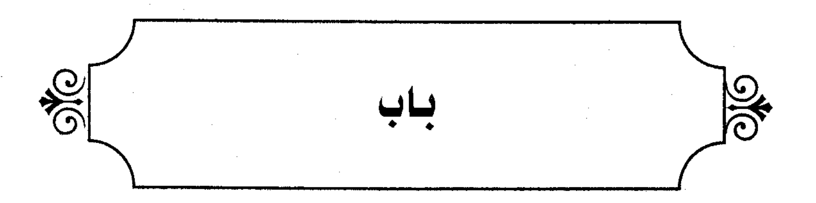
فتأمَّل؛ إذا كان بعضُ الصحابةِ، لمَّا أرادوا التَّبتُّل للعبادةِ، قيلَ فيه هذا الكلامُ الغليظُ، فسُمِّيَ فِعلُه رُغُوبًا عن السُّنة، فما ظنُّكَ بغير هذا من البِدَع؟ وما ظنُّكَ بغيرِ الصحابة؟! [٥٧].

---

[٥٧] إذا كان هؤلاء صحابة، والصحابة هم خيرُ القرون، ولمَّا همُّوا بهذه الهَمَّة، أَنكر عليهم النبيﷺ، وغَلَّظَ عليهم وهم صحابة، فكيف بغيرهم من متأخِّري القرون الذين تجاوزوا الحدودَ في الغلوِّ والتطرف، أو في التساهل والمُيُوعة، فدين الله -جل وعلا- وسطٌ واعتدالٌ وصراط مستقيم، ليس فيه مَشَقَّة علىٰ النفوس، وليس فيه تساهل وضياع، وإنما هو دين سَمْحٌ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فالله ﷻ لا يريد أن يجعل عليكم من حرج.

فالدين ليس فيه حرج، ولا تشدُّد، ولا غلو، كما أنه ليس فيه تساهل، وإنما هو وسط بين الطرفين، هذه ملةُ محمدﷺ، الاعتدالُ دائمًا وأبدًا، ولا يبقىٰ الإنسان علىٰ الدين إلا بهذه الطريقة؛ لأنه إذا تساهل خرج من الدين، وإذا تشدَّد خرج من الدين أيضًا، ولا يثبت إلَّا إذا كان علىٰ الوسطية والاعتدال.

❊❊❊



باب

قول الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] [٥٨].

---

[٥٨] باب قول الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

يأمر الله -جلَّ وعلا- نبيَّه بهذه الأمور في هذه الآية الكريمة، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بذلك أن يذكر ما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من الأحاديث النبوية والآثار المروية؛ يأمر الله نبيَّه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ أي: أخلِصْ عملَكَ؛ فإقامة الوجه وإسلام الوجه معناه: إخلاص العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: أخلَصَ عمله من الشِّرك ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متَّبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخلَصَ عملَهُ أيضًا من البِدَع والمحدثات؛ فإذا اجتمع هذان الشرطان: الإخلاص لله بالنية، والاتباع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العمل، انتفىٰ عن العمل الشركُ، وانتفىٰ عنه الابتداع في الدِّين، هذا هو الذي يقبله الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ الدِّين الذي أمَرَكَ الله به، وهو عبادة الله وحده لا شريك به، والدِّين هو التوحيد، وهو العمل، وهو الصلاة والصيام، وجميع ما شرعه الله من العبادات، فهذا هو الدين.

....

﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ هذا وصفٌ للدين؛ أي: المعتدل، الذي ليس فيه غلوٌّ، وليس فيه تساهُل؛ بل هو دين قيِّم معتدل بين طرفي الإفراط والتفريط، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. مستقيمًا، يعني: معتدلًا بين الإفراط والتفريط، وبين الغلوِّ والجفاءِ، هذا هو الدين الذي بعث الله به رُسُلَهُ، وخاتمهم محمد ﷺ.

فقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ والحنيف معناه: المقبل علىٰ الله، المعرض عمَّا سواه، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]. والحنيف والقيِّم معناهما واحد، وهو المقبل علىٰ الله، المعرض عمَّا سواه فلا يدعوه مع الله، ثم قال -جلَّ وعلا-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: أن هذا الدين، وهذا الإسلام هو الفطرة التي خلق الله الناس عليها، فالفطرة هي دين الإسلام، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**كلُّ مولودٌ يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[1].

فالأصل في الإنسان أنه مسلمٌ، وأنه مفطورٌ علىٰ الإسلام، وهو إخلاص الدين لله ﷻ، هذا هو الأصل فيه، فإذا انحرف، فالانحراف طارئ عليه بسبب التربية السيئة التي يربيه عليها والداه.

يهوِّدانه: يجعلانه يهوديًا، أو ينصِّرانه: يجعلانه نصرانيًا، أو يُمجِّسانه: يجعلانه مجوسيًّا، فوالداه يغيران فطرته التي فطره الله عليها، ويدل هذا علىٰ أن الإنسان مفطورٌ علىٰ الإسلام في الأصل، وهو إخلاص العمل والعبودية لله ﷻ، ولو سلم من التربية السيئة والوالدين الكافرين لاتَّجه إلىٰ دين الإسلام، واتبع الرُّسُلَ؛ ولكنه ينحرف بسبب الدعاة إلىٰ الضلال.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ لا أحد يخلق إنسانًا علىٰ الشرك أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يخلق إنسانًا علىٰ الشرك؛ بل الله خلقه علىٰ التوحيد، ولا أحد يستطيع أن يغيِّر هذا الخلق، وإنما يغيِّر المخلوق، ليس هناك إنسان يخلق إلَّا علىٰ دين الإسلام.

ولهذا جاء في الحديث: «**فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترىٰ فيها جدعاء**»[1]. أي: كالشاة التي تولد، تولد كاملة الخلقة، سليمة الأطراف، سليمة من العيوب، لها أذنان، ثم أهلها يجدعونها، يعني يشقون أذنها، فلا توجد شاة تولد مشقوقة الأذن؛ بل تُخلق كاملة الخِلقة، ثم أهلها يجدعونها؛ أي: يشقون أذنيها، يغيِّرونها بعد الخلق، يغيرون المخلوق، ولا يغيرون الخلق أبدًا، فخلق الله لا يتغيَّر.

فالشاة تولد كاملة بآذانها وقرونها وأظلافها وأطرافها، فإن حصل لها عرجٌ أو جدعٌ في قرنها أو أذنها، فإن هذا من تصرف الإنسان، هكذا ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ التبديل إنما هو للمخلوق، وأما الخلق خاص بالله ﷻ، لا أحد يتدخل في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ ذلك الذي أوحاه الله إليك، وهو إفراد الله -جلَّ وعلا- بالعبادة، وترك عبادة ما سواه ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا غُلوَّ ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يجهلون هذا الدين؛ ولذلك يقعون فيما يقعون فيه من الضلال والانحراف، وإلا فالدين قيِّم مستقيم، وإن حصل انحراف فهو من تصرُّف الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ انظر إلىٰ قوله: ﴿أَكۡثَرَ﴾ فهو يفيد أنه لا يحتج

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] [٥٩].

بالكثرة إذا كانت علىٰ ضلال وعلىٰ خطأ، وإنما يحتج بمن كان علىٰ الحق، ولو كان قليلًا، ولا يحتج بمن كان علىٰ الباطل، ولو كان عددهم كثيرًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لا يعلمون الدين القيم، ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من الإخلال بهذا الدين والانحراف عنه.

[٥٩] ووصَّىٰ بها؛ أي: بكلمة التوحيد إبراهيم عليه السلام بنيه إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب -وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الذي هو إسرائيل -وصىٰ بها بنيه أيضًا، وصَّاهم بكلمة التوحيد، كلمة الإخلاص لله عز وجل .

والتوصية، معناها: أن الموصي عند موته يوصي ذريته أو من حوله بتقوىٰ الله عز وجل ، والوصية عند الفقهاء: الإذن بالتصرف بعد الموت، هذه الوصية، وتكون بالأموال، وتكون في الدين، وذلك بالحث علىٰ التمسك بالدين.

فإبراهيم ويعقوب، إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء، ويعقوب الذي هو أبو بني إسرائيل، كلاهما أوصىٰ ذريَّته بكلمة التوحيد، والإخلاص لله عز وجل ، والدين الحق، وهكذا يجب علىٰ الوالد أن يربي أولاده علىٰ طاعة الله، وأن يوصيهم -إذا حضره الموت- بالثبات علىٰ الدين، والبقاء علىٰ التوحيد، وهذا من حرص الأبوين الكريمين إبراهيم ويعقوب علىٰ ذريتهما.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾ هذا نداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختار التوحيد لكم؛ لأنهم أولاد الأنبياء، ومن ذرية الأنبياء، فهم أولىٰ أن يتمسكوا بهذا الدين، وأن يكونوا قدوةً للناس ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

هذه وصية بالتمسك بالدين إلىٰ الممات، وذلك بالعمل به، والثبات عليه، والحذر مما يخالفه من البدع، والشرك، والدعوة إلىٰ الضلال، فما دام الإنسان علىٰ قيد

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣] [٦٠].

الحياة، فإنه عُرضة للانحراف، واتباع دعاة الضلال إن لم يثبته الله ﷻ، وهذا فيه دليل علىٰ أن العبرة بالخاتمة، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مسلمون لله بالتوحيد.

فالإسلام يُراد به التوحيد، وهو دين جميع الرسل، وكل الرسل جاءوا بالتوحيد، وهو إسلام الوجه لله ﷻ، والإخلاص، والابتعاد عن الشرك ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا حث علىٰ الثبات علىٰ هذا الدين، وعدم الالتفات إلىٰ ما خالفه، وفيه أن العبرة بالخواتيم، وأن الإنسان بحسب ما يُختم له من خيرٍ أو شرٍّ.

وفي الحديث الصحيح: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»(١).

العبرة بالخاتمة التي يموت الإنسان عليها؛ ولكن علىٰ الإنسان أن يعمل أعمالًا تكون سببًا لحسن الخاتمة، ويبتعد عن الأعمال التي تكون سببًا لسوء الخاتمة، والأعمال كثيرة، والإنسان ما دام علىٰ قيد الحياة، فهو معرض للانحراف والفتنة، وقد ينحرف ويموت علىٰ غير الإسلام.

هذا الحديث فيه الحث علىٰ دين الإسلام، والثبات عليه، وسؤال الله ﷻ حسن الختام.

[٦٠] ذكر الله -جلَّ وعلا-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]

(١) أخرجه البخاري (١١٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وعن ابن مسعودٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبيٍّ وُلاةً من النبيِّين وإن وليِّيَ أبي إبراهيمُ وخليلُ ربِّي ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]». رواه الترمذي(١) [٦١].

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يعني: قدوة ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ القنوت: المراد به المداومة علىٰ طاعة الله؛ أي: مداومًا علىٰ طاعة الله ﴿حَنِيفًا﴾ يعني مُقبلًا علىٰ الله في عبادته، معرضًا عن عبادة ما سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كان بريئًا من المشركين، أي: تبرأ منهم، كما تبرَّأ من أبيه، وقومه.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ شاكرًا لأنعم ربِّه ﷻ؛ لأن الله ذكر في هذه السورة «سورة النحل» النعم، وعدَّدها، ولذلك تسمىٰ سورة النحل بسورة النِّعم؛ لأن الله عدَّد فيها النعم ليشكرها العباد، وذكر عن إبراهيم ﵇ أنه كان شاكرًا لأنعُم الله ﷻ، وشكر النعمة هو التحدث فيها ظاهرًا، والاعتراف بها باطنًا، وصرفها في طاعة مُسْديها ومُوليها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا خطابٌ لنبينا محمدﷺ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ولما وصف الله إبراهيم بهذه الصفات العظيمة التي ذُكرت، أمر نبيه محمدًاﷺ، أن يتبع ملته؛ أي: دينه، ودين محمدﷺ هو دين إبراهيم، وهو دين الحنيفية السمحة، دين التوحيد، والعبادة، والإخلاص لله ﷻ.

[٦١] فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يتولىٰ بعضهم بعضًا بالمحبة، والاقتداء، والاتباع، فهم سلسلة واحدة من أولهم إلىٰ آخرهم، يبشِّر أولهم بآخرهم، ويقتدي آخرهم بأولهم، ويتبع بعضهم بعضًا، هكذا هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ونبيُّنا محمد ﷺ هو أولىٰ الناس بإبراهيم، وهذا ردٌّ علىٰ اليهود والنصارىٰ، فاليهود يقولون: كان إبراهيم يهوديًّا، والنصارىٰ يقولون: كان إبراهيم نصرانيًّا، والله ردَّ عليهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

(١) برقم (٢٩٩٥).

....

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾[آل عمران: ٦٧-٦٨].

وأنتم أيها النصارىٰ لم تتبعوه، فأنتم بعيدون عنه، فالنصارىٰ يعبدون الصليب، واليهود يعبدون عُزيرًا، ويقولون: عُزير ابن الله، ويعبدون العجل كما ذكر الله تعالىٰ عنهم، ويعبدون شهواتهم، هكذا هو دين اليهود.

فإبراهيم بريء منهم؛ بريء من اليهود والنصارىٰ، وهم لم يتبعوا إبراهيم عليه السلام، فهم بعيدون عنه، إنما أقرب الناس إلىٰ إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من اليهود والنصارىٰ، لا الذين خالفوه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهو محمدﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالله وليهم ينصرهم ويؤيدهم ويحبهم ويتولاهم، فهو ولي المؤمنين خاصة، ولاية نصرٍ وتأييد وحفظ وإعانة.

وهناك ولاية عامة لجميع الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]. يعني: ربَّهم ومالكهم، والمتصرف فيهم، هذه ولاية عامة، لجميع الخلق، بمعنىٰ الملك والتدبير والرزق، أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين الذين اتبعوا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأولاهم بذلك هذا النبي محمدﷺ وأمته، فهذا فيه ردٌّ علىٰ اليهود والنصارىٰ الذين يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم وهم كَذَبَة، ليسوا علىٰ دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وإنما هم علىٰ الشرك، ودين الانحراف والتغيير والتبديل.

هذا فيه دليل علىٰ أنه لا يكون وليًّا للنبيﷺ إلا من اتبعه، ليس هناك وليٌّ للنبي ﷺ، ولا لإبراهيم إلا من اتبعهما، والذين يزعمون أنهم يحبون محمدًاﷺ، وهم يخالفونه، ويحدثون البدع والمحدثات، ويزعمون أنهم يحبون النبيﷺ، هذا كذب، لو كانوا يحبون النبيﷺ لاتبعوه، وتركوا البدع والمحدثات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يَنظُرُ إلىٰ صُورِكم وأموالِكم؛ ولكن يَنظُرُ إلَىٰ قلوبِكم وأعمالِكم»[1] [٦٢].

ولهما عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فَرَطُكم علىٰ الحوضِ، وليُرفَعنَّ إليَّ رجالٌ منكم، حتىٰ إذا أهويتُ لأناوِلهم اختُلِجُوا دُوني فأقول: أي ربِّ، أصحابِي، يقول: لا تدري ما أَحدَثُوا بَعدَكَ»[2][٦٣].

فالذي يحب النبي ﷺ حقيقة هو الذي يتبعه، وهم الذين ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. العبرة بالاتباع وليست بالدعوىٰ، والدعوىٰ إذا لم يكن عليها دليل فهي باطلة.

[٦٢] هذا فيه أن العبرة ليست بالمظاهر وصور الأجسام وجمالها، ولا في كثرة الأموال والثروات والغنىٰ، وإنما النظر إلىٰ شيئين، هما: القلوب والأعمال، فإذا كانت القلوب صحيحة سليمة مخلصة لله عز وجل، وكانت الأعمال مستقيمة علىٰ شرع الله ودينه، فهذا الذي ينظرُ الله إليه ويتقبَّلُه ويثيب عليه.

أما مجرد جمال الصورة وكثرة الثروة، فهذا ليس عند الله له اعتبار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]. فهؤلاء هم الذين ينظرُ الله إليهم نظر اعتبارٍ وقبولٍ ورحمةٍ.

[٦٣] في هذا الحديث يقول ﷺ: «أنا فرطكم علىٰ الحوض» الفَرَط، هو: الذي يسبق إلىٰ الماء؛ ليسقي قومه، فالنبي ﷺ يوم القيامة يكون علىٰ حوض، طوله مسافة شهر، وعرضه مسافة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وآنيته عدد نجوم السماء، من يشرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبدًا[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)(٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧).

(٣) انظر: أحاديث صفة الحوض في «جامع الأصول» لابن الأثير (١٠/ ٤٦١-٤٦٧)، الأحاديث (٧٩٨٤-٧٩٩٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «وَدِدتُ أنَّا قد رأينا إخوانَنا. قالوا: أوَلَسنا إخوانَك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ. قالوا: كيف تعرفُ مَن لم يأتِ بعدُ مِن أُمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيتَ لو أن رجلًا له خيل غر مُحَجَّلَة، بين ظَهرَيْ خيلٍ دُهْمٍ بُهْم، ألا يَعرِفُ خيلَه؟، قالوا: بلىٰ، يا رسول اللهِ، قال: فإنهم يأتُون غُرًّا محجَّلِين من الوُضُوء، وأنا فَرَطُهم علىٰ الحوض، ألا ليذادَنَّ رجالٌ عن حَوْضِي كما يُذادُ البعير الضَّالُّ، فأناديهم: ألا هَلُمَّ، فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدَك؛ فأقول: سُحْقًا سُحْقًا»[١] [٦٤].

تَرِد الأمة يوم القيامة علىٰ حوض النبي ﷺ وهم عطاش من شدة الحرِّ وطول المُقام، وهم بحاجة إلىٰ الماء، فيسقيهم ﷺ بيده إلَّا من كان قد غيَّر دينه، فإنه يُصرف عن الحوض، فيقول النبي ﷺ: «أي ربِّ أصحابي» فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، يعني: ما غيَّروا، فهذا فيه دليلٌ علىٰ أن من ابتدع في دين الله وغيَّر؛ فإنه لا يَرِدُ الحوض علىٰ النبي ﷺ، ولا يَرِدُه إلا أهل التوحيد والاتباع، أهل التوحيد لله عز وجل، والاتباع للرسول ﷺ، الذين لم يبدِّلوا ولم يغيِّروا؛ بل كانوا كما تركهم ﷺ، علىٰ البيضاء، ليلها كنهارها، هؤلاء هم الذين يردون الحوض، ويشربون منه، يسقيهم رسول الله ﷺ منه.

وأما من غيَّر وبدَّل فإنه وإن انتسب إلىٰ الإسلام، وإلىٰ اتباع الرسول ﷺ، فإنه في هذا الموقف يُصرف عن الحوض، فهذا فيه التحذير من البدع، والانحراف، والتغيير في دين الله، والضلال.

وفيه الحث علىٰ التمسك بالدين الصحيح، والثبات عليه، والصبر عليه إلىٰ الموت، حتىٰ يَرِد علىٰ النبي ﷺ، وحتىٰ يشرب من حوضه.

والاختلاج: الأخذ بسرعة، والمنع والطرد، يطردون عن الورود.

[٦٤] هذا مثل الحديث الذي قبله في أن أمة محمد ﷺ هم الذين لم يبدِّلوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).

ولم يغيِّروا، يأتون ولهم سمات وعلامات بارزة، يعرفهم بها رسول الله ﷺ من بين **الخلائق**، وهي آثار الوضوء، وهذا من فضل الوضوء للصلاة، وفضل الطهارة، وأن آثاره تبقىٰ نورًا يتلألأ يوم القيامة علىٰ أطراف المسلمين، يعرفهم النبي ﷺ من بين الخلق، فهذا فيه فضل الوضوء، وفيه علامة هذه الأمة يوم القيامة من بين الأمم، وفيه أن أناسًا يذادون عن الحوض، يأتون مع الورَّاد إلىٰ الحوض بصفة أنهم يدَّعون الإسلام؛ لكنهم يُمنعون ويذادون كما يُذاد البعير الضال، يمنعون من الوصول إلىٰ الحوض، فيسأل النبي ﷺ: لماذا؟ فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فيقول ﷺ: «**سحقًا سحقًا لمن بدَّل وغيَّر**»، أو كما قال ﷺ، هذا مثل الحديث الأول إلَّا أن فيه زيادة أن النبي ﷺ يعرف أمته بسيما الغُرَّة والتحجيل من آثار الوضوء.

وأول الحديث فيه أن النبي ﷺ قال: «**وددت أنَّا قد رأينا إخواننا**» يتمنىٰ ﷺ أن يرىٰ إخوانه من المؤمنين الذين يأتون من بعده، قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: أوَلسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي**» هذه خاصة في الذين صحبوا النبي ﷺ، الذين لقوا النبي ﷺ وآمنوا به، هؤلاء يُقال لهم: الصحابة، ولهم فضل عظيم، وهم خير القرون، والإخوان هم الذين يأتون في آخر الزمان، ويتبعون هذا الرسول ﷺ مع ما بينهما من طول الزمان، فهذا فيه الفضل العظيم في آخر هذه الأمة التي تتمسك بدين الرسول ﷺ وهي لم تره.

الصحابة رأوا النبي ﷺ، وجالسوه وجاهدوا معه؛ لكن يأتي أُناس لم يروا النبي ﷺ، ولكنهم يؤمنون به، وهم لم يروه، يؤمنون به بموجب كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، يصدقون به، وهذه فضيلة عظيمة، فالصحابة لهم فضل الصحبة، وهؤلاء لهم فضل التمسك والاتباع وهم لم يروا النبي ﷺ، كلٌّ له فضيلة خاصة به.

وللبخاري: «بينا أنا قائمٌ إذا زُمَرةٌ حتىٰ إذا عَرَفتُهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم فقال هَلُمَّ. فقلت: أين؟ قال: إلىٰ النار. قلت: وما شأنُهم؟ قال: إنهم ارتَدُّوا بعدَك علىٰ أدبارهم القَهْقَرَىٰ، ثم إذا زمرةٌ ...-فذكر مثله- قال: فلا أُراه يَخلُصُ منهم إلا مثلُ هَمَلِ النَّعَمِ»(١) [٦٥].

---

[٦٥] هذا مثل الحديث السابق أنه ﷺ يكون في خَلْقٍ كثير يوم القيامة، ثم ينادَون إلىٰ النار من عند الرسول ﷺ، فيسأل الرسول لماذا؟ قالوا: إنهم لا يزالون مرتدين من بعدك.

هذا فيه أن من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فإنه سيلقىٰ هذا المصير، إلا إذا تاب إلىٰ الله قبل الموت، فهذا مما يؤكد علىٰ الإنسان أن يعرف نواقض الإسلام، ويتجنبها؛ لئلا يكون مع هؤلاء الناس يوم القيامة، وهو يزعم أنه مسلم.

قد يعيش الإنسان مرتدًّا ويزعم أنه مسلم، لماذا؟ لأنه يعيش علىٰ ناقضٍ من نواقض الإسلام، ونواقض الإسلام كثيرة، وأسباب الرِّدة كثيرة، يجب العناية بمعرفتها، وسؤال الله الثبات علىٰ الدين، فلا يكفي مجرد الانتساب أو أن يكون الإنسان إمَّعة مع الناس أساءوا أو أحسنوا؛ بل لابد أن يعرف الحق؛ لأجل أن يعمل به، ويسأل الله الثبات، فهذا فيه أن من ارتدَّ عن دين الإسلام، فإنه يكون من أهل النار، ولو كان في أول أمره من هذه الأمة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧]. لذلك يجب علينا أن نعرف ما هي أنواع الردَّة، وما هي نواقض الإسلام حتىٰ نتجنبها، وأكثر الناس هملٌ لا يدرون ولا يعرفون نواقض الإسلام، ويقعون فيها وهم لا يدرون، بسبب الجهل الذي لا يعذرون به؛ لأنه لا يعذر في الجهل من كان يعيش بين العلماء،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهما(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨]» [٦٦].

وفي بلاد الإسلام؛ لأنه بإمكانه أن يسأل وأن يتعلَّم، ويحرص علىٰ التعلُّم.

أما الذي لا يبالي، فإنه لا يهتم بالعلم، ولا بالتعلُّم، ويكتفي بمسمَّىٰ الإسلام فقط، ويجاري الناس علىٰ ما هم عليه، ثم يوم القيامة يصبح مع الخاسرين.

فهذا فيه الحث علىٰ معرفة نواقض الإسلام؛ حتىٰ يتجنبها المسلم؛ لئلا يكون مع هؤلاء يوم القيامة.

[٦٦] يقول ﷺ عند ذلك؛ أي: عند هذا المشهد الهائل حينما يذادون إلىٰ النار من عند الرسول ﷺ يقول كما قال العبد الصالح -وهو عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام- يوم القيامة، إذا قال الله له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦].

هذا فيه فضح للنصارىٰ، الذين يقولون: إن المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو يقولون: إن المسيح هو الله، أو إن الله هو المسيح بن مريم، يقول الله له يوم القيامة: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ هذا تنزيه لله ﷻ من القول ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لأن العبادة حق لله، ليست حقًّا للمسيح، ولا لأمه، ولا لغيرهما من المخلوقين، العبادة حق لله -جلَّ وعلا-: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لأن هذا حق الله -جلَّ وعلا-، الألوهية والعبادة حق لله.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١١٦]. هذا برهان آخر علىٰ أنه عليه السلام لم يقل هذه المقالة، أنه لو قال

---

(١) البخاري (٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٦٠)(٥٨).

هذا لعلمه الله -جلَّ وعلا-؛ لأن الله يعلم كل شيء، فهذا دليل على أنه لم يقل هذا لهم؛ لأنه لو قاله لعلمه الله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ هذا فيه أن الرسول مبلَّغ عن الله لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو مبلِّغ عن الله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فصار المسيح عبدًا، وليس ربًّا كما تقوله النصارى.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ في حياته -عليه الصلاة والسلام-، كان يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، لم يأمرهم بالشرك أبدًا، ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ لا أحد يقول هذا من الأنبياء، ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هذا الذي يقوله النبي ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ من دون الله، ليس هناك نبي يأمر بهذا أبدًا ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩-٨٠].

فالنبي لا يأمر بالكفر أبدًا، ولا يتصوَّر هذا: أن النبي يدعو إلى الشرك، وإلى الكفر ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]. فالمسيح عليه السلام توفِّي حين رُفع، والوفاة هنا هي القبض، فقبض وهو حي -عليه الصلاة والسلام- لم تفارق روحه جسده، وإنما قُبض -عليه الصلاة والسلام- بروحه وجسده، ورفع إلى السماء ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾[آل عمران: ٥٥].

ثم في آخر الزمان يُتوفى الوفاة الكبرى، وهي مفارقة الروح للجسد ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩]. هذا في آخر الزمان، يموت -عليه الصلاة والسلام- ويدفن كما دُفن الأنبياء، في القبر، في آخر الزمان.

ولهما عنه[1] عنه مرفوعًا: «ما من مولود إلا يولدُ علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمجِّسانِه، كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جَدعاءَ حتىٰ تكونوا أنتم تجدعُونها؟! ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]» متفق عليه [٦٧].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسألُه عن الشَّرِّ؛ مَخافَةَ أن يُدرِكَني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهليةٍ وشَرٍّ، فجاءنا الله بِهذا الخير، فهل بعدَ هذا الخير من شَرٍّ؟ قال: نعم. فقلت: وهل بعدَ ذلك

---

[٦٧] هذا الحديث يفسر الآية السابقة التي في أول الباب، في أن الله فطر الناس علىٰ الإسلام؛ أي: فطرهم علىٰ التوحيد، فلو أنهم سلموا من دعاة الضلال، لبقيت فطرتهم قابلة للحق، ولاتبعوا الرسل، فالفطرة وحدها لا تكفي، لابد من اتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ففطرتهم صالحة مثل التربة الطيبة الصالحة للنبات، فالتربة إذا بقيت ولم تلوث، تبقىٰ صالحة، وإذا غيِّرت وسبخت وَعَلَتْهَا الملوحة والماء فسدت وصارت غير صالحة للإنبات.

كذلك الإنسان إذا غُيِّرت فطرته فإنها لا تقبل الخير؛ لأنها انحرفت وتغيرت، كالتربة إذا فسدت، وضرب النبي ﷺ لذلك مثلًا بالشاة الجدعاء التي قطعت أُذنها وكسر قرنها، تولد جَمْعَاءَ؛ أي: سليمة ليست مجدوعة، كاملة القرنين والأذنين، ثم إن أهلها هم الذين يجدعونها.

وكذلك المولود يولد علىٰ الفطرة كاملًا، فإن غُيِّرت الفطرة، فهذا من تصرف المربِّين الذين يحرِّفون الفطرة، ويغيِّرونها، مثل الذين يفسدون التربة الصالحة للبذر فلا تُنبت.

---

(١) أي: عن أبي هريرة، أخرجه البخاري (٤٧٧٥ و٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

الشَّرِّ من خيرٍ؟ قال: **نعم، وفيه دَخَنٌ**. قلت: وما دَخَنُه؟ قال: **قومٌ يَسْتنُّون بغير سُنَّتي، ويهتدون بغير هَدْيي تَعرِفُ منهم وَتُنكِر**. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شَرٍّ؟ قال: **نعم، فتنةٌ عمياءُ، ودعاةٌ علىٰ أبوابِ جهنم، من أجابهم إليها قَذَفُوه فيها**. قلت: يا رسول الله صِفْهم لنا، فقال: **هم من جِلدَتنا ويتكلَّمون بألسنتِنا**. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المسلمين وإمامَهُم**. قلت: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: **فاعتزِلْ تلك الفرقَ كلها، ولو أن تعض علىٰ أصل شجرةٍ، حتىٰ يدرِكك الموتُ وأنت علىٰ ذلك**» أخرجاه(1)[٦٨].

---

[٦٨] هذا لا شك أنه مطلوب، أن تسأل عن الخير، وأن تتعلَّم ما فيه الخير والصلاح؛ لكن لا تقتصر عليه؛ بل عليك أن تعرف ضده، عليك أن تعرف الشرَّ، وهو ضد الخير؛ لئلا تقع فيه؛ فيجب عليك أن تتعلم الأمرين؛ الخير والأعمال الصالحة، وكل ما يؤدي إلىٰ الخير؛ من الأعمال والأقوال والعقائد وغير ذلك، ولابد أن تعرف ما يضاد ذلك وما يخالفه، حتىٰ يسلم لك هذا الخير؛ لأنك إذا اقتصرت علىٰ تعلُّم الخير، ولم تتعلم ما يخالفه ويضاده، فربما أنك تقع في أشياء تذهب بهذا الخير وأنت لا تدري.

فمثلًا، إذا تعلَّمت التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، فلابد أن تتعلَّم ما هو الشرك الذي هو ضد التوحيد، وهو عبادة غير الله، وكيف تكون عبادة غير الله؛ لأن الإنسان قد يعبد الله ويكثر من العبادة؛ ولكن لا يتجنب الشرك، خصوصًا وأن كثيرًا من الناس يقعون في الشرك، وهناك دعاة إلىٰ الشرك، فربما أنه يقع في شيء من الشرك يظنه خيرًا؛ لأنه لُبِّس عليه، فهذا الشرك يُبطل عمله وهو لا يدري، فلابد أن تتعلم الخير وإلىٰ جانبه تتعلم ما يضاده ويخالفه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧)، وقوله: «**فتنة عمياء**». وردت عند أحمد في «المسند» (٢٣٢٨٢)، وليست عند البخاري ومسلم.

....

وهذا بخلاف ما ينادي به اليوم الكثير من الجُهَّال والمضلِّلين والمغرضين الذين يقولون: علِّموا الناس التوحيد، وعلِّموهم الصلاة، وأفعال الخير؛ لكن لماذا تعلمونهم نواقض الإسلام، والشرك، وتعلِّمونهم عقائد الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوَهم، لماذا لا تقتصرون علىٰ العقائد الصحيحة، وتتركون بيان العقائد الفاسدة؟

وهذا جهل أو تضليل؛ لأنه لا يكفي تعلُّم العقائد الصحيحة؛ بل لابد أن نعرف أيضًا العقائد الفاسدة والباطلة، من أجل أن نتجنبها ونجنِّبها أولادنا وإخواننا، ولذلك ردَّ العلماء علىٰ الجهمية والمعتزلة والمخالفين، وهذا شيء موجود، فلو أنهم سكتوا عن أهل الضلال، ولم يردُّوا عليهم، لراجت أفكارهم وشبهاتهم.

لم يقل العلماء: نقتصر علىٰ معرفة الخير فقط، بل وعرَّفوا الناس الشر من أجل أن يجتنبوه، وتجد الآن في كتب العقائد -خصوصًا الموسَّعة- بيان العقيدة الصحيحة، وبيان ما يضادها، وإيراد الشبهات التي يدلي بها أهل الشَّرِّ من أجل الردِّ عليها، لئلا يغترَّ بها من لا يعرفها، وإن كان من أهل الخير؛ لأن الذي يجهل الشيء يوشك أن يقع فيه، ولهذا يقول الشاعر:

عـرفتُ الـشرَّ لا للـشرِّ لكـن لِتوقِّـيهِ ... ومن لا يعـرف الشر من الخير يقع فيه

فلابد من هذا الأمر، وهذا حذيفة رضي الله عنه وهو صحابيٌّ جليل، كان يسأل النبي ﷺ عن الشرِّ ولم ينهه الرسول ﷺ، لم يقل له: اجتنب هذا، ولا تسأل عنه؛ بل أقرَّه الرسول ﷺ، وبيَّن له عما سأله من الفتن، بيَّن له ﷺ الفتن، وأن الدنيا دول؛ تارة يأتي خير، وتارة يأتي شرٌّ، ويتعاقب هذا وهذا علىٰ الناس للابتلاء والامتحان.

فلابد أن يكون المسلمون علىٰ استعداد لمقاومة الشر لئلا يروج الشرُّ عليهم؛ لأن الشر له دعاة، حريصون علىٰ رواجه، ويزينونه بزخرف القول، وبالعبارات الرنَّانة، ويسمونها بأسماء مغرية، فلو لم تعرفوا هذه الشبهات، وهذه الدعوات الضالة لأوشك

أن يروج هذا عليكم، فتقبلونه، فهذه هي الحكمة من أننا نتعلم الخير ونتعلم الشرَّ، يعني: نتعلم ما يضاد الخير ويخالفه، حتىٰ نسلم منه، وهذا حذيفة رضي الله عنه في هذا الحديث الصحيح، وأقرَّه النبي ﷺ ولم يقل له: لماذا تسأل عن الشر؟

فالإنسان علىٰ خطر، لا يزكي نفسه، ولا يقول: أنا عرفت الخير ويكفي؛ بل لابد أن يعرف هذه الأمور لخطرها، ولتكررها علىٰ الناس، والدعوة إلىٰ الانحراف والضلال مستمرة لا تنقطع، الآن هناك من يدعو إلىٰ مذهب الجهمية، وإلىٰ مذهب المعتزلة، وإلىٰ القبورية، وإلىٰ الصوفية، وإلىٰ غير ذلك من الدعوة إلىٰ الانحراف، فلو لم نتعلم الردَّ علىٰ هؤلاء، ونعرف شبهاتهم؛ لراجت هذه الأمور، ولذهبت السُّنة، فلابد من المقاومة، ولابد من معرفة المرض، ومعرفة علاجه.

فالنبي ﷺ أخبر حذيفة بما يكون، وهذا من علامات النبوة، حيث إنه ﷺ يخبر عن الشيء قبل وقوعه؛ لأن الله أطلع رسوله علىٰ ما يكون في المستقبل، من أجل أن ينبِّه الناس، ويحذِّر الناس من هذه الأمور إذا حدثت، وقد قال ﷺ: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(١).

وقال ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢ و٤٣)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد في «المسند» (١٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كل ذلك من أجل أن يكون الناس علىٰ معرفة وبصيرة إذا حدثت هذه الأمور، فيكون عندهم استعداد لمقاومتها، والتحذير منها، وألا يغتروا بها.

فحذيفة رضي الله عنه في النهاية سأل الرسول ﷺ إذا أدركه هذا، ماذا يفعل؟ قال له: «**أن تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم**» هذه هي العصمة من الفتن؛ أي: أن تكون مع الجماعة.

والنبي ﷺ يوصي بالتزام جماعة المسلمين، ويقول: «**يدُ الله علىٰ الجماعة، ومن شذَّ؛ شذَّ في النار**»(١).

ويقول ﷺ: «**من خالف الجماعة، فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه**»(٢).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي: كتاب الله، وسنتي**»(٣).

وسيأتي في الأحاديث حالة الغرباء في آخر الزمان، وما لهم من الأجر.

فملازمة جماعة المسلمين فيها العصمة، وأما من شذَّ عن جماعة المسلمين، فهو علىٰ خطأ، وعلىٰ شفير الهلاك، عليك أن تلزم جماعة المسلمين وإمام المسلمين، يعني: بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين، والجماعة لا تكون إلَّا بإمام، لابد من الإمام، ولا تكون جماعة بدون إمام يقودهم ويحميهم ويدير شئونهم، فلابد من إمام يرجعون إليه.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وهو من زيادات عبد الله بن أحمد في «المسند» (٢١٥٦٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣١) من حديث أبي هريرة، وحديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنهما، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٠٠) بلاغًا.

عليك أن تلزم جماعةَ المسلمين، وإمامَ المسلمين، هذا فيه نجاةٌ من الفتن، وهذا إذا تأملته وجدته مطابقًا لزماننا هذا، والله أعلم بما يأتي بعده، الآن الفتن كثيرة وشديدة، والدعايات المضلَّة كثيرة، ووسائل نشر الشر توفرت ونشطت، وصار الشر يروَّج، ويدعىٰ إليه، ودعاة الضلال علىٰ قدم وساق، في الفضائيات، وعلىٰ الإنترنت، وفي الكتب يروِّجون الشرَّ والضلال ويحرِّضون علىٰ الفُرقة والاختلاف، ويدعون إلىٰ حرية الرأي، وحرية الكلمة، وما أشبه ذلك؛ يريدون أن يفككوا أوصال المسلمين، فإذا لم يكن عندك خبرة في هذا الأمر، وقعت في الهلاك إلَّا من رحمه الله.

فعليك أن تلزم جماعة المسلمين، والحمد لله أنت في هذه البلاد السعودية في دولة مسلمة، ومع جماعة من المسلمين لهم إمام، هذا من نعم الله ﷻ، فنحن في نعمة عظيمة؛ لكن لا تنسوا أن الأعداء يحفِرون لهذه الدولة، ولهذه الجماعة، يريدون أن يزيلوها من الوجود حتىٰ تكون مثل البلاد الأخرىٰ، فلا يبقىٰ أمامهم شيء يمنعهم، فلنكن علىٰ حذر من هذا، ألم يجندوا من أبنائنا من يفجِّرون، من ينتحرون، فما الغرض من هذا؟

الغرض من هذا إشعال نار الفتنة وتفريق هذه الجماعة، وإزالة هذه النعمة، هذا هو الغرض الذي يريدونه، يسمُّون هذا بالجهاد، يسمُّونه استشهادًا في سبيل الله، هذا من زخرف القول والترويج للباطل، فهذه أمور علَّمنا النبي ﷺ وحذَّرنا منها قبل وقوعها، كلَّما حدث شيء من هذا يكون عندنا منه خبر ومعرفة، وكيف نقاومه وكيف نسلم من شرِّه.

فالرسول ﷺ أرشد إلىٰ أن السلامة من الفتن إذا حدثت تكون بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وما دام المسلمون علىٰ طريقة صحيحة، وعلىٰ سبيل الهدىٰ، فكن معهم، فإذا خرجت عن ذلك، فأنت متوعَّد بأن يُصْليك الله جهنم وساءت مصيرًا.

....

قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ماذا أفعل؟ إلىٰ أين ألجأ، أين أذهب؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها**» لا تدخل مع هذه الفرق، ومع هذه الجماعات الضالة، لا تنخدع بها، ابق وحدك، وتمسَّك بكتاب ربِّك وسنة نبيك ولو أنك وحدك، اعتزل تلك الفرق كلها «**ولو أن تعض علىٰ أصل شجرة، حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**».

الحاصل:

أن هذا فيه التحذير من اتِّباع الفرق الضالة المنحرفة، فإن وجدت جماعةً للمسلمين وإمامًا لهم، فكن معهم، فإن لم تجد، فعليك أن تعتزل هذه الفرق كلها، وذكر ﷺ فيما ذكر أنها تكون فتنة عمياء، شديدة -والعياذ بالله- مظلمة، ودعاةٌ علىٰ أبواب جهنم، من أطاعهم قذفوه فيها، لا يقولون لهم: تعالوا إلىٰ جهنم، تعالوا إلىٰ النار، يقولون: تعالوا إلىٰ الجنة وإلىٰ الخير، نحن مجاهدون، نحن ندعو إلىٰ الله، لكنهم في الواقع دعاةٌ إلىٰ جهنم، من أطاعهم قذفوه فيها.

قال حذيفة رضي الله عنه: «**صِفْهم لنا يا رسول الله، قال: هم من جلدَتنا، ويتكلمون بألسنتنا**» لا يأتون من الخارج، أو من الدول الأجنبية، هم من أبنائنا، ويتكلمون بألسنتنا؛ أي: باللغة العربية؛ لأنهم منَّا، وهذا أشد، لو كان الداعية إلىٰ الضلال قادم من الخارج، أو من دول كافرة، عرفه الناس، ولم يثقوا به، ولكن المشكلة إذا كان من أبناء المسلمين، ويتكلم باللغة الفصحىٰ، لغة العرب، فعند ذلك تعظم المصيبة، هذا تفصيل من الرسول ﷺ واضح، وفيه تحذير من هذه الفتنة، وهذه الشرور، وأن تلزم ما عليه جماعة المسلمين وإمامهم، ولا تلتفت إلىٰ هذه الفتن ودعاتها؛ ولكن احذر منها.

فإذا كان هناك جماعات متعدِّدة، وهنا جماعة علىٰ الحق، فكن مع الجماعة التي علىٰ الحق، ولهذا قال ﷺ: «**تفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار**

وزاد أبو داود، قلت: «ثم ماذا؟، قَالَ: **يخرجُ الدَّجالُ، معه نهرٌ ونارٌ، فمَن وَقَع في نارِه وجبَ أجرُه، وحُطَّ وِزرُه، ومَن وقع في نهرِه، وَجَبَ وِزرُه وحُطَّ أجرُه**. قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: **ثم هي قيامُ الساعةِ**»[1][٦٩].

إلا ملة واحدة. قيل: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**»[2].

هذه الفرقة الناجية، واثنتان وسبعون فرقة كلها في النار، وواحدة هي الناجية وهي الثالثة والسبعون، واحدة فقط، وهذه الواحدة هي ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه، هي الناجية، فإذا كنت تريد النجاة فابق مع هذه الفرقة ولا تغترَّ ببقية الفرق.

[٦٩] من الفتن الشديدة، ظهور المسيح الدجال في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة الكبرىٰ، وسمِّي بالدجال، من الدجل: وهو الكذب، لكثرة كذبه، وهذا الرجل يظهر في اليهود، وهو المهدي الذي ينتظره اليهود، يخرج فيهم ومعه فتنة عظيمة، معه صورة جنة وصورة نار، فالنار التي معه هي الجنة، والجنة التي معه هي النار.

هذا دليل علىٰ أن الإنسان يجب عليه ألَّا يغترَّ بالزخرف، فهذا الدجال يُصَوِّر أن ما معه جنة وهو في الحقيقة نار، ويُصَوِّر ما معه بأنه نار، وهو جنة، فهذا فيه التحذير من السحرة المشعوذين الذين يسمون سحرهم السيرك أو الفن وهو السحر التخييلي المسمىٰ (بالقمرة)، وفيه التحذير من الدعايات المضللة، وألَّا يزهد الإنسان بالحق، ولو أن الحق لُبِّس عليه ووصف بالتأخر والرجعية والجمود وكذا وكذا، الحق هو الحق، والباطل هو الباطل، ولو وصِف بالتقدم والحضارة والرُّقي هو باطل.

الدجال يأتي في آخر الزمان، معه فتن عظيمة، ويغتر به كثير من الناس، وينخدعون بما معه من الفتن، ولا يسلم من شرِّه إلا القليل، ولهذا كان النبيﷺ والأنبياء كلهم يحذِّرون من المسيح الدجال.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٤٤)، وأحمد في «المسند» (٢٣٤٢٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال أبو العالية: «تعلَّموا الإسلامَ، فإذا تعلمتموه، فلا تَرغَبوا عنه، وعليكم بالصِّراطِ المستقيمِ، فإنه الإسلام، ولا تَتحرَّفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسُنَّة نبيِّكم، وإيَّاكم وهذه الأهواء»[1][٧٠].

وأشدُّهم تحذيرًا نبيُّنا محمدﷺ لقرب زمان خروجه، ولذلك أمرناﷺ أن نستعيذ بالله من أربع في كل صلاة في التشهد الأخير، بأن نقول: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»[2].

[٧٠] أبو العالية الرِّياحي، هو رُفيع بن مهران الرياحي، من أئمة التابعين، يوصي بوصايا عظيمة:

أولُها: تعلَّموا الإسلام؛ أي: اعرفوا الإسلام ما هو، ولا يكفي أن تقول أنا مسلم، وأنت لا تعرف الإسلام، لابد أن تعرف ما هو الإسلام، وما هي أركانه، وما هي نواقض الإسلام، حتىٰ تكون علىٰ بصيرة، أن تعرف معناه وتعريفه، وتعرف أركانه، وتعرف مكملاته ومناقضاته ومنقصاته حتىٰ تكون علىٰ بصيرة، وهذا فيه الحث علىٰ تعلُّم العلم النافع؛ لأنه هو الحياة وهو النجاة -بإذن الله- هذه واحدة.

الثانية: فإذا تعلمتموه، وعرفتموه عليكم بالتمسك به، لا يكفي أن يكون الإنسان عالمًا؛ بل يجب عليه أن يعمل بعلمه، وإلَّا فالكثير من العلماء أهل ضلال؛ أي: ضلُّوا وهم عندهم علم، فاليهود عندهم علم، وقد ضلُّوا وكفروا، فلا يكفي مجرد العلم، لابد من التمسك بالحق، والثبات والصبر عليه مع العلم، فهو (علم وعمل) أوصىٰ أولًا بالعلم، ثم أوصىٰ بالعمل والثبات عليه.

الثالثة: أن تلزم الصراط المستقيم، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.

تأمَّلْ كلامَ أبي العاليةِ هذا، ما أَجَلَّه، واعرِفْ زمانَه الذي يحذِّرُ فيه من الأهواءِ التي مَن اتَّبعها فقد رَغِبَ عن الإسلامِ، وتفسيرَ الإسلامِ بالسُّنَّة، وخوفَه علىٰ أعلامِ التابعينَ وعلمائهم، من الخروج عن السُّنة والكتاب، يَتبيَّن لك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]. وأشباهِ هذه الأُصولِ الكبارِ، التي هي أَصلُ الأصولِ، والناسُ عنها في غفلةٍ [٧١].

فالصراط هو الطريق، والمستقيم هو المعتدل الذي ليس فيه مَيلان وانحراف، هذا هو الصراط المستقيم، أمرنا الله بأن نتبعه، وأمرنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط، وأن يعرفنا به، وأن يثبتنا عليه.

أما الوصية الرابعة: فهي أنك إذا وفقك الله لمعرفة الصراط المستقيم وسرت عليه، فلا تنسَ دعاة الضلال الذين يريدون أن يحرفوك عن الصراط المستقيم، ولهذا قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ والرسول ﷺ ضرب لهذا مثلًا.

[٧١] يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تأمل كلام أبي العالية هذا**»، وما فيه من الفوائد العظيمة، وزمان أبي العالية متىٰ؟ إنه زمان التابعين، فكيف بزماننا هذا، أبو العالية خاف علىٰ التابعين فكيف بزماننا هذا؟! إنه أشدُّ خطرًا.

«**وتفسير الإسلام بالسنة**» أي: السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ.

«**وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**» إذا كان قد خاف علىٰ أعلام التابعين، فكيف بنا نحن؟! الخوف علينا أشد.

«**يتبين لك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**».

....

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة:١٣٠-١٣١] .

استجاب لأمر الله ﷻ ، وأسلم نيته وقصده وعمله لله ﷻ ، هذا هو الإسلام، الإخلاص لله ﷻ ، والانقياد لله ﷻ .

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «الثلاثة الأصول»: الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

«وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢]» وهذه وصية إبراهيم عليه السلام ، ووصية يعقوب عليه السلام ، كل منهما وصىٰ ذريته بالتمسك بالإسلام، وأنتم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، فالوصية شاملة لكم، ولمن يأتي بعدكم إلىٰ أن تقوم الساعة.

ووصىٰ بها يعقوب بني إسرائيل الذين هم اليهود، فالله وصَّىٰ بها العرب والعجم، وصاهم جميعًا علىٰ لسان إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: اختاره لكم، هذه نعمة عظيمة، بينما أكثر البشر علىٰ الضلال، وأنتم أنعم الله عليكم بهذا الدين العظيم، وبعث إليكم هذا الرسول الكريم محمدًا ﷺ ، أفضل الرسل، ودينكم أفضل الأديان، هذه نعمة عظيمة.

﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هذه هي المهمة، معناه أن تثبت علىٰ هذا الدين، حتىٰ يأتيك الموت، فإذا جاءك الموت، وأنت علىٰ هذا الدين فأنت من السعداء، أما إن جاءك الموت وأنت منحرف عن هذا الدين فأنت من الأشقياء، فالعبرة بالخاتمة التي تموت عليها ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: اثبتوا، هذا فيه الحث علىٰ الثبات علىٰ الدين حتىٰ يأتيك الموت وأنت عليه لا تتركه أبدًا.

وبمعرفتِهِ تَبيَّن معنىٰ الأحاديث في هذا الباب وأمثالها، وأنَّ الإنسان الذي يقرؤُها وأشباهَها، وهو آمنٌ مطمئنٌّ؛ أنها لا تنالُه، ويظنها في قوم كانوا، فبادُوا، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] [٧٢].

«وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾» ومن يرغب، استفهامٌ إنكارٍ، أي: لا يرغب أحد، يعني: لا يترك أحد ملة إبراهيم إن كان يريد النجاة لنفسه، فلا يترك ملة إبراهيم التي بُعث بها نبينا محمدﷺ، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ السفه معناه: خفة العقل وضياعه، فمن ترك ملة إبراهيم فقد خسر نفسه، وأهلكها، وأعز شيء عند الإنسان نفسه، فإذا خسر نفسه خسر أعزَّ شيء عنده ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]. فكيف يخسر الإنسان نفسه؟ إذا ترك ملة إبراهيم خسر نفسه.

«وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة» أشباه هذه النصوص، وهذه الآثار التي فيها هذه الوصايا العظيمة، وأكثر الناس في غفلةٍ عنها لا يقرءونها ولا يتعلمونها، وإذا تعلَّموها فقليل من يعمل بها، وإذا عملوا بها، فقليل من يثبت عليها، فالأمر يحتاج إلىٰ استعانة بالله ﷻ، وإلىٰ اهتمام، ولا يثق الإنسان بنفسه ويأمن من الفتن؛ بل يخاف من الفتن ويتجنبها، ولا يكون إمَّعة مع الناس، بل يكون مع الحق دائمًا وأبدًا، فإذا بلغه شيء فإنه يعرضه علىٰ الحق، فإن وافقه فالحمد لله، وإن خالفه فإنه يتركه.

[٧٢] الذي يقرأ هذه النصوص وأمثالها، ويتفقه بها، ويعمل بها، يكون علىٰ طريق النجاة، طريق السلامة، وأما الذي لا يلتفت إليها، أو يقرؤها؛ ولكن لا يتأملها ولا يتفقه فيها، أو يأمن علىٰ نفسه من الفتن والانحراف، فهذا حريٌّ أن يكون مع الهالكين؛ لأنه لم يأخذ بأسباب النجاة، وعلىٰ الإنسان ألَّا يغتر بنفسه ولا بعلمه، ولا يغتر بدينه؛ لأن الإنسان بشر، وهو عُرضة للفتن، والإنسان ضعيف، ولهذا كان نبيُّناﷺ يكثر من

قوله: «**يا مُقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»[1].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٧-٨]. الراسخون في العلم يخافون من الزيغ، لذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ فالإنسان يكون علىٰ خوف، وإذا خاف فإنه يبحث عن النجاة.

أما إذا أمن فإنه يقع في الهلاك وهو لا يدري، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

فالله -جلَّ وعلا- يمكر بأهل الشر، بمعنىٰ أنه يستدرجهم، عقوبةً لهم، فمكره -جلَّ وعلا- بحق، وهو إيصال العقوبة إلىٰ مَن يستحقها بطريق خفي لا يتنبه له، وهو من الله محمود؛ لأنه جزاء وعدل، لا يمكر بأحد إلا وهو يستحق، لا يمكر بالصالحين، إنما يمكر بأهل الشر ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والجزاء من جنس العمل، فلما مكروا بعباد الله، ومكروا بالرسول ﷺ يريدون قتله، أو سجنه، أو طرده، مكر الله لرسوله، وأخرجه من بينهم، وهم لا يشعرون، وخرج ﷺ إلىٰ الغار واختفىٰ فيه، ولما انقطع الطلب، ذهب إلىٰ المدينة، ووجد الأنصار والمسلمين، وقامت دولة الإسلام.

فالله مكر بالكفرة، من حيثُ لا يشعرون.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وهو في «مسند الإمام أحمد» (١٢١٠٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: «خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خَطًّا، ثم قال: **هذا سبيلُ الله**، ثم خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شمالِه، ثم قال: هذه **سُبُلٌ متفرِّقةٌ، علىٰ كل سبيلٍ منها شيطانٌ يَدعُو إليه**، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» رواه أحمد والنسائي[١] [٧٣].

---

[٧٣] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ وقد فسر الرسول ﷺ هذا بمثال محسوس، بأن خطَّ خطًّا مستقيمًا، وخط خطوطًا عن يمينه، وعن شماله، فقال عن المستقيم: «**هذا سبيل الله**»، وقال عن بقية الخطوط: «**هذه سُبل متفرقة، علىٰ** كل **سبيل منها شيطان يدعو إليه**». وهذا يذكرنا بالدعاة الذين مرَّ ذكرهم في حديث حذيفة: «**دُعاة علىٰ أبواب جهنم**»[٢]. هم هؤلاء، علىٰ كل سبيل شيطان منهم يدعو إليه؛ ليخرج الناس من الصراط المستقيم إلىٰ هذه السُّبُل، هؤلاء هم دعاة الضلال، هم الذين من جِلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤١٤٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

باب ما جاءَ في غُرْبة الإسلام وفضل الغُرباء

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ﴾ [هود: ١١٦] الآية [٧٤].

---

[٧٤] بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما قام الرسول ﷺ بمكة -لما بعثه الله، وقال له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]. قام وحده ﷺ، ثم انضم إليه أبو بكر الصديق، وبلال، ولهذا لما سُئل ﷺ من معك علىٰ هذا الأمر؟ قال ﷺ: «**حرٌّ وعبد**»(١). ما معه إلا اثنان فقط، ثم تتابع المسلمون واحدًا واحدًا وهم علىٰ خوف وامتحان وابتلاء، وتكوَّن معه ﷺ جماعة في مكة، وهم يؤذَون ويبتلَون إلىٰ أن أذن الله لهم بالهجرة إلىٰ المدينة، هذا معنىٰ قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا**» والغريب هو النادر، وهو الإنسان الذي يكون في بلدٍ غير بلده، أو يكون مع أناس ليسوا من جنسه، كما قال ﷺ لابن عمر: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل**»(٢). فالغربة، هي: الشيء النادر، وكذلك الغريب الشيء النادر القليل.

فالإسلام بدأ أول الأمر غريبًا، يعني: قليلًا أهله، ثم تكاثروا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فالزرع أول ما يظهر يكون ضعيفًا قليلًا، ثم ينمو ويصبح له فراخ، والحبة الواحدة يتكون منها عدة قصبات، كقوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ يعني: فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يعني: قواه، فالزرعة إذا فرّخت تقوىٰ، يصبح للنبتة جذع، وغصون، فتقوىٰ، فمن قصبة واحدة أصبحت عدة قصبات متجاورة قوية ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: كان ضعيفًا فقوي ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: ارتفع عليها، والسوق: جمع ساق وهي القصبات.

هذا مثل الصحابة رضي الله عنهم، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ يغيظ بالصحابة الكفار، ومن هنا أخذ بعض العلماء أن من يسب الصحابة يكفر لقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فقالوا: هذا دليل علىٰ أن من أبغض الصحابة وسبَّهم وتنقَّصهم؛ أنه كافر.

نعم بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما نشأ الإسلام كان غريبًا، وفي آخر الزمان يعود غريبًا، ويكون المتمسكون به غرباء، مثلما كانوا في مكة في أول البعثة.

«وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ﴾ الآية»

﴿فَلَوۡلَا﴾ معناه هلَّا، أي: هلا كان من القرون، يعني: من الأمم من قبلكم، لما ذكر سبحانه هلاك الأمم في سورة هود قال: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فما هلكت هذه الأمم إلا لأنها لم يكن فيها من يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ دلَّ هذا علىٰ أن من يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ينجو إذا جاء العذاب.

وأما الذي لا يأمر ولا ينهىٰ فإنه يهلك ولو كان من الصالحين، لكن يبعثه الله يوم القيامة علىٰ نيّته، كما جاء في الحديث[1]، فإذا وقع العذاب لا ينجو إلا الذين يأمرون

---

(١) أخرج أحمد في «مسنده» (٢٦٧٠٢) عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا: «**بدأَ الإسلامُ غريبًا، وسيعودُ كما بدأَ غريبًا، فطُوبَىٰ للغُرباءِ**». رواه مسلم[١].

ورواه أحمدُ، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه، وفيه: «مَن الغُرباءُ؟ قال: **النُّزَّاعُ من القبائِل**»[٢].

وفي رواية: «**الذين يصلُحون إذا فَسَدَ الناسُ**»[٣].

ورواه أحمد، من طريق سعد بن أبي وقاص، وفيه: «**فطُوبَىٰ يومئذٍ للغرباءِ إذا فسدَ الناسُ**»[٤].

وللترمذي[٥]، من حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه: «**فطُوبَىٰ للغرباءِ؛ الذين يُصلِحُون ما أفسدَ الناسُ من سُنَّتِي**» [٧٥].

بالمعروف وينهون عن المنكر، فقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ هؤلاء هم الغرباء، هذا وجه سياق المصنف للآية في غربة الإسلام.

[٧٥] هذا خبر من الرسول ﷺ معناه: التحذير من الضلال، والحث علىٰ التمسك بالإسلام، ولو كان أهله قليلين.

وقوله: «فطوبىٰ للغرباء» هذا ترغيب في أن يكون المسلم مع الغرباء في آخر الزمان، ولا يزهِّده في الإسلام قلةُ أهله.

=

البيت حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم. قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت المُكرَه منهم؟ قال: **يُبعث علىٰ نيته**».

(١) برقم (١٤٥).

(٢) أحمد في «المسند» (٣٧٨٤).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «المسند» (١٦٦٩٠).

(٤) أحمد في «المسند» (١٦٠٤).

(٥) برقم (٢٦٣٠).

....

وطوبىٰ، قيل: هي شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنة نفسها يُقال لها طوبىٰ، وقيل: هي كلمة طيبة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

«ورواه أحمد من حديث ابن مسعود ﵁، وفيه قيل: من الغرباء، قال: «**النُّزاع من القبائل**» النزاع: جمع نزيع، ونازع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته؛ أي: الذين يخرجون عن الأوطان لإقامة سنن الدين، والقليل من الناس من يهجر وطنه وعشيرته من أجل علاء كلمة الحق، ومن أجل نشر دين الله الحق، وهو الإسلام، في أرجاء المعمورة.

وفي رواية: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**» يعني: جاء في وصفهم ثلاثة أوصاف: النزاع من القبائل، يعني: الأفراد الذين يهجرون أوطانهم في سبيل إقامة سنن الدين، وهذا دليل علىٰ أن الإسلام في آخر الزمان سيصير غريبًا.

الوصف الثاني: الذين يصلحون إذا فسد الناس، يصلحون؛ أي: يصبرون علىٰ الدين، ولا ينظرون لفساد الناس، ولا يقولون: نحن مثل الناس، لا نصبح بين الناس منفردين، نتابع الناس، نتابع المجتمع، نتابع البلد ... لا، هؤلاء يصبرون، ولو كانوا قليلين، ولو خالفهم الناس، يصلحون إذا فسد الناس، ولا يَفسدون مع الناس، ولكن كونهم يصلحون بين الناس هذا يحتاج إلىٰ صبر وثبات وثقة ومعرفة.

الوصف الثالث: يصلحون ما أفسد الناس، يعني: يكونون صالحين في أنفسهم، ويصلحون ما أفسد الناس بالدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الخير، يصلحون ما باستطاعتهم، ولا يسكتون.

«ورواه أحمد من طريق سعد بن أبي وقاص، وفيه: «**فطوبىٰ يومئذ للغرباء إذا فسد الناس**» أي: إذا فسد الناس لا يثبت علىٰ الحق إلَّا مَنْ كان عنده إيمان ويقين وقوة وإلا فإنه ينجرف مع الناس، فضعيف الإيمان أو مزعزع الإيمان أو قليل الفقه والعلم ينجرف مع الناس.

وعن أبي أُميَّة، قال: سألتُ أبا ثعلبة الخُشَنيَّ ﷺ: «كيف تقولُ في هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. قال: أما والله، لقد سألتَ عنها خَبيرًا، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ، فقال: **بل ائتمِروا بِالمعروفِ، وتناهَوا عن المنكرِ، حتىٰ إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا وهوًىٰ متَّبعًا ودُنيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسِكَ، ودَعْ عنك العوامَّ، فإنَّ من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبض علىٰ الجَمْرِ، للعامِلِ فيهِنَّ مثلُ أجرِ خمسين رجلًا يعملون مثلَ عملكم**. قيل: منا أو منهم؟ قال: **بل منكم**». رواه أبو داود، والترمذي[1] [٧٦].

«وللترمذيِّ من حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه: **فطُوبىٰ للغرَباء الذين يُصلِحون ما أفسَدَ الناسُ من سُنَّتي**» يصلحون ما أفسد الناس، والله -جلَّ وعلا- يقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. لم يقل صالحون، بل قال: مصلحون، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وينشرون الخير.

أما إذا كانوا صالحين في أنفسهم، وساكتين فإنهم يهلكون مع الهالكين، تعمهم العقوبة في الدنيا؛ لكن يوم القيامة يبعثهم الله علىٰ نيَّاتهم.

[٧٦] هذا حديثٌ عظيمٌ، يفسر قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. لأنه قد يفهم منها بعض الناس أو كثير من الناس أنك إذا كنت صالحًا في نفسك، فلا تأمر بالمعروف، ولا تَنْهَ عن المنكر، فيفهم من الآية أن معناها: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تعتني بنفسك فقط، وهذا خطأ.

ليس هذا هو تفسير الآية، وإنما تفسير الآية هو أنه إذا فسد الناس فلا تفسد أنت، هذا هو المقصود من الآية، ولا تقلِّد الناس.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي (٣٠٥٨).

....

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو باقٍ لا يسقط، قال ﷺ: «**مَن رأىٰ منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»(١). فلابد من إنكار المنكر في كل زمان إلىٰ أن تقوم الساعة.

فليس معنىٰ الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكن معناها: أنك تصلح أنت ولا تنظر إلىٰ فساد الناس، ومع صلاحك تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، ولهذا يقول أبو بكر رضي الله عنه: «إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها علىٰ غير مواضعها، وإنا سمعنا النبي ﷺ، يقول: **إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**»(٢). فليس معناها إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الشر، وإنما معناها: أن علىٰ الإنسان ألَّا ينجرف مع الناس.

وقوله: «**فإن من ورائكم أيامًا، الصبر فيهن مثل القبض علىٰ الجمر**» هذا في آخرِ الزمان عند غربة الإسلام، يحتاج المسلم إلىٰ الصبر؛ وإلَّا فإنه سيلقىٰ من الناس التعب والمشقة؛ لأنه يعيش بين أُناس يخالفونه في كل شيء، فعليه بالصبر وألَّا يزهد بالحق، ولا ينجرف مع الناس، وهذا يحتاج إلىٰ صبر؛ لأنهم سيذمونه ويعيِّرونه، أو ربما يؤذونه ويضربونه أو يهدِّدونه؛ ولكن عليه أن يصبر؛ لأنه علىٰ الحق حتىٰ لو قتلوه؛ لأنه علىٰ حق، فالإمام أحمد رحمه الله، سُحب في الأسواق وضُرب، حتىٰ أغمي عليه وسجن رحمه الله، ولم يعبأ بهذه الأمور.

وقوله: «**للعامِلِ فيهنَّ أجرُ خمسين رجلًا يعملون مِثلَ عملكم**» هذه مسألة مشكلة فالرسول ﷺ قال: إن الذي يتمسَّك بالدين في آخر الزمان عند الفتن له أجر خمسين رجلًا من الصحابة. قالوا: مِنّا أو منهم. قال: «**بل منكم**»، لماذا؟

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٢١٦٨)، وهو في «مسند الإمام أحمد» (١).

وروىٰ ابنُ وضَّاح معناهُ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إنَّ من بعدكم أيامًا للصابر فيها، المُتمسِّكِ بمِثلِ ما أنتم عليه اليومَ؛ أجرُ خمسين منكم».

ثم قال: أنبأنا محمدُ بنُ سعيد: أنبأنا أسدٌ، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد بن أبي الحسن -قال: قلت لسفيان: عن النبيِّ ﷺ؟ قال: نعم-، قال: «إنكم اليومَ علىٰ بيِّنةٍ من ربِّكم تأمرون بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتُجاهِدون في سبيل الله، ولم يظهر فيكم السَّكْرتان: سَكْرة الجهل وسَكْرة حب العيش، وستحولون عن ذلك، فالمتمسِّكُ يومئذٍ بالكتاب والسنة له أجر خمسين. قيل: منهم؟ قال: بل منكم»[1] [٧٧].

لأن الصحابة مع الرسول ﷺ والدين عزيز في ذلك الوقت، والمسلمون كثيرون، أما هذا فهو غريب، ومع هذا تمسك بالدين، ودافع عن الدين مع أنه ليس له أنصار، ولا أعوان، ولذلك حاز علىٰ هذا الأجر، وأصبح في هذه المسألة أفضل من الصحابة، وهي مسألة خاصة.

والصحابة أفضل منه في أمور أخرىٰ في الصحبة والجهاد في سبيل الله مع رسول الله ﷺ، وفي الهجرة، هو أفضل منهم في خصلة واحدة، وهم أفضل منه في خصال كثيرة، فليس معنىٰ هذا أنه يأتي في آخر الزمان من هو أفضل من الصحابة مطلقًا؛ لا بل أفضل من الصحابة في نقطة واحدة فقط، والصحابة عندهم فضائل كثيرة ليست عند هذا، ويقولون: إن الفضيلة الخاصة لا تقضي علىٰ الفضيلة العامة، ينبغي معرفة هذا، فالصحابة لا أحد أفضل منهم أبدًا.

[٧٧] ابن وضاح، هو الإمام الحافظ، محدث الأندلس، محمد بن وضاح بن بزيع، له كتاب اسمه «الحوادث والبدع» مطبوع.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٩) من حديث أنس بن مالك، وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنهما.

....

روىٰ ابن وضاح معنىٰ حديث أبي ثعلبة الخشني، ولكن من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «**إن من بعدكم أيامًا للصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم أجرُ خمسين منكم**».

هذه الأيام التي تشتد فيها غربة الإسلام، وقلة الأنصار والأعوان، وكثرة الأعداء والمخذِّلين والمُرجِفين، كما تعلمون الآن، والله أعلم يأتي زمان أشد من هذا، فالذي يثبت علىٰ دينه، ويثبت علىٰ جهاده ودعوته، فهذا يكون كالقابض علىٰ الجمرة، ومن شدة ما يلقىٰ من الناس يحتاج إلىٰ صبر شديد.

«**إن من بعدكم أيامًا للصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم**»: «**بمثل ما أنتم عليه**» يعني: الصحابة، الذين يثبت علىٰ الدين وعلىٰ طريقة الرسول ﷺ وأصحابه يكون من الفرقة الناجية، هذا معناه؛ لأنه يصبر حينما يتزلزل كثير من الناس، حينما ينجرف كثير من الناس، يصبر هو علىٰ الحق، ويصبر علىٰ مخالفة الناس، ولوم الناس وذمهم؛ بل يصبر علىٰ ما يناله منهم في نفسه، وفي جسمه، فقد يُضرب، وقد يُسجن، وقد يُقتل، يصبر لأنه علىٰ الدين، فما دام علىٰ الدين، وعلىٰ الحق، فلا يهمه ما يصيبه في هذه الدنيا؛ لأنه لحظة وينتهي.

ثم قال: «**أنبأنا محمد بن سعيد: أنبأنا أسد، قال: أنبأنا سفيان بن عُيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد بن أبي الحسن يرفعه، فقال: قلت لسفيان: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم**».

يعني: هل هذا الذي ترويه ورد عن النبي ﷺ قال: نعم، يعني: ليس أثرًا عن غير النبي ﷺ، وإنما هو مرفوع للنبي ﷺ.

والسكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب الحياة، والجهل داء قاتل، وليت الجاهل يسكت علىٰ جهله، ولكنه جاهل يتكلم في أمور الدين ويفتي، هذه المصيبة.

وله بإسنادٍ عن المعافِرِيِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «طُوبىٰ للغُرَباء، الذين يتمسَّكون بكتاب الله حين يُترَك، ويعملون بسُنتي يوم تُترك»[٧٨].

أما الجاهل الذي يعترف بجهله، ويقصر شرَّه عن الناس، هذا أخف من الجاهل الذي يتكلم في أمور الدين، ويحلل ويحرِّم، ويفتي وهو علىٰ جهل، فهذا يحدث في آخر الزمان حينما يقلُّ الفقهاء، ويكثر القراء، ويتخذ الناس رءوسًا جهَّالًا يفتون بغير علم، ويَضلون ويُضلون، هذه سكرة الجهل.

والثانية: حب العيش وحب الدنيا، فإذا أحب الدنيا، نسي الآخرة وصار يعمل للدنيا، فالذي يحب شيئًا يعمل له، فيعمل للدنيا ولا يعمل للآخرة، هذا يصيب كثيرًا من الناس في آخر الزمان، جهل وتعلق بالدنيا ونسيان للآخرة، الآن يقولون: لا تذكروا الجنة والنار في الخطب وتخوفون الناس، هذا إرهاب، وأنتم أُناس متزمتون، عندكم قنوط.

يقولون هذا الآن، لحبهم للدنيا، ولا يريدون ذكر الجنة والنار، والقبر وعذاب القبر، يقولون: أنتم تكدِّرون علىٰ الناس عيشهم ولذتهم، فالناس يريدون أن يسرحوا ويمرحوا، وأنتم تقولون لهم: هناك جنة ونار وعذاب قبر وحساب، يقولون: لا تعرضوا هذا في الخطب، فهذا من الفتن -والعياذ بالله- وهذا ظهر في الناس، وكتبوه في الصحف وقالوه في مجالسهم، وذَمُّوا الخطيب الذي يعظ الناس ويذكِّرهم بالله، ويقولون: هذا تيئيس للناس وتكدير لهم، فسبحان الله.

[٧٨] هذا كما سبق أنه ﷺ سُئل: «من الغرباء؟ قال: **الذين يصلحون إذا فسد الناس**»(١).

وفي رواية: «**يصلحون ما أفسد الناس**»(٢).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده علىٰ «المسند» (١٦٦٩٠) من حديث عبد الرحمن ابن سَنَّة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

....

وهذا الحديث يقول فيه: «**طوبىٰ للغرباء الذين يتمسكون بكتاب الله**» هم يتمسكون بأنفسهم، ويُمسِّكون غيرهم بكتاب الله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعلِّمون دين الله، ويدعون إلىٰ الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. فلا شك أن الذي يثبت علىٰ الدين عند الفتن والشرور وانقلاب الناس ضده، أن هذا يُرجىٰ له خير كثير؛ لكن هذا نادر، فأكثر الناس لا يصبرون، ولو أنهم يحبون الخير لصبروا.

والشيخ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة قيمة في هذا الموضوع، في مسألة الغربة، عنوانها: «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» مطبوعة، شرح فيها حديث: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**».

❊ ❊ ❊

باب التحذير من البدع [٧٩]

[٧٩] **البدع، جمع بدعة، وهي**: ما أُحدث في الدين مما ليس منه، عبادة، أو ذكر أو غير ذلك من أمور الدين، فالدينُ كاملٌ -ولله الحمد-؛ لأنه ما توفي الرسول ﷺ إلا والدين كاملٌ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فلا يحتاج إلىٰ أحدٍ يأتي ويضيف إلىٰ الدين شيئًا جديدًا ولو كانت نيته صالحة، فلا يجوز هذا، فهذا مبتدع، ولو كانت نيته صالحة، فالدين لا يقبل الزيادة والإضافة، لأن الله أكمله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فهذه هي البدعة.

وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[1]. وفي رواية: «**من عَمِلَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[2].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء المهديين الراشدين** -كما يأتي في حديث العرباض بن سارية- **تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ**».

ولما حث علىٰ التمسك بالسنة، نهىٰ عن البدع، فقال: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

وقال ﷺ: «**إن خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها**»[3].

الواجب الاتباع، وترك الإحداث والاستحسانات، والتقليد الأعمىٰ للمبتدعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) (١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) (١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: «وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ مَوْعظةً بليغةً، وَجِلَت منها القلوبُ، وذَرَفَت منها العيونُ، قلنا: يا رسولَ الله، كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: **أُوصيكم بتقوىٰ الله** ﷻ ، **والسمعِ والطاعةِ، وإن تأمَّر عليكُم عبدٌ، فإنه مَن يَعِش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإياكُم ومحدَثات الأمور، فإن كلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بِدعَةٍ ضلالةٌ**»(١).

قال الترمذي: حدِيثٌ حسنٌ صَحِيحٌ[٨٠]

---

[٨٠] أمر الله رسوله ﷺ أن يعظ الناس، فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣]. فاليوم لو أتىٰ أحد ليعظ، يقولون: هذا معقّد متشائم لا يفتح للناس البسمة والسرور والفرح.

فالرسول ﷺ وعظ أصحابه، وفي هذا دليل علىٰ أن العالم يعظ الناس، فقد كان ﷺ يتخوَّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة(٢)، يعني: يعظهم يومًا بعد يوم، لا يداوم علىٰ الوعظ، إنما يتخوَّلهم يومًا بعد يوم أو بعد يومين أو ما شاء الله، لا يداوم علىٰ ذلك، فيملِّل الناس، إنما يتخوَّلهم.

وفي هذا الحديث قال العرباض بن سارية: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون» فهذا رسول الله ﷺ، وهو أعلم الخلق بالله ﷻ وبما يُرضي الله ﷻ ، وبما ينقذ الناس من الشر، هو أعلم الخلق ﷺ، وهو يعظ، وليست موعظة يسيرة؛ ولكنها موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون.

وقد ذكروا أن هذا بعد صلاة الفجر، قالوا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع، فهموا منها أنها وصية من الرسول ﷺ، وأن حياته علىٰ وشك النهاية، كأنها وصية مودِّع.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٥)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢ و٤٣)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

....

ومن عادة المودِّع يعني: الذي يريد أن يسافر أو حضره الموت، أن يوصي أولاده، أو من حوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣]. هذه سُنَّة الأنبياء أنهم يوصون أممهم وذراريهم.

«قال: **أوصيكم بتقوىٰ الله** ﷻ **، والسمع والطاعة**».

أوصيكم بتقوىٰ الله، هذه كلمة جامعة لخصال الخير، يدخل فيها فعل الواجبات، وترك المحرمات؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله، فأتىٰ بكلمة جامعة، ثم فصَّل -عليه الصلاة والسلام-: «**أوصيكم بتقوىٰ الله**» ومِن تقوىٰ الله: السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين؛ لأنه بالسمع والطاعة يحصل لهم اجتماع الكلمة، وقوة الأمة، وتمام الأمر، واندفاع الشرور والفتن، وإقامة الحدود، وإنصاف المظلومين من الظلمة إلىٰ آخر المصالح التي في الولاية.

فهذا فيه وجوب نصب الوالي ووجوب الطاعة -بالسمع والطاعة- إلا إذا أمر بمعصية فلا يطاع في تلك المعصية، قال ﷺ: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق**»(١).

أما ما عدا المعصية فيُطاع فيه، الأعداء الآن يريدون أن يُضعفوا المسلمين، وألَّا تبقىٰ لهم ولاية، ولا يبقىٰ سمع ولا طاعة، وإنما يعطون الناس الحرية بما يريدون من الشرور والشهوات وأن ينحلَّ الأمر.

فالإسلام لا يصلح إلا بجماعة، والجماعة لا تقوم إلا بالولاية، والولاية لا تقوم إلا بالسمع والطاعة، لابد من هذا، فالأعداء يريدون ألَّا يبقىٰ للمسلمين جماعة، ولا إمامة حتىٰ يسهل انقيادهم للأعداء.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٨٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

....

قال: «**والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد**» يعني: ولي الأمر يطاع لمنصبه، ولمكانته، ولا ينظر إلىٰ شخصه وهيئته وإنما ينظر إلىٰ منصبه العظيم الذي يتولَّاه، لا ينظر إلىٰ أبَّهته وإلىٰ جماله، هذا من باب الحث والتأكيد، فليست المسألة مسألة منظر أو أُبَّهة: المسألة مسألة منصب ومقام، فلا يطاع لأجل رغبته هو أو منفعته هو، وإنما يُطاع لمنفعة المسلمين، ومصلحة المسلمين.

«**فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**».

هذا خبر معناه التحذير، فإن من طالت حياته فسيرىٰ اختلافًا، هذا في عصر الصحابة، فكيف بعد تطاول الزمن، فإنه يكثر الاختلاف والفرق والأحزاب.

فالواجب عند ذلك التمسك بسنة الرسولﷺ فالعصمة من الاختلاف، والعصمة من الخطر هو التمسك بسنة الرسولﷺ، ولو كلَّفك هذا ثمنًا باهظًا فاصبر.

والمراد بـ: «**سنتي**» طريقتهﷺ.

«**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ**».

والخلفاء الراشدون: هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون؛ لأن عملهم توطيد لسنة الرسولﷺ وتثبيت لها.

وقوله: «**عضوا عليها بالنواجذ**» هذا من شدة الحرص، شبه الواقع في الفتن، كالواقع في اللُّجة لا ينجو منها إلَّا بحبل يعتصم به، ويمسك الحبل، فلو أن الحبل انفلت منه غرق، فهو من حرصه علىٰ الحبل يعض عليه بأضراسه، لا يكتفي بإمساكه بيديه، بل يعض عليه بأضراسه، هذا من شدة الخطر، وشدة الحرص علىٰ النجاة.

«**وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

«**وإياكم ومحدثات الأمور**» فما خالف سنة الرسولﷺ وسنة الخلفاء، فإنه من محدثات الأمور، حذَّر منه الرسولﷺ، وإن كان أصحابه يحسِّنونه، ويقولون: هذا طاعة

وعن حُذيفة رضي الله عنه **قال:** «كلُّ عبادة لا يتعبَّدُها أصحابُ محمدﷺ، فلا تعبَّدوها، فإن الأولَ لم يَدَعْ للآخِر مقالًا، فاتقوا الله يا معشر القُرَّاء، وخذوا طريق من كان قبلكم». رواه أبو داود [٨١].

لله، وتقرب إليه، فإنه لا ينفع، ولا تتقرب إلىٰ الله إلا بما شرع، أتتقرب إلىٰ الله بشيء لم يشرعه؟

هذا بدعة لا تتقرب إلىٰ الله إلا بما شرع، فالعمل له شرطان:

الأول: الإخلاص لله.

والثاني: العمل بالسنة وتجنب البدع، فإن كان العمل فيه شركٌ فلا يُقبل، وإن كان مبتدعًا لا يُقبل أيضًا.

«**فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» هذا فيه ردٌّ علىٰ من يقسمون البدعة إلىٰ بدعة حسنة، وبدعة سيئة، قالوا: إن الرسولﷺ، قال: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة**»(١).

نقول: لم يقلﷺ: من ابتدع في الإسلام بدعة حسنه، حتىٰ تقولوا هناك بدعة حسنة، ومعنىٰ سنَّ في الإسلام سنة حسنة؛ أي: عمل بالسنة عند ترك الناس لها؛ لأن سبب الحديث في الذي بادر بالصدقة فاقتدىٰ به الناس، وقدموا صدقاتهم، والصدقة سنة وليست بدعة.

فيقتدون به إذا عمل بالسنة، وله أجرها وأجر من عمل بها، وهذا فيه الدعوة إلىٰ السنة إذا تركها الناس.

[٨١] الأصل سنة الرسول ﷺ، ومن هم أعرف الناس بسنة الرسول؟ هم صحابته، وهم الذين يبينون سنة الرسولﷺ، يروونها ويعملون بها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

وقال الدارمي[1]: أخبرني الحكمُ بنُ المبارك: أنبأنا عمرو بن يحيىٰ، قال: سمعتُ أبي يُحدث عن أبيه قال: «كنَّا نجلس علىٰ باب عبد الله بن مسعود ﷺ قبل صلاة الغَداة، فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجد، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعري ﷺ، فقال: أَخرجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتىٰ خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا.

فقال له أبو موسىٰ: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت آنفًا في المسجد أمرًا أنكرتُه، ولم أرَ -والحمد لله- إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيت في

فالأخذ بما يعمل به الصحابة، أخذٌ بسنة الرسول ﷺ؛ لأنهم أقرب الناس إلىٰ الرسول ﷺ، وهم تلاميذه وتعلَّموا منه، وهم يحبون سنته عليه السلام، والله -جلَّ وعلا- أمر بذلك بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾. يعني: بإتقان، من غير إفراط ولا تفريط ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. الصحابة رضي الله عنهم إجماعهم حجة، فإذا عملوا عملًا، فهو من سُنة الرسول ﷺ، وأما من جاء بعدهم فإنه يخطئ ويصيب.

«**فاتقوا الله، يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم**» ا معشر القراء، يريد العلماء؛ لأنه في ذلك الوقت القراء هم: العلماء، وليس المراد مجرد من يحفظون القرآن بالتجويد، لا، فالمراد بالقراء في الزمان الأول: العلماء؛ لأنهم ما كانوا يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يتعلموا معانيهن ويعملوا بهن، لم يكونوا يحفظون فقط.

أما القرَّاء الذين في آخر الزمان فأولئك ليسوا فقهاء، مجرد قراء يقرءون القرآن؛ ولكن لا يتفقهونه، ويقرءون في الأحاديث، ولا يتفقهون فيها، أو يفسرونها بفهمهم القاصر أو بأهوائهم الضالة.

---

(١) في «سننه» (٢١٠).

المسجد، قومًا حِلقًا جلوسًا، ينتظرون الصلاة في كل حلقةٍ رجل، وفي أيديهم حصًىٰ فيقول: كبروا مائة، يكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا؛ انتظارَ أمرك أو انتظارَ رأيك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيئاتهم، وضمنت لهم ألَّا يضيع من حسناتهم شيء؟

ثم مضىٰ، ومضينا معه، حتىٰ أتىٰ حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم؛ فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًىٰ نعد به التكبير، والتهليل، والتسبيح. قال: فعدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحَكم يا أمة محمد، ما أسرع هَلَكَتكُم! هؤلاء صحابة نبيكمﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبْلَ، وآنيتُه لم تُكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلىٰ ملَّة هي أهدىٰ من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة!

قالوا: والله، يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول اللهﷺ، حدثنا: **أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم**. وايم الله، ما أدري لعلَّ أكثرهم منكم، ثم تولَّىٰ عنهم.

فقال عمرو بن سَلمة ﵁: رأينا عامَّة أولئك الخلق يطاعنونا يوم النَّهروان مع الخوارج [٨٢].

---

[٨٢] هذه قصةٌ عظيمةٌ، وعجيبةٌ، حصلت من ابن مسعود﵁، تدل علىٰ فقهه وقوته في الحق.

وهذا فيه تقدير السلف لأهل العلم، كانوا يحرصون علىٰ أخذ العلم عنهم، والمشي معهم، ومجالستهم خلافًا للذين يقولون الآن: العلماء متحجِّرون، والعلماء نفعيون، والعلماء أصحاب وظائف، ويحذرون من العلماء.

قال: «فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجد، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعري﵁ ».

....

ابن مسعود كان مفتيًا في الكوفة، ومعلمًا، وأبو موسىٰ كان أميرًا علىٰ الكوفة، فهما صحابيان جليلان أحدهما كان أميرًا والآخر كان مفتيًا ومعلمًا.

«فقال: أخرجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتىٰ خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسىٰ: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت آنفًا في المسجد أمرًا أنكرتُه، ولم أرَ -والحمد لله- إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيت في المسجد، قومًا حِلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقةٍ رجل وفي أيديهم حصًىٰ فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا؛ انتظارَ أمرك أو انتظار رأيك».

أصل التسبيح والتهليل والتكبير مشروع؛ لكن جعله علىٰ هذه الصفة، يتحلقون حلقًا، ومعهم رجل، ومعهم حصىٰ، يقول لهم: كبروا مائة فيكبرون، ويعدِّدون مائة بالحصىٰ، ثم يقول: هلِّلوا مائة، فيهللون بالحصىٰ، إلىٰ آخره.

هذه الصورة فيها بدعة، أما التسبيح والتهليل والتكبير فهذا مشروع، أما هذه الصورة فهي بدعة، ما أمر بها رسول الله ﷺ، ولا فعلها، وهذه تئول إلىٰ شر كما يأتي في آخر القصة.

«قال: أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيئاتهم، وضمنت لهم ألَّا يضيع من حسناتهم شيء».

يقول: عليك أن تعد سيئاتك، وتتوب منها، أما الحسنات فاعملها ولا تعدها، تقول: أنا سبحت مائة وألفًا أو عشرين ألفًا، وما أشبه ذلك، هذا من الرياء، وهذا بدعة.

«ثم مضىٰ، ومضينا معه، حتىٰ أتىٰ حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم. فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًىٰ نعد به التكبير، والتهليل، والتسبيح. قال: فعدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحَكم يا أمة محمد، ما أسرع هَلَكَتَكُم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه

....

لم تُبْلَ، وآنيتُه لم تُكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلىٰ ملَّة هي أهدىٰ من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة؟! قالوا: والله، يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير».

فمجرد النية وإرادة الخير لا تُسَوِّغ البدعة، فالبدعة بدعة، وهي شرٌّ وإن كانت نية صاحبها حسنة، وقصده حسنًا.

قال: «وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ، حدثنا: **أن قومًا يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم**».

أتىٰ بحديث الخوارج الذين يغلون في الدين، ويعملون من غير دليل وفقه، وإنما يقرءون القرآن من غير فهم له، ويجتهدون من عند أنفسهم، وبآرائهم من غير أن يتفقهوا في دين الله، هذه طريقة الخوارج، فتوقع رضي الله عنه أنهم سيكونون من الخوارج؛ لأن البدعة تجر إلىٰ الشر، وأما السنة فتجر إلىٰ الخير.

«وايمُ الله، ما أدري لعلَّ أكثرهم منكم، ثم تولَّىٰ عنهم. فقال عمرو بن سَلمة رضي الله عنه: رأينا عامَّة أولئك الخلق يطاعنونا يوم النَّهروان مع الخوارج».

كما توقع ابن مسعود رضي الله عنه رآهم مع الخوارج، يقتلون المسلمين في النهروان، والنهروان موقعة جرت بين علي رضي الله عنه والخوارج، فنصر الله أمير المؤمنين عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكانت وقعة النهروان في العراق، فهؤلاء الذين أخذوا هذه البدعة جرَّتهم إلىٰ الخوارج وصاروا معهم، وقُتلوا معهم -والعياذ بالله-.

فهذا فيه التحذير من البدع، وأنها تجر إلىٰ شر، ولو كانت نية أصحابها حسنة، أو مقاصدهم طيبة؛ لأنه ليس المدار علىٰ النية والقصد، وإنما المدار علىٰ الدليل من كتاب الله، أو من سنة الرسول ﷺ، فالدين كامل -ولله الحمد- ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]. فما لم يأمر به الرسول ﷺ، ولم يفعله، ولم يقر أحدًا عليه، فإنه ليس من الدين، وإنما هو من البدع.

والله المستعان، وعليه التكلان.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.[٨٣].

---

[٨٣] ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب بهذا الدعاء، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمد.

❀❀❀

فهرس الموضوعات